
التأويلات النجمية
في التفسير الإشاري الصوفي
تأليف
الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد
نجم الدين الكبرى المتوفى ٦١٨ هـ
ويليه تتمة عين الحياة
تأليف
علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني المتوفى ٧٣٦ هـ
تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة
الشيخ أحمد فريد المزيدي
DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

التأويلات النجمية

في التفسير الإشاري الصوفي

تأليف

الشيخ الإمام أحمد بن عمر بن محمد

نجم الدين الكبرى

المتوفى ٦١٨هـ

ويليه تتمته

عين الحياة

تأليف

علاء الدولة أحمد بن محمد السمناني

المتوفى ٧٣٦هـ

تحقيق وتخريج وتعليق ودراسة

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

المحتوى:

سورة الفاتحة - سورة البقرة



http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Title : AL-TA'WĪLĀT AL-NAJMIYYAH
Followed by: 'AYN AL-HAYĀT

Classification: Exegesis of the Qur'an
Author : Najmuddin al-Kubrā
and 'Alā'uddawlah al-Simnāni
Editor : Ahmad Farid al-Mizyadi
Publisher : Dar Al-Kotob Al-ilmiayh
Pages : 2464 (6 volumes)
Size : 17*24
Year : 2009
Printed in : Lebanon
Edition : 1st

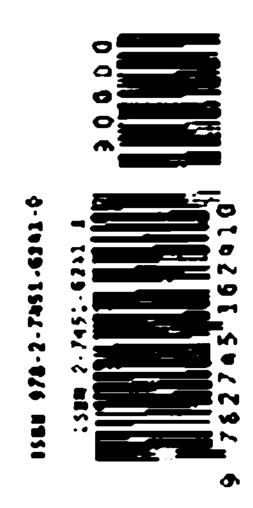
الكتاب : **التأويلات النجمية**
ويليه تتمته : عين الحياة

التصنيف : تفسير قرآن
المؤلف : نجم الدين الكبرى
وعلاء الدولة السمناني
المحقق : أحمد فريد المزيدي
الناشر : دار الكتب العلميـــة - بيروت
عدد الصفحات : 2464 (6 أجزاء)
قياس الصفحات: 24*17
سنة الطباعة : 2009
بلد الطباعة : لبنـــان
الطبعة : الأولى



Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon.
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون-القبة-مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠





مقدمة

الحمد لله الذي كان في أزل الآزال، موجودًا بوجوده، وذاته كنوز صفاته، وصفاته معادن جوده ، تقدَّست ذاته بذاته عن الأضداد، وتنزَّهت صفاته بصفاته عن الأنداد، قدمه متعالٍ عن الكون والفساد، وأزله مسرمد إلى أبد الآباد، تفرَّد بوحدانيته عن الأماكن والأكوان، وتوحد بجلاله عن المشابهة بالحدثان، علم في القدم ما يبيِّن بإرادته من العدم، وأجرى بمقاديره القلم، ورقَّم على اللوح المحفوظ ما قضى وقسم، لم يزل متكلِّمًا بكلامه القديم، وعالمًا بعلمه الأزلي الكريم، فأوجد جوهر البسيط بقوته القدمية، وكلماته الأزلية في فضاء القدرة، وأبدع منه فطرة الخليقة، وأخرج من أديان القدر المقدورات بصنع الألوهية، ولباس العبودية، واصطفى من تلك الجوهرة، وطبيعة الأولية فطرة آدم عليه السلام على جميع العالم، وعلَّمه الأسماء كلَّها، وجعله من جميع البريّة أصلها، وأخرج من عنصر الأرواح والأشباح، واختار منها صفوة الأنبياء والرسل والأولياء بالرسالة والولاية، وخاطبهم بخطابه الأزلي، وكلامه الأبدي؛ ليدعو به عباده إلى خدمته، وشوَّقهم إلى مشاهدته، واجتبى من بينهم في الأزل روح المصطفى ﷺ بأفضل الدرجات، وأكرم المداناة، واصطفاه المقام المحمود، وكمال الكرم والجود، وخاطبه بأشرف كلامه، وأكرم فرقانه وقرآنه، الذي فيه بيان مكنون أسرار ذاته، وألوان صفاته، وعجائب علومه الغيبية، وغرائب آياته الأزلية، وأرسله إلى كافة البريّة؛ ليهديهم به إلى الحقّ والحقيقة.

ثم أعطى أزمّته الظاهرة إلى يد أهل الظاهر من العلماء والحكماء؛ حتى شرعوا في أحكامها وحدودها ورسومها وشرائعها، وجعل خالصة أهل صفوته غيبة أسرار خطابه، ولطائف مكنون آياته، وتجلّى من كلامه، بنعت الكشف والعيان والبيان لقلوبهم وأرواحهم وعقولهم وأسرارهم، وأعلمهم علوم حقائقه، ونوادر دقائقه، وصفَّى دروج عقولهم بكشوف أنوار جماله، وقدَّس فهومهم لسناء جلاله، وجعلها مواضع ودائع خفي

رموز خطابه، وما أودع كتابه من غوامض أسراره، ولطيف إشاراته من علوم المتشابهات ومشكلات الآيات، وعرَّفهم معاني ما أخفاه في القرآن بنفسه حتى عرفوا بتعريفه إياهم، وكحَّلهم بنور قربه ووصاله، وأطلعهم على غيبيات عرائس الحكم والمعارف والكواشف، ومعاني فهم الفهم، وسر السر الذي ظاهره في القرآن حكم، وفي باطنه إشارةٌ وكشفٌ، الذي استأثره الحقّ لأصفيائه، وأكابر أوليائه، وغرباء أحبائه من الصدِّيقين والمقرَّبين، وستر هذه الأسرار والعجائب على غيرهم من علماء الظاهر، وأهل الرسوم الذين هم في حظٍّ وافرٍ من الناسخ والمنسوخ والفقه والعلم، ومعرفة الحلال والحرام، والحدود والأحكام.

وتلك الصفوة الصادقة الذين فتح الله على قلوبهم من لطائف دقائق كتابه، وما كتم على أسرار غيرهم من سنيِّ فضائل مكاشفاته، نطقوا على حسب مقاماتهم بين يدي جبروته، وقدَّر سيرانهم في ميادين ملكوته بإشارات شافية، وعبارات كافية من قلوب صافية، وعقول راسخة، وأرواح عاشقة، وأسرار مقدسة، وهم في إدراك إشارات القرآن بالتفاوت، كتفاوتهم في درجات المعاينات، والمكاشفات، والحالات، والمداناة، ورؤية المغيَّبات، وما لاح لأسرارهم من أنوار الأزليات والأبديات، وما بلغوا فيها نطقوا، وأخبروا قعر بحار القرآن؛ لأنه صفات الرحمن، ولا يدرك جميع حقائقه أهل الحدثان.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ ﷺ السفير الأعلى، وسيد أهل الآخرة والأولى، وشفيع الورى الذي سافر بيداء الآزال والآباد، ودنا من القدم حتى لم يبق بينه وبين الحق؛ إلا قاب قوسين أو أدنى، عليه التحية الأسنى والبركات الأنمى، وعلى آله نجوم الهدى، وأصحابه مصابيح الدُّجى.

وبعد .. فهذا كتابٌ عظيم نافع، أصل من أهم أصول التفسير الإشاري عند السادة الصوفية، وقد عزمنا تحقيقه من سنوات، وقد آثرت تحقيق كتاب شيخه سيدي روزبهان البقلي «عرائس البيان في حقائق القرآن»، حتى يكمل كلا منهما الآخر، فتصير كوكبة نورانية عالية مدوية في الآفاق أشعتها المفاضة من الحضرة الإلهامية، فسارعت إلى تحقيقه لأول مرة لعالم الطلاعة لينتفع به طلاب الحقائق، وباحثي الدقائق، المتهلين من البحور الرقائق، فيحصل لهم الأُنس بهذا المعاني الشريفة الواردة في هذا الكتاب المسمى بـ«التأويلات النجمية».

ومن المعلوم أن الشيخ المصنف لم يتمه حيث وافته منية الاستشهاد، لقدر من الله

وميعاد، فأتمه العلاء السمناني، فبدأ بسورة الفاتحة تبركًا، ثم لسورة الطور ثم لآخر الكتاب العزيز.

وقد كُتب بهامش المخطوط أن الشيخ توقف كتابه عند تفسير الآية رقم (19) من سورة الذاريات، وإن كانت الآيات بعدها، حتى آخر سورة الطور موجودة مفسرة أيضًا، وبأسلوب الشيخ، فالله أعلم بالصواب.

وإن كتاب التأويلات من الكتب التي أكثر المفسرون النقل عنها كالشيخ البرسوي- إسماعيل حقي- في روح البيان، وكذلك الشيخ محمود الألوسي في روح المعاني، والشيخ النيسابوري في غرائب القرآن، وغيرهم.

وكتاب السمناني المسمى بـ«عين الحياة» تتمة التأويلات، لم نر من نقل عنه من المفسرين، وهذا مما أجهدنا كثيرًا في تحقيق وضبط ألفاظه التي رأينا الغالب عليها المنهج الفلسفي الأخلاقي، وهو جهد طيب من العلامة السمناني.

هذا وقد قمنا بالنسخ والضبط وحل الإشكالات، والتصحيح العلمي، والعزو للآيات، وتخريج الأحاديث، والتعليق من كتب التفاسير الصوفية الأمهات، خاصة تفسير شيخ المصنف- روزبهان البقلي الشيرازي المصري والورتجبي- والقشيري، والتستري، والنيسابوري، والسلمي، وكذلك الشيخ الألوسي، والحرالي، والبرسوي حقي، سيدي محمد بن البيطار، وغيرهم، وبعضًا مما فتح الله به الفقير الحقير محقق هذا الكتاب، مما علق به في هامشه ملتمسًا الرضا من ذوي الفضل والجناب.

ولعل هذه الإشارات المأخوذة من أصحاب المؤلفات المذكورة تكون مما يفيد الكتاب، ويكسبه نفعًا وزيادة نور ومددًا، حيث اجتماع المشارب والأذواق، وفيض الراح الراق، فيشهد القارئ شهود العارفين ويحصل له صعود منارات السائرين في تذوق إشارات الكُمَّل الواصلين، ألحقنا الله بهم في الدين والدنيا وحشرنا معهم بصحبة سيد العالمين - صلى الله عليه وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ هادي العباد، ولباب اللباب، وموصل الألباب لحضرة القدوس الوهاب.

كتبه/ أبو الحسن والحسين: أحمد فريد المزيدي

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه

قال الذهبي في التفسير والمفسرون (4/ 333):

يقع هذا التفسير فى خمس مجلدات كبار، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب، وهي التي رجعنا إليها، ينتهي بالمجلد الرابع ..... وهذا هو نهاية ما وصل إليه الشيخ نجم الدين كبرى فى تفسيره.

أما المجلد الخامس، فهو تكملة لهذا التفسير، كتبه علاء الدولة وجعله تتمة لكتاب الشيخ نجم الدين كبرى، وقد قدَّم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا مَن يعرف لغة القوم واصطلاحاتهم، ولهذا يقول فيها: «.. ولا يؤمن أحد بالذى قلته إلا بعد السلوك، ومشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان..» ثم بعد أن فرغ من المقدمة، فسَّر الفاتحة على طريقة القوم، مع أن الشيخ نجم الدين فسَّرها أول الكتاب. ثم بعد ذلك ابتدأ بسورة الطور، وانتهى عند آخر القرآن، ويُلاحَظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات، التى مات الشيخ نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها.

والذى يقرأ فى هذا التفسير، ويقارن بين ما كتبه الشيخ نجم الدين كبرى، وبين ما كتبه السمنانى، يلحظ أن هناك فرقًا بين التفسيرين، ذلك أن الجانب الذى كتبه الشيخ نجم الدين يتعرض فيه أحيانًا للتفسير الظاهر، ثم يعقبه بالتفسير الإشارى قائلاً: والإشارة فيه إلى كذا وكذا، وما يذكره من التفسير الإشارى سهل المأخذ؛ لأنه لا يقوم على قواعد من الفلسفة الصوفية، كما أنه يربط بين الآيات.

أما الجانب الذى كتبه السمنانى فلا يعرج فيه على المعانى الظاهرة، كما أنه ليس فيه السهولة التى فى الجانب الذى كتبه الشيخ نجم الدين، بل هو تفسير معقد مغلق، والسر فى ذلك: أنه بناه على قواعد فلسفية صوفية، هذه القواعد ذكرها فى مقدمة التكملة، وهى يطول ذكرها، ويصعب فهمها، ويكفى أن أشير هنا إلى بعض منها.

فمثلاً نراه يقرر فى هذه المقدمة: أن كل آية لها سبعة أبطن، كل بطن يخالف الآخر، ثم يوضح لنا هذه البطون السبعة: فبطن مخصوص بالطبقة القالبية، وبطن مخصوص باللطيفة النفسية، وبطن مخصوص باللطيفة القلبية، وبطن مخصوص باللطيفة السرية، وبطن مخصوص باللطيفة الروحية، وبطن مخصوص باللطيفة الخفية، وبطن مخصوص باللطيفة الحقية، ولتوضيح ذلك فسَّر لنا قوله تعالى فى الآية [43] من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ ... الآية، على هذه البطون السبعة سبع

تفسيرات، كل يخالف الآخر، ثم هو لم يقف عند هذا الحد، بل تعدَّاه إلى القول بأن لكل آية سبعين بطنًا بل سبعمائة، ووضَّح ذلك بكلام يطول ذكره.

وعلى الجملة .. فهذا التفسير المعروف بـ«التأويلات النجمية» يُعَد من أهم كتب التفسير الإشاري، وهو أقرب إلى الفهم من غيره لولا هذه التكملة.

وإليك نماذج منه، بعضها للشيخ نجم الدين وبعضها لعلاء الدولة، لتعرف الفرق بين التفسيرين وتلمس اختلاف المشربين:

* من تأويلات الشيخ نجم الدين:

في سورة البقرة عند قوله تعالى في الآية [249]: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ .. يقول: والإشارى فيها: أن الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا، وماء زينتها، وما زَيَّن للخلق فيها، لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ ..الآية، ليُظهر المحسن من المسيء، وليُميز الخبيث من الطيب، والمقبول من المردود، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.. ثم امتحنهم، وقال تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يعني: من أوليائه، ومحبى وطلابى، وله اختصاص بقربى، وقبولى، والتخلق بأخلاقى، ونيل الكرامة منى، كان النبى ﷺ يقول: «أنا من الله، والمؤمنون منى»، ﴿إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾: يعنى: مَن قنع من متاع الدنيا على ما لا بد منه: من المأكول، والمشروب، والملبوس، والمسكن، وصحبة الخلق، على حد الاضطرار بمقدار القوام، كما كان النبى ﷺ وأصحابه. وكان يقول: «اللَّهم ارزق آل محمد قوتًا»- أي ما يمسك رمقهم.

وفي سورة التوبة عند قوله تعالى في الآية [123]: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ .. يقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ أي صدَّقوا محمدًا ﷺ فيما دلَّهم إلى الله بإذنه، ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ أي: جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة هواها صفاتها، وتبديلها وحملها على طاعة الله، والمجاهدة في سبيله، فإنها تحجبك عن الله، ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي: عزيمة صادقة في فنائها بترك شهواتها ولذَّاتها ومستحسناتها، ومنازعتها في هواها، وحملها على المتابعة في طلب الحق، ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بجذبة الوصول، ليتقوا به عما

سواه، كما يتقى المرء بترسه عن النشاب، والرمح والسيف.

وفى سورة يوسف عند قوله تعالى فى الآيتين [30، 31]: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ .. يقول: «يشير بالنسوة إلى صفات البشرية النفسانية من البهيمية، والسبعية، والشيطانية فى مدينة الجسد، ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ﴾ وهى الدنيا، ﴿تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ تطالب عبدها وهو القلب، كان عبدًا فى البداية لحاجته إليها للتربية، فلما كمل القلب وصفًا عن دنس البشرية استأهل المنظر الإلهى، فتجلى له الرب تبارك وتعالى فتنوّر القلب بنور جماله وجلاله، فاحتاج إليه كل شيء، وسجد له حتى الدنيا، ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: أحبته الدنيا غاية الحب، لما ترى عليه آثار جمال الحق، ولما لم يكن لنسوة صفات البشرية اطلاع على جمال يوسف القلب، كن يلمن الدنيا على محبته، فقلن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ .. ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ﴾ زليخا الدنيا ﴿بِمَكْرِهِنَّ﴾ فى ملامتها، ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ أي: الصفات، ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أي: هيأت طعمة مناسبة لكل صفة منها، ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ وهو سكين الذكر، ﴿وَقَالَتِ﴾ زليخا الدنيا ليوسف القلب، ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ وهو إشارة إلى غلبة أحوال القلب على صفات البشرية، ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ﴾ أي: وقعت على جماله وكماله، ﴿أَكْبَرْنَهُ﴾ أكبرن جماله أن يكون جمال بَشر، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾ أي: جمال بشر، ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ ما هذا إلا جمال ملك كريم، وهو الله تعالى بقراءة من قرأ مَلِك - بكسر اللام.

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآيتين [17، 18] ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ .. يقول: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: صفته الشيطانية، ﴿وَالْإِنسِ﴾ أي: صفته النفسانية، ﴿وَالطَّيْرِ﴾، أي: صفته المالكية، ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ عن طبيعتهم بالشريعة. ليسخّروا لسليمان القلب وينقادوا له، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ وهو هوى النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها، ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ وهى النفس اللّوامة، ﴿يَا أَيُّهَا النَّمْلُ﴾ أي: الصفات

النفسانية، ﴿ادْخُلُواْ مَسَاكِنَكُمْ﴾ محالكم المختلفة وهى الحواس الخمس، ﴿لاَ يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، ﴿سُلَيْمَانُ﴾ القلب، ﴿وَجُنُودُهُ﴾ المسخرة له، ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ لأنهم الحق، وأنتم الباطل، فإذا جاء الحق زهق الباطل، كما أن الشمس إذا طلعت تبطل الظلمة وتنفيها، وهى لا تشعر بحال الظلمة وما أصابها.

- من تأويلات السمنانى:

وتأويلاته الغالب عليها الناحية الفلسفية أكثر منها صوفية متحققة كالشيخ نجم الدين، وشتان بينهما في سوغ المشرب، فالنجم مشربه وهبي خالص، والعلاء كسبي اجتهادي عقلي أكثر منه وهبي اجتهادي رَوعي.

فى سورة التحريم عند قوله تعالى فى الآية [11]: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .. يقول: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ﴾ يعنى: القوى المؤمنة من قوى النفس اللوَّامة، ﴿امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ يعنى: القوة الصالحة القابلة تحت القوة الفاسدة الفاعلة المستكبرة، ما ضرَّها كفر القوة الفاعلة الفاسدة إذا كانت صالحة هى بنفسها، ﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعنى: إذ قالت اللطيفة الصالحة القابلة فى مناجاتها مع ربها: ابن لى بيتًا فى أخص أطوار القلب، وقالت أيضًا فى مناجاتها: نجنى من هذه القوة الفاسدة والفاعلة وعملها. ونجنى من أهوائها وقواها الظالمة....

وفى سورة الشمس عند قوله تعالى فى الآيات [11] وما بعدها: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ ... (إلى آخر السورة).

يقول: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ يعنى: إذ انبعثت اللطيفة، وأسرعت إلى الطاغية انبعث أشقى قوى النفس على إثر اللطيفة الصالحة، ليعقر ناقة شوقها، ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ﴾ أي: اللطيفة، ﴿نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا﴾ أي: احذروا عقر ناقة الشوق وشربها من عين الذكر، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، وعقروا ناقة الشوق، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ﴾، أي: أهلكهم الله، ﴿فَسَوَّاهَا﴾ أي: عمَّهم بذلك العذاب، ﴿وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ ولا يخاف القوى العاقرة فى عقر ناقة الشوق عاقبة الأمر، فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم إياه.

مقدمة في بيان شرعية التفسير الإشاري

للعلماء والعارفين بالله

والفرق بينه وبين مذهب الباطنية الضال

في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل، لعلك تقول: عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن، وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه فكيف يستحب ذلك وقد قال ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»؟ وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المقصرين المنسوبين إلى التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر، فإن صح ما قاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار» ؟ فاعلم أن من زعم أن لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه، ولكنه مخطيء في الحكم برد الخلق كافة إلى درجته التي هي حده ومحطه، بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعًا لأرباب الفهم قال علي ﷺ: «إلا أن يؤتي الله عبدًا فهمًا في القرآن». فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم؟ وقال ﷺ: «إن للقرآن ظهرًا وبطنًا وحدًا ومطلعًا»، ويروى أيضًا عن ابن مسعود موقوفًا عليه وهو من علماء التفسير.

فما معنى الظهر والبطن والحد والمطلع؟.

وقال علي كرم الله وجهه: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيرًا من تفسير فاتحة الكتاب». فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاقتصار؟.

وقال أبو الدرداء: «لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهًا».

وقد قال بعض العلماء: «لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر». وقال آخرون: «القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع». وترديد رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة» لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا

فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير، وقال ابن مسعود ﷺ: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن». وذلك لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر، وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله ﷻ وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته.

وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، ومجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك، بل كل ما أشكل فيه على النظار، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها، فكيف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره؟ ولذلك قال ﷺ: «اقرءوا القرآن والتمسوا غرائبه».

وقال ﷺ في حديث علي كرم الله وجهه: «والذي بعثني بالحق نبيًا ليفترقن أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنتين وسبعين فرقة كلها ضالة ومضلة يدعون إلى النار، فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله ﷻ، فإن فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ ما يأتي بعدكم وحكم ما بينكم، من خالفه من الجبابرة قصمه الله ﷻ ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله ﷻ وهو حبل الله المتين ونوره المبين وشفاؤه النافع، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلقه كثرة الترديد» الحديث.

وفي حديث حذيفة: «لما أخبره رسول الله ﷺ بالاختلاف والفرقة بعده، قال: فقلت يا رسول الله: فماذا تأمرني إن أدركت ذلك؟ فقال: «تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك، قال: فأعدت عليه ذلك ثلاثاً، فقال ﷺ ثلاثاً: تعلم كتاب الله ﷻ واعمل بما فيه ففيه النجاة».

وقال علي كرم الله وجهه: «من فهم القرآن فسر به جمل العلم»، أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها.

وقال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة:269] يعني الفهم في القرآن.

وقال ﷻ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ [الأنبياء:79] سمي ما آتاهما علمًا وحكمًا وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدمًا على الحكم والعلم، فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه، فأما قوله ﷺ: «من فسر القرآن برأيه»

ونهيه عنه ﷺ، وقول أبي بكر ﵁: أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي؟ إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم، أو المراد به أمراً آخر، وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه:

أحدها: أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله ﷺ ومسنداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا في بعض القرآن، فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل، ويقال: هو تفسير بالرأي؛ لأنهم لم يسمعوه من رسول الله ﷺ وكذا غيرهم من الصحابة ﵃.

والثاني: أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، وسماع جميعها من رسول الله ﷺ محال، ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه، حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقيل: إن ﴿الر﴾ هي حروف من الرحمن، وقيل إن الألف الله، واللام لطيف، والراء رحيم، وقيل غير ذلك، والجمع بين الكل غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعاً؟.

والثالث: أنه ﷺ دعا لابن عباس ﵁ وقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ومحفوظاً مثله فما معنى تخصيصه بذلك؟.

والرابع: أنه قال ﷻ ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83]، فأثبت لأهل العلم استنباطاً ومعلوم أنه وراء السماع.

وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال فبطل أن يشترط السماع في التأويل، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله.

وأما النهي فإنه ينزل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه، ولو لم يكن له ذلك الرأي والهوى لكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى.

وهذا تارة: يكون مع العلم كالذي يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه.

وتارة: يكون مع الجهل، ولكن إذا كانت الآية محتملة فيميل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه، فيكون قد فسَّر برأيه ـ أي رأيه ـ هو الذي حمله على ذلك التفسير، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه.

وتارة: قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلاً من القرآن ويستدل عليه مما يعلم أنه ما أريد به كمن يدعو إلى الاستغفار بالأسحار؛ فيستدل بقوله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة» ويزعم أن المراد به التسحر بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل، وكالذي يدعو إلى مجاهدة القلب القاسي فيقول قال الله ﷻ: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [النازعات:17]، ويشير إلى قلبه ويومىء إلى أنه المراد بفرعون، وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة؛ تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع. وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة؛ لتغرير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينزلون القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به. فهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالرأي، ويكون المراد بالرأي الرأي الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والرأي يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد يخصص باسم الرأي.

والوجه الثاني: أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم بظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من يفسر بالرأي، والغرائب التي لا تفهم إلا بالسماع كثيرة، ونحن نرمز إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر.

ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعي البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب.

أو يدعي فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك، فإن ظاهر

التفسير يجري مجرى تعليم اللغة التي لا بد منها للفهم، وما لا بد فيه من السماع فنون كثيرة:

منها: الإيجاز بالحذف والإضمار كقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:59]، معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها، فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء، ولم يدر أنهم بماذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم، وقوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:93] أي: حب العجل، فحذف الحب وقوله ﷻ: ﴿إِذاً لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء: 75] أي: ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى فحذف العذاب، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز في فصيح اللغة، وقوله تعالى ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ [يوسف:82]، أي: أهل العير فالأهل فيهما محذوف مضمر.

وقوله ﷻ: ﴿ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف:187]، معناه: خفيت على أهل السماوات والأرض والشيء إذا خفي ثقل؛ فأبدل اللفظ به وأقيم في مقام على وأضمر الأهل وحذف وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:82]؛ أي: شكر رزقكم، وقوله ﷻ: ﴿آتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ﴾ [آل عمران:194]؛ أي: على ألسنة رسلك؛ فحذف ألسنة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:1] أراد القرآن وما سبق له ذكر، وقال ﷻ: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ [ص:32] أراد الشمس وما سبق لها ذكر، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:3]؛ أي: يقولون ما نعبدهم، وقوله ﷻ: ﴿فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء:78-79] معناه لا يفقهون حديثاً يقولون ما أصابك من حسنة فمن الله فإن لم يرد هذا كان مناقضاً لقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللهِ﴾ وسبق إلى الفهم منه مذهب القدرية.

ومنها: المنقول، كقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [الطور:2]؛ أي: طور سيناء ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات:130]؛ أي: على إلياس وقيل إدريس؛ لأن في حرف ابن مسعود: «سلام على إدراسين».

ومنها: المكرر القاطع؛ لوصل الكلام في الظاهر كقوله ﷻ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ

مِن دُونِ اللهِ شُرَكَاءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ [يونس:66]، وقوله ﷻ: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف:75] معناه: الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا.

ومنها: المقدم والمؤخر وهو مظنة الغلط كقوله ﷻ: ﴿وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه:129] معناه: لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاماً، ولولاه لكان نصباً كاللزام، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: 187]؛ أي: يسألونك عنها كأنك حفي بها، وقوله ﷻ: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال:4-5]، فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق: ﴿قُلِ الأَنفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ﴾ [الأنفال:1] ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: فصارت أنفال الغنائم لك؛ إذ أنت راضٍ بخروجك وهم كارهون فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره، ومن هذا النوع قوله ﷻ: ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ﴾ [الممتحنة:4].... الآية.

ومنها: المبهم وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف.

أما الكلمة: فكالشيء والقرين والأمة والروح ونظائرها، قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل:75] أراد به النفقة مما رزق، وقوله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [النحل:76]؛ أي: الأمر بالعدل والاستقامة، وقوله ﷻ: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ﴾ [الكهف:70] أراد به من صفات الربوبية، وهو العلوم التي لا يحل السؤال عنها حتى يبتدىء بها العارف في أوان الاستحقاق، وقوله ﷻ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور:35]؛ أي: من غير خالق فربما يتوهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء.

وأما القرين: فكقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ * أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق:23-24] أراد به الملك الموكل به، وقوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ﴾ [ق:27] أراد به الشيطان.

وأما الأمة: فتطلق على ثمانية أوجه:

الأمة الجماعة: كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:23] وأتباع الأنبياء، كقولك عن أمة محمد ﷺ ورجل جامع للخير يقتدى به، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله﴾ [النحل:120].

والأمة الدين: كقوله ﷻ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:22].

والأمة الحين والزمان: كقوله ﷻ: ﴿إِلَى أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هود:8]، وقوله ﷻ: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:45].

والأمة القامة: يقال فلان حسن الأمة أي القامة.

وأمة رجل منفرد بدين لا يشركه فيه أحد: قال ﷺ: «يبعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده».

والأمة: يقال هذه أمة زيد أي أم زيد، كقوله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [القصص:23]، وأتباع الأنبياء كقولك عن أمة محمد ﷺ ورجل جامع للخير يقتدى به كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لله﴾ [النحل:120]، والروح أيضاً ورد في القرآن على معان كثيرة فلا نطول بإيرادها.

وكذلك قد يقع الإبهام في الحروف مثل قوله ﷻ: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ [العاديات:4-5] فالهاء الأولى: كناية عن الحوافر وهي الموريات أي أثرن بالحوافر نقعاً، والثانية: كناية عن الإغارة وهي المغيرات صبحاً فوسطن به جمعاً جمع المشركون فأغاروا بجمعهم، وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ [الأعراف:57]؛ يعني: السحاب ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ يعني: الماء، وأمثال هذا في القرآن لا ينحصر.

ومنها: التدريج في البيان، كقوله ﷻ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185]؛ إذ لم يظهر به أنه ليل أو نهار، وبان بقوله ﷻ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: 3]، ولم يظهر به أي ليلة؛ فظهر بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:1] وربما يظن في الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات، فهذا وأمثاله مما لا يغني فيه إلا النقل والسماع، فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس؛ لأنه أنزل بلغة العرب فكان مشتملاً على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإضمار وحذف وإبدال وتقديم وتأخير؛ ليكون ذلك مفحماً لهم ومعجزاً في حقهم، فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبادر إلى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل في هذه الأمور فهو داخل فيمن فسر القرآن برأيه.

مثل أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه فيميل طبعه ورأيه إليه؛ فإذا سمعه في موضع آخر مال برأيه إلى ما سمعه من مشهور معناه وترك تتبع النقل في كثير من معانيه

فهذا ما يمكن أن يكون منهياً عنه دون التفهم لأسرار المعاني - كما سبق - فإذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ، ولا يكفي ذلك في فهم حقائق المعاني، ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال: وهو أن الله ﷻ قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال:17]، فظاهره تفسير واضح وحقيقة معناه غامض، فإنه إثبات للرمي ونفي له، وهما متضادان في الظاهر ما لم يفهم أنه رَمى من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذي لم يرم رماه الله ﷻ.

وكذلك قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة:14]، فإذا كانوا هم المقاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المعذب؟ وإن كان الله تعالى هو المعذب بتحريك أيديهم فما معنى أمرهم بالقتال؟ فحقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يغني عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة، ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله ﷻ حتى ينكشف - بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة - صدق قوله ﷻ- ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ ولعل العمر لو أنفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدماته ولواحقه لانقضى العمر قبل استيفاء جميع لواحقه، وما من كلمة من القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك، وإنما ينكشف للراسخين في العلم من أسراره بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب، ويكون لكل واحد حد في الترقي إلى درجة أعلى منه، فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً فأسرار كلمات الله لا نهاية لها؛ فتنفد الأبحر قبل أن تنفد كلمات الله ﷻ فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يغني عنه.

ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله ﷺ في سجوده: «**أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» أنه قيل له: ﴿اسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:19] فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستعاذ ببعضها من بعض؛ فإن الرضا والسخط وصفان ثم زد قربه فاندرج القرب الأول فيه فرقي إلى الذات؛ فقال: «**أعوذ بك منك**» ثم زاد قربه بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الثناء؛ فأثنى بقوله: «**لا أحصي ثناء عليك**»

ثم علم أن ذلك قصور؛ فقال: «أنت كما أثنيت على نفسك» فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب، ثم لها أغوار وراء هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به وأسرار ذلك كثيرة، ولا يدل تفسير ظاهر عليه وليس اللفظ هو مناقضاً لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما نورده لفهم المعاني الباطنة لا ما يناقض الظاهر، والله أعلم.

ويعرض الشيخ محمد حسين الذهبي رأي الحجة الغزالي بقوله:

ويظهر لنا - على حسب ما قرأنا - أن الإمام الغزالى كان - إلى عهده - أكثر من استوفى بيان هذا القول فى تفسير القرآن، وأهم مَن أيده وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية، على رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن ...ثم إننا نتصفح كتابه «جواهر القرآن» الذى ألَّفه بعد «الإحياء» كما يظهر لنا من مقدمته، فنجده يزيد هذا الذى قرره فى «الإحياء» بياناً وتفصيلاً، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات وتفصيلات تولاها لا نطيل بذكرها، ويكفى أن نقول: إنه قسم علوم القرآن إلى قسمين:

الأول: علم الصدف والقشر، وجعل من مشتملاته: علم اللُّغة، وعلم النحو، وعلم القراءات، وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر.

والثانى: علم اللُّباب، وجعل من مشتملاته: علم قصص الأوَّلين، وعلم الكلام، وعلم الفقه، وعلم أُصول الفقه، والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراط المستقيم، وطريق السلوك.

ثم يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم، وهيئة العالَم، وهيئة بدون الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات ... وغير ذلك، ثم يقول: «ووراء ما عددته علوم أُخرى، يُعلم تراجمها ولا يخلو العالَم عمن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يُتمارى فيها أن فى الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان فى قوة الآدمى الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن، فلن يوجد فى هذه الأعصار على بسيط الأرض مَن يعرفها، وعلوم أُخر ليس فى قوة البشر

أصلاً إدراكها والإحاطة بها، ويحظى بها بعض الملائكة المقرَّبين، فإن الإمكان فى حق الآدمى محدود، والإمكان فى حق المَلَك محدود إلى غاية من النقصان، وإنما الله سبحانه هو الذي لا يتناهى العلم فى حقه».

هل للتفسير الإشارى اصل شرعى؟

قال الشيخ محمد الذهبي في التفسير والمفسرون (4/ 314):

ربما يجول القارئ الكريم هذا السؤال وهو: هل للتفسير الإشارى أصل شرعى يقوم عليه، أو هو أمر جَدَّ بعد ظهور المتصوفة وذيوع طريقتهم؟ وللجواب عن هذا السؤال نقول:

لم يكن التفسير الإشارى بالأمر الجديد فى إبراز معانى القرآن الكريم، بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله ﷺ .. أشار إليه القرآن، ونبَّه عليه الرسول عليه الصلاة والسلام، وعرفه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وقالوا به.

أما إشارة القرآن إليه، ففى قوله تعالى فى الآية [78] من سورة النساء: ﴿فَمَالِ هؤلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾، وقوله فى الآية [82] منها أيضاً: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهَّ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾، وقوله فى الآية [24] من سورة محمد ﷺ: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ فهذه الآيات كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر وبطن، وذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً، ويحضهم على التدبر فى آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام، أو حضهم على فهم ظاهره؛ لأن القوم عرب، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شكّ، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضَّهم على أن يتدبروا فى آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذى جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم.

وأما تنبيه الرسول ﷺ، فذلك فى الحديث الذى أخرجه الفريابى من رواية الحسن مرسلاً عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع»، وفى الحديث الذى أخرجه الديلمى من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً إلى

رسول الله ﷺ أنه قال: «القرآن تحت العرش، له ظهر وبطن يُحاج العباد».

ففى هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن، ولكن ما هو الظهر وما هو البطن؟ اختلف العلماء فى بيان ذلك:

فقيل: ظاهرها - أى الآية - لفظها، وباطنها: تأويلها.

وقال أبو عبيدة: إن القَصص التى قصَّها الله تعالى عن الأُمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأوَّلين، وحديث حَدَّث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم، فيحل بهم مثل ما حلَّ بهم .. ولكن هذا خاص بالقَصص، والحديث يعم كل آية من آيات القرآن.

وحكى ابن النقيب قولاً ثالثا: وهو أن ظاهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم، وباطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أهل الحقائق.

هذا هو أشهر ما قيل فى معنى الظهر والبطن.

وأما قوله فى الحديث الأول: «ولكل حرف حد»، فمعناه على ما قيل: لكل حرف حد؛ أى: منتهى فيما أراد الله من معناه، أو لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب. والأول أظهر، وقوله: «ولكل حد مطلع»، معناه على ما قيل أيضاً: لكل غامض من المعانى والأحكام مطلع يُتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به، وقيل: كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع عليه فى الآخرة عند المجازاة، والأول أظهر أيضاً.

وأما الصحابة فقد نُقِل عنهم من الأخبار ما يدل على أنهم عرفوا التفسير الإشارى وقالوا به، أما الروايات الدالة على أنهم يعرفون ذلك فمنها:

ما أخرجه ابن أبى الحاتم من طريق الضحَّاك عن ابن عباس أنه قال: «إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضى عجائبه، ولا تُبلغ غايته، فمَن أوغل فيه برفق نجا، ومَن أخبر فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومُحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل، فجَالِسُوا به العلماء، وجَانِبُوا به السفهاء».

وروى عن أبى الدرداء أنه قال: «لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً».

وعن ابن مسعود أنه قال: «مَن أراد علم الأوَّلين والآخرين فليَتَدبر القرآن» وهذا

الذي قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر. انتهى.

قلت: وبعد بيان ما سبق من شرعية التفسير الإشاري نورد من كلام الشيخ الأكبر خاتم الولاية المحمدية فارس الميدان في التفسير الإشاري تبيَّن تمسكه بالشريعة المطهرة، وأن التفسير الإشاري لا يناقض الظاهر المتفق عليه بين الأمة، فهو لا يعدو أن يكون زيادة فهم في القرآن المجيد، واختصاص من الله لعباده، وعليه قس كل من تشرف بالجولان في هذا الميدان، وإليك جواهر الإمام - قدس الله أسرارنا به، وجمعنا عليه دنيا وأخرى:

ذكر جملة من أقوال الشيخ الأكبر - قدس سره - التي تدعو إلى العمل الكتاب والسنة، وتبين أن الشريعة عين الحقيقة:

قال قدس سره في «كنه ما لا بد للمريد منه»:

- أن القرب من الله لا يُعْلَـم إلا بتعريفه إيانا بذلك، وقد فعل ذلك ولله الحمد والشكر، فأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأوضح السبل الموصلة إلى السعادة الأبدية، فآمنا وصدقنا، وما بقى إلا استعمال ما وقع به الإيمان من الأعمال، وتقرر فى نفوس المؤمنين: من وضع الشرع في محله.

وقال في باب الحج من «الفتوحات» - في الأمر بوجوب كمال الاتباع للنبي ﷺ -:

لا شك أنه من ترك شيئًا من اتباع الرسول ﷺ مما لم ينفرض عليه فإنه ينقص من محبة الله إياه على قدر ما نقص من اتباع الرسول، وأكذب نفسه في محبته لله لعدم إتمام الاتباع، وعند أهل طريق الله لو اتبعه في جميع أموره، وأخلّ بالاتباع في أمر واحد مما لم ينفرض عليه، بل خالف سنة الاتباع في ذلك مما أبيح له الاتباع فيه أنه ما اتبعه قط، وإنما اتبع هوى نفسه لا هو مع ارتفاع الأعذار الموجبة لعدم الاتباع، هذا مقرّر عندنا قال تعالى لمحمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأمتك ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: 31] فجعل الاتباع دليلاً، وما قال في شيء دون شيء يحببكم الله، والله يقول: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]، وهو الاتباع وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ في دعواكم محبتي ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: 40]، وهو أني أحبكم إذا صدقتم في محبتي، وجعل الدليل على صدقهم حصول محبة الله إياهم، وحصول محبة الله إياهم دليل الاتباع.

وقال في الباب الثامن عشر وثلاثمائة: اعلم وفقك الله أن الشريعة هي المحجة البيضاء، محجة السعداء، وطريق السعادة، من مشى عليها نجا، ومن تركها هلك، قال رسول الله ﷺ

لما نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾ خط رسول الله ﷺ في الأرض خطًا، وخطا خطوطاً عن جانبي الخط يميناً وشمالاً، ثم وضع إصبعه على الخط وقال تالياً: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام:153]، وأشار إلى تلك الخطوط التي خطها عن يمين الخط ويساره ﴿فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام:153]، وأشار إلى الخط المستقيم.

وقال ﷺ في كتاب «تاج التراجم» (ص229ط. العلمية) لطيفة:

يخيل لمن لا يعرف أن الشريعة تخالف الحقيقة، وهيهات لما تخيلوه بل الشريعة عين الحقيقة، فإن الشريعة جسمٌ وروحٌ، فجسمها الأحكام وروحها الحقيقة، فما ثم إلا شرع.

وقال في «الفتوحات» الباب الثالث والستون ومائتان: الشريعة من جملة الحقائق، فهي حقيقة لكن تُسمَّى شريعة، وهي حقٌّ كلها، والحاكم بها حاكمٌ بحقٍّ مثاب عند الله؛ لأنه حكم بها كلف أن يحكم به.

ثم قال بعد كلامٍ طويلٍ: فعين الشريعة عين الحقيقة، والشريعة حقٌّ كلها، ولكل حقٍّ حقيقة، فحق الشريعة وجود عينها، وحقيقتها ما ينزل في الشهود منزلة شهود عينها في باطن الأمر، فيكون في ذلك الباطن كما هي في الظاهر من غير مزيد، حتى إذا كشف الغطاء لم يختل الأمر على الباطن.

ثم قال: فما ثمَّ حقيقة تخالف الشريعة؛ لأن الشريعة من جملة الحقائق، والحقائق أمثال وأشباه، والشرع ينفي ويثبت، فتقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، وهذا قول الحقيقة بعينه، فالشريعة هي الحقيقة.

وقال ﷺ في كتاب «التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية» (ص68، ط. العلمية):

«فنقول: الإنسان لا يخلو أن يكون واحدًا من ثلاثة بالشرع:

وهو إما أن يكون إما باطنيًا محضًا، وهو القائل بتجريد التوحيد عندنا حالاً أو فعلاً، وهذا يؤدي إلى تعطيل أحكام الشرائع وقلب أعيانها؛ وكل ما يؤدي إلى هدم قاعدة من قواعد الدين فهو مذمومٌ باطلٌ، عصمنا الله وإيَّاكم من ذلك.

وإما ظاهريًا محضًا متغلغلاً بحيث يؤديه إلى التجسيم والتشبيه، فهو مثل ذلك ملحق بالذم شرعًا.

وإما جاريًا مع الشريعة على فهم اللسان حيثما مشى الشارع مشى، وحيثما وقف قدمًا بقدم، وهذا هو الوسط، وبهذا تصح محبة الله تعالى له، قال تعالى: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31]، فباتباع الشارع واقتفاء أثره صحَّت محبة الله للعبد، وغُفرت الذنوب، وحصلت السعادة الدائمة».

أمره ﷺ باتباع الشرع وتقديمه على الكشف والإلهام.

قال في الباب السادس والأربعون ومائة: وقد علم أن من أهل الله من له شطحات فليتأدبوا فلا يشطحوا فإن الشطح نقص في الإنسان؛ لأنه يلحق نفسه فيه بالرتبة الإلهية، ويخرج عن حقيقته فيلحقه الشطح بالجهل بالله وبنفسه، وقد وقع من الأكابر ولا أسميهم لأنه صفة نقص، وأما رعاع الناس فلا كلام لنا معهم، فإنهم رعاع في النظر إلى هؤلاء السادة، وإذًا مثل هذا من السادة فعليهم يقع العتب منا، وقد يشطح أيضًا الأدنى على الأعلى كمثل الشطحات على مراتب الأنبياء، وهي أعظم عند الله في المؤاخذة من شطحهم على الله فإن مرتبة الإله تكذبهم في الحال وعند السامع، وأما شطحتهم على الأنبياء فموضع شبهة يمكن أن تقبل الصحة في نفس الأمر، فيغتر بها السامع الحسن الظن به الذي لا معرفة عنده بمراتب أصناف الخلق عند الله، فيغار الله لذلك.

ثم قال ﷺ: فإن الشرع قيدك فقف عند تقيده؛ فما أوجب عليك مما هو له أن تنسبه إلى نفسك أو إلى مخلوق من المخلوقات سوى الله فمن الفتوة أن تنسبه إلى ذلك لا إلى الله حقيقة، كما أمرك وإن دلك على خلاف ذلك العقل فارم به، وكن مع العلم المشروع.

وقال: وإن ورد عليه – أي الولي– أمر إلهي فيما يظهر له يحل له ما ثبت تحريمه في نفس الأمر من الشرع المحمدي فقد لبّس فيه فيتركه ويرجع إلى حكم الشرع الثابت؛ فإنه قد ثبت عند أهل الكشف بأجمعهم أنه لا تحليل ولا تحريم ولا شيء من أحكام الشرع لأحد بعد انقطاع الرسالة والنبوة من أهل الله فلا يعول عليه صاحب ذلك ويعلم قطعًا أنه هوى نفسي؛ إذ كان ذلك الأمر المحلل أو المحرم في نفس الأمر هذا شرطه ولا يمنع التعريف الإلهي لأهل الله بصحة الحكم المشروع في غير المتواتر بالمنصوص عليه، وأما في المتواتر المنصوص إذا ورد التعريف بخلافه فلا يعول عليه هذا الإختلاف فيه عنه أهل الله من أهل الكشف والوجود، فإنه من المنتمين إلى الله من يطرأ عليهم التلبيس في أحوالهم من حيث لا يشعرون وهو مكر خفي وكيد متين إلهي واستدراج من حيث لا يشعرون، فإياك أن ترمي ميزان الشرع من يدك

في العلم الرسمي والمبادرة لما حكم به، وإن فهمت منه خلاف ما يفهمه الناس مما يحول بينك وبين إمضاء ظاهر الحكم به، فلا تعول عليه فإنه مكر نفسي بصورة إلهية من حيث لا تشعرون، وقد وقعنا بقوم صادقين من أهل الله ممن التبس عليهم هذا المقام، ويرجحون كشفهم وما ظهر لهم في فهمهم مما يبطل ذلك الحكم المقرر، فيعتمدون عليه في حق نفوسهم ويسلمون ذلك الحكم المقرر في الظاهر للغير، وهذا ليس بشيء عندنا ولا عند أهل الله، وكل من عول عليه فقد خلط وخرج عن الانتظام في سلك أهل الله، ولحق بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وقال - لا حرمنا الله منه في الدنيا والآخرة - في الفتوحات: باب المكر: واعلم أنه من المكر عندنا بالعبد أن يرزق العبد العلم الذي يطلب العلم ويُحرَم العمل به، وقد يرزق العمل ويحرم الإخلاص فيه، فإذا رأيت هذا من نفسك أو علمته من غيرك، فاعلم أن المتصف به ممكور به، ولقد رأيت في واقعة أنا ببغداد سنة ثمان وستمائة قد فتحت أبواب السماء، ونزلت خزائن المكر الإلهي مثل المطر العام، وسمعت ملكًا يقول: ماذا نزل الليلة من المكر؟ فاستيقظت مرعوبًا، ونظرت في السلامة من ذلك فلم أجدها إلا في العلم بالميزان المشروع، فمن أراد الله به خيرًا وعصمه من غوائل المكر فلا يضع ميزان الشرع من يده وشهود حاله، وهذه حالة المعصوم والمحفوظ.

وقال فيه أيضًا: واعلم أن لنا من الله الإلهام لا الوحي فإن سبيل الوحي قد انقطع بموت رسول الله ﷺ.

وقال في الباب التاسع والستون: ما قررنا فيه - أي الفتوحات - أمرًا غير مشروع لله الحمد وإن كنا لم نتعرض لذكر الأدلة مخافة التطويل فما خرجنا بحمد الله عن الكتاب والسنة فيه، كما قال الجنيد علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وقال - في موضع -: يريد أنه نتيجة عن العمل عليهما...

وقال - شارحًا لهذا القول -: «يقول ﷺ - أي الإمام الجنيد-: وإن كنا أخذنا علمنا عن الله ما أخذناه من الكتب ولا من أفواه الرجال، فما علمنا الله تعالى علمًا به نخالف ما جاءت به الأنبياء صلوات الله عليهم من عند الله، مما ذكرته من الأخبار ولا ما أنزله الله في كتاب، بل هو عندنا كما أخبر الله عن عبده خضر أنه آتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علمًا، وهذا هو علم الوهب الإلهيّ الذي أنتجه التقوى والعمل على الكتاب والسنة... وهما

الشاهدان العدلان وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، وهو صاحب الرؤية ﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود:17]، وهو ما ذكرناه من العلم على الخبر إمّا كتاب أو سنة، وهو الشاهد الواحد والشاهدان الكتاب والسنة».

وقال: «اعلم أن أصول أحكام الشرع المتفق عليها ثلاث الكتاب والسنة المتواترة والإجماع، واختلف العلماء في القياس: فمن قائل بأنه دليل وأنه من أصول الأحكام، ومن قائل بمنعه، وبه أقول. قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:282]، وقال: ﴿إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً﴾ [الأنفال:29]، وقال: ﴿اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:28]، مثل قوله في عبده خضر ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ [الكهف:65]، فجعل إعطاءه العلم عبده من رحمته، والتقوى عمل مشروع لنا فلا بد أن تكون التقوى نسبة حكمه إلى الدليل من هذه الأدلة أو إلى كلها، في أي مسألة يلزمنا فيها تقوى الله، قال الجنيد: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وهما الأصلان الفاعلان، والإجماع والقياس إنما يثبتان وتصح دلالتهما بالكتاب والسنة، فهما أصلان في الحكم منفعلان، فظهرت عن هذه الأربع الحقائق نشأة الأحكام المشروعة التي بالعمل بها تكون السعادة».

وقال – عن ما يتراءى للأولياء من الإلهام والرقائق-: يعرضه على الكتاب والسنة، فإن وافق رآه خطاب حق وتشريف لا غير، لا زيادة حكم، ولا إحداث حكم، لكن قد يكون بيان حكم، أو إعلامًا بما هو الأمر عليه، فيرجع ما كان مظنونًا معلومًا عنده، وإن لم يوافق الكتاب والسنة رآه خطاب حق وابتلاء لا بد من ذلك، فعلم قطعًا أن تلك الرقيقة ليست برقيقة ملك ولا بمجلى إلهي، ولكن هي رقيقة شيطانية. (الباب العاشر وثلاثمائة)

وقال في (الباب الرابع عشر وثلاثمائة: في معرفة منزل الفرق بين مدارج الملائكة والنبيين والأولياء من الحضرة المحمدية): «فمن ادعى نبوة التشريع بعد سيدنا محمد ﷺ فقد كذب، بل كذب وكفر بما جاء به الرسول الصادق ﷺ. فلا يتعدى كشف الولي في العلوم الإلهية فوق ما يعطيه كتاب نبيه ووحيه، قال الجنيد في هذا المقام: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وقال الآخر: كل فتح لا يشهد له الكتاب والسنة فليس بشيء؛ فلا يفتح لولي قط إلا في الفهم في الكتاب العزيز؛ فلهذا قال: ﴿فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:38]، فلا يخرج علم الولي جمله واحدة عن الكتاب والسنة، فإن خرج أحد عن ذلك فليس بعلم ولا علم

ولاية معًا، بل إذا حققته وجدته جهلاً، والجهل عدم، والعلم وجود محقق، فالولي لا يأمر أبدًا بعلم فيه تشريع ناسخ لشرعه ولكن قد يُلهم الترتيب صورة لا عين لها في الشرع من حيث مجموعها؛ ولكن من حيث تفصيل كل جزء منها وجدته أمرًا مشروعًا فهو تركيب أمور مشروعة أضاف بعضها إلى بعض هذا الولي، فظهر بصورة لم تظهر في الشرع بجمعيتها، فهذا القدر له من التشريع وما خرج بهذا الفعل من الشرع المكلف به «...» فما خرج عن أمره فمثل هذا قد يؤمر به الولي من هناك، وأما خلاف هذا فلا، فإن قلت: وأين جعل الله للولي العالم ذلك بلسان الشرع؟ قلنا: قال ﷺ: «من سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا» فقد سن له أن يسن؛ ولكن مما لا يخالف فيه شرعًا مشروعًا، ليحل به ما حرم، أو يحرم به ما حلل؛ فهذا حظ الولي».

- **ولنورد جملة من كنوز العالم بالله، المحقق الأحدي، شهيد الإسلام والمغرب سيدي وجيه الدين أبو الفيض محمد بن سيدي عبد الكبير - قدس سره - في كتابه «سلم الارتقاء» تبين ما أعتب علماء الأمة بحثه، حول ما فجّره القوم من العلوم المحمدية رغم أنف المنكر - فجزاه الله عن الدين وأهله خير الجزاء:**

«لا فرق بين عالم الظاهر والباطن في الأصل، إنما لما تغير السمت الأول الذي كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ وكثرت البدع، وأخذ الدين في الدثور والتواري، وانتصبت كل طائفة من علماء الإسلام لحرس شعب الإيمان، والذب عن بيضة الإسلام بسبب ثوران الثوار المبطلين القادحين في الأصول الدينية، فحدثت الفرق الرادة حجج الضالين المبتدعين المضلين المنصوص عليهم قبل ظهورهم في قوله ﷺ وعلى آله: **«إن بني إسرائيل افترقت على اثنين وسبعين فرقة، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي»**. فعدد الفِرق.

وكل من قوي في منصب من هذه المناصب الدينية، وفتح عليه باب العبارة نوع من فتوح العلم - كالاقتدار على الخدش في الحجج الواهية، والشبه الوهمية، ودفع الأباطيل المدحضة لأصول الديانات؛ وهؤلاء تسموا بـ«الأشاعرة والماتريدية»- وكل تبعه أتباع، وذب عنه ذابون، وانتصر له ناصرون، وحمى حوزته تلاميذ معضدون وامتد - والحمد لله - ذلك ويمتد إلى أن تظهر أمارات الساعة الكبرى على ما فصل في مبحث الفتن.

ومن انتصب لحياطة الفروع الأصلية واستنباطها، وعرضها على الكتاب والسنة

والإجماع، والقياس الصحيح؛ تسموا بالمجتهدين، وهم على ضربين: قسم كان جل ملحظهم المباني والمثارات التي انتشأت عنها الفروع وبنيت عليها، وهذا وسم بـ«علم أصول الدين». وأول من فتح عليه فيه: عالم قريش محمد بن إدريس الشافعي.

وقسم في المبنيات على تلك المدارك والمأخوذات من أصل تلك الملاحظ، وهذا تسمى بـ«الفقه» وبـ«علم الفروع».

ثم لما أراد الله نصرة دين نبيه، وحيطة قبة بيت شريعته المعمور بأضرب الهدايات، وتشعب الطرق الموصلات إلى السعادات الدينية والأخروية؛ زين في قلب كل إمام من الأئمة الأربعة الإنتصاب لهذا المبنى، والتعرض لهذا المنحى، وأعطاه من القوى المدركة والعقل الصائب والذهن الوقاد، والفكرة المشعولة والصدر الرحب والعلم الواسع، ما صيره ركنًا من أركان تلك القبة، وأوقفه على شذرات من شذور ذهب الشريعة المطهرة؛ فقال به، وذب عنه ونصر مقتضاه، وحمل الناس عليه، وفتح عليه فيه، إلى أن ابتنت القبة المعظمة المكرمة المشرفة على أعمدة أربعة.

ولما قامت؛ هيأ لكل عمود من الأعمدة أصحاب وتلاميذ وحذاق، فانتشأ من ذلك مزج علم الفقه والأصول، وانتشأ من ذلك «علم الجدل» و«علم المناظرة»؛ لأن كل طائفة منهم تصوب ما انتحله متبوعها، وتذهب إليه وتعشقه.

وانتصبت طائفة أخرى من أهل العلم لحفظ ما وقع وحدث وضمر من الوقائع والحوادث، إما زمن الهجرة إلى وقته، وإما من أهل وقته؛ فسموا بـ"المؤرخين".

وانتصبت طائفة أخرى من أهل العلم لحفظ علوم الإخلاص وعلوم الإيقان وعلوم المجاهدة للنفس وعلوم المراقبة وعلوم أسرار الأعمال ونتائجها وبدايتها وأواسطها وأواخرها، وعلوم الشوائب التي تحفظ الأعمال من الرياء والعجب والكبر والحسد والكبر والبغض والشحناء ودقائق الرياء الذي هو الشرك الخفي؛ فتسموا بـ«الصوفية»؛ لأنهم عملوا على صفاء الأعمال وصفاء الأحوال وصفاء القلوب وصفاء الأسرار وصفاء العقول مما يكدرها من الصدى والخبث، وصفاء الأرواح عما يحجبها عن مشاهدة الملكوت والعوالم الغيبية المنتجة للإيمان والإيقان بما أخبرت به الشرائع، والموت والحشر والبعث والصراط وغير هذا من أحوال المعاد، وكل بخير وعلى خير إن صلحت النية والسريرة.

فهذا منشأ أصل التصوف، فإن هذه المقامات ومحاسن الشريعة المحمدية لما كانت أشرفت على التلاشي والدثور والانمحاق في جملة ما اندرس واندثر؛ انتصبت تلك الطائفة الغراء لشد أزر ريش الشرع المطاع من القيام بحقوق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية من الخوف والحزن على ما فاتهم من الله، والتفكر في نعم الله وآلائه، ومراقبة الباطن والظاهر، واجتناب دقيق الإثم وجليله، والحرص على إدراك خفايا شهوات النفس، ومعرفة مكايد الشيطان ومدافعته.

وعلم الورع في المكاسب والمعاملات، والفرق بين نفاق العلم والعمل، والفرق بين خواطر الروح والنفس، وبين خاطر الإيمان واليقين والعقل، وتفاوت مشاهدات العارفين، والبحث عن أوصاف الرجولية في القرآن، حتى من لم يكنها فليس برجل، والبحث عن آداب الجوارح كلٍ على حدته، من العينين واللسان، والسمع واليدين، والرجلين والبطن.

فإن تفقه متفقه وقال: إن هذه العلوم من علوم الشريعة؛ لما سمعها ووجدها عين الشريعة المطهرة؛ لم يمكنه إنكارها، ورأى إنكارها نفس العناد، قال: إنها من ذاتيات الشريعة.

نقول له: وليس المعبر عنه بالتصوف إلا هذه العلوم؛ فإن أتقنتموها في أنفسكم، وشاهدنا أثراتها عليكم؛ سلمنا هذا. وقولكم: إنها من الشريعة.

ثم إنا نرجع ونقول: وإذا قلتم: إنها من ذاتيات الشريعة؛ فلأي شيء لم نر من يتكلم عليها في دروسه ولو استطرادًا، ولا في مذاكراته ولو تلميحًا، ولا في مؤلفاته ولو تعضيدًا، ولا في شعره ولو تمليحًا؟! بل لو تسمعوا من يكثر من ذكرها - كما قدمنا – قالوا: إنه صوفي، كأنهم يلمزوه لكثرة تذكاره لتلك العلوم القلبية التي هي محاسن الشريعة، وبها ظهر فضلها وشفوفها وعلوها ومَكْنَتِها، ورشاقة أوامرها ونصاحة نواهيها.

وكل هذا لا يدرك بالذوق من الشريعة إلا بواسطة ما تتلمحه الصوفية الذي يعبر عنهم من لا يعلم بـ«التصوف»، ونعبر عنه نحن بـ «محاسن الكتاب والسنة»، بل ومحاسن الكتب الإلهية المنزلة.

وبعد أن وجدناهم معرضين عن هذه العلوم القلبية حقيقة، ونائين عنها بجنبهم، فأين قولهم: إنها من الشريعة؟! فهلا دونوا فيها وألفوا، وهلا تذاكروا فيها وصنفوا، وهلا تباحثوا فيها وعرفوا؟. ومرادهم بذلك عدم تخصيص الصوفية بشعار يخصهم، وهدم أسسهم ومبانيهم التي بنوا عليها علومهم واصطلاحاتهم، سلمناها تسليمًا جدليًا؛ فتباحثوا في هذه

العلوم على أنها من علوم الشريعة لا على أنها خُص بها قوم ينتمون للصلاح وطريق الله والدار الآخرة.

وعلى كل حال؛ إن كانت من الشريعة؛ فلتتبع. وإن كانت من مذاهب الصوفية؛ فلتتبع؛ لأن من لم يعرفها لم يذق طعم الإخلاص لله في أعماله قطعًا؛ لأن العلوم الباحثة عن ذلك أهملت واندرست، وقلّ أن يذوق طعم الصدق مع الله ومراتبه ودرجه، وقلّ أن يذوق طعم التوكل ومراتبه وطرقه، وقلّ أن يذوق طعم الخوف المزعج والشوق المقلق، ومحبة الله الكاملة التي تؤدي إلى مفارقة المألوفات وقطع الشهوات ومخالفة الشبهات ودحض التكثفات، وقلّ أن تجد من لم يعرف هذا العلم وأهله له أخلاق كرائم أو شناشن مستطابة.

إنما تجد عنده من شكاسة الأخلاق وصعوبتها ومنافرتها للناس ما يظن الظان أنه لم يخالط دقائق الكتاب ولا السنة.

وبهذا التحقيق يعلم أن جميع هذه العلوم المتقدمة - من أصول وفروع فقهية وعلم كلام وتاريخ وتدوين الحديث كلها مستحدثة لم تكن في زمن الصحابة الكرام، إنما حدثت بواسطة أسباب ومقتضيات ووقائع وحوادث اقتضتها، وإلا؛ فهذه الفروع الفقهية المتكاثرة الموجودة اليوم وقبل اليوم لم تكن في زمن الصحابة ولا ذكرت ولا استقصيت هكذا، إنما هي من المستنبطات في قول الله العظيم: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 83] ولم تكن الفروع اليوم حتى على الربع في زمن الرسول المعظم ﷺ وعلى آله.

وعليه؛ فقول من قال متحاملاً على الصوفية ومتطاولاً عليهم - كابن خلدون في «التاريخ» ومن نحا نحوه- أن علم التصوف من العلوم المستحدثة في الإسلام : إن أراد أن علم التصوف وحده مستحدث، ومراده بذلك تهوين جانبه وأهله؛ فكلمة سوء وعصبية وتحامل، لما أنهم يتحدثون في مواجيدهم بأعاجب وغرائب تشتاق إليها كل الأنفس التواقة إلى طلب المعالي، إلا أن من النفوس مَن جهلت الطريق الموصلة لذلك؛ فلم تهتد، فازدادت نفسها فحولة ورآسة، فأنكرت ما عليه القوم في أنفسهم لما لم تصل لما وصلوا، ولم تشرب ما شربوا من باب: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾، ومن باب من لم يوفق: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: 11]، وهي شبة واهية لا تقوم على ساق.

ومن الناس من علم الطريق الموصلة لنيل تلك الزُّلف وهاتيك المراقي بواسطة التسلق

على كتب سادات المسلمين: الصوفية، وإلا؛ لما علمه، ومع ذلك إما سلك بنفسه، لم يتخذ وسيلة لنفسه فانقطع، وإما سولت له نفسه أنه لا رائد في الطريق ولا مرشد، وإنما الناس في عمى يعمهون؛ فاستحقروا أهلها الموجودين، فاستحقروا أهلها الموجودين، وعظموا الغابرين، فأولئك لم يدركوهم حتى ينتفعوا بهم وبتأديبهم، وهؤلاء أساءوا بهم الظنون؛ فضيعوا الركن الأعظم في الدين؛ وهو قول الله الكريم في الحديث القدسي: «هل واليت لي وليًا أو عاديت لي عدوًا؟»؛ فلم يدخلوا الطريق بل أعاروها آذانًا صمًا وقلوبًا غُلفًا، وهم يظنون أن ذاك منهم.

[السبب الحقيقي في إعراض الناس عن طريق القوم ﷺ]

السبب الحقيقي في ذلك، والمقصد الأهم هو: غيرة الله على الطريق أن يسلكها غير أهلها الباذلين دون لمعة من لوامعها ولمحة من لمحاتها المهج، لا من لا يقدر على كظم الغيظ، ولا على التصدق كل يوم بدريهمات بل ولو بشق تمرة، ولا على الصفح والعفو، ولا على عدم سوء الظن بمسلم ومسلمين، ولا على صلة أرحامهم على سبيل المكافأة، ولا على سلامة الصدور من الضغائن، مع أن القرآن طافح بالحض على الصبر والغفران والإحسان، وإصلاح ذات البين، والتماس المعاذير للمؤمنين، وعدم التماس المعايب، وعدم التجسس والتحسس، وعدم التقاطع والتدابر، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ولو كانت به خصاصة، ووقاية نفسه الشح، والتوكل على الله لا على الأسباب، التي إن تخلفت يكاد يظن، أو يتحقق أنه لا يرزق، مع أنه شيء أوجبه الله من طريق فضله ورحمته على نفسه لا بإيجاب موجب....وهكذا.

وأيضًا أين ما ذكرناه من أن العلوم من كلام وأصول، وفقه وحديث، ونحو وتاريخ، وجدل ومناظرة، وصرف وبيان، ومعان وتتمته التي من علم البديع...كلها مستحدثة أيضًا في الشريعة؟ وإنكار هذا مكابرة.

[تنافس الصحابة الكرام ﷺ وتفاضلهم في التخلق بشعائر التصوف]

وإن أراد بقوله: «علم مستحدث» تهوين جانب القوم، وأن علمه لم يرج في زمن الصحابة الكرام، ولا عملوا به، ولا تفاضلوا بينهم من أجل التخلق بشعائره؛ فهو من الجهل بسيرة الصحابة وأحوالهم وما كانوا عليه، وما وصفوا به في القرآن والكتب السالفة؛ إذ الصحابة لم يتفاضلوا إلا بالخوف من الله، الخوف الحقيقي والذي قارنه اجتناب المناهي،

والرجاء، الرجاء الحقيقي، وهو ما قارنه العمل، وإلا؛ فهو غرور وأمنية، والبذل والسخاء والصفح، وبذل الأنفس والأموال في ذات الله تعالى، والاستحياء من الله حق الحياء، ومراقبة الله في السر والعلن، وتجديد الإيمان بِلُقَى الإخوان، والتزاور في الله، والتحابب في الله، والتهادي في الله، والتصادق في الله، والرحمة فيما بينهم، كما قال تعالى وتقدس: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:29]، وقوله: ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ [الذاريات:17]، وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ﴾ [الحشر:8]، ثم وصفهم بالصادقين: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:9]، وقال فيهم تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ [آل عمران: 135]؛ فلم يمدحهم الحق بعدم الذنب ، بل بعدم الإصرار عليه. وقال فيهم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:16]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:83]، وقال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:219] وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر:9]...ثم قال قدس سره: من أراد أن يُثنى عليه كما أثني على جانبهم الشريف، المعتنى به، فلينح نحوهم، وليهتد بهديهم، وليتمش على آثارهم، وإلا؛ فإرادة المدح مثل مدحهم بدون التسنن بسننهم فبالحمق والخبال والهذيان وعدم التوفيق؛ ففي الثناء عليهم سياسة إلهية بتحريك لتحريك الهمم العوالي». انتهى.

قلت: يريد قدس سره أن هذه هي صفات السادة الصوفية وسمتهم وما يدعون إليه، فهم بسنة الصحابة الكرام متسننون، وبهديهم مقتدون، وبصفاتهم متصفون؛ فمن الجهل بالدين ذم من هذا وصفه ومن تلك دعوته.

وقال قدس سره (ص194): وجه التفاضل بين الناس، وليس إلا التخلق والتحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل، وكل محاسن الشريعة في الكتاب والسنة من قبيل التحلي،

«وكل مذام الشريعة ومناهيها من قبيل التخلي، وليس التصوف إلا - حقيقة -: **التحلي والتخلي والتجلي**، وليس مدلول الكتاب والسنة إلا هذه الثلاثة؛ ولأجل هذا جعل رسول الله ﷺ الدين ثلاثًا: **إسلامًا وإيمانًا وإحسانًا**.

فمن أنكر التصوف فقد أنكر جزءًا من أجزاء الدين المدلول عليها بالإحسان في السنة والكتاب، المدلول عليه بالرياضة في كلام أهل الرياضة، وبالتأدب في كلام الحكماء، وبالأمثال الشعرية والنثرية في لسان علماء الأمثال، وبالمواعظ والزهديات والتخليات والتحليات والتجليات في لسان القوم.

ومن أخره وأهمله فقد أهمل جزءًا من أجزاء الدين، بل محاسن الشريعة، ومحاسن الرياضات والحكماويات والزهديات، وعلم السنة والأخبار.

وظهر من هذا: أن التصوف علم قرآني فرقاني نبوي، لا كما يفهم من لا علم له بالحقائق من أنه: علم مستحدث، ومن لم ينحَ نحو السلف الصالح - [من مراعاة تدقيق الورع ومن ومن..]- فليس من الصوفية في شيء، وإنما المحدث في الحقيقة: الكتب والتصانيف». انتهى.

الكلام على تأصيل العلم اللدني أو الكشف أو الإلهام من الكتاب والسنة، وأنه عين الشرع المحمدي، ولا يخرج عنه بوجه من الوجوه:

قال قدس سره - مستدلاً على عظمة العلم اللدني ووجوب السفر لطلبه من أهله - في كتابه «**البحر المسجور**» (ص87):

«تأسيس وتنبيه: مقتضى قول من قال: أي حاجة يُبدوا لنا المشايخ في الكون؟ هل ثم شرع جديد يأتونا به؟ وهل ما عندنا غير ما عندهم؟

نقول لهم: وهل تقرر أن سيدنا موسى كان ماهرًا في بساط التشريع الظاهر أم لا؟ فإن قلتم: نعم.

نقول: لأي شيء أُرسل لسيدنا الخضر؟ فإن أرسل ليتعلم منه التشريع الظاهر، قلنا: لا يصح لعدم روجانه في القضية المذكورة في القرآن: بدْأها وعوْدَها. وإن قلتم: ذهب ليعلمه هو.

نقول: مناقض لقوله نفسه: ﴿أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: 66]، وقول الخضر: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾ [الكهف: 68]، وقوله نفسه: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ [الكهف: 73]؛ فما بقي إلا أن الحق جلت عظمته أرسله ليعلمه العلم اللدني المبسوطِ أشعتُهُ من القُرب الذاتي، الحاصل لجوهرية روحانية الخضر، وبه يكون العارف عارفًا، فهذا هو الشيء الذي يُبْدوه لنا المشايخ في الكون امتثالاً لأمر الله، فشيء عَلِمَهُ الخضرُ من لدن حكيم عليم، وأُرسل نبي الله ورسوله ليتعلمه منه، ننكره نحن وننكر أهله؟!. فكفى أهله شرفًا كون الحق أكد السفر في طلب علمهم ممنْ لا يُظن أنه يستخدم في هذا الموطن، وهو النبي الرسول، فكان مقتضى كلامهم أن يستغني سيدنا موسى بما عنده من علم الأحكام مثلاً، ولا يتطلّب غيره، مع أنه لو سعى في طلب العلم اللدني من قِبل نفسه لكان لنا فيه غاية الشُفوف، سيما وأمر بذلك من الجناب الأقدس بقوله: «بلى عبدَنا خضر أعلم منك، فقال: يا رب أين أجده، فقال: بمجمع البحرين»؛ فتظهر لنا - هاهنا - من جملة الأسرار في تلك القضية: الرد على هؤلاء الناس من رب الأرباب ومذل الرقاب، الذين قَصُرَتْ عقولهم عن مَرْمَى القوم رضي الله عنهم حتى كادوا ينكرون علومهم، فهلا تأسيتم بمن أمر سيدنا بالاهتداء بهديهم وسافرتم لمن يعلمكم العلم اللدني، ولكم إذن عام بإذن نبي الله؟، فهذا من جملة مخالفاتكم له». انتهى.

وقال قدس سره (ص126): «وفي الحديث كما رويناه في «الصحيح» عن أبي هريرة: «علمني ؟ وعاءين من العلم:

أما واحد: فبثته لكم، وأما الآخر: فلو بثثته لقطعتم مني هذا البلعوم».

فما هو هذا العلم الشريف؟ إن كان علم الأحكام؛ فهلا كتم كغيره أيضًا، مع أنه لم يكتم، بل توعده على كتمه؟.

وإن كان علم أشراط الساعة؛ فهي في الأحاديث: كبرى، وصغرى. وإذا كانت الخلافة؛ فصرحتْ بها الأحاديث بأنها تبقى ثلاثون سنة، ثم تصير مُلكًا عضوضًا. فما بقي إلا العلوم المتشابهة المُعَنْوَنُ عنها بالتوحيد الخاص هي المعنون عنها في هذا الحديث على التحقيق، لا ما قيل فيه.». انتهى.

وقال قدس سره - منبهًا على أن عقيدة الصوفي هي التي عليها المقصد لا ظاهر الألفاظ - (ص107): «فإن قلت: كلامك كغيرك مصرح بذلك، قلت: ذاك اصطلاح

متعارف بين القوم لا يقصدون به ما تعطيه ظواهر الألفاظ، وإنما المحكّ: ما هو عقيدة الشخص القائل ذلك الكلام؟ وإن كان المناطقة لا يكترثون بالألفاظ، وإنما مرادهم المعاني، مع أن علمهم علم عقلي، فكيف بمن علومهم كلها إشارات وألغاز ورموز تدق على من لم يسلك طريقتهم؟.

وقد كان شيخ الإسلام المخزومي يقول: «لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية إلا إن سلك طريقهم ورأى أفعالهم وأقوالهم مخالفة للكتاب والسنة. وأما بالإشاعة عنهم؛ فلا يجوز الإنكار عليهم». وأطال في ذلك، ثم قال: «وبالجملة؛ فأول ما يحق على المنكر حتى يسوغ له الإنكار على أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم: أن يعرف سبعين أمرًا ثم بعد ذلك يسوغ له الإنكار؛ منها:

أ - اطلاعه على تفسير القرآن خلفًا وسلفًا ليعرف أسرار الكتاب والسنة ومنازع الأئمة المجتهدين، ويعرف لغات العرب في مجازاتها واستعاراتها حتى يبلغ الغاية.

ب - ومنها: كثرة الاطلاع على مقامات السلف والخلف في معاني آيات الصفات وأخبارها، ومن أخذ بالظاهر ومن أوّل.

ج - ومنها وهو أهمها: معرفة اصطلاح القوم فيما عبروا عنه من التجلي الذاتي والصوري وما هو الذات وذات الذات، ومعرفة حضرات الأسماء والصفات، والفرق بين الحضرات، والفرق بين الأحدية والواحدية، ومعرفة الظهور والبطون والأزل والأبد، وعالم الكون والشهادة، وعالم الماهية والهوية، والسُّكر والمحبة، ثم قال: «فمن لم يعرف مرادهم؛ كيف يحلُّ كلامهم أو ينكر عليهم بما هو ليس من مرادهم». انتهى.

وقال قدس سره - عن ما يذاع عن السادة الصوفية أنهم يقولون بسقوط التكليف - ص(104):«وإياك أن تفهم أنا نقول: إن لنا أحوالاً تُسقط عنا التكاليف، لا، لا؛ فهذا يجب تأويل كلامه صونًا لدمه، وتحفُّظا من تكفير الإنسان. نعم؛ تسقط عنا كلفة التكاليف، فنصير نأتي العبادات على الوجه الأتم، مع ملاحظة الرتبة من الأدب الخاص بالصلاة مثلاً أو غيرها، لا مشقة عندنا في ذلك، بخلاف غيرنا، وبهذا يسقط اعتراض من اعترض على القوم في قولهم: «يصل العارف إلى رتبة تسقط عنه فيها التكاليف»، فهذا معناه.

وأما من قصد ظاهرها؛ فهو مُلبَّس عليه، لا قدم له في التصوف؛ لأن الصوفي حقيقة: عالم يعمل بعلمه على وجه الإخلاص، وكل من رمى ميزان الشريعة عن ملاحظته زمنًا ما،

فهو ممكور به ممقوت، لا قدم له عند القوم، ولا هو منهم، بل هو غالط، لعبت به أيدي الهوى - ثبتنا الله بالقول الثابت». انتهى.

وقال قدس سره - عن الفهم في القرآن وامتياز القوم بذلك - (ص127): «لطيفة وتنبيه: اعلم أن القوم امتازوا بفهم إشارات من الكلام العزيز، وأوتوا الفهم فيه من غير إخراجه عن ظاهره، بل النصوص على ظاهرها، ومع ذلك؛ منها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة كما نقله السعد في «شرح العقائد النسفية». قال الغرياني: حدثنا سفيان عن يونس بن عبيد عن الحسن، قال: قال رسول الله: «لكل آية ظهر وبطن، ولكل حرف حد، ولكل حد مطلع» وأخرج الديلمي من حديث سيدنا عبد الرحمن بن عوف مرفوعًا: «القرآن تحت العرش له ظهر وبطن، يحاجّ العباد». وقد اختلف في معنى الظهر والبطن على أوجه؛ منها: ما حكاه ابن النقيب: أن ظهرها: «ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها: ما تضمنته من الأسرار التي اطلع عليها أهل الحقائق».

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق الضَّحّاك عن ابن عباس قال: «إن القرآن ذو شجون وفنون، وظهور وبطون، لا تنقضي عجائبه، ولا تُبلغ غايته، فمن أوغل فيه برفق نجا، ومن أوغل فيه بعنف هوى، أخبارٌ وأمثال، وحلال وحرام، وناسخ ومنسوخ، ومحكم ومتشابه، وظهر وبطن، فظهره التلاوة، وبطنه التأويل»، ولا شك أن القرآن لا يكون جامعًا لجميع أشتات المزايا إلا إن كان فيه - أيضًا - علم الحقائق المُودَعة في جواهر قلوب الأحرار، وفي القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: 38]، قال ابن سبع في «شفاء الصدور»: «ورد عن أبي الدرداء أنه قال: لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهًا».

وقال بعض العلماء: «لكل آية ستون ألف فهم». ولا أقل أن تكون إشارات القوم من الفهوم أيضًا، وفي الحديث: - خطابًا لابن عباس: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». انتهى.

وقال قدس سره - مشددًا على أن القوم لا ينكرون الظاهر-: «فبان لك من هذا أن القوم المحققين لا يهملون النصوص أصلاً، أو يصرفونها عن مقتضى ظاهرها بغير اعتصام فيه نقل صحيح عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو لك من دليل العقل، فيقتضي هذا بطلان الثقة بالألفاظ، وتسقط به منفعة كلام الله وكلام رسوله، وقد تعبّدَنا الله بالعمل

بمفهوم ظاهر الألفاظ، فحاشا من كان ضابطًا متميزًا من مطلق العقلاء أن تصدر منه مثل هذه الطامات والهذيانات المنابذة لظاهر الشرع المطاع، فكيف بمن له القدم الراسخ في الإرث المحمدي؛ لا يصدر منه شيء من هذه الترهات؟. ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:201]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الإسراء:65]، واتضح لك من هذا - أيضًا - أنهم لا يقولون بالتشبيه ولا بحلول اللاهوت في الناسوت، أو تدرُّع الناسوت باللاهوت كما تقوله النصارى في سيدنا عيسى؛ فعقائد القوم هي ما عليه السنة والجماعة ثبتنا الله عليها وأحباءنا آمين».

هذا .. وأذكر لك صورة عن افتتاح شيخ الشيخ نجم الدين- المحقق روزبهان- لكتابه «عرائس البيان» قوله:

فإن أطيار أسراري لمَّا فرغت من الطيران في المقامات والحالات، وارْتفعَت من ميادين المجاهدات والمراقبات، ووصلت إلى بساتين المكاشفات والمشاهدات، وجلست على أغصان ورد المداناة، وشربت شراب الوصال، وسكرت برؤية الجمال، وولهت في أنوار الجلال، وصحت من مقام القدس بذوق الأنس، وتلقفت من فلق الغيب شقائق دقائق القرآن، ولطائف حقائق العرفان، فطارت بأجنحة العرفان، وترنَّمت بألحان الجنان في أحسن البيان بهذا اللسان في رموز الحق التي أخفاها على فهوم أهل الرسوم.

وما تَصدَّيْتُ لهذا الأمر إلا بعد خاطري بالمعرفة والحكمة الربانية، واقتديت بالصدر الأول من المشايخ الكرام في تفسير حقائق الكلام، ولمّا وجدت أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد من خلق الله إلى كماله، وغاية معانيه؛ لأن تحت كل حرفٍ من حروفه بحرًا من بحار الأسرار؛ ونهرًا من أنهار الأنوار؛ لأنه وصف القِدم.

وكما لا نهاية لذاته، لا نهاية لصفاته، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:27]، وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الكهف: 19].

وعن أبي جُحيفة، قال: سألت عليًّا ﷺ وكرَّم الله وجهه: هل عندكم من رسول الله ﷺ شيءٌ من الوحي سوى القرآن؟ قال: لا والذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة إلا أن يعطى الله عبدًا

فهمًا في كتابه"[1].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن القرآن سبعة أحرفٍ لكلِّ آيةٍ منها ظهر وبطن، ولكلِّ حرفٍ حَدٌّ ومَطلع»[2].

وقال جعفر بن محمد: كتاب الله على أربعة أشياء: العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق؛ فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء.

وقال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه: ما من آية إلا ولها أربعة معانٍ: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع؛ فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحدُّ: هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو: مراد الله من العبد بها.

قيل: القرآن عبارةٌ، وإشارةٌ، ولطائفٌ، وحقائق، فالعبارة للسمع، والإشارة للعقل، واللطائف للمشاهدة، والحقائق للاستسلام.

وقال الجنيد: كلام الله على أربعة معانٍ: ظاهر، وباطن، وحق، وحقيقة.

وقال جعفر الصادق: يقرأ القرآن على تسعة أوجهٍ: الحق، والحقيقة، والتحقُّق، والحقائق، والعقود، والعهود، والحدود، وقطع العلائق، وإجلال المعبود.

وقال الجريري: كلام الله متصل بعبده، والعبد متوقع المزيد من ربه في كل حال.

وقال جعفر الصادق: أنزل القرآن على سبعة أنواع: على التعريف، والتكليف، والتعطيف، والتشريف، والتأليف، والتخويف، والتكفيف، ثم نزل أمرًا ونهيًا، ووعدًا ووعيدًا، ورخصًا وتأسيسًا، وتمحيصًا، ثم نزل داعيًا، وراعيًا، وشاهدًا، وحافظًا، وشافيًا، ودافعًا، ونافعًا.

فتعرَّضتُ أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات الأبديات التي تقصر عنها أفهام العلماء، وعقول الحكماء، اقتداءً بالأولياء، وأسوةً بالخلفاء، وسنةً للأصفياء، وصنَّفتُ في حقائق القرآن كتابًا موجزًا مخففًا لا إطالة فيه ولا إملال، وذكرت ما سنح لي من حقيقة القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن في القرآن بألفاظ لطيفة، وعبارة شريفة، وربّما ذكرتُ تفسير آيةٍ لم يفسرها المشايخ، ثم أردفتُ بعد قولي أقوال

(1) رواه أحمد في مسنده (2/ 71)، والنسائي (14/ 373)، والطبراني في «الأوسط» (6/ 110).

(2) رواه ابن حبان في صحيحه (1/ 276)، وعبد الرزاق في «المصنف» (3/ 358)، والطبراني في «الأوسط» (1/ 236).

مشايخي مما عبارتها ألطف، وإشارتها أظرف ببركاتهم، وتركتُ كثيرًا منها؛ ليكون كتابي أخفَّ محملاً، وأحسن تفصيلاً، واستخرتُ الله تعالى في ذلك، واستعنتُ به؛ ليكون موافقًا لمراده، ومواظبًا لسنة رسوله ﷺ وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسبي وحسب كل ضعيفٍ، وسمَّيتها: بـ«عرائس البيان في حقائق القرآن».

وما أصبتُ ذلك؛ فهو بتأييد الله ونصرته، وما أخطأت فيه؛ فهو لازم لي، وأنا أستغفر الله تعالى من ذلك، إنه غفورٌ حليمٌ، جوَّادٌ كريمٌ، رؤوفٌ رحيمٌ. انتهى.

فهؤلاء الكُمل مفتوحٌ عليهم بما وهبهم الله من علمه اللدني، وسره الكشفي، ومدده الحقيقي، ألحقنا الله بهم وجعلنا تبعًا في الدين والدنيا والآخرة معهم.

مِن أهمّ كتُب التفسير الصوفي

1 ـ تفسير القرآن العظيم (للشيخ سهل التستري) .

2 ـ حقائق التفسير (للشيخ أبي عبد الرحمن السلمي) .

3 ـ عرائس البيان في حقائق القرآن ، (للشيخ أبي محمد روزبهان) طبع بتحقيقنا.

4 ـ التأويلات النجمية ، (كتابنا هذا).

5 ـ التفسير المنسوب للشيخ سيدي ابن العربي، وهو للشيخ القاشاني.

6 ـ لطائف الإشارات، (القشيري) .

7 ـ رحمة من الرحمان في تفسير وإشارات القرآن ، (من كلام سيدي محيي الدين ابن عربي) للشيخ محمود الغراب .

8 ـ تبصير الرحمن في تفسير القرآن (سيدي علي بن أحمد بن إبراهيم المهايمي).

9 ـ الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، (نعمة الله بن محمود النخجواني).

10 ـ الفتوحات الإلهية، (سليمان بن عمر الجمل).

11 ـ حاشية الصاوي على الجلالين، (أحمد الصاوي) .

12 ـ مراح البيد في بيان معان قرآن مجيد، (محمد بن عمر النووي الجاوي) .

13 - روح البيان (لسيدي إسماعيل حقي البرسوي).

14 - مرآة الحقائق للشيخ حقي أيضًا (تحت قيد الطبع بتحقيقنا).

16 - روح المعاني، الذي قلّ نظيره (للعلامة المحقق الألوسي).

17 - التحرير الحاوي على تفسير البيضاوي (لسيدي عبد الغني النابلسي)، أملاه له الشيخ الأكبر-قدس سره- من برزخه.

18 - أنوار الفرقان في أسرار القرآن (الملا علي القاري) بتحقيقنا.

19- بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني (للشيخ نجم الدين داية، تلميذ الشيخ نجم الدين كبرى).

20- غرائب القرآن ورغائب الفرقان (للنيسابوري).

21- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (لسيدي أحمد بن عجيبة).

22- كشف الواردات الإلهية في التفسير على طريقة الصوفية لسيدي محمد البيطار (في 3 مجلدات بتحقيقنا).

علاء الدولة البيابانكي السمناني

أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد الملقب بعلاء الدولة البيابانكي- بالباء الموحدة والياء آخر الحروف وبعدها ألف وباء موحدة وبعدها ألف ونون وكاف وياء النسب- العلامة الزاهد ركن الدين السمناني.

مولده في ذي الحجة سنة تسع وخمسين وستمائة بـ«سمنان» بين «الري» و«الدامغان».

تفقه وشارك في الفضائل وبرع في العلم وداخل التتار واتصل بالقان أرغون بن أبغا ثم أناب وأقبل على شأنه ومرض زماناً بتبريز، فلما عوفي تعبد وتأله وعمل الخلوة وقدم ببغداد وصحب الشيخ عبد الرحمن وحج ثم رد إلى الوطن براً بأمه، وخرج عن بعض ماله وأسبابه وحج ثلاث مرات وتردد كثيراً إلى بغداد وسمع من عز الدين الفاروثي والرشيد ابن أبي القاسم ولبس منه عن السهروردي.

قال الشيخ شمس الدين: أخذ عنه شيخنا صدر الدين إبراهيم بن حمويه ونور الدين وطائفة، وروى عنه سراج الدين القزويني المحدث وإمام الدين علي بن المبارك البكري صاحبنا وحدث بـ «صحيح مسلم»، وبـ«شرح السنة» للبغوي، وبعدة كتب ألفها وهي كثيرة.

قال البكري: لعلها تبلغ ثلاثمائة مصنف منها:

كتاب الفلاح ثلاث مجلدات. و«مصابيح الجنان». و«مدارج المعارج»، «العروة لأهل الخلوة»، و«صفوة العروة» تناول فيه الآداب الشرعية وصيانة خلوات المتصوفة عن الشطحات والترهات المنسوبة إليهم، و«تحفة السالكين».

وكان إماماً ربانياً خاشعاً كثير التلاوة له وقع في النفوس.

قلت: ومن زلاته الغريبة الغير مقبولة عند أهل الله تعالى، أنه كان يحط على ختم الولاية المحمدية شمس الهداية الربانية، بحر العلوم والمعارف اللدنية، سيدنا الشيخ الأكبر والمسك الأذفر محيي الدين ابن عربي وعلى كتبه ويكفره.

وكان مليح الشكل حسن الخلق غزير المروءة كثير البر يحصل له من أملاكه في العام نحو من تسعين ألف درهم ينفقها في البر.

زاره الملك بو سعيد، وبنى خانقاه للصوفية ووقف عليها وقفاً، وكان أبوه وعمه من الوزراء.

توفي بعد أن أوتر ليلة الجمعة في رجب سنة ست وثلاثين وسبعمائة بقرية بيابانك ودفن بها.

علمًا بأنه مختلف في تاريخ وفاته.

وانظر: الوافي بالوفيات (3/ 3).

نجم الدين الكبرى(1)

الشيخ الإمام أحد الأعلام، الزاهد الكبير الشأن، قطب أهل الإسلام، برهان الطريقة، ناشر ألوية الحقيقة نجم الدين الكبرى،الملقب بصانع الأولياء، أحمد بن عمر بن محمد، أبو الجنَّاب - بفتح الجيم وشد النون- كما لقبه به سيدنا رسول الله في رؤيا منامية حينما سأله عن كنيته، الصوفي شيخ خوارزم.

كان إمامًا فقيهًا، محدثًا مفسِّرا، صوفيًا زاهدًا عابدًا مسلكًا، شاع نبأ علمه، واهتدى العلماء وأهل التصوف بضياء نجمه، طاف البلاد، وسمع بها الحديث من السلفي وغيره، ثم استوطن خوارزم، وصار شيخ تلك الناحية، عظيم الجاه، وافر الحرمة، ولا يخاف في الله لومة لائم.

وقال ابن نقطة: هو شافعي المذهب، إمام في السنة، أخذ الحديث عن جمع انتهى.

وذكر شيخنا الشعراوي أنه كان أميًا، وهو سبق قلم، فإنه من أئمة الشافعية، كما ذكره السبكي وغيره، ومن مشاهير المحدثين والمفسرين في عصره.

وقال ابن هلال: جلست عنده في الخلوة مرارًا، فوجدت من بركته شيئًا عظيمًا. وقال ابن الحاجب: طاف البلاد، وسمع الحديث على الحافظ السِّلفي وغيره.

وكان ملجأً للغرباء، عظيم الجاه، لا يخاف في الله لومة لائم.

قيل: فسَّر القرآن في اثنتي عشرة مجلدة.

ومن مشايخه في الطريق الشيخ عمّار، وعليه كان انتفاعه.

وأخذ عنه جمع كثيرون منهم الإمام الرازي، وكان شيخ الخلوة في زمانه على الإطلاق.

وكان يقول: المريد لا يخلو من دفين مذموم في باطنه، والشيخ لا يقدر على قلعة إلا بواسطة الخلوة.

وقال: ولما دخلت الخلوة كان في قلبي نوع رياء وسمعة وطلب لكلام أهل الطريق؛ لأعظ الناس في رءوس المنابر، وأعدَّ من جملتهم لأني لست منهم، فأعطيت شيئًا من الكشف بقدر ما علمت به الطريق الصحيح، لكن كان بناء الخلوة فاسدًا لفساد غرضي ونيتي، فأخرجوني من الخلوة في الحادي عشر، فبقيت خارجها بقدر ما زال عني وجعها، وكان لي كتب وثياب، فقلت في نفسي: إن دخلت الخلوة كما دخلت، أخرجت كما أخرجت، لكن أدخل مُدخل مصدّق، فصفيت النية، ووقفت الكتب، ووهبت الثياب، وتصدقت بالدراهم، وتجردت، ونبذت الدنيا وراء ظهري، وجعلت القيامة بين يدي، ووضعت الروح بالكف، وقلت: ها هي فخذها، فحصل

---

(1) انظر: طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي (8/ 25)، ومرآة الجنان لليافعي (4/ 40)، والشذرات لابن العماد (5/ 79)، والكواكب الدرية للمناوي (481) بتحقيقنا.

الفتح، وكان ما كان مما لست أذكره.

ووقع لـه أنـه أدخل مريد الخلوة، فوقعت يده فيها على ذكره، فتوقف عليه الفتح مدة ثم فتح عليه، فلما خرج أخبره الشيخ باطلاعه على ذلك، ثم نهاه عن العودة لمثله، وقال: أما علمت أن مـن في الخلوة في حضرة الله، ولذلك يعملون له طعامًا وعرسًا إذا خرج لأنه كان في الحضرة؟ فقـال له المريد: وكيف علمت؟ وإنما وقعت يدي على ذكري في الظلام؟ قال: لو علمت أنه يخفى علي منك شعرةٌ واحدة، ما أدخلتك أبدا.

وقال: كل شيخ لم يعط الإطلاع على حركات مريده وسكناته، ليس له أن يخلي أحدًا، لأنه محجوب.

وقـال: الـناس في عمى إلا من كشف الله عنه الغطاء، والغطاء ليس بخارج عنهم، بل هو مـنهم، وهـو ظلام وجودهم، أطبق جفنيك وانظر ماذا ترى، فإن لم تر شيئًا، فإنما هو لفرط قرب ظـلام وجودك منك، فإن أحببت أن تبصره قدّامك فانقص من وجودك شيئًا، وذلك بالمجاهدة، وهي بذل الجهد في دفع الأغيار، وهي الوجود والنفس والشيطان.

وقـال: الـسكينة تُجمـع مـن ملائكـة تنـزل في القلب، يجد من ورودهم راحة وطمأنينة، وتؤخذ منك حتى لم يبق لك اختيار.

وقال: علامة حضور المصطفى معك أن تجري الصلاة عليه على لسانك بغير اختيار.

وقـال: الخواطـر الحقانية هي العلم اللدني، أو حكم من أحكامه، فيرجع على الوجود ومعه العلـم وهـو الإلهام، ويصير كالخط المكتوب على اللوح إذا تكاثف عليه غبار ثم أزيل عنه، وظهر الخط.

وقال: غبت مرة، فأبصرت المصطفى ومعه علي، فبادرت إلى علي فأخذت يده فصافحته، وألهمت كأني سمعت في الخبر عن المصطفى أنه قال: من صافح عليًا دخل الجنة.

وقال عن الخرقاني: صعدت إلى العرش لأطوف به، فطفت به ألف طوفة، ورأيت حوله قومًا ساكنين مطمئنين، فعجبوا لسرعة طوافي- وما أعجبني طوافهم- فقلت: من أنتم؟ وما هذه البرودة في الطواف؟ قالوا: نحن ملائكة، الملائكة أنوار، وهذا طبعنا ما نقدر أن نتجاوزه، فمن أنت؟ وما هذه السرعة؟ قلت: أنا آدمي، وفيّ نورٌ ونار، وهذه السرعة من نتائج نار الشوق، وأما الملائكة فلا شهوة لها.

وقال: خاطر الشيطان قد يكون في العبادات، وأنواع الخيرات، وحب الكرامات، ولا يزال مع المرء حتى يخلص، فإذا خلص فارقه، ولم يطمع فيه.

وقال: خاطر الشيطان أصعب من خاطر النفس، فإن خاطره ذو فنون، وخاطر النفس واحد.

وقال: الشيطان بالغ في المكر والحيل، يأتي للإنسـان من كل طريق إلا من باب الإخلاص، فكن مخلصًا حتى في الإخلاص فلا ترى نفسـك مخلصًا.

وقال: ربما يوصل الحق تعالى عبده إلى محل القرب بواسطة الشيطان، فإنه يلقي في قلبه حب العبادة بمراءاة الخلق، فإذا عبد الله لأجل التفات الخلق إليه، والتفتوا إليه، ازداد رغبة، فإذا استحلى ذلك، غُمِس في بحر التعبد، والعبادة تأبى أن تكون إلا للحق، فيجد طعم لذة العبادة للحق بواسطة الأذكار من العلوم والأنوار والأسرار، فيعرض عنه الخلق، ويقبل على الحق.

وقال: كنت في خلوة مواظبًا للذكر، فجاء اللعين، وأكثر على الحيل ليشوش الخلوة والذكر، فظهر في يدي سيف الهمة مكتوب عليه من ذبابته إلى قبضته: الله الله، فكنت أتقى به الخواطر الشاغلة عن الله، فخطر بقلبي أن أصنف كتابًا في الخلوة أُسميه:

«حيل المَريد على المُريد»، فقلت: لا يكون إلا بإذن الشيخ، فشاورته بالغيب، فسمعت كلامه لصحة رابطة بيننا أن هذا خاطر الشيطان يصانعك في الخلوة ليشغلك عن الحق، فيخلط عليك، فانتبهت وانتهيت.

فإذا خطر بقلبك خاطر، شاور الشيخ، واعمل بقوله ما لم تصل إلى الذوق، فإذا وصلته، ذقت الخاطر فعرفته وميزته عن غيره.

وقال: معنى قولهم سقط التكليف عن الخواص، سقوط المشقة، فيعبدونه بلا مشقة وكلفة، فإن التكليف مأخوذ من الكلفة.

وقال: الصلاة مناجاة، لكن عندما كان المصلي موافقًا للشيطان، مخالفًا للرحمن، لا يجد لذة المناجاة، بل تشق عليه، فإن مناجاة المخالف صعبة شاقة، فإن وافق الرحمن عادى الشيطان، فالصلاة في حقه ألذ الأشياء لمناجاته للحبيب.

وقال: سبب المشاهدة، فتح البصيرة بكشف الغطاء عنها، وسبب اللذوق تبديل الوجود.

وقال: ما يجده العامي في منامه بحسب قوة وجوده الأدنى من نحو الطيران، ووصول البلاد القاصية، ولا يحجبه البعد، والمشي على الماء، ودخول النار فلا يحترق يجده السيار بين اليقظة والنوم لضعف وجوده الأدنى الخسيس، وقوة وجوده الشريف النفيس، ثم يقوي هذا الوجود، فيقع الفعل في عالم الشهادة، فيطير ويمشي فوق الماء، ويدخل النار فلا تضره، ويرى ويسمع ويأخذ ويأكل ويصعد وينزل ويتصرف بيد الهمة، والحاضر معه محجوب بالوجود، الكشف لا يحيق به.

وقال: المجاهد إذا ربط ثغر الصدق والإخلاص، ينـزل عليه من الواردات الثقال كالجبال حتى يندق إلى الأرض، فيسكن ولا يتحرك، ويبقى كذلك زمانًا، وهو حقيقة نور العقل الكبير.

وقال: الاستغراق في الذكر إنما يكون إذا احترقت الأجزاء الخبيثة، وبقيت الطيبة، وحينئذ يسمع ذكر الوجود، فيسمع من كل جزء ذكرًا كأنه يُنفخ في بوق، ويجد ضرب الدبادب والكؤوس، وللذكر سلطان إذا نزل نزل بدبادبه وكاساته وبوقه.

وقال: أول فتح البصيرة من العين، ثم من الوجه، ثم من الصدر، ثم من البدن كله، فيرى بكل البدن الكل.

وقال: قالوا الفقير إذا لم يكن يُحيي ويميت، فليس بفقير.

وقال: ظهور الآيات في عالم الشهادة والغيب، يورث الإيقان والعرفان.

وقال: الفناء فناءان:

- فناء عن الصفات في صفات الحق، وذلك الفناء في الفردانية.
- وفناء عن صفاته في ذاته، وذلك الفناء في الوحدانية.

وقال: العارف المطلق هو الله، وغيره متعارف، ولا مقام إلا وبعده أسنى منه.

وقال: السيار إنما يوصف بالولاية إذا أوتي «كن».

وكلامه كثير.

قال الشيخ السبكي عنه في «طبقات الشافعية» (8/ 12): كان إماما زاهدًا عالما طاف البلاد وسمع بها الحديث سمع بالإسكندرية أبا طاهر السلفي وبهمذان الحافظ أبا العلاء وبنيسابور أبا المعالي الفراوي.

قال ابن ناصر الدمشقي - في «توضيح المشتبه» (3/ 24): شافعي المذهب صاحب سنة معظم بين الناس لا تأخذه في الله لومة لائم أقام ثمان عشرة سنة يختم القرآن.

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (10/ 7): هو الزاهد القدوة الشيخ نجم الدين الكُبرى، كان النجم الكُبرى فقيهاً، شافعياً، زاهداً، عارفًا.

شيوخه رضي الله تعالى عنه:

قال - قدس الله سره -: أخذت علم الطريق عن روزبهان، والعشق عن ابن العصر، وعلم الخلوة عن عمار، والخرقة عن إسماعيل القصري.

1 - الشيخ العارف روزبهان البقلي الإمام العلامة المتكلم المفسر الفقيه الصوفي المحقق، شطَّاح فارس:

فهو أبو محمد روزبهان بن أبى نصر البقلي، الفسوي، الشيرازي المصري؛ المتوفى سنة 606 هجرية.

أصله من «شيراز» زار مصر، فقضى في القاهرة والإسكندرية زمنًا، حتى عرف باسم «روزبهان المصري» ثم عاد إلى شيراز، واستمر بالوعظ والتذكير خمسين سنة في الجامع العتيق

بمدينة شيراز، واشتهر في هذه السنوات الخمسين الأخيرة بلقب شطاح فارس.

ويعد روزبهان من أعظم صوفية الإسلام، واعتبره الفرس من مفاخر إقليم فارس، ومن مقدسات شيراز!

وقد ترك الشيخ روزبهان العديد من المؤلفات، منها:

- تفسير القرءان بعنوان «عرائس البيان في حقائق القرآن»، (بتحقيقنا)، وقد طبع بدار الكتب العلمية، وليت الناس تعكف حول هذا العلم الذي هو من خضم بحر القرآن مقتبس.
- منطق الأسرار في بيان الأنوار وهو «شرح الشطحيات» بالعربية والفارسية.
- شرح كتاب «الطواسين» للحلاج، بالعربية والفارسية.
- الأنوار في كشف الأسرار.
- سير الأرواح .
- المصباح لمكاشفة الأرواح.
- مشرب الأرواح.
- كتاب القدسية، مكنون الحديث. حقائق الأخبار.
- تقسيم الخواطر (بتحقيقنا).
- الموشح في المذاهب الأربعة وترجيح قول الشافعي بالدليل، وكتاب العقائد، وعبر العاشقين، ورباعيات من الشعر الفارسي.

وانظر: شد الإزار المعروف بهزار مزار للشيرازي (243، 247)، تاريخ التصوف لقاسم غانم (ص567)، مقدمة فوائح الجمال، يوسف زيدان (ص49).

2- الشيخ ابن أبي عصرون الشافعي:

قال السبكي في طبقات الشافعية (1/ 64): هو عبد الله بن محمد بن هبة الله بن المطهر بن علي بن أبي عصرون، قاضي القضاة شرف الدين، أبو سعد، التميمي، الموصلي، ثم الدمشقي.

مولده في ربيع الأول سنة اثنتين - وقيل: ثلاث - وتسعين وأربعمائة.

أخذ عن أبي علي الفارقي وأسعد الميهني، وأخذ الأصول عن ابن برهان، وقرأ بالسبع والعشر على البارع وأبي بكر المرزوقي ودعوان وسبط الخياط. وولي قضاء سنجار وحران، ثم ولي قضاء دمشق سنة اثنتين وسبعين، وأضر سنة سبع وسبعين - بتقديم السين فيهما، فولي السلطان صلاح الدين ولده القضاء ولم يعزله، وبنى له نور الدين المدارس في حلب وحماة وحمص وبعلبك، وبنى هو لنفسه مدرسة في حلب وأخرى في دمشق.

قال الشيخ موفق الدين بن قدامة الحنبلي: كان ابن أبي عصرون إمام أصحاب الشافعي في عصره.

وقال ابن الصلاح في طبقاته: كان من أفقه أهل عصره، وإليه المنتهى في الفتاوى والأحكام، وتفقه به خلق كثير انتهى.

وقال الإسنوي: كانت الفتوى بالديار المصرية بكلامه قبل وصول الرافعي الكبير إليها، ومن أكبر تلامذته في الفقه فخر الدين ابن عساكر.

توفي في دمشق في شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ودفن في مدرسته.

ومن تصانيفه: الانتصار في أربع مجلدات، صفوة المذهب في اختصار نهاية المطلب في سبعة مجلدات، فوائد المهذب في مجلدين، المرشد مجلدان، وهو أحكام مجردة بلفظ مختصر، التنبيه في الأحكام مجلد، الذريعة في معرفة الشريعة، التيسير في الخلاف أربعة أجزاء، مأخذ النظر، الإرشاد في نصرة المذهب لم يكمله. نقل عنه في الروضة في باب العارية فقط.

3- الشيخ عمار بن ياسر بن محمد بن عمار بن سحاب الشيباني البدليسي الأرميني.

لبس الخرقة من الشيخ أبي النجيب السهروردي.

وهو أقرب الشيوخ إلى قلب المصنف، فهو عمده ومنبع مشربه.

توفي - قدس سره- بعد سنة 590 هـ.

من كتبه: صوم القلب، بهجة الطائفة العارفة بالله.

4- الشيخ إسماعيل القصري: قال اليافعي في ترجمة الشيخ نجم الدين كبرى في «مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان» (2/ 153): ولبس خرقة الأصل من يد الشيخ العارف أبي الحسن إسماعيل القصري.

والقصري نسبة إلى «قصر رُوناش» كما يقول الحموي في معجم البلدان (3/ 404): بالراء المضمومة ثم الواو الساكنة والنون وآخره شين معجمة.

من كور الأهواز وهو الموضع المعروف بيدزبهل ومعناه قلعة القنطرة، ينسب إليه جماعة وافرة منهم أبو إبراهيم إسماعيل بن الحسن بن عبد الله القصري، أحد العباد المجتهدين قرىء عليه في سنة 557 هـ.

من تلامذته:

1- الباخرزي:

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء (23/ 363): الامام القدوة شيخ خراسان سيف الدين أبو المعالي سعيد بن المطهر ابن سعيد بن علي القائدي الباخرزي نزيل بخارى.

كان إمامًا، محدثًا، ورعًا زاهدًا، تقيًا، أثريًا، منقطع القرين، بعيد الصيت، له وقع في القلوب ومهابة في النفوس.

صحب الشيخ نجم الدين الخيوقي، وسمع من المؤيد الطوسي وغيره، وببغداد من

علي بن محمد الموصلي، وأبي الفتوح الحصري، وإسماعيل بن سعد الله ، ومشرف الخالصي، وبنيسابور من إبراهيم بن سالار الخوارزمي.

وقيل: إنه قدم بغداد وله إحدى عشرة سنة، فسمع من ابن الجوزي، فإنه ولد في تاسع شعبان سنة ست وثمانين.

وقد ذكره في «معجم الألقاب» ابن الفوطي، فقال فيه: هو المحدث الحافظ الزاهد الواعظ.

كان شيخًا بهيًا عارفًا، تقيًا فصيحًا، كلماته كالدر.

روى عن أبي الجناب، ولبس منه وشيخه لبس من إسماعيل القصري، عن محمد ابن ناكيل، عن داود بن محمد، عن أبي العباس بن إدريس، عن أبي القاسم بن رمضان، عن أبي يعقوب الطبري، عن أبي عبد الله بن عثمان، عن أبي يعقوب النهرجوري، عن أبي يعقوب السوسي، عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن قال: هو لبسها من يد كميل ابن زياد، عن علي ﷺ.

فقال ابن الفوطي: كان الشيخ متابعا للحديث في الاصول والفروع، لم ينظر في تقويم ولا طب، بل إذا وصف له دواء خالفهم متابعا للسنة، وكانت طريقته عارية عن التكلف، كان في علمه وفضله كالبحر الزاخر، وفي الحقيقة مفخر الأوائل والأواخر، له الجلالة والوجاهة، وانتشر صيته بين المسلمين والكفار، وبهمته اشتهر علم الأثر بما وراء النهر وتركستان، وكان علمهم الجدل والقول بالخلافيات وترك العمل، فأظهر أنوار الاخبار في تلك الديار.

ولد بباخرز، وهي ولاية بين نيسابور وهراة قصبتها مالين، وصحب نجم الكبرى، وبهاء الدين السلامهي، وتاج الدين محمود الأشنهي، وسعد الدين الصرام الهروي، ومختارا الهروي، وحج في صباه.

ثم دخل بغداد ثانيًا، وقرأ على السهروردي، وبخراسان على المؤيد الطوسي، وفضل الله بن محمد بن أحمد النوقاني، ثم تكلم بدهستان على الناس، وقرأ على الخطيب جلال الدين ابن الشيخ شيخ الاسلام برهان الدين المرغيناني كتاب «الهداية» في الفقه من تصانيف أبيه.

ثم قدم خوارزم، وقرأ ببخارى على المحبوبي، والكردري، وأبي رشيد الأصبهاني.

ولما خرب التتار بخارى وغيرها أمر نجم الدين الكبرى الخروج من خوارزم إلى خراسان منهم سعد الدين، وآخى بين الباخرزي وسعد الدين، وقال للباخرزي: اذهب إلى ما وراء النهر.

وفي تلك الأيام هرب خوارزم شاه، فقدم سيف الدين بخارى، وقد احترقت وما بها موضع ينزل به، فتكلم بها، وتجمع إليه الناس، فقرأ لهم البخاري على جمال الدين عبيدالله بن إبراهيم المحبوبي سنة اثنتين وعشرين وست مئة، ثم أقام، ووعظ وفسر، ولما غمرت بخارى أخذوا في حسده وتكلموا في اعتقاده، وكان يصلي صلاة التسبيح جماعة ويحضر السماع.

ولما جاء محمود يلواج بخارى ليضع القلان، وهو أن يعد الناس ويأخذ من الرأس دينارًا والعشر من التجارة، فدخل على سيف الدين فرأى وجهه يشرق كالقمر، وكان الشيخ جميلا بحيث إن نجم الدين الكبرى أمره لما أتاه أن ينتقب لئلا يفتتن به الناس، فأحب يلواج الشيخ ووضع بين يديه ألف دينار، فما التفت إليها.

ثم خرج ببخارى التارابي وحشد وجمع فالتقى المغل وأوهم أنه يستحضر الجن، ولم يكن مع جمعه سلاح فاغتروا بقوله، فقتلت المغل في ساعة سبعة آلاف منهم أولهم التارابي، فأوهم خواصه أنه قد طار، وما نجا إلا من تشفع بالباخرزي، لكن وسمتهم التتار بالكي على جباههم.

إلى أن قال: ووقع خوف الباخرزي في قلوب الكفار، فلم يخالفه أحد في شيء أراده، وكان بايقوا ظالما غاشما سفاكا، قتل أهل ترمذ حتى الدواب والطيور والتحق به كل مفسد، فشغبوه على الباخرزي، وقالوا: ما جاء إليك، إلا وهو يريد أن يصير خليفة.

فطلبه إلى سمرقند مقيدا، فقال: اني سأرى بعد هذا الذل عزا، فلما قرب مات بايقوا، فأطلقوا الشيخ وأسلم على يده جماعة.

وزار بخرتنك قبر البخاري وجدد قبته وعلق عليها الستور والقناديل، فسأله أهل سمرقند أن يقيم عندهم، فأقام أياما ورجع إلى بخارى، وأسلم على يده أمير وصار بوابا للشيخ، فسماه الشيخ مؤمنًا.

وعرف الشيخ بين التتار بالغ شيخ، يعني الشيخ الكبير، وبذلك كان يعرفه هولاكو، وقد بعث إليه بركة بن توشي بن جنكزخان من سقسين رسولا ليأخذ له العهد بالاسلام، وكان أخوه باتوا كافرا ظلوما قد استولى على بلاد سقسين وبلغار وصقلاب وقفجاق إلى الدربند، وكان لبركة أخ أصغر منه يقال له: بركة حر، وكان باتوا مع كفره يحب الشيخ، فلما عرف أن أخاه بركة خان قد صار مريدا للشيخ فرح فاستأذنه في زيارة الشيخ فأذن له، فسار من بلغار إلى جند ثم إلى أترار، ثم أتى بخارى، فجاء بعد العشاء في الثلوج فما استأذن إلى بكرة، فحكى لي من لا يشك في قوله أن بركة خان قام تلك الليلة على الباب حتى أصبح، وكان يصلي في أثناء ذلك، ثم دخل فقبل رجل الشيخ، وصلى تحية البقعة فاعجب الشيخ ذلك، وأسلم جماعة من أمرائه، وأخذ الشيخ عليهم العهد، وكتب له الأوراد والدعوات، وأمره بالرجوع، فلم تطب نفسه، فقال: إنك قصدتنا ومعك خلق كثير، وما يعجبني أن تأمرهم بالانصراف، لأني أشتهي أن تكون في سلطانك.

وكان عنده ستون زوجة فأمره باتخاذ أربع وفراق الباقيات ففعل، ورجع، وأظهر شعار الملة، وأسلم معه جماعة، وأخذوا في تعليم الفرض، وارتحل إليه الائمة، ثم كانت بينه وبين ابن عمه هولاكو حروب، ومات بركة خان في ربيع الآخر سنة خمس وستين، وكانت خيراته

متواصلة إلى أكثر العلماء.

2- مجد الدين البغدادي: هو الشيخ مجد الدين شرف بن مؤيد بن ابي الفتح البغدادي، الحنفي أبو سعيد.

ولد سنة 556 هـ واستشهد غريقًا بخوارزم سنة 610 هـ.

وكان سبب وفاته سببًا لانحدارات وهزائم خوارزمشاه على يد التتار، حيث دعا الشيخ نجم الدين الكبرى عليه بسبب تألمه لمقتل الشيخ مجد الدين.

وقد ذُكر أن هناك خطوبًا عظاما قد وقعت بين الفخر الرازي والمجد البغدادي، والله أعلم.

من آثاره: تحفة البررة في أجوبة المسائل العشرة، وزبدة العوالي وحلية الأمالي، ورسالة السلوك.

وانظر: روضات الجنات (8/ 57).

3- نجم الدين داية:

قال الصفدي في الوافي بالوفيات (5/ 496): شيخ نجم الدين الرازي عبد الله بن محمد شاهاور بن أنوشروان بن أبي النجيب الأسدي الرازي نجم الدين أبو بكر، شيخ الطريقة والحقيقة.

كان كبير الشأن من أصحاب الحال والمقامات، أكثر من الترحال إلى الحجاز ومصر والشام والعراق والروم وآذربيجان وأران وخراسان وخوارزم.

ولد سنة ثلاث وسبعين وتوفي سنة أربع وخمسين وستمائة.

وسمع عبد المعز الهروي ومنصور بن الفراوي وأحمد بن عمر الخيوقي والمؤيد الطوسي وابن السمعاني وعبد الوهاب بن سكينة وزينب الشعرية وعبد المحسن ابن الطوسي ومسمار بن العويس ومحمد بن أبي بكر الغزال وعبد الله بن إبراهيم بن عبد الملك الشحادي وجماعةً.

وروى عنه جماعةٌ منهم شرف الدين الدمياطي وقطب الدين القسطلاني والشيخ محمد بن محمد الكنجي.

من كتبه:

مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد، منارات السائرين، سلوك أرباب النعم، تحفة الحبيب، وحسرة الملوك، سراج القلوب، معيار الصدق في مصداق العشق، كشف الحقائق وشرح الدقائق.

4- السعد الحموي:

قال الصفدي في الوافي بالوفيات (2/ 125): هو محمد بن المؤيد بن عبد الله ابن علي بن محمد بن حمويه الشيخ سعد الدين الجويني الصوفي، كان صاحب رياضات وأحوال وله كلام في التصوف على طريق أهل الوحدة، أقام بقاسيون يتأله ويتعبد مدة ولما ضاق به الحال رجع إلى خراسان واجتمع به جماعة من التتار وأسلم على يده غير واحد منهم، وتوفي سنة خمسين وستمائة.

قلت: وهو مختلفٌ في تحديد تاريخ وفاته.

من كتبه: محبوب القلوب، سجنجل الأرواح، لطائف التوحيد في غرائب التفريد، رسالة المصباح.

من مصنفات الشيخ نجم الدين:

- الأصول العشرة ، وهي أيضًا: (بيان أقرب الطرق)، (رسالة في السلوك).
- التأويلات النجمية (كتابنا هذا).
- الرباعيات.
- فوائح الجمال وفواتح الجلال.
- سكنات الصالحين.
- طوالع التنوير.
- سر الحدس.

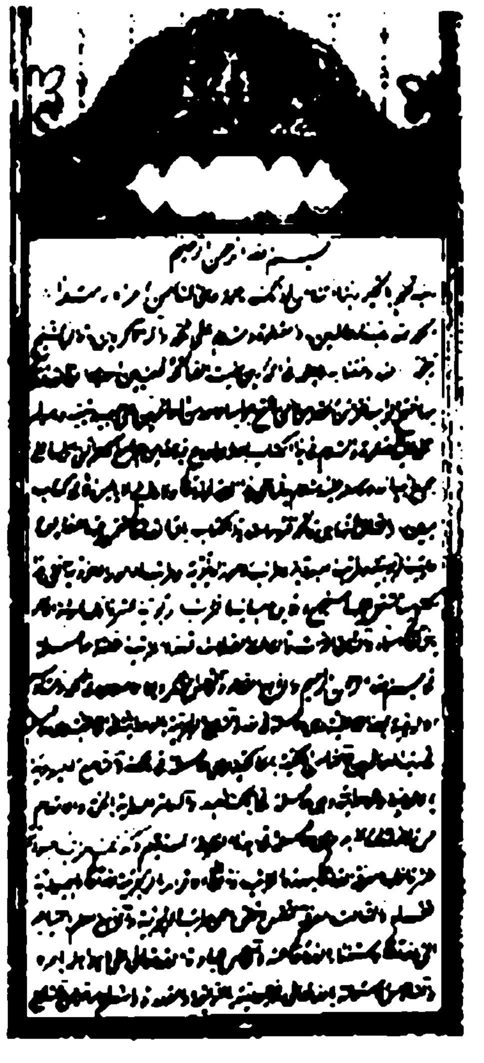
وفاته واستشهاده: قال ابن العماد في شذرات الذهب:

استشهد بسيف التتار لما نزلوا على خوارزم سنة ثمان عشرة وستمائة، خرج فيمن خرج ومعه جماعة من مريديه لقتالهم، فقاتلوا على باب خوارزم، فقُتلوا جميعًا، مقبلين غير مدبرين، ورفض دعوة الناس له بالخروج وقالوا: لو دعوت برفعها! فقال: هذا قضاء محكم لا ينفع فيه الدعاء؛ فقالوا له: أتخرج معنا؟ قال: ارحلوا أنتم، فإني سأقتل ها هنا. (جف القلم بما هو كائن).

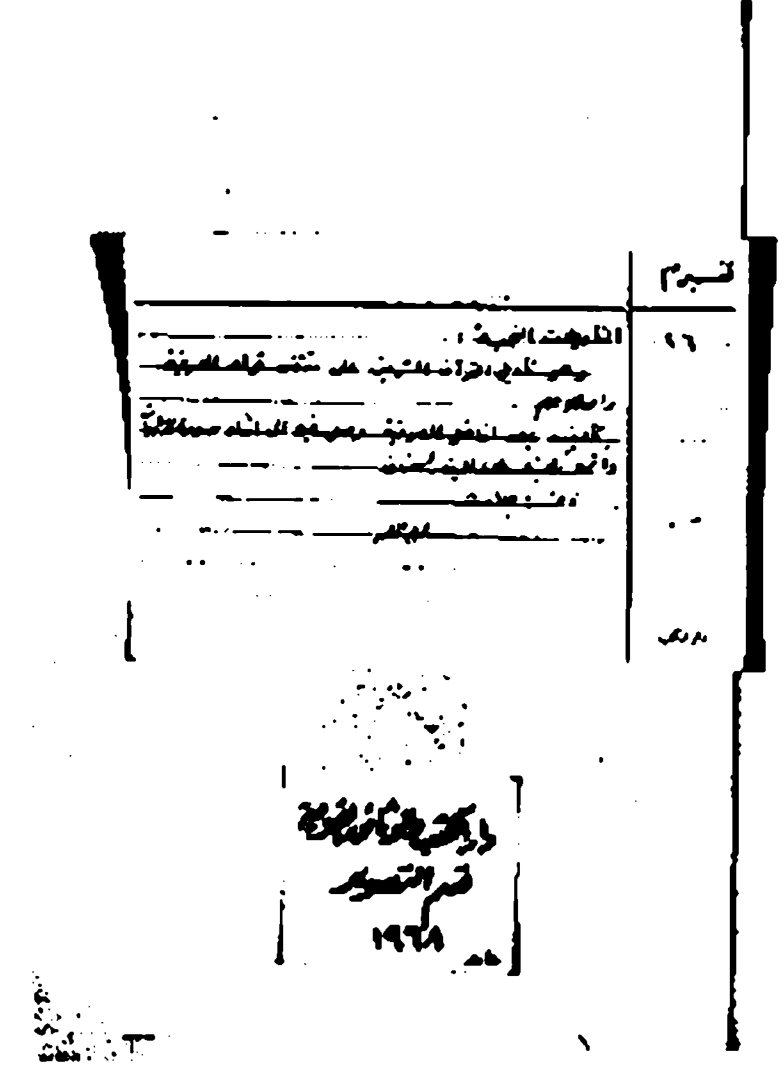
ولما دخل الكفار البلد نادى الشيخ وأصحابه الباقون: (الصلاة جامعة)، ثم قال: قوموا نقاتل في سبيل الله تعالى، ودخل بيته ولبس الخرقة، وحمل على العدو بالرمح وحتى الحجارة، ورموه بالنبل حتى أصابه سهم في صدره فنزعه ورمى له وفار الدم وهو يقول: إن أردت فاقتلني بالوصال أو بالفراق.

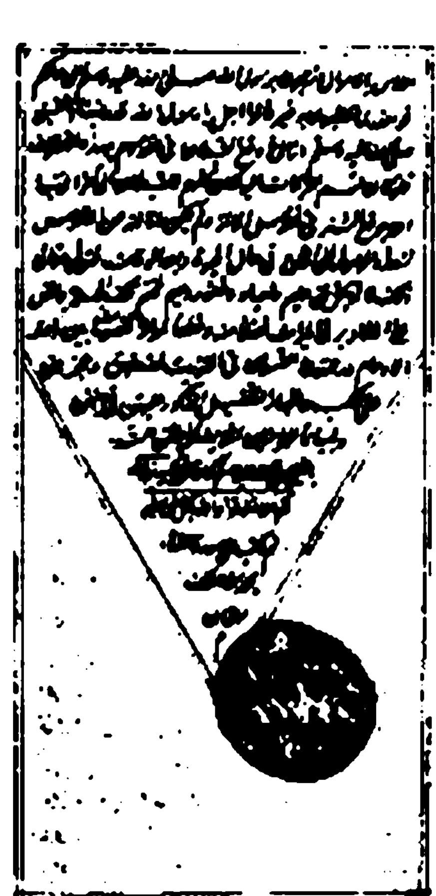
ثم مات سنة 618 هـ ودفن في رباطه رحمه الله تعالى. (شذرات الذهب 5/ 79).

نماذج من صور المخطوط

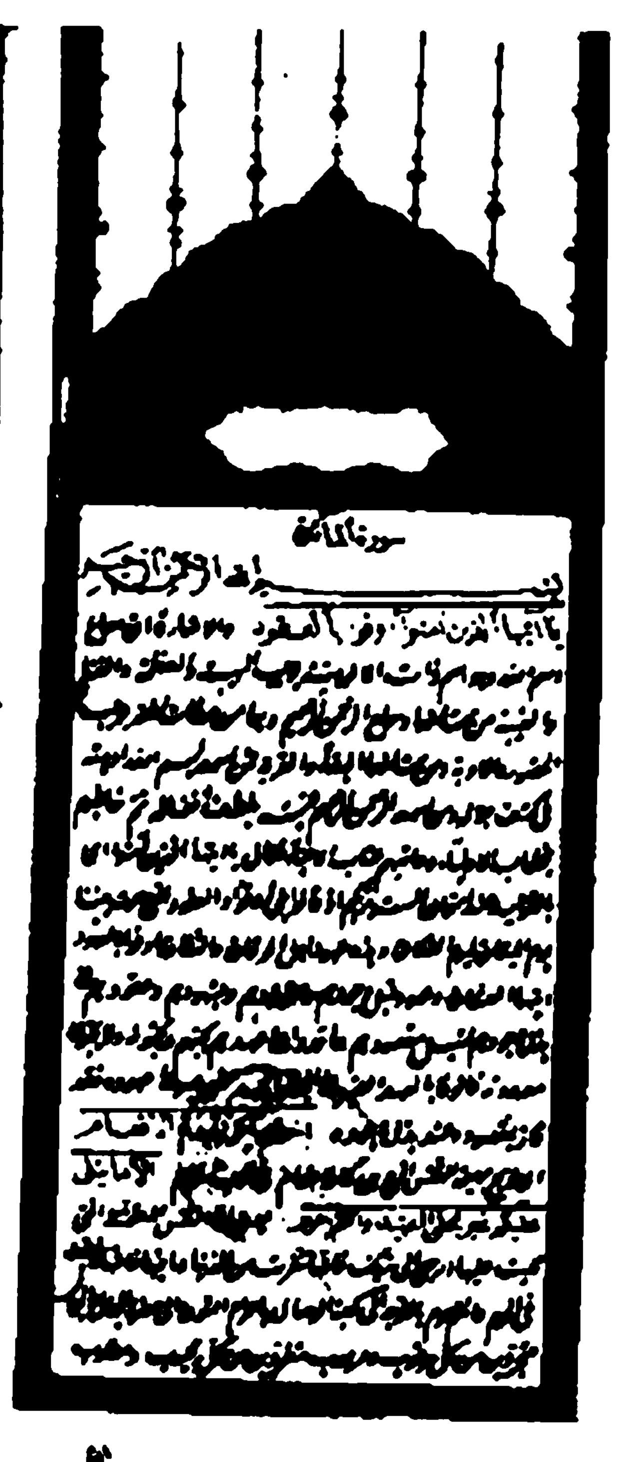


صورة الورقة الأولى من التأويلات النجمية





آخر سورة النساء من التأويلات النجمية



صورة ورقة من التأويلات النجمية وفيها أول سورة المائدة

صورة الورقة الأخيرة من عين الحياة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربِّ تمم بالخير، ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدًا، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الأكرمين.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾.

قال الشيخ ـ رحمه الله ونفعنا به وبعلمه في الدارين ـ: سُمِّيت الفاتحة لمعنيين:

أحدهما: أن الله تعالى بها فتح أبواب خزائن الحقائق التي ما فتح أبوابها لأحد من العالمين على حبيبه ونبيه ورسوله محمد ﷺ في هذا الكتاب بعد أن أودع فيه حقائق جوامع الكلام التي أنزلها على جميع أنبيائه ورسله ـ عليهم السلام ـ يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام :59].

والثاني: أنها هي فاتحة فتوحات هذا الكتاب بأن الله تعالى ضمَّن فيها: حقائق مراتب الربوبية ومراتب العبودية، ومراتب الأمور الدنيوية ومراتب الأمور الأخروية التي هذا الكتاب مشتمل عليها سنجمع دقائق مبانيها.

1ـ فمراتب الربوبية عشرة:

أولها: مرتبة الاسم؛ بأن له تعالى أسماء.

والثاني: الذات.

والثالث: الصفات.

فهذه المراتب الثلاثة حاصلة في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[1] [الفاتحة: 1].

---

(1) قال الشيخ روزبهان البقلي: ﴿بِسْمِ﴾: «الباء»: كشف البقاء لأهل الفناء، و«السين»: كشف سناء القدس لأهل الأنس، و«الميم»: كشف الملكوت لأهل النعوت، و«الباء»: بِرُّه للعموم، و«السين»: سرُّه للخصوص، و«الميم»: محبته لخصوص الخصوص، و«الباء»: بدء العبودية، و«السين»: سرُّ الربوبية، و«الميم»: منةٌ في أزليته على أهل الصفوة.

و«الباء» من بسم أي: ببهائي بقاء أرواح العارفين في بحار العظمة.

و«السين» من بسم أي: بسنائي سمت أسرار السابقين في هواء الهوية.

و«الميم» من بسم أي: بمجدي وردت المواجيد قلوب الواجدين من أنوار المشاهدة.

وروي عن النبي ﷺ: «إن الباء بهاؤه، والسين سناؤه، والميم مجده».

وقيل في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾: بالله ظهرت الأشياء، وبه فنيت، وبتجلّيه حَسُنت المحاسن، وباستتاره قُبحت المفاتح.

وحكي عن الجنيد أنه قال: إن أهل المعرفة نفوا عن قلوبهم كلّ شيءٍ سوى الله، فقال: لهم قولوا: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي: بي فتسمّوا، ودَعوا انتسابكم إلى آدم عليه السلام.

وقيل: إن ﴿بِسْمِ﴾ يبقى به كل الخلق، فلو افتتح كتابه باسمه؛ لذابت تحته حقيقة الخلائق، إلا مَنْ كان محفوظًا من نبيٍّ، أو وليٍّ.

وروى علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر بن محمد قال: «بسم»: «الباء» بقاؤه، و«السين» أسماؤه، و«الميم» مُلكه، فإيمان المؤمن ذكره ببقائه، وخدمة المريد ذكره بأسمائه، والعارف فناؤه عن المملكة بالمالك لها.

وأما «ٱللَّه»: فإنه اسم الجمع لا ينكشف إلا لأهل الجمع، وكل اسم يتعلق بصفة من صفاته إلا الله؛ فإنه يتعلق بذاته وجميع صفاته لأجل ذلك، فهو اسم الجمع، أخبر الحق عن نفسه باسمه الله، فما يعرفه إلا هو، ولا يسمعه إلا هو، ولا يتكلم به إلا هو؛ لأن الألف إشارة إلى الأنانية والوحدانية، ولا سبيل للخلق إلى معرفتها إلا الحق تعالى.

وفي اسمه «ٱللَّه» لامان: الأولى: إشارة إلى الجمال، والثانية: إشارة إلى الجلال، والصفتان لا يعرفها إلا صاحب الصفات، و«الهاء»: إشارة إلى هويته، وهويته لا يعرفها إلا هو، والخلق معزولون عن حقائقه، فيحتجبون بحروفه عن معرفته «بالألف»: تجلِّي الحق من أنانيته لقلوب الموحدين، فتوحدوا به، و«باللام الأولى»: تجلِّي الحق من أزليته لأرواح العارفين، فانفردوا بانفراده، و«باللام الثانية»: تجلِّي الحق من جمال مشاهدته لأسرار المحبين، فغابوا في بحار حبِّه، و«بالهاء»: تجلِّي الحق من هويته لفؤاد المقرَّبين، فتاهوا في بيداء التحيُّر من سطوات عظمته.

قال الشبليُّ: ما قال الله أحدٌ سوى الله، فإن كان من قاله بحظٍّ، وأنَّى تدرك الحقائق بالحظوظ.

وقال الشبليُّ: الله، فقيل له: لِمَ لا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: لا أُبقي به ضدًا.

وقيل في قوله: «ٱللَّهُ»: هو المانع الذي يمنع الوصول إليه، كما امتنع هذا الاسم عن الوصول إليه حقيقةً، كان الذات أشد امتناعًا، أعجزهم في إظهار اسمه لهم؛ ليعلموا بذلك عجزهم عن درك ذاته.

وقيل في قوله: ﴿ٱللَّهِ﴾: «الألف»: إشارةٌ إلى الوحدانية، و«اللام الأولى»: إشارةٌ إلى محو الإشارات، و«اللام الثاني»: إشارةٌ إلى محو المحو في كشف الهاء.

وقيل: الإشارة في «الألف» هي قيام الحق بنفسه، وانفصاله عن جميع خَلْقه، فلا اتصال له بشيءٍ من خَلقه؛ كامتناع «الألف» أن تتصل بشيءٍ من الحروف ابتداءً، بل تتصل الحروف بها على حدِّ الاحتياج إليها، واستغنائها عنهم.

وقيل: ليس من أسماء الله اسمٌ يبقى على إسقاط كل حرفٍ منه إلا الله، فإن الله إذا أسقطت منه «الألف» يكون «لله»، فإذا أسقطت أحد لاميه يكون «له»، فإذا أسقطت اللامين بقيت الهاء، وهو غاية الإشارة.

وقال بعضهم: «الباء»: باب خزانة الله، و«السين»: سين الرسالة، و«الميم»: مُلك الولاية.

وقال بعضهم: بالله سَلِمت قلوب أولياء الله من عذاب الله، وبشفقته تطرَّقت أسرار أصفياء الله إلى حضرته، وبرحمته تفرَّدت أفئدة خواص عباده معه.

وقال بعضهم: بالله تحيَّرت قلوب العارفين في علم ذات الله، وبشفقته توصلت علوم العالمين في صفات الله، وبرحمته أدركت عقول المؤمنين شواهد ما أشهدهم الله من بيان الله.

وقيل: بإلهيته تفرَّدت قلوب عباد الله، وبتعطُّفِه صَفت أرواح محبيه، وبرحمته ذُكرت نفوس عابديه.

وقيل: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ ترياق أُعطي للمؤمنين، يدفع الله به عنهم سمَّ الدنيا وضررها.

وقال جعفر الصادق: «بسم»: للعامة، و«الله»: لخاص الخاص.

وقال سهل: «الله»: هو اسم الله الأعظم الذي حوى الأسماء والأسامي كلها، وبين الألف واللام منه حرفٌ مكنّي غيبٌ من غيب إلى غيبه، وسرٌّ من سرٍّ إلى سرِّه، وحقيقةٌ من حقيقةٍ إلى حقيقته، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قوامًا لضرورة الإيمان.

وقيل: من قال بالحروف، فإنه لم يقل الله؛ لأنه خارجٌ عن الحروف والحسوس، والأوهام، والأفهام، ولكن رضي منّا بذلك؛ لأنه لا سبيل إلى توحيده من حيث لا حال ولا قال.

وحُكي أن أبا الحسن النوري بقي في منزله سبعة أيام لم يأكل، ولم يشرب، ولم ينم، ويقول في ولهٍ ودهشةٍ: الله الله، وهو قائمٌ يدور؛ فأخبر الجنيد، قال: انظروا محفوظًا عليه أوقاته، فقيل: إنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان له سبيلاً، ثم قال: قوموا حتى نزوره إما أن نستفيد منه، أو نفيده، فدخل عليه وهو في وَلَه، فقال: يا أبا الحسن، ما الذي ولهك؟ قال: أقول: الله، الله، زيدوا عليّ؛ فقال له الجنيد: انظر هل قولك الله الله، أم قوله: إن كان القائل الله الله، فلست القائل له، وإن كنت تقوله بنفسك، وأنت مع نفسك، فما معنى الوَلَه؟ قال: نعم المؤدب أكنت، وسكن من ولهه.

والرابع: الثناء.

والخامس: الشكر.

وهما حاصلان في ﴿الحَمْدُ﴾ [الفاتحة:1].

والسادس: الألوهية بمعنى الخالقية، وهي حاصلة في ﴿لله﴾ [الفاتحة:1].

والسابع: الربوبية بالوحدانية في الخالقية، وهي حاصلة في ﴿رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 1].

والثامن: الملكية بالمالكية، وهي حاصلة في ﴿مَالِكِ﴾ [الفاتحة: 1].

والتاسع: المعبودية بالألوهية والوحدانية، وهي حاصلة في ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: 1].

والعاشر: الهداية بالحق والإنعام من الأزل إلى الأبد، وهي حاصلة في ﴿اهْدِنَا

أما قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ رَحِم على أوليائه باسمه الرحمن، بتعريف نفسه لهم؛ حتى عرفوا به أسماءه، وصفاته، وجلاله، وجماله، وبه خرجت جميع الكرامات للأبدال والصدِّيقين، وبه تهيأت أسرار المقامات للأصفياء والمقرَّبين، وبه تجلَّت أنوار المعارف للأتقياء والعارفين؛ لأن اسم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ خبرٌ عن خلق الخلق، وكرمه على جميع الخلق، وفي اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ترويحُ أرواح الموحدين، ومزيد أفراح العارفين، وتربية أشباح العالمين، وفيه نزهة المحبين، وبهجة الشائقين، وفرحة العاشقين، وأمان المذنبين، ورجاء الخائفين. وقال بعضهم: اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ حلاوةُ المنّةِ، ومشاهدةُ القربةِ، ومحافظةُ الحرمةِ. وقال ابن عطاء: في اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عونه ونصرته وقوله ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾: موهبة الخاص لأهل الخاص، وهو مستندٌ لذوي العثرات، ومسرةٌ لأهل القربات.

و﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾: مطيّة السالكين، تسير بهم إلى معدن العناية، و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾: حبل الحق للمجذوبين تجذبهم به إلى حجال الوصلة. باسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أمّنهم من العقاب، وباسمه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ آتاهم من نفائس الثواب؛ الأول: مفتاح المكاشفة، والآخر: مرقاة المشاهدة. باسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾: فتحَ لهم الغيوب، وباسمه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾: غفرَ لهم الذنوب. وقال ابن عطاء: في اسمه ﴿ ٱلرَّحِيمِ﴾ مودةٌ ومحبةٌ. وعن جعفر بن محمد في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إنه قال: هو واقعٌ على المريدين والمرادين؛ فاسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾: للمرادين؛ لاستغراقهم في أنوار الحقائق، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: للمريدين؛ لبقائهم مع أنفسهم، واشتغالهم بالظاهر.

الصِّرَاطَ الْـمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:1].

2ـ وكذلك في مرتبة العبودية عشرة:

أولها: معرفة الله تعالى بهذه المراتب.

والثاني: الإقرار بالربوبية لله تعالى وبعبودية نفسه له.

والثالث: معرفة النفس وخلوها عن مراتب الربوبية.

والرابع: العلم باحتياجه إلى الله تعالى واستغناء الله تعالى عنه.

والخامس: عبادة الله تعالى على ما هو أهله بأمره.

والسادس: الاستعانة بالله تعالى في عبوديته بالتوفيق والقدرة والتعلم والإخلاص.

والسابع: الدعاء بالخضوع والخشوع والشوق والمحبة، فإنه خُلق لهذا كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:77] وقال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54].

والثامن: الطلب لوجدان الله تعالى وصفاته ونعمه، وهو المقصد الأعلى والمنية القصوى.

والتاسع: الاستهداء عنه ليُهتدَى به وينعم عليه بإرشاده طريق الهداية.

والعاشر: الاستدعاء منه بأن ينعم عليه، ويديم نعمته عليه، ولا يغضب فيرده إلى الضلالة والغواية.

وهذه المراتب كلها حاصلة في ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ إلى آخر السورة فافهم جدًّا.

3ـ ومراتب الأمور الدنيوية أربعة:

الملك والملك والتصرف فيهما بالملكية والمالكية، وفاتحة الكتاب مشتملة على هذه المراتب كلها كما أشرنا إلى طرف منها، وسنبينها في تفسيرها إن شاء الله تعالى، ولهذا المعنى أيضًا سُمِّيت أم الكتاب؛ لأن أم الكتاب في الحقيقة مصدر حقائق كل دين، وكتاب ومنشأ دقائق كل حكم وخطاب، كقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:39].

وأما الحكمة في أن الله تعالى جعل افتتاح كتابه بحرف الباء واختياره على سائر الحروف لاسيما على الألف بأنه أسقط الألف من الـ «اسم» وأثبت مكانه الباء، وقال: ﴿بِسْمِ﴾ فعشرة معانٍ:

أحدها: إن في الألف ترفعًا وتكبرًا وتطاولاً، وفي الباء انكسارًا وتواضعًا وتساقطًا، فالألف لما تكبرت وضعها الله تعالى والباء لما تواضعت رفعها الله تعالى كما ورد في الحديث: «من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر وضعه الله»(1) وقد ورد أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن يأتي الجبل ليسمعه كلامه، فتطاول كل جبل طمعًا أن يكون محلاً لموسى عليه السلام، وتصاغر طور سيناء في نفسه «متى أستحق أن أكون محلاً لقدم موسى عليه السلام في وقت المناجاة؟» فأوحى الله تعالى إلى موسى: «أن ائتِ ذلك الجبل المتواضع الذي ليس يرى لنفسه استحقاقًا» فكذلك حال الباء مع الألف.

وثانيها: إن الباء مخصوصة بالإلصاق، وتصل كل حرف بخلاف أكثر الحروف خصوصًا الألف؛ لأن الألف مخصوصة بالقطع وتكون منقطعة عن الحروف كلها، فلما كانت الباء واصلة للرحم في الحروف وصلها الله تعالى، ولما كانت الألف قاطعة الرحم عن الحروف قطع الله معها كما روى عبد الله بن عوف: سمعت رسول الله ﷺ يقول فيما يحكي عن ربه ـ جل ثناؤه ـ: «أنا الله وأنا الرحمن خلقت الرحم شققت لها اسمًا من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»(2) حديث صحيح.

وثالثها: إن الباء مكسورة أبدًا فلما كانت فيها كسرة وانكسار في الصورة والمعنى وجدت شرب العندية من الله تعالى واسمه دون الألف كما قال تعالى: «أنا عند المتكسرة قلوبهم من أجلي»(3).

---

(1) رواه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (3/ 160)، والقضاعي (1/ 219، رقم 334).

(2) رواه الترمذي (7/ 358)، وأحمد (4/ 192)، والبيهقي في «الكبرى» (7/ 26)، والطبراني في الكبير (3/ 23).

(3) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» (1/ 54)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (1/ 203).

ورابعها: إن في الباء وإن كانت في الظاهر تساقط وتكسر، ولكن في الحقيقة رفعة درجة وعلو همته وهي من صفات المصدقين، وفي الألف ضدها. أما رفعه درجتها فبأنها أعطيت نقطة وليست للألف هذه الدرجة، وأما علو الهمة فإنه لما عُرضت عليه النقطة ما قبلت إلا واحدًا بسكون حاله كحال موحدٍ لا يقبل إلا واحدًا، وعابدٍ لا يعبدُ إلا معبودًا واحدًا، وقاصدٍ لا يقصدُ إلا مقصودًا واحدًا ومحبٌّ لا يحبُّ إلا محبوبًا واحدًا.

وخامسها: إن للباء صدقًا في طلب قُربة الحق ونيل المقصود الحقيقي لا يوجد في غيرها من الحروف وذلك أنها لما وجدت درجة حصول النقطة وبلغت هذه المرتبة وضعتها تحت قدمها؛ لصدقها في طلب المقصود الحقيقي والمطلوب الأصلي، وما تفاخرت بها بل أعرضت عنها حتى بلغت مقصدها الأقصى ومقصودها الأعلى، فالباء مخصوصة من سائر الحروف بوضع النقطة تحتها ولا تناقضها الجيم وإن كانت تحتها نقطة واحدة؛ لأن نقطة الجيم في وضع الحروف ليست تحتها بل هي وسطها وكذلك الباء، وإنما موضع النقطة تحتها عند اتصالها بحرف آخر لئلا تشبها بالخاء والثاء بخلاف الباء فإن نقطتها موضوعة تحتها وإن كانت مفردة غير متصلة بحرف آخر.

وسادسها: إن الألف حرف العلة وهو معلول لا يتحمل الحركة، والباء حرف صحيح غير معلول يتحمل الحركة وحالها كما أن الله عرض الأمانة على أهل السماوات والأرض من الملائكة وغيرهم ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:72] فأمر الملائكة بالسجود له فأبى إبليس واستكبر فلعنه الله وأسقطه عن قربته وطرده عن جواره وحضرته، واصطفى آدم من بريته واجتباه لقربته وزاد في علو درجته وهداه إلى محبته ومعرفته.

وسابعها: إن الباء حرف تام متبوع في المعنى وإن كان ناقصًا منكسرًا تابعًا في الصورة، والألف حرف ناقص تابع في المعنى وإن كان تامًا متبوعًا في الصورة ألا ترى أنك إذا نظرت إلى صورة وضع الحروف وجدت الألف مقدمًا على الباء متبوعًا له، وإذا قلت الباء وجدت الألف تابعًا وإذا قلت الألف لم تجد للباء تبعية فالابتداء بالمتبوع التام في

المعنى والناقص المنكسر التابع في الصورة أولى من الابتداء بمن هو على مثل هذا.

وثامنها: إن الباء حرف عامل يعمل ويتصرف في غيره، فظهر لها من هذا الوجه قدر وقدرة فصلحت للابتداء، والألف ليس بعامل ولا متصرف في غيره فليس له هذا القدر والقدرة، فما صلح للابتداء والاقتداء.

وتاسعها: إن الباء حرف في صفاته مكمل لغيره، فكماله في صفاء نفسه بأنه للإلصاق والاستعانة والإضافة، وفيه تواضع إذا لم تقبل من الحركات إلا الكسرة، وله علو وقدر في تحميل الغير بأن يخفض الاسم التابع له ويجعله مكسور الصفات نفسه بحيث كل اسم يجيء خلف الاسم التابع له يكون مكسورًا بالإضافة، والذي يجيء بعده يكون مكسور بالصفة إلى غير النهاية كما دخل على الاسم، وجعل ميم بسم مكسورة، وجعل الهاء من الله مكسورة بالإضافة، والنون من الرحمن مكسورة بالصفة، والميم من الرحيم أيضًا مكسورة بالصفة لو شئت هلم جرًّا، فالكامل المكتمل أولى بالإمامة والتقدم من الألف الذي هو ناقص معلوم في نفسه منقص معلل لغيره، فإنه لو دخل في الفعل الماضي يجعله مهموز الفاء معتل العين ناقص اللام.

وعاشرها: إن الباء حرف شفوي تفتح الشفة به ما لم تفتح بغيره من الحروف؛ لأن بالميم وإن كان شفويًا لا تفتح الشفة به كما تفتح بالباء حسًّا، وكان أول انفتاح فم الذرة للإنسانية في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] بالباء في جواب ﴿بَلَى﴾ فلما كان الباء أول حرف نطق به الإنسان وفتح به فمه، وكان مخصوصًا بهذه المعاني اقتضت الحكمة الإلهية اختيارها من سائر الحروف، فاختيارها ورفع قدرها وإعلاء شأنها وأظهر برهانها وأعز سلطانها وجعلها مفتتح كتابه ومبتدأ كلامه وخطابه، وأعطاها رفعة الألف وقامته وتقدمه على الحروف وإمامته فحذف الألف في﴿بِسْمِ اللهِ﴾ وطوّل باؤه لإظهار تعظيمها وتفخيمها؛ إذ منها مرتبة الألف وأثبتها مكانه وقرنها باسم ذاته وصفاته، وجعلها معدن إشاراته ومنبع كراماته مع بريته.

كما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: الباء بره بأوليائه، والسين سره مع

أصفيائه، والميم منته على أهل ولائه، وأخبرنا المؤيد بن محمد الطوسي عن أبي سعيد الخدري ﷺ: قال رسول الله ﷺ: «إن عيسى ابن مريم ﷺ أرسلته أمه إلى الكتاب يتعلم فقال له المعلم: قل: ﴿بِسْمِ اللهِ﴾، فقال عيسى: وما ﴿بِسْمِ اللهِ﴾؟ فقال: ما أدري! فقال: الباء بهاء الله، والسين سناؤه، والميم منته»(1).

وأخبرنا الثعلبي ثنا أبو القاسم بن حسين بن محمد يقول: سمعت أبا بكر محمد بن عمر الوراق يقول في ﴿بِسْمِ اللهِ﴾: إنها روضة من رياض الجنة لكل حرف منها تفسير على حدة:

* الباء على ستة أوجه:

«بارئ» خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284].

«بصير»، «باسط» رزق خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: 27].

«باعث» الخلق بعد الموت للثواب والعقاب، من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج:7].

«بار» بالمؤمنين من العرش إلى الثرى بيانه: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور:28].

* والسين على خمسة أوجه:

«سميع» لأصوات خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى﴾ [الزخرف:80].

«سيد» قد انتهى سؤدده من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: 2].

«سريع» الحساب مع خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:202].

---

(1) ذكره السيوطي في «اللآلي المصنوعة» (1/ 158).

«سلام» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿السَّلامُ الْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: 23].

«ستار» ذنوب عباده من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: 3].

* والميم على اثني عشر وجهًا:

«ملك» الحق من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: 23].

«مالك» خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: 26].

«منان» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ [الحجرات: 17].

«مجيد» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: 15].

«مؤمن» أمَّن خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: 4].

«مهيمن» اطلع على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ﴾ [الحشر: 23].

«مقتدر» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ [الكهف: 45].

«مقيت» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتاً﴾ [النساء: 85].

«مكرم» أوليائه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70].

«منعم» على خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20].

«مِفْضَلٌ» عما خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 243].

«مصور» خلقه من العرش إلى الثرى، بيانه: ﴿الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: 24].

قال الشيخ المحقق مصنف الكتاب رحمه الله تعالى: الباء بلاؤه لأنبيائه وأحبائه، والسين سلامه لأوليائه وأصفيائه، والميم معروفه مع أهل ولائه في ابتلائه ومعرفة مبتلاه بالابتلاء، وإنه لأوليائه وأصفيائه ومنته على أهل سلامته بآلائه ونعمائه وسلامة القلب وصفائه.

قال رحمه الله تعالى: قيل: ما المناسبة في حمل هذه الحروف على هذه المعاني؟

قلنا: إن مناسبة حمل الباء على البلاء في ابتداء كلامه وابتداء خطابه أن الإنسان في أصل الجبلة وبدء الخلقة خلق مجبولاً على الابتلاء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:2] إنما بنى أمر خلقته على الابتلاء؛ لأنه خلق للمحبة والولاء، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، والمحبة مظنة الابتلاء كما أخبر النبي ﷺ: «إذا أحب الله عبدًا ابتلاه وإذا أحبه حبًا شديدًا اقتناه فإن صبر ورضي اجتباه، قيل: يا رسول الله وما اقتناه؟ قال: لا يبقي له مالاً وولدًا»(1).

وإن مناسبة حمل السين على السلامة في المرتبة الثانية من افتتاح الكتاب، فلمعنيين:

أحدهما: أن السلامة مرتبة لأهل البلاء؛ لأن البلاء على نوعين: بلاء المحبة وبلاء النعمة، فبلاء المحبة على نوعين: بلاء المحبة وبلاء المحنة، وبلاء النعمة على نوعين: بلاء الرحمة وبلاء النقمة، فأما بلاء المحبة فمخصوص بالأنبياء والأولياء كما قال رسول الله ﷺ: «إن البلاء موكل بالأنبياء والأولياء ثم بالأمثل فالأمثل»(2)، فمنهم من يختص ببلاء المحنة كما كان حال أيوب عليه السلام، ومنهم من يختص بلاء النعمة كما كان حال سليمان عليه السلام واعلم أن الطريق إلى الله تعالى على جادة المحنة أقرب من جادة المنحة؛ لأن غبار بلاء المحنة بناء خُلّص الأنبياء والأحياء أبرز، فَنزه النبوة والمحنة عن تدنس غش معدن الإنسانية، وبموت الحسية الحيوانية.

كما جاء: البلاء للولاء كاللهب للذهب، فأهل المحنة مجذوبون بجذبة البلاء

(1) رواه الطبراني كما في مجمع الزوائد (2/ 291)، والديلمي (1/ 250).

(2) ذكره السخاوي في «المقاصد الحسنة» (1/ 23)، والعراقي في «أحاديث الإحياء» (8/ 100).

واصلون إلى المبلي غير منقطعين في رتبة البلاء بالغون إلى كعبة وصال المحبوب، ألا ترى أن أيوب عليه السلام كيف وصل بجذبة ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:83]، إلى مشاهدة كمال ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83]، وذلك لأنه تمسك بيد الصبر على جذبة الضر فمسه الضر إلى الضار، فأنسته لذة مشاهدة الضار عن شهود ألم الضر، فأرى أن الضر كان جذبة فوصله إلى الضار فعرفها أنها رحمة في صورة بلاء المحنة رحمه بها محبوبه وخلصه من حبس وجوده، فقال: ﴿مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ [الأنبياء:83]، أي: أفنيتني عني بضاريتك ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء:83]، الواو فيه واو الحال أي: في هذا الحال أرحم علي من جميع الراحمين؛ لأن رحمة الرحماء على المرحومين بالنعمة والمنحة في الظاهر لدفع الفقر والمرض وذلك أيضًا بلاء؛ بلاء النعمة لبعضهم رحمة وهم أهل الوفاء، ولبعضهم نقمة وهم أهل الجفاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:7].

فأهل الوفاء: أوفوا بما عهدوا الله على ترك الشهوات النفسانية والزينة الدنيوية حتى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111].

وأهل الجفاء: نقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وافسدوا استعدادهم بالركون إلى زينة الدنيا، واتباعهم الهوى أولئك هم الخاسرون؛ فصارت عليهم النعمة في الظاهر نقمة في الحقيقة، فالنعمة توجب الإعراض، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ﴾ [الإسراء:83].

ومس الضر يوجب الإقبال إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت:51] فأنت رحمة علي بدفع النعمة والصحة على أنها مظنة الإعراض، وأفنيتني بك عني فلما جاوز الضر حده آل إلى ضده، فما أبقي الضر مني شيئًا، وما بقي الضر كالنار إذ لم تبق من الحطب شيئًا لا تبقى النار، فإذا لم يبق الضر ما بقي إلا الرحمة، فبنظر الرحمة نظرت إليك فرأيتك رحمة ارحم الراحمين، فإذا تحققت هذا فاعلم أن المرتبة الثانية من بلاء المحنة لأهل السلامة كما كان حال أيوب وإبراهيم ويونس وغيرهم من

الأنبياء ـ عليهم السلام ـ في المرتبة الثانية السلامة.

وأما المعنى الثاني: في حمل السين على السلامة في المرتبة الثانية فهو أنا ذكرنا أن الباء في افتتاح الكتاب إشارة إلى البلاء لأهل الولاء، وقررنا أن الإنسان لا يخلو من البلاء بحال، وأثبتنا أن البلاء على نوعين بلاء المحبة وبلاء النعمة، فبلاء النعمة ما يكون مع سلامة الدين والدنيا لأهلها، فالسين بعد باء البلاء إشارة إلى أهل الصفاء كما ذكر. فإن قيل: ما الفرق بين بلاء المحنة وبلاء النعمة التي هي الرحمة وكلاهما السلامة في الدنيا والآخرة؟ قلنا: الفرق بينهما من وجهين:

أحدهما: أن بلاء المنحة وإن كانت السلامة ولكن يخلو بها صاحبها من المحنة.

إمّا في ابتداء أمره: كما كان حال إسماعيل ويوسف ـ عليهما السلام ـ ابتلاهما الله تعالى بالمحنة في حال عبادتهما فخلصهما منها بعد ذلك وأعطاهما النبوة والملك كما حكى الله تعالى عن يوسف ﷺ: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ [يوسف:11].

أمّا في أثناء أحواله: كما كان لإبراهيم ﷺ ابتلاه الله تعالى بذبح ولده ورميه في المنجنيق إلى نار نمرود حتى خلصه الله من ذبح الولد بعد التسليم عند الامتحان كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[الصافات:13]، وكقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات:17]، وخلصه عن النار بقوله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69].

وأما في آخر عهده: كما كان حال زكريا ويحيى وجرجيس ـ عليهم السلام ـ كانت فتنتهم في آخر عمرهم، ولهذا كان بلاء المحنة وبلاء المنحة مخصوصين بالأنبياء والأحباء؛ لأنهما فرع بلاء المحبة وهم مخصوصون بالمحبة وأهل المحبة لا ينفكون عن المحنة والمنحة، ولا يخلو أهل المنحة في بعض الأحوال من المحنة عن المنحة وإن كان الغالب على أحوالهم المحنة أو المنحة بخلاف أهل بلاء النعمة، فإنه يمكن أهل بلاء الرحمة منهم أن يستديم نعمته في سلامة الدين والدنيا، ولهذا أثبتناهم في المرتبة الثانية بإشارة السين السلامة لهم وهم الأولياء والأصفياء مع أنه يمكن أن يصيب بعضهم المصائب والمحن نادرًا.

الفرق الثاني: أن سلامة أهل بلاء المنحة غير سلامة بلاء أهل بلاء النعمة، وإن كانت سلامة بلاء النعمة داخلة في سلامة بلاء المنحة وهما شريكان في اسم السلامة لا في المعنى؛ لأن سلامة بلاء النعمة راجعة إلى البدن والمال والأولاد والأقرباء والأحباء في الدنيا، والآخرة راجعة إلى عبور الصراط والنجاة من النار والدخول في دار السلامة كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر:46].

وسلامة أهل بلاء المنحة وهم أهل المحبة من الأنبياء والأولياء في العبور من النعمة إلى المنعم ومن البلاء إلى المبلي ومن دار السلام كما قال تعالى في شرح عبورهم عن الجنة إلى مليك الجنة: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:54-55] أي: في عبورهم في جنات ونهر إلى مقعد صدق عند مليك مقتدر، والإشارة في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] لهذه السلامة مودع في ترك سلامة أهل بلاء النعمة، وإنما قوله تعالى للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69] كان بعد أن ألقي إبراهيم في النار لتخليص إبريز الخلة عن دنس التفات لغير الخليل، وإن كان إبراهيم عليه السلام في بدء مقام الخلة نظر إلى غير خليله بنظر العداوة، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء :77]، وأعرض عن الأغيار وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 79] وسعى على قدم العبودية إلى حضرة الربوبية: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99].

واعلم أن الطريق إليه بغير هدايته منسد، فأحال بعد إقامته شروط العبودية هداية الربوبية عليه، قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ ليهديه الله إليه بقدم الوصال كما هداه بنظر التوحيد متى رأى القمر بازغًا قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76]، إلى أن قال: ﴿لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76]، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ لأن الهداية بالنظر والتوحيد هداية أهل البداية، والبداية بالقدم والوصول إلى الوحدة هداية أهل النهاية، وبين النظر والقدم مسالك ومهالك كثيرة وقد انقطع فيها خلق عظيم من العلماء المتقين، وأعزة السالكين وهلك فيها

جمهور الحكماء المتفلسفين اللهم إلا عبادك منهم المخلصين المجذوبين بجذبات المحبة من الأنبياء والمرسلين وأوليائك المحفوظين على صراط المستقيم والدين القويم كما خلصت بفضلك ورحمتك خليلك عليه السلام حين ابتليته بالإلقاء بالنار ليتخلص بالكلية من آفة التفاته كما تخلص من آفة الالتفات إلى المال والولد فلما ألقي في النار أدركته العناية الأزلية، وخلصت إبريز خلته عن آفة الالتفات إلى غير خليله من نفسه ومن الوسائط كلها حتى جبريل حين تلقاه في الهواء ليمتحن إبريز خلته: «بمحك هل لك من حاجة»، فيرى هل هو صاف خالص أم فيه بقية روحانية بعد بذل الجسم والروح تتعلق بالمناسبة الروحانية بجبريل عليه السلام فاشتعلت نار الخلة بكبريت الغيرة وأحرقت بقيته الغيرية، فاشتعلت منها شعلة: «أما إليك فلا» فرجع جبريل عليه السلام بخفي حنين، فعبر عن مقاطع الوسائط بدلالية نور الخلة في خفاء العناية وصل الخليل إلى الجليل بالسلامة، فالنار كانت واسطة تخليصه وتمحيصه بترك سلامة أهل بلاء النعمة لنيل سلامة أهل بلاء المنحة وهي الوصول إلى المليك بالسلام.

وكذلك الفرق بين بلاء أهل المنحة وبين بلاء أهل النعمة أن بلاء المحنة يكون الامتحان لأحباء في دار الدنيا كما كان محنة أيوب عليه السلام فلا يدفع أنها تنقضي في دار الدنيا صورة ومعنى، وإما تنقضي في الدنيا بالمعنى وبالموت صورة. بخلاف بلاء النعمة فإنه إما يدفع في الدنيا والآخرة صورة ومعنى وإما أن يكون في الدنيا بالمعنى لا بالصورة بأن يكون في التنعم ويكون في الآخرة بالصورة والمعنى.

وأما مناسبة حمل الميم في المرتبة الثالثة من حروف بسم على معروفه مع أهل بلائه وولائه في أثناء ابتلائه، وعلى منته على أهل سلامة في الابتلاء بآلائه ونعمائه فظاهر، فإنه لو لم يكن معروفه ومع أهل بلائه بنعمة الصبر لزال قدمهم عن جادة العبودية ورؤية رحمة الربوبية في عين البلاء وانقطع نظريهم بحجاب البلاء عن الجمع كما كان في حق الأكثرين من المخذولين.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:16]

فرؤية الإهانة في البلاء من الخذلان، والصبر ليس من شأن الإنسان لأن الإنسان خلق من عجل، والصبر من الله تعالى كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ [النحل:127] فالبلاء لأهل الولاء المنحة نعمة الصبر كقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة:155]، إلى قوله: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155]، أي: بشر بأن هذا البلاء ليس للإهانة كما كان في حق أهل الخذلان بل للإعانة على نيل درجة الصبر ليستحقوا به الصلاة والرحمة والهداية من الله تعالى، وإن أيوب عليه السلام وجد مرتبة الصابرين ونعم العبد بمعروف الصبر من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:44]، وكذلك لو لم تكن منته على أهل السلامة في بلاء النعمة المنحة الشكر ورؤية النعم من المنعم لزالت قدمهم عن الجادة كما كان حال قارون وفرعون؛ انقطع نظريهم لحجاب البلاء في النعمة عن المنعم قال قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:78].

وقال فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: 51]، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات:24]، وهذه الآفة مذكورة في جبلة كل إنسان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6 – 7]، وإنما تخلص من هذه الورطة من تخلص بمنته عليه في عطية نعمة الصبر والشكر، فبقوة الصبر لا ينفق نعمة الله في معصية، وبقوة الشكر ينفقها في سبيل الله تعالى ويستعين بها على طاعته ليصفو ويسلم قلبه عن كدورات الطغيان المنتهى عن الاستغناء، ويتنور بنور الشكر والصبر، فيرى ببصر بصيرته بذلك النور نعمة الشكر من الشكور ونعمة الصبر من الصبور وهو الله تعالى، فبقدر الصبر والشكر يصل السالك إلى الصبور والشكور كما قيل: خطوتان وقد وصلت، وإن سليمان عليه السلام نال مرتبة العبدية بامتنان نعمة الشكر ودعوة ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ [ص: 35] كانت لاستكمال نعمة الشكر، وإنما أيوب وسليمان – عليهما السلام – اشتركا في نيل مقام نعم العبد لأن كل واحد منهما كان مخصوصًا بالاتصاف بصفة من

صفات الله وهي الصبور والشكور، فلمَّا اشتركا في الاتصاف بصفات الله تعالى اشتركا في مقام نعم العبدية، والله أعلم.

ثم اعلم أن في ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أربع مراتب: الاسم والذات وصفة الجلال وصفة الجمال، وهذه هي مراتب الموجودات كلها فإنها أربعة أقسام: الألوهية والروحانية والجسمانيات والحيوانيات، وهي كل ذي روح، ففي الباء في أول هذه المراتب الأربع إشارة إلى أن وجود هذه العوالم لي وليس لغيري وجود حقيقي إلا بالاسم. فللعالم، أعني ما سوى الله تعالى، بالاسم والمجاز وجود لا بالمعنى والحقيقة، وإلى هذا إشارة بعضهم بقوله: «ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله فيه»، وأوضح من هذا قول بعضهم: «ما نظرت في شيء إلا ورأيت الله قبله».

وصرَّح النبي ﷺ بقوله: «لا تسبوا الدهر فإن الدهر هو الله»[1] حديث متفق على صحته، فتحقيق ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أن وجودي بذاتي وهو الله وصفاتي كلها - التي هي إمَّا من قبيل الجلال أو من قبيل الجمال - ، فبذاتي قائمة وما سواي وهو العالم اسم موجود بإيجادي وقائم بقيوميتي ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83]. وفيه أخرى وهي: أن الخلائق محجوبون عن الله تعالى بحجاب أسماء أنفسهم وحجاب أسماء ما سواهم من العالم، وقد تصوروا لكل اسم مسمى فوقعوا في تيه الشرك والتفرقة، وتاهوا في بيداء الضلالة وزلت قدمهم عن الصراط المستقيم وجادة التوحيد والوحدة والوحدانية، فلمَّا عبروا بقدم الصدق في المتابعة عن حجب الأسماء وقطعوا مفاوزها بتعلم ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31] الذي كان آدم مخصوصًا به، وعلموا أن لا طائل تحتها عرفوا أن هذه الأسماء على الأشياء كلها ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ [النجم:23].

---

(1) رواه البخاري بنحوه (20/ 369)، ومسلم (15/ 84) بلفظ: «لاَ تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»، وأحمد (22/ 285).

ولكشف هذا القناع كان دعاء النبي ﷺ: «اللهم أرنا الأشياء كما هي»[1] لأن كل شيء بحسب نظر المظاهر أسماء بإزاء معنى يلائمه، كما سمي آدم لأنه من أديم الأرض فهذا الاسم يلائم لآدم عليه السلام في الظاهر، وله في الحقيقة اسم آخر بإزاء اسم حقيقي، فلما أودع الله تعالى فيه ما يلائم لتلك الحقيقة وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30] فسماه بمناسبة المعنى الحقيقي المودع: خليفة.

فكذلك لكل شيء في الظاهر اسم وفي الحقيقة اسم آخر والآدمي مخصوص بتعليم الأسماء كلها دون الملك وغيره، فلما خلصوا عن حبس حمل الأسماء ورفعوا حجبها وصلوا إلى الله تعالى، وإذا وصلوا إلى الله تعالى منعوا من جلاله وهو الرحمن وتمتعوا من جماله وهو الرحيم في تقدم الأسماء، وأما تقدم الاسم في «بسم» فلوجوه:

منها ما قيل: للتبرك والتيمن.

ومنها ما قيل: للفرق بين التيمن واليمين.

ومنها ما قلت: أن له الأسماء الحسنى، وبحسب كل اسم له صفة فإطلاق اسم المطلق شامل لكل اسم من الأسماء وأصلها من الصفات، وليس لله صفة إلا يدل عليها اسم، فعلى هذا وقع الابتداء بما يدل على كل اسم وصفة والباقية للتضمين أي: ابتدائي بأسمائي وصفاتي كلها وأنا الرحمن الرحيم الذي لي تكونت الكائنات وظهر الموجودات إذ بي أسباب معايش أنواع المخلوقات عامة بالرحمانية وأرتب درجات معاد أهل الكرامات والقربات خاصًا بالرحمة.

ومنها: أن تقدم الاسم لتزكية النفوس وتصفية القلوب عن كل اسم ورسم، ولتحلية الأسرار بأنوار الله تعالى لأن التحلية لا تكون إلا بعد التزكية؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: 15] أي: يزكي نفسه بذكر اسم ربه ويجلي روحه بتحلية الصلاة والمناجاة مع ربه عز وجل.

ومنها: أن المحب لما تعلم اسم المحبوب نسي اسم نفسه، كما كان حال مجنون قيل:

---

(1) ذكره الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (15/ 479).

ما اسمك؟ قال: ليلى، وكذلك كان عصيان آدم نسيانه فلما علمه الرب الأسماء كلها لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]، نسي اسم نفسه بأنه خليفة الله تعالى، واسم إبليس بأنه عدو له، واسم الشجرة وأنه منهي عنها فاعتذر لله تعالى، فقال: ﴿فنسي ولم نجد له عزمًا﴾ [طه:115]، وكذلك حال ابن منصور لتحقق في نظره أن كل شيء ما خلا الله باطل، فعلم أن الله هو الحق فنسي عند سطوة تحقق اسم الحق نسي نفسه، فلما جاء الحق زهق الباطل، قيل له: من أنت؟ قال: أنا الحق! فقدم الاسم هاهنا ينسي العبد عند تحقق اسمه اسم ما سواه، فيتجلى له الله تعالى حقيقة لا اسمًا ولا رسمًا، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:24] أي: إذا نسيت غير الرب.

وأما الإشارة إلى تحقيق تفسير كلمة ﴿ الله﴾ قلنا كلمة الله مبنية على أربعة أحرف: الألف ولامين وهاء، وحرفان منها متفقان في الجنسية متصلان، وحرفان مختلفان مفترقان، والمتفقان أحدهما متحرك والثاني ساكن لمجموعها في الصورة والمعنى دال على الإشارة إلى صفتيه ونعمتيه، أما صفتاه فهما الظاهر والباطن، وأما نعمتاه فنعمة ظاهرة ونعمة باطنة، وأما صفتاه الظاهر والباطن وهما مختلفان فيدل عليهما حرفان مختلفان الألف والهاء؛ لأن الألف للإظهار والهاء للإضمار، كقولك: لست، تدل على النفي، فإذا دخلت الألف فيه وتقول: ألست، تدل على الإظهار والإثبات وإذا أدخلت الهاء في آخر الكلمة يكون للإضمار، كقولك: داره، لصاحب الدار مضمر ليس بظاهر، فالألف إشارة إلى صفة الظاهر، والهاء إشارة إلى صفة الباطن، والحرفان المتفقان وهما اللامان يدلان على نعمتيه فإنهما متفقان في الجنسية، كما قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20]، هذا في الصورة.

وأما في المعنى إلى أن نعمه واحدة الآن؛ أي: نعمتان آلائه نعمتاه فالتشديد فيه للتفخيم، فالإشارة في هذه اللفظة إلى أن لله تعالى مع عباده نعمتين: نعمة الظاهر ونعمة الباطن، فللنعمة الظاهرة معنيان، أحدهما: نعمة إظهارك بالإيجاد بعدما كنت مخفيًا في العدم، والثاني: نعمة إلباس صورتك في الظاهر بعدما كنت مخفيًا في عالم الأرواح كما قال

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف:11] أي: خلقناكم في عالم الأرواح ثم صورناكم في عالم الأجسام.

وكذلك للنعمة الباطنة معنيان:

أحدهما: نعمة إبقائك في الوجود.

والثاني: نعمة إعطائك الروح الشريف، فإن عظمة الألوهية وعزة الوحدانية كانت مقتضية للتفرد بالوجود ونفي الشركة مطلقًا إلا أن الرحمة الواسعة كانت مقتضية الإيجاد، فسبقت رحمته غضبه بإيجاد الخلق بالصفة الرحمانية التي هي عامة في حق جميع الموجودات بالإيجاد وبإبقائها بالصفة الرحيمية، فالإشارة في تحقيق حق كلمة الله أنه أربعة أحرف وبحسب كل حرف له نعمة، فلو لم تكن نعمة الأربعة المناسبة للحروف لما كان للموجودات وجود أصلاً، أمَّا مناسبة النعم الأربعة مع الحروف الأربعة فهي ما بينا أن النعمة نعمتان: نعمة ظاهرة ونعمة باطنة، وللنعمة الظاهرة معنيان، وللنعمة الباطنة معنيان كما مرَّ ذكرها، وبينا أن الحروف على نوعين متفقان ومختلفان، واحد منهما متحرك والثاني ساكن، فالمتحرك من أحد حرفيها مناسب لنعمه الظاهرة من المعنيين المذكورين، والساكن مناسب لنعمة الباطنة، ولو لم يكن بين ذاته وبين ذوات المكاشفين بصفات جماله وجلاله حجب الأنوار الرحمانية والرحيمية واسطة لاحترقت ذواتهم وتلاشت أجسادهم كما قال ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهَا لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ كُلَّ شَيْءٍ أَدْرَكَهُ بَصَرُهُ»(1).

وهذا كما أن الله تعالى لما أراد بالحكمة البالغة أن ينتفع أهل الأرض بنور الشمس وحرارتها وخواصها جعل بين الشمس وبين الأرض فلك الزمهرير وهو الهواء البارد، ثم البحر المحيط من الماء البارد واسطة حتى يندفع قوة الحرارة ببرودتها، ولو لم يكن ذلك لاحترقت الأرض ومن عليها فلإفشاء هذا السر وكشفه هذه الحقيقة على أسرار شاكري نعمائه، جعل توقيع بسم الله الرحمن الرحيم في صدر كتابه الكريم ليتحقق لهم أن الخلق

(1) رواه مسلم (2/ 55)، وابن ماجه (1/ 236)، الطبراني في «المعجم الكبير» (20/ 175)، وأحمد (42/ 414).

حجاب الاسم محجوبون عن الله تعالى، فلما عبروا بجذبات ألطافه عن حجاب الاسم وصلوا إلى المسمى وهو الله فيتجلى لهم بالألوهية، فإذا أرادت سطوة التجلي أن تمحقهم بالكلية فأدركتهم الصفة الرحمانية والرحيمية فتبقيهم بلا هم.

والمختار عندنا: أن كلمة الله أعظم الأسماء من وجوه:

الأول: أن الأخبار تدل على هذا وهو ما روي عن النبي ﷺ أنه دخل المسجد فإذا رجل يصلي يقول: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله الواحد الصمد الذي لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفوًا أحد فقال رسول الله ﷺ: «دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى وإذا دعي به أجاب... الحديث»(1).

وأما ما روى أبي ابن كعب ﷺ أن النبي ﷺ قال: هو في قوله: ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة:255] أو في قوله: ﴿ الـم اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 2] »(2) فالأخبار دالة على أن الاسم الأعظم مودع في الدعاء والآيتين ولا بد أن يكون مكررًا في كل آية منهما وفي الدعاء هو الحي القيوم، فلما حضر النبي ﷺ الاسم الأعظم في هاتين الآيتين علمنا أن ذلك هو الحي القيوم قلنا فلما نظرنا ما وجدنا الاسم المكرر في الآيتين والدعاء إلا اسم الله، فتحقق بناء أن الاسم الأعظم هو الله.

وأما الجواب عن قول من احتج بالآيتين على أن الاسم الأعظم في إحدى الآيتين ووجد فيهما: فلو كان للحصر لكان «أو» للشك هاهنا، ولو كانت للشك لما وجد إلا في آية منهما دون الأخرى، كقولنا: زيد في هذا الدار أو في هذه، فلا بد وأن يكون في دار واحدة فلما وجد في الآيتين، وما نفي عما سواها علمنا أنه يحتمل أن يوجد في موضع آخر كما وجدنا في الدعاء في الحديث.

والثاني: أن الاسم على نوعين: اسم الذات واسم الصفة، فكما أن الذات أشرف من

---

(1) رواه الطبراني في «الدعاء» (1/ 121).

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (8/ 39)، والحاكم في «المستدرك» (4/ 413)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (5/ 319)، وأحمد (60/ 139).

الصفة، فكذلك اسم الذات أشرف وأعظم من اسم الصفة، وقد بينا أن هذا الاسم ـ أعني الله ـ اسم الذات وغيره من الأسماء الصفات فتعين أن يكون هو الاسم الأعظم.

والثالث: أن الصفات داخلة في الذات، والذات ليس بداخل في الصفات، فأسماء الصفات تكون داخلة في اسم الذات، ولا يكون اسم الذات داخلاً في أسماء الصفات، فعلمنا أن الاسم الأعظم هو اسم الذات لا أسماء الصفات، وهذا الاسم متعين للذات.

والرابع: أن من عزة هذا الاسم وعظمته لا يجمع ولا يثنى ولا يسقط منه الألف واللام عند النداء حتى لا يتغير حروف لفظه بخلاف جميع الأسماء، وهذا دليل واضح على أنه الاسم الأعظم.

والخامس: أنه لو سقط منه حرف كان الباقي أسماء الله تعالى، فإنك إن أسقطت الهمزة بقي «لله» وهو من صفات الله، قال الله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور:42]، وإن أسقطت اللام الأولى بقي «له» وهو أيضًا من صفات الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان:2]، وإن أسقطت الثانية بقي «هو» وهو أيضًا من صفات الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ﴾ [الحشر:24]، فلما لم توجد هذه الخاصية في الأسماء غيره علمنا أنه الاسم الأعظم.

والسادس: أن الله تعالى لما علم حبيبه ﷺ عند إثبات وحدانيته ونفي الإلهية من غير ذاته، قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد:19] فلو كان اسم أعظم غير من هذا لعلمه حبيبه مكان هذا خصوصًا عند نفي الشركة عن ذاته جل جلاله.

والسابع: أن لهذا الاسم خصوصية في الإيمان؛ لأن الإيمان بدونه لا يصح كقولك: «لا إله إلا الله» ولو قلت بدل الله أسماء من أسماء الصفات لا يصح إسلامه فظهر أنه أعظم الأسماء.

والثامن: أن النبي ﷺ أمر بالقتال على قبول هذا الاسم كما قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا أن لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها

وحسابهم على الله»(1) فكانت النجاة عن الدركات موقوفة على هذا الاسم، والفوز بالدرجات موقوفًا على هذا الاسم، وصون النفس عن القتل والمال عن النهب والولد عن الأسر موقوفًا على هذا الاسم، فوجب أن يكون هذا الاسم أعظم الأسماء.

والتاسع: أمر حبيبه ﷺ عند الإعراض عن كل ما سوى الله، والإقبال بالكلية إليه بذكر هذا الاسم، وقال: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91]، فدل على أن هذا الاسم أعظم الأسماء.

والعاشر: أن الله تعالى لتعظيمه لهذا الاسم صانه عن تسمية غيره بهذا الاسم، ومن عظمة هذا الاسم لم يتجاسر أحد من المنكرين ومن أعداء الدين أن يتعلقوا بهذا الاسم ويسموا آلهتهم به أو غيرها، كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم:65]؛ أي: هل تعلم شيئًا له اسم الله سوى الله، فلعزة هذا الاسم عند الله تعالى وكرامته عليه ما أنعم على أحد تسميته، كما أن النبي ﷺ لعزة كنيته عنده نهى عن التكني بكنيته قال ﷺ : «تسموا باسمي ولا تسموا بكنيتي»(2) فبهذا علمنا أنه أعظم الأسماء.

والحادي عشر: روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن»(3)، فاختصاص بهذين الاسمين بالمحبة لا شك أنه لاختصاص اسميه الله والرحمن، كما خص هذين الاسمين بالذكر في الدعاء عن الأسماء كلها بقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء:110]، وذلك يدل على أنهما أشرف وأعظم من غيرهما، ثم إن اسم الله أشرف من اسم الرحمن؛ لأنه قدمه في الذكر أولاً وثانيا، ولأن اسم الرحمن يدل على كمال الرحمة واسم الله يدل على الألوهية والقهر والعظمة والعزة وغيرها من الصفات، فثبت بهذا أن اسم الله

---

(1) رواه البخاري (24/ 191)، ومسلم (1/ 158)، والترمذي (12/ 207)، وابن ماجه (12/ 60)، وأحمد (19/ 170).

(2) رواه البخاري (12/ 279)، ومسلم (14/ 236)، والطبراني في «الكبير» (20/ 220)، والبيهقي في «الآداب» (1/ 232).

(3) رواه أبو داود (14/ 265)، وابن ماجه (11/ 294)، والدارمي (8/ 375)، وأبو يعلى (5/ 163).

أعظم الأسماء وأحبها إلى الله تعالى، والله أعلم.

والثاني عشر: أن الله تعالى أمر عباده بملازمة ذكر هذا الاسم وجعله سبب الفلاح، كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:10]، ومدح العباد على مداومته، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:191]، وجعل مفاتح الجنة ثمنها كما قال النبي ﷺ: «مفتاح الجنة لا إله إلا الله»(1)، وقال: «ثمن الجنة لا إله إلا الله»(2)؛ بل جعل حقيقة مفتاح قلوب عباده المخلصين وبه فتح روزنة قلوب الطالبين إلى عالم الأرواح، وبه نوَّر أنوار المحبين بأنوار الجمال، وبه أزاح عن أسرار المحققين أستار صفات الوجود بتلي صفات الجلال؛ ليهتدوا إلى شاطئ وادي أيمن الوصال، كما أخبر النبي ﷺ بقوله: «والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا»(3)، وقد تحقق للمتمسكين بعروته الوثقى أنهم به نالوا ما أرادوا، ووجدوا ما طلبوا، وأعطوا ما سئلوا، وأجيبوا إذا دعوا فعرفوه أنه الاسم الأعظم.

والثالث عشر: أنه صح عن النبي ﷺ أنه صرح بفضل ذكر هذا الاسم على ذكر الأسماء كلها بقوله: «أَفْضَلُ الذِّكْرِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ لله»(4)، فلو كان اسم أعظم من الله لكان هو الأفضل.

والرابع عشر: ما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا رب علمني شيئًا أذكرك فأدعوك به، قال: يا موسى قل: لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقول لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت إنما أريد شيئًا تخصني به، قال: يا موسى لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع وضعن في كفة ولا إله إلا الله في

---

(1) رواه البخاري (1/ 415)، والبزار في «مسنده» (4/ 260).

(2) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (8/ 268).

(3) رواه البخاري (13/ 487)، ومسلم (12/ 137)، والنسائي (10/ 285)، وأحمد (33/ 78).

(4) رواه الحاكم في المستدرك (4/ 381)، والترمذي (12/ 282)، وابن ماجه (11/ 391)، والنسائي (6/ 208).

كفة لمالت بهن لا إله إلا الله»(١)، حديث صحيح، فهذا صريح بأنه ليس شيء أعز وأعظم من كلمة الله.

والخامس عشر: أن هذا الاسم عند أكثر العلماء وكبار القراء لا سبيل للعقل إلى كيفية اشتقاقه، وثبت أيضًا أن كنه الحق لا سبيل للعقول إلى معرفته، فكان لهذا الاسم زيادة مناسبة مع أن هذا المسمى من هذا الوجود وسائر الأسماء ليس كذلك، فوجب أن يكون هذا الاسم أعظم الأسماء، ولهذا افتتح كتابه الكريم والقرآن العظيم بهذا الاسم وجعله مبدأ خطابه وأثبته في صدر كتابه؛ ليعلم أن ما أنزل في هذا الكتاب من أسماء الصفات والحمد والثناء وإظهار الآيات وإثبات الحجج وذكر الآلاء والنعماء والأوامر والنواهي والوعد والوعيد والإخبارات والآثار والقصص والمواعظ والعلوم والإشارات والرموز والألفاظ والمعاني والنكت واللطائف والأسرار والدقائق والقراءات والمحكمات والمتشابهات والآيات الناسخات والمنسوخات وغير ذلك من موجبات الرحمة والعقوبة والهداية والضلالة كله صادرة عنه، كما أن سلطانًا يبعث منشورًا إلى ممالكه ومماليكه يكتب بأحب أسمائه إليه وأعظم ألقابه لديه في طغر منشوره؛ ليعلم أن جميع الأحكام الواردة في المنشور صادرة عنه، فلما كان توقيع المنشور الإلهي موشحًا باسم الله علمنا أنه أحب أسمائه وأعظمها قدرًا، واكتفينا بهذا المقدار من شرح فضائل هذا الاسم وإقامة البينات على شرفه وعظمته؛ إذ هو بحر زاخر ولا آخر له يستغرق فيه العقول والأوهام ولا تضبطه العلوم والأفهام، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي: لم يعرفوا كنه ذات الله حق معرفته وكذلك لم يعرفوا كنه اسم الله حق معرفته.

فأما لو سأل سائل فيما اخترنا بأن الاسم الأعظم هو قولنا «الله»: أن من شأن الاسم الأعظم أنه من دعا الله به أجاب، وإذا سئل به أعطي، فنحن ندعو به ونسأل فلم نر أثر الإجابة في أكثر الأوقات قلنا الجواب عنه وجهين:

(١) رواه النسائي في «الكبرى» (٦/ ٢٠٩)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٤٨٤)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٥/ ٤٧٧).

أحدهما: أن للدعاء أدبًا وشرطًا لا يستجاب الدعاء إلا بها كما أن للصلوات آدابًا وشرائط لا تصح إلا بها، فأول شرائطه أن يصلح باطنه باللقمة الحلال فإن النبي ﷺ ذكر «الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ومطعمه حرام ومشربه حرام ثم يمد يده إلى الله يا رب يا رب فأنى يستجاب له»(1) حديث صحيح، وقد قيل: الدعاء مفتاح السماء وأسنانه لقمة الحلال، وآخر شرطه أن يدعو بالإخلاص وحضور القلب، قال الله تعالى: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [يونس:22]، فإن حركة الإنسان باللسان وصياحه من غير حضور القلب ولو أنه على الباب وصوت الحارس على السطح، أما إذا كان حاضرًا في الحضرة كان له الشفيع، ولا نطول الكلام في هذا فإنه ليس مكانه.

والوجه الثاني: أن الاسم وإن كان في نفسه معظمًا؛ ولكن يؤول فائدة عظيمة إليك إذا قلت بالتعظيم وتعظيمه يكون بقدر صفاء نيتك وعلو همتك في الذكر عن تطهير قلبك من الحظوظ الدنيوية والأخروية، فإنك لو ذكرته بحظ من الحظوظ النفسانية بالروحانية يقع الذكر تبعًا لحظك فالعظمة تكون للحظ لا للاسم، فمهما تخلصت سريرتك عن لوث الحظوظ يبقي الذكر طيبًا معظمًا لا يتعلق بحظ من الحظوظ يصعد إلى المذكور، كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:10].

والعمل الصالح أن تطهر ذكرك عن الحظوظ، وتراقبه بالحقوق ليكون حظك من الذكر المذكور ومن الاسم المسمى وهو أعظم الحظوظ، فيكون ذكرك أعظم الأذكار والاسم المذكور أعظم الأسماء، ففي هذه الحالة بكل اسم دعوت الله يكون الاسم الأعظم والدعاء مستجابًا؛ لأنك دعوته له وما طلبت منه إلا هو فوجدته؛ لأنه قال: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60]، أي: اطلبوني تجدوني كما قال تعالى: «ألا من طلبني وجدني»(2) فافهم جدًّا.

قوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال أبو عبيدة: هما صفتان لله تعالى معناهما ذو الرحمة،

---

(1) رواه مسلم (6/ 336)، وأحمد (18/ 108)، والبيهقي (2/ 435).

(2) رواه أبو نعيم بنحوه في «حلية الأولياء» (4/ 342).

ورحمة الله إرادته الخير والنعمة والإحسان. قلت: اختلف العلماء في معنى الرحمة فقال بعض المحققين: الرحمة من صفات الذات وهي إرادته إيصال الخير ودفع الشر، والإرادة صفة الذات، وهو المختار عندي؛ لأنه تعالى لو لم يكن موصوفًا بهذه الصفة لما خلق الموجودات، فلما خلق الخلق علمنا أن رحمته صفة ذاتية؛ لأن الخلق إيصال خير الوجود إلى المخلوق ودفع شر العدم عنه، فإن الوجود خير كله والعدم شر كله، وقال الآخرون: الرحمة من صفات الفعل وهو نفس إيصال الخير ودفع الشر بدون إيصال الخير محال، قلت: وأيضًا الخير بدون الإرادة المتقدمة في حق الباري سبحانه وتعالى محال؛ لأن إيصال الخير فعل والفعل مسبوق بالإرادة من الفاعل المختار فثبت بهذا أن الله تعالى كان في الأزل هو الرحمن الرحيم.

وذكر أبو حامد الغزالي - رحمه الله - أن النبي ﷺ قال: «تخلقوا بأخلاق الله»[1]، وهذا يقتضي أن يكون للعبد من كل اسم من أسماء الله حظ يليق بها.

فأقول: حظ العبد من اسم الرحمن الرحيم أن يكون العبد كثير الرحمة.

واعلم: أن كل من كان إلى العبد أقرب كان إيصال الخير والرحمة إليه أوجب، وإن أقرب الناس إليه نفسه، فوجب أن يرحم نفسه ثم يرحم غيره: «أبدأ بنفسك ثم بمن تعول»، فأما رحمته مع نفسه فإما أن يكون في الأمور الروحانية أو في الأمور الجسمانية.

أما في الأمور الروحانية: فاعلم أن للنفس قوتين نظرية وعملية، فأما القوة النظرية فإيصال الرحمة إليها بتزكيتها عن الجهل وتحليتها بالعلم الحقيقي وهو معرفة الله كشفًا وشهودًا معرفة عيانية لا بيانية، بل عينية لا عيانية، فافهم جدًّا. وأما القوة العملية فصونها في الإخلاء عن طرفي الإفراط والتفريط، وإلزامها المواظبة على التوسط بين الطرفين بأوامر الشريعة ونواهيها على قانون الطريقة.

وأما في الأمور الجسمانية فقسمان: الأمور المطلوبة بالذات والمطلوبة بالعرض، أما المطلوبة بالذات: فهي اللذات الجسمانية وهي محصورة في المطعوم والمنكوح، وقد قال

(1) ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (4/ 306)، والسيوطي في «تأييد الحقيقة العلية» (1/ 89).

تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف :31]، فالرحمة على البدن هو الامتناع من الإسراف. وأما المطلوبة بالعرض: فهو المال، والرحمة فيه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:67]، فهذه مقاصد كل أحد من الرحمة على نفسه: وأما رحمته على غيره فاعلم أن كمال الإنسان في كمال العبودية، وكمال العبودية في رعاية حقوق الربوبية وإيصال الحظوظ إلى البرية ورفع الأذية كما قال ﷺ: «التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله»[1] وكان آخر وصيته ﷺ في آخر حياته: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»[2].

وقال بعض المشايخ: مجامع الخيرات محصورة في أمرين: الصدق مع الحق والخُلُق مع الخلق. ومما يدل أن هذه المرتبة أعظم المراتب وصف رسول الله ﷺ بالرحمة، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:17]، وقال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:128]، وقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: 159]، ومدح الرسول ﷺ أصحابه فبدأ في الذكر بوصف أبي بكر الصديق ﷺ بالرحمة، فقال: «أرحم أمتي بأمتي أبو بكر»[3] والقول في خصوصية الرحمن دون سائر الصفات من وجوه:

أولها: أنه أخص أسماء الصفات إلى الذات؛ لأن الأسماء على نوعين أسماء صفات اللطف وأسماء صفات القهر، وللرحمن خصوصيته بالصفتين بأن يوجد منه اللطف والقهر كما يوجد من الذات المقدسة، ويوجد منه الإيجاد والإفناء كما يجيء، وهذا من خصائص الذات الإلهي دون سائر الصفات، فثبت أنه أخص الأسماء.

وثانيها: أن له مناسبة مع الذات دون سائر الصفات، وهي أن اسم الذات وهو الله كما لا يجوز على غيره، فكذلك اسم الرحمن لا يجوز على غير الله، ولهذا المناسبة صار

(1) ذكره الصاغاني في «الموضوعات» (1/ 64)، والعجلوني في كشف الخفاء (2/ 11).

(2) رواه النسائي في «السنن» (4/ 258)، والطبراني في «الكبير» (17/ 135)، والبيهقي في «الآداب» (1/ 29)، وابن ماجه (5/ 193)، وأحمد (26/ 31).

(3) رواه النسائي في «الكبرى» (5/ 67)، والحاكم في «المستدرك» (13/ 266)، والطبراني في «الصغير» (2/ 159)، والترمذي (13/ 412)، وابن ماجه (1/ 187)، وأحمد (29/ 387).

خصوصًا بالذكر في الدعاء مع ذكر الله تعالى بقوله : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ [الإسراء:110].

وثالثها: أن الرحمن أقرب إلى اسم الله من سائر الأسماء، يدل على هذا القرآن والحديث أما القرآن فقوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:1] ذكر بعد اسم الله الرحمن لقربته إلى الله، وأما الحديث ما روي أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسع وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة هو الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم... الحديث»[1].

ذكر بعد اسم الله الرحمن وقدمه على سائر أسماء الصفات فعلمنا أنه أقرب الأسماء إلى الله، وأما الفرق بين الرحمن والرحيم وإن كانا اسمين مشتقين من الرحمة أن الرحمن من صفة جلاله، والرحيم من صفة جماله، والفرق بينهما أن الجلال متوسط بين الذات الإلهي الذي من شأنه القهر والعزة التي اقتضت ونفي شركة الوجود بين صفة الجمال التي من شأنها اللطف والرحمة التي اقتضت الإيجاد والإبقاء، فنسبة أحد طرفي الجلال إلى قهّارية الذات فيه طرف من القهر، وبنسبة أحد طرفيه إلى رحيميَّة الجمال فيه رحمة، فالرحمة فيه تغوث بقوة القهارية، فصارت أقوى من رحيميَّة الجمال، فأعطيت المبالغة في الرحمة والقهر فيه صار مسبوقًا ومغلوبًا بلطف الرحمة بقوله تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»[2]، وفي رواية: «غلبت رحمتي غضبي»[3]، فالقهر المسبوق بالرحمة والرحمة المقوية بالقهر هو الرحمن الرحيم المبالغ في الرحمة، فثبت أن الرحمن من صفة الجلال، والرحيم من صفة الجمال، ولهذا جاء الرحمن واسطة بين الله والرحيم في ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وإذا كان الرحمن متوسط بين القهر الصرف وبين اللطف المحض فتارة بالقهر يقتضي الإفناء وتارة باللطف يقتضي

---

(1) رواه الحاكم في «المستدرك» (1/ 46)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1/ 113)، والترمذي (12/ 498).

(2) رواه البخاري (24/ 440)، ومسلم (17/ 450)، وأحمد (19/ 224)، والطبراني في «الأوسط» (3/ 189).

(3) رواه أحمد في «المسند» (2/ 131) رقم (8112).

الإثبات، كما أخبر الله تعالى عن صفة إفنائه بقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلاً الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان:25-26].

وأخبر عن صفة إيجاده وإثباته بقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:59] أي: الذي ظن هو الرحمن فظهر أن الرحمن أكثر مبالغة في الرحمة من الرحيم، وفيه طرف من هيبة الألوهية وهو مخصوص دون الرحيم، فالحمد لله شامل الثناء والشكر والمدح، أما الثناء فيكون بذكر الصفات الحميدة إذا قلت: هذا رجل كريم، فقد أثبت عليه والشكر يكون على النعمة من المنعم بأي معروف أولاك به.

وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:7] أي: في النعمة والمدح أن تذكر الرجل بجميع ما فيه من الخصال الحميدة وتنفي عنه جميع الصفات النقيصة التي لم تكن فيه، وليس من شأن المخلوقين أن يحمدوا الله بهذه المعاني الثلاثة الحقيقية إلا تقليدًا ومجازًا، أما الثناء فلأن النبي ﷺ لما خوطب ليلة المعراج: يا نبي إني على علم أن هذا ليس من شأن المخلوقين، فقال: «**لا أحصي ثناء عليك**»[1] وعلم أنه لا بدَّ له من امتثال الأمر وإظهار العبودية، فقال: «**أنت كما أثنيت على نفسك**» فهذا ثناء بالتقليد لأنه أثنى عليه بثنائه الذي أثنى الله به على نفسه في الأزل ثناء يليق بذاته وصفاته الأزلية على التحقيق، ولم يبلغ علم مخلوق حادث كنه صفة من صفات الله تعالى الأزلية، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:255]، حتى يثني عليه بمعرفة كنه صفة من صفاته؛ لأن الثناء فرع المعرفة فما أثنى أحد على الله تحقيقًا إلا تقليدًا، فافهم جدًا.

وأما الشكر أيضًا فلا يتحقق الإنسان بشكر أنعم الله إلا برؤية العجز عن القيام بأدائه كما حكي عن داود عليه السلام أنه قال: «**إلهي كيف أشكرك وأنا لا أصل شكرك إلا**

(1) رواه مسلم (3/ 339)، والنسائي (1/ 111)، وأبو داود (3/ 179)، والترمذي (12/ 470)، وابن ماجه (4/ 82)، والحاكم في «المستدرك» (1/ 449).

بنعمتك؟ فأوحى الله إليه: الآن شكرتني»[1] وذلك لأن توفيق الشكر نعمة موجبة للشكر فلا نهاية لنعمه، فكيف يدرك الشكر المحادث النعمة التي هي غير متناهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:34]؟

وأما المدح فلا يمكن الإنسان أن يمدح الحق حقيقة أيضًا؛ لأن المدح يدل على كمال معرفة الذات والصفات حتى لا يذكره على ما هو به، وذلك محال؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر:67]، فلهذا حمد نفسه بالثناء والشكر والمدح، وقال: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2] أي: له أن يحمد ذاته الأزلي الأبدي بالحمد الأزلي الأبدي، والحمد لا يصلح إلا له فهو محمود بحمده أزلاً وأبدًا، والحمد له أما الحمد لله إشارة إلى ثناء ذاته بالإلهية، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2]، إشارة إلى شكر أنعام الربوبية على ربوبيته[2].

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4]، إشارة إلى مدح ذاته لجميع صفات لطفه وقهره وجماله وجلاله في كماله وملكه بمالكيته وملكيته في الدنيا والآخرة قبل خلقها، وفيه دلالة على أنه ما أثنى وما شكر وما مدح الله أحدًا إلا الله تعالى، كما قال بعض المشايخ: ما قال أحدًا الله إلا الله، فلما عجز الخلق عن الثناء والشكر والمدح، فالثناء للسان

---

(1) ذكره القشيري في «الرسالة القشيرية» (1/ 81)، والملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (8/ 96).

(2) اعلم أنه لم يقل تعالى: الحمد لرب العالمين الله؛ لكون الربوبية تلو الألوهية دون العكس؛ فإن الألوهية كالسلطنة، والربوبية كالوزارة، فالسلطان مُظهر الاسم الله؛ لكمال جمعيته، والوزير مُظهر الاسم الرب؛ لكونه في مقام التربية للعالمين؛ كالروح والعقل، فإن القوى والأعضاء إنما تقومان بهما، وبهما كمال ترتيبهما، فكما أن تعيُّن الروح قبل تعيُّن ما دونه؛ فكذا تعيُّن الألوهية، ونظير ذلك الشمس مع القمر، فإن الشمس أقدم في الوجود؛ كتقدُّم الأب على الابن.

والحاصل: إن الألوهية باطن الربوبية، فالأولى مظهر الاسم الباطن، والثانية مظهر الاسم الظاهر، وكذا الحق باطن الخلق، والشمس باطن القمر، والأب باطن الابن، والروح باطن الجسم، فالظاهر مرآة الباطن في كل ذلك؛ وإنما جعلوا الرب الاسم الأعظم أيضًا، وفي مرتبة الجلال من حيث جمعيته؛ لأن الألوهية والربوبية لا تختصان بألوهية بعض دون بعض، وبربوبية بعض دون بعض، وباسم دون اسم، وبلطف دون قهر وبالعكس، فللسلطان الجمال والجلال، وللوزير التربية بكل من اللطف والقهر، فجمعية السلطان إنما تظهر في المراتب التي دون السلطنة فاعرف ذلك.

والشكر للأركان؛ لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:13]. والمدح للجنان. فشكر اللسان يعصمك من سيف السلطان ويسلمك من آفة الكفران، وشكر الأركان ينجيك من دركات النيران ويبلغك إلى درجات الجنان، ومدح الجنان يقربك إلى الرحمن ويشرفك بخلع الغفران، فالحمد بمعنى الثناء على نوعين: ثناء الذات بالوحدانية والفردانية الأزلية الأبدية في الألوهية، وثناء الصفات بأنها موصوفة بصفات الكمال منزهة عن النقصان والزوال. والحمد بمعنى الشكر على نوعين: شكر الذات وشكر الصفات؛ فشكر الذات على نعمة الوجود، وشكر الصفات على بذل الوجود. والحمد بمعنى المدح على نوعين: مدح الذات بنفي الذات في الوجود إلا ذاته، ومدح الصفات ببذل الأوصاف وإفنائها في صفاته لتكون باقيًا بهويته لا بأنانيتك. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2]، فربوبيته بمعنى الخالقية والمالكية والسيدية عامة، وبمعنى التربية خاصة بحسب أنواع الموجودات متفاوتة؛ فهو مربي الأشباح بأنواع نعمه، ومربي الأرواح بأصناف كرمه، ومربي نفوس العابدين بأحكام الشريعة، ومربي قلوب المشتاقين بآداب الطريقة، ومربي أسرار المحبين بأنوار الحقيقة، وهو مدبر كل أمر حكيم من الأزل إلى الأبد، وهو متم نعمته الظاهرة والباطنة في الدنيا والعقبى على عباده والمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:3].

ومتم أنوار الأسرار الطالبين كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾ [الصف:8]، وهو المنعم على الموجودات بأنعام الإيجاد عامة، ونعمة الهداية خاصة؛ لقرب اختصاصه بإجابة الدعاء؛ لأن الله تعالى أمر عباده بالدعاء ووعدهم عليه الاستجابة بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60]، ثم علمهم كيف يدعونه وبأي اسم يدعونه بقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:55].

وذكر في مواضع كثيرة من القرآن بصيغة الدعاء كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:21]، وأمثاله كثيرة وألهم الله أنبياءه ورسله ـ عليهم السلام ـ عند طلب الحاجة وإجابة الدعاء أن يدعوا بهذا الاسم؛ أولهم آدم

عليه السلام الرحمة كما قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:37]، قيل كانت قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف:23]، فأجابه وتاب عليه وهدى، ثم دعا نوح عليه السلام قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: 26]، ثم دعا إبراهيم عليه السلام وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْـمَوْتَى﴾ [البقرة:260]، ثم دعا موسى عليه السلام وقال: ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس:88]، ثم دعا يوسف عليه السلام وقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْـمُلْكِ﴾ [يوسف:101]، ثم دعا سليمان عليه السلام وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص:35]، ثم دعا زكريا عليه السلام وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم:4]، ودعا يحيى عليه السلام وقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:6]، ثم دعا عيسى عليه السلام وقال: ﴿اللهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: 114]، ثم أمر الله حبيبه محمد ﷺ أن يدعوه وقال: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:114]، ثم ندب المؤمنين في مواضع القرآن أي قوله: ربنا، وغير هذا من الأنبياء والأولياء دعوه بهذا الاسم فأجابهم بفضله وكرمه؛ لعزة هذا الاسم وعظمته، فالله تعالى لما أكرم هذه الأمة وأقامهم مقام المناجاة معه، وأمرهم بالدعاء ووعدهم عليه بالإجابة، منَّ على حبيبه ﷺ وأمته بالسبع المثاني بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْـمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر:87] وفيه إشارة شريفة ودقيقة لطيفة وهي أن الله تعالى منَّ عليه بفاتحة الكتاب كما منَّ عليه بجميع القرآن، والسر فيه أن جميع حقائق وأصول معانيه مندرجة في الفاتحة، كما ذكرناه فجعل فاتحة الكتاب ديباجة مناجاة العبد من الرب في الصلاة.

وبدأ افتتاحها بأسمائه الحسنى وصفاته العلى قال: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة:1]، ثم ثنى بحمد ذات الألوهية، وثلَّث بنعت صفة ربوبية التي هي من خصوصية الإجابة حيث قدمت على الدعاء كما مرَّ ذكره، وقال: ﴿الْـحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:2].

ثم أكد التحميد لله بالثناء والتحميد وقال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]، ثم أعقبها سؤال حاجة فقال: ولعبدي ما سأل، ومن

غاية اختصاص الرب بإجابة الدعاء، حتى أن إبليس بعد ما لعن وطرد دعا الله تعالى بهذا الاسم، وقال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر:36]، فأجابه ربه لعظمة هذا الاسم وقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر:37]، ولكنه ما وفق تصرفه في تحصيل نعمة ولايته بل كان في حقه استدراجًا وكيدًا، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم:45].

فالمسكين إبليس لو كان من أهل الكرامة وفق لقوله: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ [الحجر: 36]، بدل انظرني ولإجابة الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الحجر:37]، بدل قوله: إنك من المنظرين، من خصوصية هذا الاسم شموله صفات لا يشملها غيره من الأسماء بمقتضى اللغة منها ما يدل على المدح لذاته وهو السيد لقوله تعالى: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:42] أي: عند سيدك وكذلك المالك قال النبي ﷺ لرجل: «أرب إبل أم رب غنم؟ فقال: من كل ما أتاني الله فأكثر وأطيب»(1).

ومنها: ما يدل على أنه خالق؛ لقوله إخبارًا عن موسى عليه السلام في جواب فرعون حين قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء:24].

ومنها: ما يدل على كمال رحمته ولطفه في حق العالمين جميعًا عامًا وفي حق الإنسان خاصًا وفي حق الخواص خصوصًا، أما في حق العالمين فتربيتهم بأغذيتهم وأسباب بقاء وجودهم، وفي حق الإنسان خاصًا وهو أنه يربي ذرات وجودهم بألبان ألطاف ربوبيته عند الميثاق، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف:172]، وبرحمة ربوبيته خلقهم وبلطف ربوبيته خاطبهم، وبكرم ربوبيته أسمعهم وأبصرهم، وبسر ربوبيته أنطقهم وبفضل ربوبيته أعلمهم، وبعناية ربوبيته أشهدهم، حتى قالوا: ﴿بَلَى﴾ وجعل بحكمة تدبير ربوبيته إقرارهم بذر التوحيد، وفي خواص الخواص من الأنبياء والأولياء فبأن يربي بذر توحيدهم في أرض قلوبهم بماء الشريعة والأديان ورياح الإيمان والإيقان وأنوار شموس الإحسان والعرفان وبقيمة الربوبية يتم عليهم مشاهدة جماله وكاشفة جلاله.

(1) رواه النسائي في «الكبرى» (6/ 338)، والطبراني في «الكبير» (14/ 191)، وأحمد (4/ 136).

كما قال تعالى في حق نبينا ﷺ: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:2]، ثم شرَّف أمته ببركة متابعته بهذه التشريفات وأنعم عليهم بهذه الكرامات والدرجات عند طلب الهداية إلى الصراط المستقيم في تقديم ذكره ومقامه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4]، الرحمن الرحيم فائدة التكرار فيهما من وجهين، أحدهما: أن ذكرهما في بسم الله الرحمن الرحيم هو مبدأ الكتاب ومفتتح الخطاب بأنه هو الرحمن الرحيم بأن دعاكم بالإلهية إلى الطاعة والعبادة، وإنما دعاكم ليغفر لكم بالرحمانية والرحيمية؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم:10].

وأما ذكرهما في الفاتحة عقيب الحمد لله رب العالمين الذي هو المدح «يقول العبد: الحمد لله رب العالمين، يقول الله: حمدني عبدي، ويقول العبد: الرحمن الرحيم، يقول الله: أثنى عليَّ عبدي... الحديث»[1] فثبت أنهما في الفاتحة للثناء فذكرهما في البسملة من الله تعالى؛ لاستمالة قلوب العباد على العبودية بالرحمة والغفران، وفي الفاتحة من العباد للثناء على الله تعالى وبالجمال والجلال للقربة والرضوان، والثاني: ذكرهما في البسملة لتسكين الهيبة ورفع الدهشة من عظمة اسم الله تعالى عن عباده كما كان حال موسى عليه السلام حين خاطبه: بـ ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ [القصص:30] كادت تزهق نفس موسى من هيبة استماع اسم الله، فانبسط معه على بساط العزة لإزاحة الدهشة والإراحة من الوحشة بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه:17]، ولأن يستأنس برحمانية ورحيمية نفوس العباد إلى عبادة الله تعالى، وتطمئن قلوبهم بذكر الله كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]، ليستعدوا بذلك لمناجاته وليستحقوا المدح والثناء على ذاته وصفاته، فيناجونه في الصلاة ويذكرونه بالدعاء ويرفعون إليه الحاجة؛ ليهديهم إلى نيل الدرجات ورتب القربات.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4]، الإشارة فيه إلى أن الدين في الحقيقة الإسلام، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:19]، والإسلام على

(1) رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (2/ 40)، والنسائي (2/ 473).

نوعين: الإسلام بالظاهر وإسلام بالباطن، فإسلام الظاهر بإقرار اللسان وعمل الأركان لقوله تعالى: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14]، وقال ﷺ في جواب جبريل عليه السلام: ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»(1) فهذا الإسلام جسداني والجسداني ظلماني، ويعبر عن الليل بالظلمة، وأما الإسلام الباطن فانشراح القلب والصدر بنور الله بقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر:22]، فهذا الإسلام الروحاني نوراني ويعبر عن اليوم بالنور، فالإسلام الجسداني يقتضي إسلام الجسد لأوامر الله تعالى ونواهيه، والإسلام الروحاني يقتضي استسلام القلوب والروح لأحكامه الأزلية وقضائه وقدره، فمن كان موقوفًا عند الإسلام الجسداني، ولم يبلغ مرتبة الإسلام الروحاني فهو بعد في سير نعمة الدين مترف ومتحير، فيرى ملوكًا وملاكًا كثيرة كما كان حال الخليل عليه السلام فلما جن عليه الليل رأى كوكبًا قال: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76] وتنفس سعادته وطلعت شمس الإسلام الروحاني من وراء جبل نفسه عن شوق القلب صبح فهو على ﴿نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ واضح في كشف يوم الدين، فيكون ورد وقته: «أصبحنا وأصبح الملك لله»، فيشاهد بعين اليقين بل يكاشف حق اليقين أن الملك لله ولا مالك إلا مالك يوم الدين، فإذا تجلى له النهار وكشف بالمالك جهارًا يخاطبه وجاهًا ويناجيه شفاهًا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5].

الكلام فيه على ثلاثة أوجه:

أولها: على الخطاب لأنه رجع من الغيبة إلى الخطاب، وإنما رجع إلى الخطاب من الغيبة؛ لأنه ليس بين المملوك ومالكه إلا حجاب ملك نفس المملوك، فإذا عبر عن حجاب ملك النفس وصل إلى مشاهدة مالك النفس، كما قيل عن أبي يزيد أنه في بعض مكاشفاته قال: إلهي كيف أجد السبيل إليك؟ قال له ربه: دع نفسك وتعال. فللنفس أربع صفات لها من كل صنف حجاب آخر، وهي: الأمارية واللوامية والملهمية والمطمئنة، فأمر

(1) رواه مسلم (1/ 114)، وأبو داود (13/ 426)، وأحمد (1/ 378).

العبد المملوك بأن يذكر مالكه بأربع صفات الإلهية والربوبية والرحمانية والرحيمية، فيعبر بعد مدح الإلهية وشكر الربوبية وثناء الرحمانية وتمجيد الرحيمية[1] وقوة جذبات هذه الصفات الأربع عن حجب ممالك الصفات الأربع للنفس، فيخلص عن ظلمات ليلة دين نفسه لطلوع صبح صادق يوم الدين ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:4] ﴿يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً﴾ [الانفطار:19] فيبقي العبد عبدًا مملوكًا لا يقدر على شيء، وهو كلٌّ على مولاه فيرحمه مالكه ويذكره بسنة عادة كرمه على قضية وعده ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]، ويناديه ويخاطب نفسه: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[الفجر:27]، ثم يجذبه من غيبة نفسه إلى شهود مالكية ربه بجذبة: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:28] فيشاهد جمال مالكه ويناديه نداء عبد خاضع خاشع ذليل عاجز، كما قرأ بعضهم: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ نصبًا على نداء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وثانيها: في معنى: ﴿نَعْبُدُ﴾ وتحقيقه أن نوحد ونخلص ونطيع ونخضع، وقيل العبادة سياسة النفس على حمل المشاق في الطاعة وأصلها الخضوع والانقياد والطاعة والذلة، يقال: طريق معبد إذا كان مذللاً، موطوءة بالأقدام وبعير إذا كان مطليًا بالقطران، ويسمى العبد عبداً لذلّه وانقياده لمولاه.

قلت: حد العبادة على ما قال ليس بحد تام؛ لأن للملائكة عبادة وليست عبادتهم سياسة النفس على حمل المشاق في الطاعة والعبادة الحقيقية خلوص النفس عن كل حظ من الحظوظ الدنيوية والأخروية ليعبد الله بالحق لا للحظ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا

(1) ﴿الرَّحِيمِ﴾ في الباطن، فيعمُّ رحمته المؤمن والقوى والأنفس، كما يعمُّهم الرحمة الرحمانية، فللكافر ظاهر دون باطن؛ لأن لا آخرة له، فإن العاقبة للمتقين، وللمؤمن ظاهر وباطن جميعًا فالظاهر مع الباطن أقوى من الظاهر بلا باطن؛ لأن الظاهر بلا باطن محصور كالدنيا؛ لانتهائها دون الظاهر مع الباطن؛ كالآخرة لعدم نهايتها، وإنما أدخلنا الآخرة في الباطن؛ لأنها قلب الدنيا؛ والقلب باطن بالنسبة إلى القلب، فكما ينتهي حكم الدنيا، ويظهر الآخرة على صورتها؛ فتكون الدنيا باطنة، والآخرة ظاهرة؛ فكذا يظهر القلب في الآخرة على صورة القالب، فيكون القالب باطنًا، والقلب ظاهرًا، وبه تصحُّ رؤية الله تعالى كما يصحُّ ذلك في الدنيا بالبصيرة، فانظر إلى هذا، وكن على بصيرة من الأمر، فإن الأمر ليس كما يزعمه المنكرون من المعتزلة وغيرهم، والله رقيب شهيد.

﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5].

وثالثها: في خصوصية قوله تعالى: ﴿نعبد﴾ أن النفس دنياوية تعبد هواها لقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات:40-41]، والروح قربي تعبد القربة والعندية لقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، والسر حضرتي تعبد الحق تبارك وتعالى لقوله على لسان نبيه ﷺ: «الإخلاص سر بيني وبين عبدي لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل»(1)، فلما أنعم الله تعالى على عبده بنعمة الصلاة قسمها بينه وبين عبده، كما قال تعالى على لسان نبيه ﷺ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها إليَّ ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل»(2)، فيقرب العبد بنصفه إلى حضرة كماله بالحمد والثناء والشكر على صفات جماله وجلاله، ويقرب الرب على مقتضى كرمه وإنعامه كما قال: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»(3)، بنصفه إلى خلاص عبده من عبودية الأغيار بإخراجه عن ظلمات بعضها فوق بعض من هوى النفس ومراد القلب وتعلق الروح بغير الحق إلى نور وحدانيته وشهود فردانيته. فأشرقت أرض النفس وسماوات القلب وعرش الروح وكرسي السر بنور ربها فآمنوا كلهم أجمعون بالله الذي خلقهم وهو مالكهم وملكهم، وكفروا بطواغيتهم التي يعبدونها واستمسكوا بالعروة الوثقى، وجعلوا كلهم واحدًا وقالوا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] نستوفقك ونطلب المعونة منك على عبادتك على أمورنا كلها(4).

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (1/ 17).

(2) رواه مسلم (3/ 94)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (5/ 372).

(3) رواه البخاري (6/ 2694)، ومسلم (17/ 429)، والنسائي في «الكبرى» (4/ 412).

(4)قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: بمعونتك نعبدك، لا بحولنا وقوّتنا، وإيّاك نستعين بتمام عبوديتك، ودوام سترك علينا حتى نرى فضلك، ولا ننظر إلى أعمالنا.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: إيّاك نعبد لا برؤية المعاملات، وطلب المكافآت، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نستعينك بمزيد العنايات، بنعت العصمة عن القطيعة.

وأيضًا: إيّاك نعبد بالمراقبة، وإيّاك نستعين بكشف المشاهدة.

قال أبو بكر الوراق: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك خلقتنا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنك هديتنا، قلت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك المعبود ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنك المقصود، وأيضًا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك المطلوب ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنك المحبوب، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك مالك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأن ما سواك هالك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على نعمتك ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ على معرفتك، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لأنك قلت: لنا عبادي، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ لأنك لنا إليك هادي ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6]، الهداية على ثلاثة أوجه: هداية العام، وهداية الخاص، وهداية الأخص أما هداية العام فإنه هدى جميع الحيوانات إلى جلب منافعها ودفع مضارها بقوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه:50].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:10]، وأما هداية الخاص فهو هداية المؤمنين إلى الجنة لقوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس:9]، وأما هداية الأخص فهي هداية الحقيقة التي من الله وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99].

فقال الله تعالى: ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى:13]، بهذه الهداية إلى الله تعالى، وقال النبي ﷺ: «عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي»[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ

-

وأيضًا: إيّاك نعبد بعلم اليقين، وإيّاك نستعين بحق اليقين.

وأيضًا: وإيّاك نعبد بالغيبة، وإيّاك نستعين بالرؤية.

وقيل: إيّاك نعبد بقطع العلائق والأغراض، وإيّاك نستعين على ثبات هذا الحال بك ولا بنا.

وقيل: إيّاك نعبد بالعلم، وإيّاك نستعين بالمعرفة.

وقيل: إيّاك نعبد بأمرك، وإيّاك نستعين علينا بفضلك.

قال سهل: إيّاك نعبد بهدايتك، وإيّاك نستعين بكلاءتك على عبادك.

قال الأنطاكي: إنما يُعبد الله على أربع: على الرغبة، والرهبة، والحياء، والمحبّة، فأفضلها المحبة التي تليها الحياء، ثم الرهبة، ثم الرغبة.

وقال الأستاذ: العبادة بستان القاصدين، ومستروح المريدين، ومرتع الأنس للمحبّين، ومرتع البهجة للعارفين، بها قوة أعينهم، وفيها مسرّة قلوبهم، ومنها راحة أبدانهم.

(1) ذكره القشيري في «الرسالة القشيرية» (1/ 142)، وابن عجيبة في «إيقاظ الهمم» (1/ 180).

﴿ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى:7]، إشارة إلى هذا المعنى أي كنت ضالاً عني في تيه وجودك فطلبتك بجودي، وجذبتك بفضلي، وهديتك بجذبات عنايتي ونور هدايتي إلي، وجعلتك نورًا وأنزلت إليك نورًا فأهدي بك إلي من أشاء من عبادي، فمن اتبعك وطلب رضاك فنخرجهم من ظلمات وجود السوى إلى نور الروحاني، ونهديهم إلى صراط مستقيم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ﴾ [المائدة:16].

واعلم: أن الصراط المستقيم هو الدين القويم، وما يدل عليه القرآن العظيم وهو خلق سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:153]، وهو على نوعين:

[الأول]: صراط مستقيم إلى الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:25]، أي: إلى الجنة، فهذا لأصحاب اليمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ فِي سِدْرٍ﴾ [الواقعة:28].

والثاني: صراط مستقيم إلى الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52]، ﴿صِرَاطِ اللهِ﴾ [الشورى:53] وهذا للسابقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة:11]، وفي الآيتين إشارة إلى من هدي إلى صراط مستقيم فهو من السابقين المقربين، وإن كل ما يكون لأصحاب اليمين يكون له وهو سابق على أصحاب اليمين فيما يكون للمقربين من شهود الجمال وكشف الجلال وهذه المرتبة خاصة لسيد المرسلين وخاتم النبيين ومتابعة لقوله: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:18].

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:7]، الإشارة فيه إلى طريق من أنعمت عليهم بكشف الحقيقة، وتكرار الصراط إشارة إلى أن الصراط الحقيقي صراطان:

صراط من العبد إلى الرب، وصراط من الرب إلى العبد؛ فالذي من العبد إلى الرب طريق مخوف كم قطع فيه القوافل وانقطعت به الرواحل، ونادى [رب] العزة لأهل العزة

لطلب رد السبيل لقوله تعالى حكاية عن قاطع هذا الطريق وتقطع هذا الفريق: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:16].

والذي من الرب إلى العبد فطريق آمن، وبالأمان كائن قد سلمت قوافله وبالنعم محفوفة منازله ويسيرون فيه سيارته ويقادون بالسلاسل قادته ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ...الآية﴾ [النساء:69].

أنعم الله على أسرارهم بأنوار العناية وعلى أرواحهم بأسرار الهداية وعلى قلوبهم بآثار الولاية وعلى نفوسهم في قمع الهوى وقهر الطبع، وحفظ الشرع بالتوفيق والرعاية وفي مكايد الشيطان بالمراقبة والكلاءة.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾[1] [الفاتحة:7]، بالنعمة الظاهرة والباطنة كما قال

(1) قال البقلي: «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: باليقين التام، والصدق على الدوام، وإطلاعهم على مكائد النفس والشيطان، وكشف غرائب الصفات وعجائب أنوار الذات، والاستقامة في جميع الأحوال، وبسعادة الهداية إلى القربة بعناية الأزلية، وهم الأنبياء والأولياء والصدِّيقين، والمقرَّبون والعارفون، والأمناء والنجباء.

قال أبو عثمان: «أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ»: بأن عرَّفتهم مهالك الصراط، ومكائد الشيطان، وجناية النفس.

وقال بعضهم: أنعمت عليهم في سابق الأزل بالسعادة.

وقال جعفر بن محمد: أنعمت عليهم بالعلم بك، والفهم منك.

وقيل: أنعمت عليهم بمشاهدة المنعم دون النعمة.

وقيل: أنعمت عليهم بمخالفة النفس والهوى، والإقبال عليك بدوام الوفاء.

وقال حميد: فيما قضيْته من المضار والمسار.

وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ حتى يُحرسوا من مكائد الشيطان، ومغاليط النفوس، ومخاييل الظنون.

ويقال: صراط من أنعمت عليهم بالنظر إليك، والاستعانة بك، والتبرِّي من الحول والقوة، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار والعلم، بتوحدك فيما قضيته من المسار والمضار.

وقيل: صراط من أنعمت عليهم، من تأدَّبوا بالخَلْوة عند غلبات بوادي الحقائق؛ حتى لم يخرجوا عن حد العلم، ولم يخلوا بشيءٍ من أمرِ الهيبة، ولم يصنعوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ بل حفظتَ عليهم آداب الشريعة وأحكامها الشرعية.

وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم ؛حتى لم تطفيء شموس معارفهم، أنوار وَرَعِهم، ولم يضيقوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:20]، وأما النعمة الظاهرة فبعثة الأنبياء وإنزال الكتب، وأحكام الشرائع وتوفيق قبول دعوة الرسل، وإجابة الحق واتباع السنة واجتناب البدعة وانقياد النفس لأوامر الشرع ونواهيه والثبات على قدم الصدق ولزوم العبودية، والنعمة الباطنة فإن الله تعالى أنعم على أرواحهم في بداية الفطرة بإضافة رشاش نوره لقوله ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطاه فقد ضل»[1] فكان فتح باب صراط الله إلى العبد رشاش ذلك النور وأول الغيث رش ثم ينسكب، فالمؤمنون ينظرون بذلك النور المرشوش إلى مشاهدة الغيب وينظرون الغيث ويستغيثون: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:6]، وهو ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:7]، بجذبات ألطافك وفتحت عليهم أبواب فضلك ليهتدوا بك إليك فأصابوا بها أصابهم منك بك ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:7]، قال الواحدي: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:7]، بالمخالفة والعصيان ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:7]، عن السنة.

قلت: هم الذين أخطأهم ذلك النور حين رشَّ عليهم من نوره فضلوا في تيه هوى النفس، وتاهوا في ظلمات الطبع والتقليد فغضب عليهم من اليهود ولعنهم بالطرد حتى لم يهتدوا إلى الشرع والتحقيق، ودفعوا عن الصراط المستقيم عن المرتبة الإنسانية التي خلق فيها الإنسان في أحسن تقويم ومسخوا قردة وخنازير صورة ومعنى أيضًا، ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:7]، بالخذلان ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ بالنسيان لما وقعوا عن الصراط في سير البشرية مشوا بشرك الشرك كالنصارى فاتخذوا الهوى إلها ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة:73]، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:67]، وأيضًا ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ بالغيبة بعد الحضور والمحنة بعد السرور، والظلمة بعد النور نعوذ بالله من الحور بعد الكور ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ في الفسق والفجور.

---

(1) ذكره الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (8/ 163).

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة:7]، بالرجوع عن الصراط المستقيم فنودوا: ﴿وأهدوهم إلى سواء الجحيم﴾، ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:7]، عن كرم الكريم ورحمة الرحيم بالإعراض عن الدين القويم، المحرومين عن القلب السليم وجنات النعيم باستحقاق العذاب الأليم، غير المغضوب عليهم بالاحتباس في المنازل والانقطاع عن القوافل، ولا الضالين بالصدور عن المقصود. وفصل في ﴿آمِينَ﴾ والتابعين سنة بعد ولا الضالين كان في الصلاة وخارج الصلاة، روى وائل بن حجر ﷺ قال: «سمعت رسول الله ﷺ قرأ ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: 7]، «آمين، خفض بها صوته»[1] حديث حسن.

وقال أبو هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: «(آمين) ختم رب العالمين على عباده المؤمنين»[2]، قلت فيه إشارات:

منها: أن العبد يكتب كتابه بقلم فعله وكل حركة تصدر منه فهي حرف وكل عمل كلمة تكتب في كتاب طاعته ومعصية فكم من كتاب قد كتب طاعة ومعصية وسعد به ملك اليمين أو الشمال، فلما بلغ الحضرة لم يجد فيها حرفًا، أما السيئات فقد محتها الحسنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:114]، وأما الطاعات فقد أحبطها الرياء والشرك لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:65]، فإن الله تعالى من غاية كرمه مع عباده جعل آمين خاتمة كتاب صلاة العبادة حتى لا يمحوها شيء من الأشياء فيبقي بها مختومًا ثابتًا إلى يوم الجزاء فإنه يمحو الله ما يشاء ويثبت، ولهذا قال ﷺ: «كل الختم على الكتاب»[3]، ومنها أن الله تعالى قال: «قسمت الصلاة بيني وبين

---

(1) رواه البيهقي في «السنن الكبرى»، والطيالسي في «مسنده» (1/ 138).

(2) لم أقف عليه.

(3) لم أقف عليه.

عبدي نصفين ولعبدي ما سأل»[1].

فالإشارة فيه أن للعبد نصفه من الحمد والثناء والدعاء؛ فيبقي نصف من الإجابة والهداية والرحمة والعفو والمغفرة والرضوان والنجاة من النيران ورفعة الدرجات من الجنان وكرامة بقاء الرحمن فختمت على ما سأل بخاتم: ﴿آمين﴾ ليوم يقوم الناس لرب العالمين يقال في قبول القوم ختم به عليه.

ومنها: أن العبد محجوب عن الله تعالى بحجاب أنانيته ووجدان وجوده، ووجوده مركب عن الروحاني العلوي والجسماني السفلي، فالشرع إنما جاء ليخرجه من ظلمات حجابه الجسماني السفلي إلى نور الروحاني العلوي؛ لأن من بقي فيها فهو في سفلي من النار لقوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: 103]، فمن نجا من ظلمات نار سفلي وجوده ووصل إلى نور جنة علو وجوده فهو بعد محجوب بحجاب النور العلوي لقوله ﷺ: «إن الله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة»[2] فالروحاني بالنسبة إلى الجسماني نوراني؛ ولكن بالنسبة إلى نور القديم ظلماني كما قال ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة»[3].

فالنور الحقيقي هو الله تعالى وما سواه مخلوق ظلماني، وكمال العبد في العبودية بالخروج عن ظلمات أنانيته إلى نور هويته وفقدان وجوده في وجدان وجود الحق، والحكمة في بعث الأنبياء وإنزال الكتب بالوعد والوعيد، والترغيب والترهيب في الأوامر والنواهي وجميع أحكام الشرع وآدابه مقصورة على هذا المعنى، ولهذا ذكر الله تعالى في مواضع من القرآن ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد: 9]، وإن أخرج قومك من الظلمات إلى النور فالله تعالى بجوده وكرمه جمع أصول ما في الكتب المنزلة في سور القرآن، وأودع حقائق

---

(1) سبق تخريجه.

(2) رواه الطبراني في «الكبير» (5/ 426).

(3) تقدم تخريجه.

ما في سور القرآن في سورة فاتحة الكتاب؛ بل في المراتب العشر للربوبية كما ذكرنا محصورة في المراتب الأربعة إلى قولنا: الهداية من الأزل إلى الأبد؛ لأن العبد كان محتاجًا إلى هدايته في الأزل بأن يهديه إلى الوجود وهي لو لم تكن هدايته لكان ضالاً في تيه العدم وهذا أحد معاني قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى:7].

فلما هدى العبد بهداية: «كن» فخرج عن ضلالة العدم إلى هدى الوجود الروحاني فكان ضالاً في عالم الأرواح، كما قيل: ضل الماء في اللبن، فاحتاج إلى هدايته ليخرجه بهداية ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29] من ضلالة الروحاني إلى هدى عالم الجسماني إلى أن بلغ كمال مرتبة الإنسانية بالبلوغ والعقل، فيضل في تيه أنانية الوجود فيحتاج إلى هدايته بالرجوع إلى الصراط المستقيم الذي جاء عليه من العدم إلى الوجود حتى يرجع عليه من الوجود إلى العدم فقوله: ﴿اهْدِنَا﴾ طلب أسباب الرجوع وهي في صورة النبي والشرع، وفي الحقيقة جذبة الحق ليهديه بهذه إلى العدم وفناء الوجود، كما هداه إلى الوجود بالنفخة ليهتدي إلى واجب الوجورد وهذا معنى آخر من معاني: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى:7].

فكما أنه لا نهاية لواجب الوجود فكذلك لا نهاية لهدايته إلى معرفته إلى الأبد؛ فالله تعالى جعل العروج إلى العدم من شأن الإنسان بنفسه إلا بالذي أوجده وإنزاله إلى أسفل سافلين ليعرج بها إلى أعلى عليين العدم، فعلى الله التعريج وعلى العبد التسليم، وتسليم العبد بالإيمان والعمل الصالح لقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين:6]، وجزاء الأعمال الصلاة فلهذا قال تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي... الحديث»[1].

فالعبد يقرب إلى الله بصدق النية وبحمده وشكره على ما أولاه من نعمه ويستهديه به إليه والحق تعالى يأخذه منه إليه ويفنيه عنه، ويبقيه به بالأمر، ويرفع

(1) تقدم تخريجه.

رسوم أنانيته بسطوة تجلي هويته فيفقد الوجود فقدانًا لا يجده أبدًا ويجد المفقود وبعد أن لا يفقده أبدًا؛ لأنه صار ملكه لقوله تعالى: «ولعبدي ما سأل»، ذكره بلام التمليك فيختم الله تعالى بعد بخاتم آمين فهذا هو الإشارة إلى مقام عباده المخلصين بأنه خاتم ليس لأحد من العالمين أن يتصرف فيه أو يفك ختم رب العالمين، ولهذا يئس إبليس عن التصرف فيهم، وقال: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص:83] والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: 1 - 5]

﴿الم﴾ [البقرة:1]، قال الشيخ الإمام مصنف الكتاب رحمه الله:

يحمل أن يكون ﴿الم﴾[1] وسائر الحروف المقطعة من قبيل المواضعات المعميات بالحروف بين المحبين لا يطلع عليها غيرهم، وقد وضعها الله مع نبيه ﷺ في وقت لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل ليتكلم بها معه على لسان جبريل عليه السلام بأسرار وحقائق لا يطلع عليها جبريل عليه السلام ولا غيره، يدل على هذا ما روي في الأخبار: «أن جبريل عليه السلام لما نزل بقوله تعالى: ﴿كهيعص﴾ [مريم:1]، فلما قال: ﴿ك﴾ [مريم:1]، قال: النبي علمت، فقال: ﴿هـ﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال: ﴿ي﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال: ﴿ع﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال: ﴿ص﴾ [مريم:1]، فقال: علمت، فقال جبريل عليه السلام: كيف علمت ما لم أعلم؟»[2].

وفي الحروف المقطعة إشارة إلى أن كلام الله تعالى لا يسعه الحروف والكلمات؛ لأن

---

(1) أشار بالألف إلى المبدأ الذي هو الإنسان؛ فإنه خرج من مخرج الشأن الذاتي الغيبي الذي كان تعيُّن الذات الأحدية في تلك المرتبة بالنسبة إلى سائر التعينات؛ كتعيُّن الحروف بالنسبة إلى التركيبات اللفظية، ثم لما خرج بالحركة المعنوية، والنفس الرحماني من تلك المرتبة؛ مرَّ بمرتبة الأرواح التي هي مرتبة اللام التي تعيَّن مخرجها من الوسط، فإن الأرواح متوسطة بين عالم العلم وعالم العين، ثم مرَّ بمرتبة الأجسام التي هي مرتبة الميم التي تعيَّن مخرجها من الفم الذي هو آخر المخارج، ولم يتعرَّض لمرتبة المثال، وإن كانت من الحضرات الخمس؛ لكونها ممتزجة بالطرفين؛ فلها وجه إلى مرتبة الأرواح، ووجه إلى مرتبة الأجسام، فإذًا المخارج الكلية ثلاثة: المبدأ الألفي، والوسط اللامي، والآخر الميمي، وما عداها فمخارج جزئية.

(2) ذكره حقي في تفسيره (1/ 27).

الكافر غير متناهٍ، والحروف والكلمات متناهية؛ وذلك لأن الصبيان يعلمون أولاً الحروف المقطعة الفارغة من معاني القرآن، ولكنها دالة على كلمات القرآن وبها يهتدى إلى قراءة القرآن، ثم يعلمونهم المركبات من الحروف، ثم يعلمون القرآن كلامًا وسورًا، فيفقهون منها المعاني كل واحد على قدر علمه، وفهمه ومعرفته وصدق نيته وصفاء طويته، ومواهب الحق في حقه؛ فيظن بعض الظانين منهم إذا انقطعت الكلمات والسور المعدودة أن كلام الله انقطع ومعانيه تناهت، فالله سبحانه وتعالى بكمال حكمته أنزل بعد الكلمات والسور الحروف المقطعة بعضها مركبة بالكتابة مقطعة بالقرآن مثل ﴿الم﴾ و﴿الر﴾ وغيرها.

وبعضها مفردة مقطعة بالكتابة والقرآن مثل ﴿ص﴾ و﴿ق﴾ و﴿ن﴾ ليعلموا أن كلام الله القديم والقرآن العظيم لا تحويه الكلمات المعدودة ولا تحصيه السور المحدودة، فإن الحروف المقطعة تدل على ما تدل عليه الكلمات من المعاني، والكلمات منحصرة معدودة ودلالة الحروف عليها غير منحصرة معدودة؛ لأن هذا يشير إلى أن الحروف المقطعة لو ركب بعضها بعضًا إلى الأبد لا ينقضي كلام الله تعالى، ولا يضيق نطاق نطق الحروف عن توسع محيط الكلام الأزلي؛ لأنه فرق ظاهر بين الحروف المقطعة وبين الحروف المحدثة جمعًا.

والكلمات القائمة بالحروف المحدثة منحصرة، ومعاني الحروف القائمة بالكلام القديم غير متناهية ولا منحصرة لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف:19]، وفي الحروف المقطعة إشارة أخرى، وهي: أن المركبة بالكتابة تشير إلى أن إلباس كسوة الحروف المحدثة في الكلام القديم لقصور فهم الإنسان، والمفردة منها تشير إلى أن الله تعالى متكلم بكلام أزلي أبدي غير ذي عدد، وتجدد الآيات والكلمات والسور العربية والعبرية والسريانية إنما جعلت كسوة الكلام الفرداني المنزه ليفهم الخلق لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ [الشورى:7].

قال الشيخ الإمام رحمه الله: والإشارة في تحقيق ﴿الم﴾ أن جميع ما ذكرنا في تفسير

الفاتحة من طلب الهداية إلى حضرة الربوبية والخلاص من ظلمات الوجود والوصول إلى الوحدانية وإجابة الحق تعالى دعاء العبد في إفنائه عن حجاب أنانيته بشهود كشف هويته، والمودع في الفاتحة مناجاة بين العبد والرب، ولكل مناج موضع خاص للمناجاة كما كان الطور ميثاق مناجاة موسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف:143].

وكان المعراج مقام مناجاة نبينا ﷺ بقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9]، وكان مقام مناجاة المؤمنين الصلاة كما قال ﷺ : «الصلاة معراج المؤمن»[1] فكما أن الصلاة بغير فاتحة غير تامة، فكذلك من قرأ الفاتحة في غير الصلوات تكون مناجاته غير تامة وقد سمى الله فاتحة الكتاب صلاة، وقال: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين إلى قوله: ولعبدي ما سأل»[2] إذا قرأها في الصلاة وإذا تحققت هذا فاعلم أن هذه الصلاة التي ذكرت في القرآن ثلث القيام لقوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238].

والركوع لقوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:43]، والسجود لقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:19]، فالألف إشارة إلى القيام، واللام إشارة الركوع، والميم إشارة إلى السجود، يعني: من قرأ فاتحة الكتاب التي هي مناجاة العبد مع الله في الصلاة التي هي معراج المؤمنين ليجيبه الله بالهداية التي طلب منه بقوله: ﴿اهْدِنَا﴾ فيكون له أم الكتاب هدى بلا شك، ولهذا قال عقيب: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [البقرة:2]، للغائب فلو كانت الإشارة بذلك الكتاب إلى القرآن تعالى هذا الكتاب ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى﴾ [البقرة:2]، أي: أم القرآن إذا قرئت في الصلاة وناجى به العبد ربه، وسأل منه الهداية بقوله ﴿اهْدِنَا﴾ لا شك فيه أنه يهدي لما سأل؛ لأنه قال: ولعبدي ما سأل، منه هاهنا ما كان بالإشارة والتعريض لقوله ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة:3].

وفي: ﴿ذلك الكتاب﴾ إشارة أخرى أي: كتاب العهد الذي أخذ يوم الميثاق بإقرار

---

(1) ذكره الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (1/ 134).

(2) سبق تخريجه.

العبد على التوحيد ليوم التلاق، يدل على هذا قرينة ﴿الم﴾ الألف واللام حرفان مقدمان من قوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، والميم المؤخر عنه الحرف الآخر من قوله: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ معناه في عهد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، أخذت منكم ذلك الكتاب في الميثاق على التوحيد في الربوبية وعلى العبودية بالعبادة لي دون غيري؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يس:61]، أي: هاديًا إلى صراط مستقيم التوحيد والعبودية التي لا شرك فيها لغيري، وإلى محبتي للمتقين أي: للمؤمنين الموقنين يدل عليه ما بعده وهو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾(1) [البقرة:3]، أي: يوقنون وقد شرط الله تعالى على الهداية بالتقوى قال: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:2]، فالهداية تكون على قدر التقوى والتقوى على ثلاثة أوجه: تقوى العام عن الشرك والكفر والبدع، وتقوى الخاص عن الذنوب والعصيان، وتقوى الأخص عن ملاحظة غير الرحمن، فهداية العام بالإسلام والإيمان، وهداية الخاص بالإيقان والإحسان، وهداية الأخص بكشف الحجب ومشاهدة العيان ليتقي على نفسه بربه، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [المائدة:100].

والمتقون هم الذين أوفوا بعهد الله من ميثاقه ووصلوا بها ما أمر الله به أن يوصل به من مأمورات الشرع ظاهرة وباطنًا وانقطعوا عما نهاهم الله عنه من منهيات الشرع ظاهرًا

---

(1) قال البقلي: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ ما غاب عن الأبصار، منكشفًا بنعت الأنوار لعيون الأسرار. و«الإيمان بالغيب»: هو تفرُّس الروح بنور اليقين مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، و«الإيمان بالغيب»: شوقُ القلبِ إلى لقاء الرب . وأيضًا «الإيمان»: تصديق السر بما أبصرَت الروح من مكنون حقائق الغيب بنعت مباشرة حلاوة انكشاف نور الحق في صميم سرّ السرّ، واتصاله بروقة بطنان القلب، وتعريفه أوصاف صفات الحق عقل الكلّ. وأيضًا «الإيمان»: تصديق القلب بوجدان الروح رؤية الرب جل وعلا، و«المؤمنون»: هم الذين صدقوا مواعيد الغيوب بعد إدراكهم مواجيد قلوبهم من رؤيتها، ومواجيد قلوبهم لا تكون إلا من رؤية أبصار بصائرهم أنوار غيب الغيب، وترائي الغيب لا يكون للروح الناطقة؛ إلا بعد أن يؤيدها الحق بتبيين البراهين، واستكشافه حقائق الاستدلال، بشهود الحال رؤية المدلول، واستحكام أنوار البصيرة؛ فإذا كملت هذه الأوصاف للروح، أبصرت صفاء صحاري الغيب، وتمكّنت تحت ركوم أنوار اليقين، وسناء قدس الحق، بنعت بروزه في لباس حقِّ اليقين، وحقيقةُ حق اليقين لا تحصل بالتحقيق إلا بعد انسلاخ السرّ عن الاستشهاد والاستدلال.

وباطنًا، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:40]، إلى قوله ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة:41]، معناه إذ أنتم أقررتم بربوبيتي بقولكم ﴿بَلَى﴾ يوم الميثاق فأوفوا بعهدي الذي عاهدتموني عليه وهو العبودية الخالصة أوف بعهدكم الذي عاهدك عليه: الهداية إلي، وحقيقة التقوى الإعراض عن الدنيا والعقبى بالإقبال على المولى يؤمنون بالغيب؛ أي: بنور غيبتي وهو من الله في قلوبهم نظروا إلى محمد ﷺ فشاهد وصدقوا قوله وآمنوا به كما قال ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»(1) واعلم أن الغيب غيبان، غيب غاب عنك وغيب غبت عنه، فالذي غاب عنك عالم الأرواح فإنه كان حاضرًا حين كنت فيه بالروح وكذرّة وجودك في ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172].

واستماع خطاب الحق ومطالعة آثار الربوبية وشهود الملائكة وتعاون الأرواح من الأنبياء والأولياء وغيرهم، فغاب عنك إذا تعلقت بالقلب، ونظرت بالحواس الخمس إلى المحسوسات عن عالم الأجسام، وأما الغيب الذي غبت عنه فغيب الغيب، وهو حضرة الربوبية قد غبت عنه بالوجود ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:4] أنت بعيد عنه وهو قريب منك، كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:16].

وكذلك الإيمان مراتب؛ فأول مرتبة: تصديق القلب بحقائق الغيب بلا ريب، كما روي عن علي ابن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان معرفة بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان»(2)، وعلى ما أخبرنا أبو المظفر عبد الرحيم بن عبد الكريم السمعاني قال: أخبرنا أبو الحسن مسعود بن محمود الغانمي، قال: أخبرنا أبو القاسم بن أبي منصور الخليل، أخبرنا أبو القاسم علي بن محمد الخزاعي، أخبرنا الهيثم بن كليب الشاشي، ثنا أحمد عيسى بن أحمد العقلاني، أنا يزيد بن هارون، أنا كهمس بن الحسن عن عبد الله بن يزيد عن يحيى بن يعمر قال: كان أول من تكلم في القدر - يعني بالبصرة - معبد الجهني، فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن نريد مكة، فقلنا: لو لقينا من أصحاب رسول الله ﷺ فلسألته عن القدر، فلقيناه عبد الله بن عمر، فالتقيته أنا وصاحبي أحدنا عن

---

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (9/ 262)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (2/ 296).

(2) رواه الطبراني في «الأوسط» (14/ 14)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (1/ 20).

يمينه والآخر عن شماله، فعلمت أنه سيكل الكلام إلي، فقلت: يا أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر عندنا ناس يعتقدون هذا العلم ويطلبونه ويزعمون أن الأقدر وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت لهم فأخبرهم أني بريئ منهم ومن ربهم براء، «والذي نفسي بيده لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا، فأنفقه في سبيل الله ما قبل منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره»(1).

ثم قال: حدثنا عمر بن الخطاب ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ إذ أقبل رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، ما بريئ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فأقبل حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ وركبتيه تمس ركبتيه فقال: «يا محمد أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: الإِسْلاَمُ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا. قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ». قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ؛ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟». قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ، وما أتاني في صورة إلا عرفته فيها إلا في صورته هذه»(2)، هذا حديث صحيح أخرجه مسلم، واتفقا على إخراجه من حديث أبي هريرة ﷺ.

وعلى ما أخبرنا المؤيد بن محمد بن علي المقري، أخبرنا العباس بن محمد الطوسي، أنا أبو محمد الناوي، ثنا الحسن بن علي إمام عصره، حدثني محمد بن سعيد قال: خبرنا أبو إسحاق الثعلبي، أنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن الخيري، أخبرنا أبو محمد بن

---

(1) رواه الترمذي (10/ 87)، وابن بطة في «الإبانة» (4/ 140).

(2) رواه الإمام البخاري (1/ 27، رقم50)، مسلم (1/ 114)، وأبو داود (13/ 426)، والنسائي (15/ 281)، وأحمد (1/ 378).

علي السيد المحجوب حدثني بن علي ابن موسى الرضا حدثني إلى موسى بن جعفر، حدثني جعفر بن محمد الصادق، حدثني أبي محمد بن علي السجّاد، حدثني أبي علي بن الحسين زين العابدين، حدثني أبي الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة، حدثني أبي علي ابن أبي طالب سيد الأوصياء، حدثني محمد بن عبد الله سيد الأنبياء ﷺ قال: «**الإيمان قول مقول، وعمل معمول، وعرفان بالعقول، واتباع الرسول**»(1).

والمرتبة الثانية من الإيمان: أن تؤمن بغيب الغيب، ولهذا الإيمان مرتبتان:

فالمرتبة الأولى: أن يتخلص قلبه بالنور الغيبي الذي هو من الله تعالى عن تعلقات الجسمانيات وحجب آفات النفس وصفاتها، ويهدي إلى عالم الأرواح كما كان أول العهد يوم الميثاق؛ فالغيب الروحاني لا يبقي له غيب؛ لأنه ارتفعت الحجب وصار حضورًا وشهودًا لقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن : 11]، أي: من كان إيمانه بنور الله يهد قلبه إلى الله؛ فيشاهد القلب ما كان الروح يشاهده في عالم الأرواح، وما كانت الذرة تشاهده يوم الميثاق، ويسمع من خطاب الرب ما كانت تسمع، ويتنور بنور تنورت الذرة به، ويتنسم من نفحات ألطاف الحق ما تنسمت؛ فالإيمان الغيبي يصير عينًا؛ فيكتب الله تعالى الإيمان بنور غيب الغيب في قلبه، كما قال تعالى: ﴿**أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ**﴾ [المجادلة:22]، فيتنوَّر ذلك القلب لإيمان، ويتأيد ذلك الروح ويشاهد أنوار الفضل الإلهي فيشتاق شوق موسى بقوله لأهله: ﴿**امْكُثُوا**﴾ [طه:10]، وهو الروح والجسم ﴿**إِنِّي آنَسْتُ نَارًا**﴾ [طه:10]، فيرتقي عن عالم الأرواح ويقول: ﴿**لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ**﴾ [طه:11]، من شاطئ وادي الإيمان، وهو حضائر القدس في البقعة المباركة، وهي القلب من الشجرة، وهي السر ﴿**أَنْ يَا مُوسَى**﴾ [القصص:30]، وهو المحب المشتاق ﴿**إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ [القصص:30]، الذي خلقت العالمين وربَّيتُ خواص عبادي بألبان المحبة عن ثدي ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾ [المائدة:54]؛ «**أنا المحبوب؛ فأين أنت يا محب؟! أنا المطلوب؛ فأين**

(1) ذكره الثعلبي الكشف والبيان (1/ 70).

أنت يا طالب؟! ألا طال شوق الأبرار إلى لقائي، وأنا أشد شوقًا إلى لقاءهم».

فلما دارت كؤوس الملاطفات، وأقداح المكاشفات بين المحب والمحبوب جعل يتساكر المحب ويتخامر مع المحبوب بلسان الانبساط على بساط القرب يقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]، ليصير الإيمان عيانًا والغيب عينًا، نودي من سرادقات العزة: ما هذه العزة! ألم تعلم بأنه عالم الغيب وغيب الغيب فلا يظهر على غيبة أحدًا، فإنك مع أحديتك لن تطيق شهود أحديتي، وإن أتجلى فإنك ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:143]، وإن لم تؤمن بأن مع تجلي أنانيتي لا يستقر أنانيته شيء ﴿وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف:143]، مع استقرار جبل أنانيتك على مكان وجودك ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ﴾ [الأعراف:143]، للجبل ﴿جَعَلَهُ﴾ [الأعراف:143]، جبل أنانيته ﴿دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى﴾ [الأعراف:143]، نفس المحب عن الوجود ﴿صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ [الأعراف:143]، عن سكر شراب وجود الأنانية شاهد تحقيق قوله ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف:143]، مع حجاب وجود الأنانية، فتاب عن ذنب الأنانية إليه، وآمن إيمان المرتبة الثانية الذي هو هويته، وقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:143]، بأن هويتك غيب، لا يعلم الغيب إلا الله، فالإيمان بهذا الغيب يكون بقدر غيبوية الأنانية بشهود غيب الغيب، وكلما ازداد غيبوبته ازداد إيمانه، والغيبة لا تحصل إلا بجذبات شواهد الغيب، وهي مودعة في إدامة إقامة الصلاة؛ فلهذا قال عقيب الذين يؤمنون بالغيب قوله: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ [البقرة:3]، والغيب مالا تدركه الحواس الخمس الظاهرة وتدركه الحواس الخمس الباطنة، وهي: العقل والقلب والروح والسر والخفي يدل عليه قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام:73]، فالشهادة ما تدركه الحواس الخمس، وهي: السمع والبصر والذوق والشم واللمس، وما تدركه الحواس الباطنة فهو غيب، وهي الأمور الأخروية ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ [البقرة:3]، أي: يديمونها.

قال الشيخ: بداية الصلاة إقامة ثم إدامة؛ فإقامتها المحافظة عليها بمواقيتها، وإتمام ركوعها وسجودها وحدودها وحقوقها ظاهرًا وباطنًا، وكل شيء واظب على شيء وقام

به فهو مقيم، يقال: أقام فلان حج الناس، وأقام القوم سيوفهم إذا استعملوها ولم يعطلوها، وإدامتها بدوام المراقبة وجميع التهمة في التعرض لنفحات ألطاف الربوبية التي هي مودعة فيها لقوله ﷺ: «إن لله في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها»(1)، وصورة التعرض والأمر بها صورة جذبة الحق بأن يجذب صورتك عن الاستعمال بغير العبودية، وسر الصلاة حقيقة التعرض، ففي كل شرط من شروط صورتها، وركن من أركانها، وسنة من سننها، وأدب من آدابها، وهيئة من هيئاتها سر يشير إلى حقيقة تعرض لها فمن شرائطها:

الوضوء: ففي كل أدب وسنة وفرض منها سر يشير إلى طهارة يستعد بها لإقامة الصلاة.

ففي غسل اليدين: إشارة إلى تطهير نفسك عن تلوث المعاصي، وتطهير قلبك عن تلطخ الصفات الذميمة الحيوانية والسبعية والشيطانية، كما قال تعالى لحبيبه ﷺ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 4]، جاء في التفسير أي: قلبك فطهر.

وغسل الوجه: إشارة إلى نضارة وجه همتك عن دنس حب الدنيا، فإنه رأس كل خطيئة وسنبين تمامه في موضعه إن شاء الله تعالى.

ومن شرائط الصلاة استقبال القبلة، وفيه إشارة إلى الإعراض عما سوى طلب الحق والتوجه إلى حضرة الربوبية لطلب القربة والمناجاة.

ورفع اليدين: إشارة إلى رفع يد الهمة عن الدنيا والآخرة، والتكبير لتعظيم الحق بأنه أعظم من كل شيء في قلب العبد طلبًا ومحبة وعظمًا وعزة.

ومقارنة النية مع التكبير: إشارة إلى أن صدق النية في الطلب ينبغي أن يكون مقرونًا بتكبير الحق وتعظيمه في الطلب عن غيره فلا يطلب منه إلا هو، فإن طلب منه غيره فقد كبر وعظم ذلك المطلوب إلا الله تعالى، فلا تجوز صلاته الحقيقية كما لا تجوز صلاة الصورة إلا بتكبير الله، فإن الدنيا أكبر والعقبى أكبر، فلا تجوز حتى يقول الله أكبر، وكذلك في الحقيقة.

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (14/ 125)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (1/ 232).

وفي موضع اليمنى على اليسرى، ووضعهما على الصدر: إشارة إلى إقامة رسم العبودية بين يدي مالكه، وحفظ القلب عن محبة ما سواه.

وفي افتتاح القراءة بوجهه إشارة إلى توجيهه للحق خالصًا عن شرك طلب غير الحق.

وفي وجوب الفاتحة وقراءتها وعدم جواز الصلاة بدونها إشارة إلى حقيقة تعرض العبد في الطلب لنفحات ألطاف الربوبية بالحمد والثناء والشكر لرب العالمين، وطلب الهداية، وهي جذبة الإلهية التي توازي جذبة منها عمل الثقلين وتقرب العبد بنصف الصلاة المقومة بين العبد والرب نصفين.

والقيام والركوع والسجود: إشارة إلى رجوعه إلى عالم الأرواح، ولكن الغيب كما جاء منه فأول تعلقه بهذا العالم كان بالنباتية ثم الحيوانية ثم بالإنسانية؛ فالقيام من خصائص الإنسان والركوع من خصائص الحيوان، والسجود من خصائص النبات كما قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن:6]، وللعبد في كل مرتبة من هذه المراتب ربح وخسران، والحكمة في تعلق الروح العلوي النوراني بالجسد السفلي الظلماني كان هذا الربح؛ لقوله تعالى على لسان نبيه ﷺ: «خلقت الخلق ليربحوا عليّ لا لأربح عليهم»(1) لتربح الروح في كل مرتبة من مراتب السفليات فائدة لم توجد في مراتب العلو، وإن كان قد ابتلي أولاً ببلاء الخسران كما قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر:1-3]، فبنور الإيمان، وعمل صالح الصلاة يتخلص خسران التكبر والتجبر الإنساني الذي من خاصيته إن تكامل في الإنسان يظهر منه ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النازعات:24]، ويفوز بربح علو الهمة الإنسانية التي إذ أكملت في الإنسان لا يلتفت إلى كون في طلب المكون كما كان حال النبي ﷺ: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ [النجم:16-17]، فإذا تخلص من تكبر الإنسان يرجع من القيام الإنساني إلى الركوع الحيواني للانكسار

(1) ذكره العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (8/ 301)، والقشيري في «الرسالة القشيرية» (1/ 64).

والخضوع؛ فالركوع يتخلص من خسران حالة الصفة الحيوانية، ويفوز بربح ليس الحادث، وتحمل الأذى والختم، ثم يرجع من الركوع الحيواني إلى السجود النباتي فبالسجود ويتخلص من خسران الذلة النباتية، والدناءات السفلية، ويفوز بربح الخشوع الذي يتضمن الفلاح الأبدي والفوز العظيم السرمدي.

كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: 1-2]، فالخشوع أكمل آلة للروح في العبودية قد حصل في تعلقه بالجسد الترابي ليس لأحد من العالمين هذا الخشوع، وبهذا السر أبين الملائكة وغيرهم أن يحمل الأمانة وأشفقن منها وحملها الإنسان باستعداد الخشوع، وكمل خشوعه بالسجود؛ إذ هو غاية التذلل في صورة الإنسان وهيئة الصلاة ونهاية قطع تعلق الروح من العالم السفلي وعروجه إلى العالم الروحاني العلوي برجوعه من مراتب الإنسانية الحيوانية والنباتية، وكمال التعرض لنفحات ألطاف الحق وبذل المجهود وإنفاق الموجود من أنانية الوجود الذي هو من شرط المصلين؛ كقوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة:3]، أي: من أوصاف الوجود ينفقون يبذلون للحق النصف المقسوم بين العبد والرب، فإذا بلغ السيل زباه والتعرض منتهاه أدركته العناية الأزلية بنفحات ألطافه، وهداه إلى درجات قربانه، فكما كانت جذبة الحق سبحانه وتعالى للنبي ﷺ في صورة خطاب؛ إذن فجذبة الحق للمؤمن تكون في صورة خطاب: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:19]، ففي التشهد بعد السجود إشارة إلى الخلاص من حجب الأنانية والوصول إلى شهود جمال الحق بجذبات الربانية؛ ثم بالتحيات مراتب رسول العباد في الرجوع إلى حضرة الملوك بمراسم تحفة الحق الثناء، والتحنن إلى اللقاء.

وفي التسليم عن اليمين والشمال إشارة إلى السلام على الدارين وعلى كل داع جاهل يدعوه عن اليمين إلى نعيم الجنان، وعن الشمال إلى الشهوات واللذات، وهو مقام المناجاة والدرجات والقربات مستغرقًا في بحر الكرامات مقيدًا بقيد الجذبات؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان:63]، فأهل الصورة بالسلام يخرجون من إقامة الصلاة، وأهل الحقيقة بالسلام يدخلون في إدامة الصلاة؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ

هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:23]، فقوم يقيمون الصلاة، ويحافظون عليها، وقوم يديمون الصلاة والصلاة تحفظهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:45]، فهم ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة:3]، يؤمنون بما لهم في الغيب معد لقوله تعالى: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(1).

فعلموا إنما هو المعد لهم لا تدركه الأبصار ولا الآذان ولا القلوب التي رزقهم الله تعالى، وليس بينهم وبين ما هو المعد لهم حجاب إلا وجودهم وأوصاف وجودهم، فاشتاقوا إلى نار تحرق عليهم حجاب وجودهم، فأنسوا من جانب طور صلواتهم نارًا؛ لأن صلواتهم بمثابة الطور للمناجاة والصلاة؛ قيل: اشتقاقها من الصلاة، وهي النار قاله الخراز، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:8]، فجعلوا ما رزقهم الله تعالى من أوقاف الوجود حطب نار الصلاة ينفقون عليها، ويقيمون الصلاة حتى تؤدوا حق أنتم، وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها وارداً، ومن لم يكن ناراً أتحرق على نار جهنم الصلاة حطب وجوده، ووجود كل من يعبد من دون الله؛ فلا بد له من الحرقة بنار جهنم الآخرة، والفرق بين النارين: أن نار الصلاة: تحرق لب وجودهم الذي به محجوبون عن الله تعالى، وتبقي وجوههم وهو الصلاة، والحجاب من لب الوجود لا من جلده، وهذا شر عظيم لا يطلع عليه إلا أولو الألباب المحرقة، ونار جهنم: تحرق جلود وجود وجوههم، وتبقي لب وجودهم لا جرم ولا رفع الحجب عنهم ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:15]؛ لأن اللب باق والجلد وإن احترق بنية اللب كما قاله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:56]، فمن أتقن لب الوجود، وما بينا منه لب الوجود من المال والجاه في سبيل نار الصلاة والقربة إلى الله تعالى ينفق الله عليه، وجود نار الصلاة كما قال تعالى لحبيبه ﷺ: «انفق أنفق عليك»(2) فبقي بنار الصلاة بلا

(1) رواه البخاري (11/ 390)، ومسلم (18/ 146)، والترمذي (11/ 500)، وابن ماجه (13/ 45).

(2) رواه البخاري (15/ 317)، ومسلم (6/ 290)، والبيهقي في «الكبرى» (4/ 187).

أنانية الموجود فتكون صلاته دائمة بفوز نار الصلاة يؤمن بما أنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4] أي: لما كشف عن المؤمنين حجب أنانية الوجود ونظروا بنور نار الصلاة أبصروا ما أنزل على النبي ﷺ من الوحي صورة، وما ابتلي حقيقة، وهو ﴿أوحى إلى عبد ما أوحى﴾؛ فعرفوا حقيقته فآمنوا به وبما أنزل على الأنبياء قبله كما قاله تعالى في حق قوم: ﴿سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة: 83]، فبنور العناية عرفوا الحقيقة فآمنوا به ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 83]، ومن تخلص عن ذل الحجب يجد عزة الإيقان بالأمور الأخروية، وكان مؤمنًا بها من وراء حجاب صار موقنًا بها بعد رفع الحجاب؛ كما قال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه: «لو كشف الغطاء ما ازددت يقينًا»؛ لأنه قد كشف عنه الغطاء الوجودي فلا يحجب غطاء المحسوسات الدنيوية عن أمور الأخروية، فبكشف الحجب يتخلصون عن مرتبة الإيمان إلى مرتبة الإيقان، كما قال تعالى: ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 4]، ولكن هذا خاص أن يوقنوا بالآخرة دون ما أنزل على الأنبياء من الكتب، فإنهم لا يتخلصون عن مرتبة الإيمان بالله، وكتبه أبدًا، وهذا سر عظيم، وما رأيت أحدًا فرق بين هاتين المرتبتين؛ وذلك لأنه يمكن للإنسان أن يشاهد الأمور الأخروية كلها إما بطريق الكشف في الدنيا، وإما بطريق المشاهدة في الدنيا، وإما بطريق المشاهدة في العقبى؛ فيصير موقنًا بها بعد ما كان مؤمنًا كما قال تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: 22].

فأما ما يتعلق بذات الله تعالى وصفاته ولا يمكن لأحد أن يشاهده بالكلية؛ لأنه منزه عن الكل والجزء فأرباب المشاهدات، وإن فازوا بشهادة شهود صفات جماله وجلاله عين اليقين؛ بل حق اليقين ولكن لم يتخلصوا عن مرتبة الإيمان بما شاهدوا بعد، ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً﴾ [طه: 110] إلى الآباء، ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: 255].

﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:5]، ذكر هدى بالنكرة أي: على كشف من كشوف ربهم ونور من أنواره، وسر من أسراره، ولطف من ألطافه، وحقيقة من حقائقه؛ فإن جميع ما أنعم الله به على أنبيائه وأوليائه بالنسبة إلى ما عنده من كمال ذاته وصفاته وإنعامه وإحسانه؛ فقطرة من بحر محيط لا يعتريه القصور من الانفاق أبدًا؛ كما قال النبي ﷺ: «يَمِينُ الله مَلأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(1) وفيه إشارة لطيفة وهي: بذلك الهدى آمنوا ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:4]، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:5]، يعني الذين يخلصون عن حجب الوجود بنور نار الصلاة، وشاهدوا بالآخرة وجذبتهم العناية بالهداية إلى مقامات القربة، وسرادقات العزة فما نزلوا بمنزل دون لقائه، وما حطوا رحالهم إلا بعنايته، فازوا بالسعادة العظمى والمملكة الكبرى، ونالوا الدرجة العليا وحققوا قول الحق ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾ [العلق:8].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة:6 - 10]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:6]، أي: حجروا ربوبيتي بعد إقرارهم في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، بإجابة ﴿بَلَى﴾ ستروا صفاء قلوبهم برين ما كسبوا من أعمالهم الطبيعية النفسانية، وأفسدوا حُسن استعدادهم من فطرة الله التي فطر الناس عليها باكتساب الصفات البهيمية والسبعية والشيطانية، كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14]، وذلك أن أرواحهم النفيسة لما نظروا بروزنة الحواس الخمس إلى عالم الصورة الحسية حجبت عن مألوفاتها ومجارياتها، ثم ابتليت بصحبة النفوس الحيوانية واستأنست بها، ولهذا سمي الإنسان إنسانًا؛ لأنه أنيس،

(1) رواه البخاري (24/ 267)، والنسائي في «الكبرى» (6/ 363).

فبمجاورة النفس الخسيسة صار الروح النفيس خسيسًا، فاستحسن ما استحسنته النفس واستلذ بها استلذت به النفس، واستمتع من المراتع الحيوانية فانقطعت عنه الأغذية الروحانية ونسي حضائر القدس وجوار الحق ورياض الأنس، ولهذا سمي الناس ناسًا لأنهم نسوا فتاهوا في أودية الخسران فاستهواهم الشيطان في الأرض حيران، ولما نسوا الله بالكفر فنسيهم بالخذلان حتى غلب عليهم الهوى، وواقعهم في مهالك الردى، فأصبحوا بنفوس أصبى وقلوب مولى.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ﴾ [البقرة:6]، بالوعد والوعيد وخوفهم بالعذاب الشديد ﴿أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ [البقرة:6]، لم تحذرهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:6]، بما أخبرتم ودعوتهم إليه وأنذرتهم عليه؛ لأن روزنة قلوبهم إلى عالم الغيب منسدة بغشاوة حلاوة الدنيا وقلوبهم مغلوقة بحب الدنيا وشهواتها مغفولة عليها بمتابعة الهوى كما قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:24] فما تشموا روائح الإنس من رياض القدس، بل هبت عليهم ريح ضرر الشقاوة من جهة حكم السابقة، وأدركهم بالختم على أقفالها كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة:7]، في الختم إشارة إلى بداية سوابق أحكام القدر بالسعادة والشقاوة على وفق الحكمة والإرادة الأزلية للخليقة، كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود:15]، مع حسن استعداد جميعهم بقبول الإيمان والكفر، ولهذا لما خاطب الحق ذراتهم بخطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، قالوا: ﴿بَلَى﴾ جميعًا، ثم أودع الله الذرات في القلوب والقلوب في الأجساد، والأجساد في الدنيا في ظلمات ثلاث، وكانت روزنة القلوب كلها مفتوحة إلى عالم الغيب بواسطة الذرات المودعات التي سمعت خطاب الحق، وشاهدت كمال الحق إلى وقت ولادة كل إنسان كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»(1) وفيه إشارة إلى أن الله يكل الأشقياء إلى تربية الوالدين في

(1) رواه البخاري (5/ 321)، ومسلم (17/ 186)، وأبو داود (13/ 446).

معنى الذين حتى يلقونهم تقليد ما ألفوا عليهم آباءهم من الضلالة فيضلوهم، كما قال تعالى: ﴿أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء:54]، فكانت تلك الشقاوة المقدرة مضمرة في ضلالة التقليد والصفات النفسانية الظلمانية والهوى والطبيعة، ثم جعل تأثيرها وظلمتها وريننها يندرج إلى القلوب؛ فيقسيها ويسودها ويغطيها، ويسد روزنتها إلى الذرات فيعميها ويصمها حتى لا يبصر أهل الشقاوة ببصر الذرات من الحق ما كانوا يبصرون ولا يسمعون بسمع الذرات من الحق ما كانوا يسمعون، فينكرون على الأنبياء ويكفرون بهم وبما يدعونهم إليه، فيختم الله شقاوتهم بكفرهم هذا ويطبع به على قلوبهم، كقوله تعالى ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء:155]، فسر القدر مستور لا يطلع عليه أحد إلا الله، فيظهر آثار السعادة بإقرار السعداء ويظهر آثار الشقاوة بإنكار الأشقياء وكفرهم من القدر، كالبذر في الأرض مستور فتظهر الشجرة منه وهو في الشجرة مستور، فيخرج مع الأغصان من الشجرة وهو في الأغصان مستور، حتى يخرج مع الثمرة من الأغصان وهو في الثمرة مستور، حتى يظهر من الثمرة فيختم ظهور البذر بالثمرة فكذلك سر القدر، وهو بذر السعادة أو الشقاوة مستور في علم الله تعالى، فتظهر شجرة وجود الإنسان منه والسعادة والشقاوة مستورة فيها فتخرج مع أغصان الأخلاق وهي مستورة فيها، فتخرج مع ثمرة الأعمال وهي الإقرار والإنكار والإيمان والكفر، فيختم ظهور سر القدر وهو السعادة أو الشقاوة بثمرة الإيمان أو الكفر، فيظهر سر القدر عند الختم بالسعادة أو الشقاوة، فالذين ﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ إنما ختم بخاتم كفرهم.

وإن كان نقش خاتمهم هو الأحكام الأزلية وسر القدر حتى حرموا من دولة الوصال وبه ختم[1] ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة:7] حتى لم يسمعوا خطاب

(1) قال البقلي: قال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: «طبعَ الله على قلوبهم برؤية أفعالهم بمعاونة النفوس، حتى كفروا سرًّا، وآمنوا علانيةً».

الملك ذي الجلال ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ [البقرة:7]، من العمى والضلال، فلم يشاهدوا ذلك الجمال والكمال فلهم حرمان مقيم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:7]، لأنهم منعوا من مرادهم وهو العلي العظيم، فعظم العذاب يكون على قدر عظمة المراد الممنوع منه.

ثم بعد ذكر المؤمنين وأحوالهم والكافرين وأفعالهم ذكر المنافقين وأقوالهم وأعمالهم وخصالهم بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:8]، والناس هم الذين نسوا الله ومعاهدته يوم الميثاق فمنهم من يقول آمنا بالله بلسانه ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران:167]، فإن الإيمان الحقيقي ما يكون من نور الله الذي يقذفه الله في قلوب خواصه، وقوله تعالى: ﴿وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:8] أي: بنور الله يشاهد الآخرة فيؤمن به، فمن لم ينظر بنور الله لا يكون مشاهد العالم الغيب، فلا يكون مؤمنًا بالله وباليوم الآخر.

ولهذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:8] أي: بالذي يؤمنون من نور الله تعالى. وفيه معنى آخر: وما هم بمستعدين للهداية إلى الإيمان الحقيقي؛ لأنهم من غاية الغلالة والخذلان ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:9] أي: يمكرون بالله والمؤمنين بإظهار الإيمان وإخفاء الكفر لينالوا من الله والمؤمنين منافع الإيمان من الأمان عن القتل والنهب والأسر وغير ذلك من تظلم مصالح الدنيا، والإشارة في تحقيق الآية أن الله تعالى لما قدر لبعض الناس الشقاوة في الأزل ثمر بذر سر القدر المستور في أعمال ثمرة مخادعة الله في الظاهر ولا يشعر أن مخادعته نتيجة بذر سر القدر بطريق تزيين الدنيا في نظره وحب شهواتها في قلبه كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾ [آل عمران:14]، فالخدع بزينة الدنيا وطلب شهواتها عن الله تعالى وطلب السعادة الأخروية فعل الحقيقة هو

-

قال جعفر الصادق: الختمُ على وجوه: منهم من ختمَ على قلبه برؤية فعله، ومنهم من ختمَ على قلبه برؤية الأعواض، ومنهم من ختم قلبه بالإسلام، ومنهم من ختم قلبه بالإيمان، ومنهم من ختم قلبه بالمعرفة، ومنهم من ختم قلبه بالتوحيد، فكلٌ واقفٌ مع ذلك الختم.

وقال سهل: أسبلَ عليهم ستر شقاوة، فصمُّوا عن سماع الحق، وعموا عن ذكره.

المخادع الممكور.

كما قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:142]، فعلى هذا: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة:9]، حقيقة في صورة مخادعتهم الله والذين آمنوا؛ لأنهم كانوا قبل مخادعتهم الله مستوجبين النار بكفرهم مع إمكان ظهور الإيمان عنهم، فلما شرعوا في إظهار النفاق بطريق المخادعة نزلوا بقدم النفاق الدرك الأسفل من النار وبطلوا استعداد قبول الإيمان وإمكانه عن أنفسهم، فكانت مفسدة خداعهم ومكرهم راجعة إلى أنفسهم ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:9] أي: ليس لهم الشعور بسر القدر الأزلي، وأن معاملتهم في المكر والخداع من نتائجه؛ لأن ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة:11]، ومرض القلب مانعهم من شعور سر القدر، والإشارة في تحقيق الآية أن سر مرض قلوبهم إنما كان من بذر تقدير شقاوتهم في الأزل، فأنبت شجرة الشك والنفاق في قلوبهم بماء حب الدنيا، فأحبهم وأعمى أبصارهم حتى لم يبق لقلوبهم الشعور بالآفات، ولو كانت قلوبهم سالمة من هذه العاهة والمرض لعلموا أن مفسدة نفاقهم ومخادعتهم راجعة إليهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله يظهر نفاقهم وبه يفضحهم عند النبي ﷺ والمؤمنين إلى يوم القيامة، ويزيد شؤم نفاقهم في مرض قلوبهم(1)، كما قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:10]، وأما في الآخرة فلا ينفعهم المال والبنون وما يمكر بهم في الدنيا بسبب نفاقهم الذي يزيد في مرض قلوبهم، وإنما تكون منفعتهم هناك في القلب السليم لا في المال

---

(1) قال البقلي: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: رعونة تَشغُلها قبول الحق، وتُلهيها بقبول الخلق.

وأيضًا أي: غَفلَة عن ذكر العقبى، وهِمّةٌ مشغولة بحب الدنيا ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بتبعيدهم من قربه، وتشغيلهم عن ذِكره.

وقيل: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: بخلوِّها من العصمة والتوفيق والرعاية.

وقال بعضهم: بميلهم إلى نفوسهم، وتعظيم طاعتهم عندهم، ومن مال إلى شيء عَمِي عن غيبه، فزادهم الله مرضًا؛ بأن حسَّن عندهم قبائحهم، فافتخروا بها.

وقال سهل: «المرض»: الرياء والعجب وقلة الإخلاص، وذلك مرض لا يُداوى إلا بالجوع والتقطُّع.

وقال أيضًا: «مرضٌ»: بقلة المعرفة بنعم الله تعالى، والقعود عن القيام بشكرها، والغَفْلة عنها، وهذا مرض القلب الذي ربما يتعدّى.

السليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 89]، فللمنافق لما أفسد بالنفاق على نفسه سلامة قلبه لسلامة ماله وأهله لا ينفعه أهله وماله، ولكن يزيد نفاقه وكذبه في ألم عذابه، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:10]، ففيها وفي قراءة من قرأ: ﴿كَانُوا يُكَذِّبُونَ﴾ دلالة على أن لكذبهم ونفاقهم عذابًا ولتكذيبهم النبي ﷺ عذابًا آخر، فيكون ألم عذابهم بالنسبة إلى الكفار ضعفين، نظيره قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:67]، أنهم ضعفين من العذاب يعني عذاب الضلالة والإضلال فاختصاص المنافقين بالدرك الأسفل من النار لهذا المعنى، فإنهم مع الكفار مشتركون في دركات النار، وهم مختصون بالدرك الأسفل بمزيد نفاقهم على الكفر، والله أعلم.

وفي الآيات الثلاث إشارات ودلالات أُخر؛ وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:8]، إشارة إلى أهل الغفلة والنسيان من المسلمين يظنون أنهم مؤمنون حقًا وإنما هم مؤمنون باللسان والتقليد، وهم يحسبون أنهم آمنوا بالتحقيق، فما هم بمؤمنين حقيقة بل هم مسلمون، كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14]، والإيمان الحقيقي نور إذا دخل القلب، فيظهر على المؤمن حقيقة، كما كان لحارثة لما سأله رسول الله ﷺ: «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمنًا حقًا قال: يا حارثة إن لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأظمأت نهارها وأسهرت ليلها واستوت عندي حجرها وذهبها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وإلى أهل النار يتضاغون[1]، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، فقال رسول الله ﷺ: عرفت فالزم»[2].

﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾ [البقرة:9] أي: بأعمالهم ويطلبون منافع الدنيا والآخرة ولا

---

(1) يتضاغون: يرفعون أصواتهم بالصراخ والعويل.

(2) رواه بنحوه الطبراني في الكبير (3285)، وابن أبي شيبة (72)، والبيهقي في الشعب (10194)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (1/ 221).

يطلبونه ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة:9]، بغير الله عن الله ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:9]، وليس لهم شعور بهذا الخداع والحرمان عن الله بغير الله ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [المائدة:52]، الالتفات إلى غير الله، ولو كانت قلوبهم سليمة من هذه العلة والمرض لشاهدوا جمال الحق فأحبوه حبًا شديدًا، ولم تبق محبة غير الله في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:165].

﴿فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾ [البقرة:10] أي: فزاد مرض الالتفات على مرض خداعهم فحرموا عن الوصول والوصول ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:10]، من حرمان الوصول إلى الله تعالى بما كانوا يكذبون، إنا أمنا بالله.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [البقرة: 11 - 17].

ثم ذكر من خصال هؤلاء الممكورين ما يدل على أنهم من المغرورين بقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:11]، إلى ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:13] والإشارة في تحقيق الآيتين أن الإنسان - وإن خلق مستعدًا لخلافة الأرض -، ولكنه في بداية الخلقة معلول الهوى والصفات النفسانية فيكون مائلاً إلى الفساد.

كما أخبرت عنه الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، فبأوامر الشريعة ونواهيها تخلص جوهر الخلافة عن معدن نفس الإنسان، فأهل السعادة وهم المؤمنون ينقادون للداعي إلى الحق، ويقبلون الأوامر والنواهي، وأهل الشقاوة وهم الكافرون والمنافقون يمرقون من الدين ويتبعون الهوى، ﴿وإذا قيل لهم في

الأرض﴾ أي: لا تسعوا في إفساد حسن استعدادكم وصلاحيتكم للخلافة في الأرض باتباعكم الهوى وحرصكم على الدنيا ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:11]، لا يقبلون النصيحة ويدعون الصلاحية غافلين عن حقيقتها، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة:12]، يفسدون صلاح آخرتهم بإصلاح دنياهم ﴿وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:12]، لهم بإفساد حالهم وسوء أعمالهم وعظم وبالهم من خسارة حسن صنيعهم وادعائهم الصلاح على أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف:103].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا﴾ [البقرة:13] أي: أهل الغفلة والنسيان ﴿كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾ [البقرة:13] أي: بعض الناسين منكم الذين تفكروا في آلاء الله وتدبروا بعد عهد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ومعاهده على التوحيد والعبودية، فتذكروا تلك العهود والمواثيق، فآمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء به ﴿قَالُوا﴾ [البقرة:13]، أهل الشقاوة منهم ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة:13]، فكذلك أحوال أصحاب الغفلات تدعي الإسلام إذا دعوا من الإيمان التقليدي الذي وجدوه بالميراث إلى الإيمان الحقيقي بصدق الطلب، وترك محبة الدنيا واتباع الهوى والرجوع عن الخلق والتمادي في الباطل، ينسبون أرباب العلويات وأصحاب المقامات العالية إلى السفه والجنون، وينظرون إليهم بنظر العجز والذلة والمسكنة، ويقولون نترك الدنيا كما تركوه هؤلاء السفهاء من الفقراء لنكون محتاجين إلى الخلق كما هم محتاجون، ولا يعلمون أنهم هم السفهاء؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:13]، فهم السفهاء لمعنيين أحدهما: أنهم يبيعون الدين بالدنيا والباقي بالفاني لسفههم وعدم رشدهم.

والثاني: أنهم سفهوا أنفسهم ولم يعرفوا حسن استعدادهم للدرجات العلى والقربة والزلفى، فرضوا بالحياة الدنيا ورغبوا عن مراتب أهل الفناء ومشارب أولي النهى، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:130]، فإن «من

عرف نفسه فقد عرف ربه» ومن عرف ربه ترك غيره»(1) وعرف أهل الله وخاصته فلا يرغب عنهم، ولا يسبهم إلى السفه وينظر إليهم بالعزة، فإن الفقراء الكبراء هم الملوك تحت الأطمار، ووجوههم المسفرة عند الله كالشموس والأقمار، ولكن تحت قباب الغيرة مستورون، عن نظر الأغيار محجوبون.

وذكر المنافقون وأهل الغفلة بخصال أردأ من الأولى بقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا﴾ [البقرة:14]، إلى ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:15] والإشارة في تحقيق الآيتين أن المنافقين لما أرادوا أن يجمعوا بين غيرة الكفار وصحبة المسلمين، وأن يجمعوا بين مفاسد الكفر ومصالح الإيمان، وكان الجمع بين الضدين غير جائز، فبقوا بين الباب والدار ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاءِ﴾ [النساء:143]، وكذلك حال المتمنين الذين يدعون الإرادة ولا يخرجون عن العادة، ويريدون الجمع بين مقاصد الدارين ويتمنون أعلى مراتب الدين، ويرتعون في أسفل مراتب الدنيا، والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم، وإذا أقبل الليل من حيث أدبر النهار من هنا، وقال النبي ﷺ: «ليس الدين بالتمني»(2) وقال: «بعثت لرفع العادات ودفع الشهوات»(3).

وقد قيل: الدنيا والآخرة امرأتان ضرتان، فمن يطلب الجمع بينهما فممكور، ومن يدعي الجمع بينهما فمغرور، ومن كان له في كل ناحية خليط ومن كل زاوية من قلمه ربيط كان نهبًا لأطوار يتقاوم قوم وينزل في قلبه كل فقه فقلبه أبدًا خراب لا يهنأ له عيش دلالة في التحقيق. وليس من رام مع متابعة الهوى البلوغ إلى الدرجات العلى فهو كالمستهزئ بطريق هذا الفريق، وكم في هذا البحر من أمثاله غريق، فظاهر الأمر يقتضي أنهم ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة:14]، ولكن حقيقة الأمر تدل على أن: ﴿اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:15]، لأن دواعي استهزائهم بأهل الدين وازدرائهم بأرباب اليقين من نتائج الخذلان، فإن الله يكلهم إلى

---

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» بنحوه (10/ 208)، وذكره العجلوني بنحوه في «كشف الخفاء» (2/ 1529).

(2) ذكره حقي في تفسيره (1/ 71).

(3) ذكره حقي في تفسيره (1/ 71).

أنفسهم فتأمرهم النفس الأمارة للاستهزاء وتحملهم على الازدراء فلو لم نجد لهم الحق وأدركتهم الرحمة لما أمرتهم بسوء الاستهزاء والازدراء، كما قال: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيَ﴾ [يوسف:53] ومن الخذلان ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: 15]، أي يمهلهم في طغيان النفس بالحرص على الدنيا حتى يتجاوزوا في طلبها حد الاحتياج إليها ويفتح أبواب المقاصد الدنيوية عليهم يستغنوا بها وبقدر الاستغناء يزيد طغيانهم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق:6-7]، فكانت جزاء سيئة ترددهم في الدين وثوابهم في طلب الاستهزاء وجزاء سيئة الاستهزاء الخذلان والإمهال إلى أن طغوا وجزاء سيئة الطغيان العمى، فيترددون في الضلالة متحيرين لا سبيل لهم إلى الخروج إلى الحق وجزاء سيئة العمى قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة:16].

والإشارة في تحقيق الآية أن من نتيجة طغيانهم وعمههم أن رضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وأشربوا في قلوبهم الضلالة واستودعت عن حسن استعدادهم الفطري القابل للضلالة والهداية حتى يطلب قابليته الهداية وبدلت بالضلالة، ولما كان لهم هذا الحال من نتيجة معاملتهم أضاف الفعل إليهم وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ [البقرة:16].

وإنما قال بلفظ الاشتراء لأنهم خربوا استعداد قبول الهداية عن قدرتهم وتصرفهم فلا يملكون الرجوع إليه، وتمسكوا بالضلال تمسك الملاك فلا يمكنهم الرجوع إلى الهدى ولا يكون لهم دواء غير الرجوع؛ إذ هم اختاروا الضلالة على الهدى ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة:16]، لأن خسران من رضي بالدنيا ظاهر، ومن آثر الدنيا والعقبى على الله المولى فهو أشد خسرانًا وأعظم حرمانًا، فإذا كان المصاب بفوات النعيم ممتحنًا بنار الجحيم والعذاب الأليم فما نملك بالمصاب بفقد المطلوب وبعد المحبوب ضاعت عنه الأوقات وبقي في أسر الشهوات، لا إلى قلبه رسول ولا لروحه وصول لا من الحبيب إليه وفود ولا لسره معه شهود، فهذا هو المصاب الحقيقي إذا فاته مولاه الذي فاته بفواته سواه

فإن لكل شيء بدل والله لا بدل له قال بعضهم: كنت السواد لناظري فبكى عليك الناظر من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر فجزاء اشترائهم الضلالة بالهدى إعواز ربح السعادة والفوز بالنعيم المقيم، وخسران بيع الهدى بوجدان العذاب الأليم؛ بل لفقدان الاهتداء على الصراط المستقيم إلى الله العلي العظيم الكريم الرحيم.

كما قال: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة:16]، لإبطالهم حسن استعداد قبول الهداية فالمثل كما قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: 17]، والإشارة في تحقيق الآية أنه مثل المريد الذي له بداية جميلة ليسلك طريق الإرادة مدة وتبعني بمقاساة شدائد الصحبة برهة حتى تنور بنور الهداية فاستوقد نار الطلب، ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة:17]، فرأى أسباب السعادة والشقاوة فتمسك بحبل الصحبة فلازم الخدمة والخلوة، وعزفت نفسه عن الدنيا وأقبل على قمع الهوى، فشرقت له من صفاء القلب شوارق الشوق، وبرقت له من أنوار الروح بوارق الذوق، فأمن مكر الله وانخدع بخداع النفس فطرقته الهواجس وأزعجته الوساوس، ثم رجع القهقرى إلى ما كان من حضيض الدنيا، فغابت شمسه وأظلمت نفسه، وانقطع حبل وصاله قبل وصوله وأخرج من جنة نواله بعد دخوله فبقدمي سأمه وملاله عاد إلى أسوأ حاله.

كما قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر:47] وكما قيل:

حين قرّ الهوى وقلنا سُرِرْنا ... وَحِسْبنا من الفراق أمِنَّا

بعث البَيْن رُسْل في خفاءٍ ... فأبادوا من شملنا ما جمعنا

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ
يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ
أَبْصَارَهُمْ ۖ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَارِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ

مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة: 18 - 22].

فحاصل أحوالهم بعد انقطاع حبالهم قوله تعالى: ﴿صُمٌّ﴾ [البقرة:18]، يعني بأذن قلوبهم التي سمعوا بها خطاب الله تعالى يوم الميثاق، ﴿بُكْمٌ﴾ [البقرة:18]، بتلك الألسنة التي أجابوا ربهم بقولهم بلى، ﴿عُمْيٌ﴾ [البقرة:18]، بالأبصار التي شاهدوا جمال ربوبيته فعرفوه ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة:18]، إلى منازل حضائر القدس؛ بل إلى ما كانوا فيه من رياض الأنس، وذلك لأنهم سدوا روزنة قلوبهم التي كانت مفتوحة إلى عالم الغيب يوم الميثاق بتتبع الشهوات واستيفاء اللذات والخدعة والنفاق، فما هبت عليهم من جانب القدس الرياح وما تنسموا نفحات الأرواح، فمرضت قلوبهم ثم أرسل إليهم الطبيب الذي أنزل الداء وأنزل معه الدواء، كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:82]، الذين يصدقون الأطباء ويقبلون الدواء، فلم يصدقوهم ولم يقبلوا ظلمًا على أنفسهم فصار الدواء داء والشفاء وباء، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:82]، فلما لم يكونوا أهل الرحمة وأدركتهم اللعنة الموجبة للصمم والعمى بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد:23].

ثم ضرب لهم مثلاً آخر بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة:19]، الآيتين والإشارة في تحقيق الآيتين أن الله تعالى نسبه في حال متمني هذا الحديث واشتغالهم بالذكر وتتبع القرآن في البداية وتجددهم في الطلب ما يفتح لهم من الغيب إلى أن تظهر النفس الملائكية وتقع في آفة الفترة والوقفة بمن يكون في المفازة سائرًا في ظلمة الليل والمطر، وشبه الذكر، والقرآن بالمطر؛ لأنه ينبت الإيمان والحكمة في القلب كما ينبت الماء البقلة، ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ [البقرة:19]، أي: مشكلات ومتشابهات وشبهات تظهر للسالك الذاكر في أنحاء السلوك ومعان دقيقة لا يمكن حلها وفهمها والخروج عن عهدة آفاتها إلا لمن كان له عقل منور بنور الإيمان مؤيد بتأييد الرحمن كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن:1-2].

فكما أن السير لا يمكن في الظلمات إلا بنور السراج كذلك لا يمكن السير في

حقائق القرآن ودقائقه ولا في ظلمات البشرية إلا بنور الهداية الربوبية، ولهذا قال تعالى: ﴿أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة:20]، يعني: نور الهداية ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ [البقرة:20] يعني: ظلمة البشرية. قوله تعالى: ﴿وَرَعْدٌ﴾ [البقرة:19]، خوف وخشية ورهبة تتطرق إلى القلوب من هيبة جلال الذكر والقرآن كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:21].

﴿وَبَرْقٌ﴾ [البقرة:19]، وهو تلألؤ أنوار الذكر والقرآن تهتدي إلى القلوب فتلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله فتظهر، فسببها حقيقة القرآن والدين فتعرفها القلوب بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ [المائدة:83]، ولما لاحت لهم أنوار السعادة خرجوا من ظلمات الطبيعة وتمسكوا بحبل الإرادة لينالوا درجات الفائزين ولكن ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ﴾ [البقرة:19]، الفاسدة وأمانيهم الباطلة، ﴿فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة: 19]، الواعية ﴿مِنَ الصَّوَاعِقِ﴾ [البقرة:19]، دواعي الحق ﴿حَذَرَ﴾ [البقرة:19]، من ﴿الْمَوْتِ﴾ [البقرة:19]، موت النفس لأن النفس سمكة حياته بحر الدنيا وماء الهوى لو أخرجت لماتت في الحال، وهذا تحقيق قوله ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا»[1].

﴿وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:19]، فيه إشارة إلى أن الكافر الذي له حياة طبيعة حيوانية لو مات بالإرادة عن مألوفات الطبيعة لكان أحياه الله بأنوار الشريعة كما قال تعالى ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام:122].

فلما لم يمت بالإرادة ﴿وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:19]، أي: مهلكهم ومميتهم في الدنيا بموت الصورة وموت القلب، وفي الآخرة بموت العذاب فلا يموت فيها ولا يحيى، ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ﴾ [البقرة:20]، أي: نور الذكر والقرآن ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: 20]، أي: أبصار نفوسهم الأمارة بالسوء ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة:20]، سلكوا طريق الحق بقدم الصدق ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:20]، ظلمات صفات النفس وغلب عليهم الهوى مالوا إلى الدنيا ﴿قَامُوا﴾ [البقرة:20] أي: وقفوا عن السير

(1) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (2/ 291)، والسخاوي في «المقاصد الحسنة» (1/ 258).

وتحيروا وترددوا وتطرقت إليهم الآفات واعترتهم الغرات واستولى عليهم الشيطان وسولت لهم أنفسهم الشهوات حتى وقعوا في ورطة الهلاك.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [البقرة:20]، أي ولو كانت مشيئته وإرادته أن يهديهم ﴿لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ [البقرة:20]، أي: بسمع نفوسهم الذي تنظر إلى زينة الحياة الدنيا وزخارفها كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:13]، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:20]، أي: قادر على سلب أسماعهم وأبصارهم حتى لا يسمعوا الوساوس الشيطانية والهواجس النفسانية ولا يبصروا المزخرفات الدنياوية، والمستلذات الحيوانية لكيلا يغتروا بها ويبيعوا الدين بالدنيا، ولكن الله يفعل بحكمته ما يشاء ويحكم بعزته ما يريد، فلما أتم الكلام مع المؤمنين والكافرين والمنافقين خاطب الناس عمومًا أجمعين بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:21]، إلى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22] والإشارة في تحقيق الآيتين أن الله تعالى خاطب الناسي عهوده يوم الميثاق والإقرار بربوبيته ومعاهدته ألا يعبدوا إلا إياه، فخالفوه ونقضوا عهده وعبدوا الطواغيت من الأصنام والدنيا والنفس والهوى والشيطان فزلت قدمهم عن جادة التوحيد ووقعوا في ورطة الشرك والهلاك فبعث إليهم الرسول وكتب إليهم الكتاب وأخبرهم عن النسيان والشرك ودعاهم إلى التوحيد والعبودية.

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:21]، يعني: ذراتكم وذرات من قبلكم يوم الميثاق وأخذ مواثيقكم بالربوبية والتوحيد والعبادة فأوفوا بعهد العبودية بتوحيد اللسان وتجريد القلب وتفريد السر وتزكية النفس بترك المحظورات وإقامة الطاعات المأمورات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:21]، عن ترك عبادة غير الله فيوفي الله بعهد الربوبية بالنجاة من الدركات ورفع الدرجات بالجنات والإكرام بالقربات والكرامات في الآخرة، كما أكرمكم في الدنيا.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة:22]، فيه إشارة إلى تعريفه نفسه بالقدرة الكاملة ومنته على عباده وعزة عباده عنده وفضيلتهم على جميع المخلوقات من عباده بأن جعل لهم بنفسه فراشًا كالأرض ودنيا كالسماء، وأما عزة عباده عنده بأن

خلق السماوات والأرض وما فيها لأجلهم وسخرها لهم لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية:13]، فكان وجود السماوات تبعًا لوجودهم وما كان وجودهم تبعًا لوجود شيء إلا وجوده، ولهذا السر أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم عليه السلام وحرم على آدم وأولاده السجود لغير الله، ليظهر أن الملائكة وإن كانوا قبل وجود آدم أفضل الموجودات فلما خلق آدم عليه السلام جعله مسجودًا للملائكة ليكون هو أفضل المخلوقات وأكرمهم على الله تعالى ومتبوع كل شيء والكل تابع له.

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ [البقرة:22]، تحقيقه أن الماء هو القرآن، وثمراته: الهدى والتقى والنور والرحمة والشفاء والبركة واليمن والسعادة والقربة والحق واليقين والنجاة، والرفعة والصلاح الفلاح والحكمة والموعظة والحلم والعلم والآداب والأخلاق والعزة، والغنى والتمسك بالعروة الوثقى والاعتصام بحبل الله المتين، وإجماع كل خير وختام سعادة زهوق باطل الوجود الإنساني عند مجيء تجلي حقيقة الصفات الربانية لقوله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء:81]، فأخرج بماء القرآن هذه الثمرات من أرض قلوب عباده فكما أن الله منَّ على عباده بإخراج الثمرات وقال: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [البقرة: 22] وكان للحيوان فيها رزق؛ ولكن يتبعه الإنسان كما قال تعالى: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات:33].

كذلك القرآن بثمراته كان رزقًا مختصًا بالإنسان وللملائكة والجن كان لهم فيه رزق ولكن بتبعية للإنسان وهذا مما لا تدركه العقول المشوبة بالوهم والخيال؛ بل تدركه العقول المؤيدة بتأييد الفضل والنوال.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة:22]، فيه ثلاثة معانٍ:

أولها: أن هذا الذي جعلت لكم من خلق أنفسكم وخلق السماوات والأرض ما فيها ليس شأن أحد غيري، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:22]، فلا تجعلوا لي أندادًا في العبودية.

وثانيها: إني جعلت السماوات والأرض والشمس والقمر كلها واسطة أرزاقكم

وأسبابها وأنا الرازق فلا تجعلوا الوسائط أندادًا لي، ﴿لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ﴾ [فصلت:37].

وثالثها: إني خلقت الموجودات وجعلت لكل شيء حظًا في شيء آخر وجعلت حظ الإنسان في محبتي ومعرفتي، وكل محظوظ لو انقطع عنه حظه لهلك فلا تنقطعوا عن حظوظكم من محبتي ومعرفتي بأن تجعلوا لي أندادًا وتحبونهم كحب الله.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾ [البقرة:165]، فالأنداد وهي الأحباب غير الله تعالى: فوصف الذين لم ينقطعوا عن حظ محبته بالإيمان وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾ [البقرة:165]، يعني: الذين اتخذوا من دون الله أندادًا في المحبة ما آمنوا حقيقة وإن زعموا الإيمان فافهم جدًا ولا تغتر بالإيمان التقليدي الموروثي حتى تقبح على هذا المحل.

ثم ذكر اختصاص نبيه وحبيبه ﷺ بالعبودية الخالصة مطلقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:23]، الآيتين، والإشارة في تحقيق الآيتين أن الله تعالى جعل إعراض المعرضين واعتراض المعترضين فباب غيرته وسرادقات عزته لحبيبه المرسل، وكتابه المنزل لئلا يشاهد المعرضون عن الله حبيبه، ولا يطالع المعترضون على الله كتابه، فلم يزدهم بيان النبي ﷺ وإعجاز القرآن إلا ريبًا على ريب وخسارًا على خسار، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:101].

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا شُهَدَآءَكُم مِّن
دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ
وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن
تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ
مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ۞ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن
يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًا
وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا الْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ

اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: 23 - 28].

حجبوا عن مشاهدة الحبيب ﷺ ومنعوا عن طاعة الكتاب قال لهم: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ [البقرة:23] سماه بالعبد المطلق ولم يسم غيره إلا بالعبد المقيد باسمه كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص:41]، وذلك أن كمال العبودية ما تهيأ لأحد من العالمين وهو كمال حبيبه محمد ﷺ، وكمال العبودية في كمال الحرية عما سوى الله تعالى وهو مختص بهذه الكرامة كما أثنى الله تعالى عليه بذلك وقال: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:16-17]، فلما اختص بهذه الحرية أكرمه باسم العبد المطلق كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ﴾ [النجم:10] إنما ذكره في هذه الآية بعبدنا أمر في الآيات المتقدمة بالعبودية الخالصة وترك الأنداد، ولقوله ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة: 21]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة:22]، أي: أحبابًا من الدنيا والهوى والنفس وشهواتها من المراتع الحيوانية والآخرة ونعيمها والروح وما لو فاتها من المستحسنات الروحانية وما صح لأحد من العالمين من هذه المرتبة من العبودية الخالصة إلا لمحمد ﷺ فذكره في هذا المعرض وسماه بعبدنا مطلقًا.

وقال تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ﴾ [يونس:104] مما أنعمنا على عبدنا محمد لحسن استعداده في كمال العبودية بإنعام الوحي ونعمة القرآن، ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: 23]، مثل القرآن من أنفسكم ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم﴾ [البقرة:23]، الحاضرين معكم يوم الميثاق لأنكم وأنهم ومحمد ﷺ كنتم جميعًا مستمعين لخطاب، ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، مجتمعين في جواب ﴿بَلَى﴾، فلو كان محمد قادرًا على إتيان القرآن من تلقاء نفسه فهو وأنتم في الاستعداد الإنساني الفطري سواء، فأتوا بالقرآن من تلقاء أنفسكم أيضًا.

﴿مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:23]، إنه لقوله من عنده والذي يدل عليه قوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف:110]، يعني: في الاستعداد البشري ﴿يُوحَى

إِلَيَّ﴾ ولكن خصصت بالوحي.

ثم أخبر عن عجزهم بالإتيان بمثل القرآن في الاستقبال ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:24] أي: لا تقدرون أنتم ولا من يجيء بعدكم أبدًا لأن «لن» للتأبيد وهذا من جملة معجزات القرآن، ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:24]، هي صفة القهر وصورة غضب الحق كما جاء في الحديث الصحيح: «قال الله للنار: أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي»[1].

﴿الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ﴾ [البقرة:24]، أنانية الإنسان التي نسيان الله من خصوصيتها ﴿وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:24]، أي: الذهب لأن به تحصيل مرادات النفس وشهواتها وما يميل إليه الهوى، فعبر عما يعبده أنانية نفس الإنسان بالحجارة؛ لأن أكثر الأصنام كانت من الحجارة وعن أنانيته الإنسان بالناس؛ لأنه طلبت غير الله تعالى وعبدته لنسيان الحق ومعاهدة يوم الميثاق، ثم جعل وقودها الناس لقوله تعالى﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الأنبياء:98].

ولا يظنن جاهل أن مثل هذه التحقيقات تدل على إبطال ما هو المفهوم من ظاهر الآية وإبطال ما قرره العلماء والكبراء من المعاني الظاهرة! حاشا وكلا؛ ولكن قال ﷺ: «إن للقرآن ظهرًا وبطنًا»[2] فظاهره يدل على ما فسره العلماء، وباطنه يدل على تحقيق أهل التحقيق بشرط أن يكون موافقًا للكتاب والسنة ويشهدان عليه بالحق فإن كل حقيقة لا يشهد عليها الكتاب والسنة فهي إلحاد وزندقة لقوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59].

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:24]، أي: خلقت وهيأت للكافرين خاصة، ولكن يتطهر المذنبون بها لعبورهم بتبعية الكافرين كما أن الجنة خلقت وعدت للمتقين خاصة ولكن يدخلها المذنبون من أهل الإيمان بعد تطهيرهم بورود النار والعبور عليها بتبعية المتقين، ويدل عليه قول النبي ﷺ حكاية عن الله تعالى: «خلقت الجنة وخلقت

---

(1) رواه مسلم (18/ 200)، وأحمد (17/ 418)، وابن حبان في «صحيحه» (16/ 482).

(2) ذكره الحوذي في «التحفة» (7/ 269)، والملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (2/ 147).

لها أهلها وبعمل أهل الجنة يعملون، وخلقت النار وخلقت لها أهلها وبعمل أهل النار يعملون»[1] فلما ذكر الكفار وتخويفهم ذكر المؤمنين وبشرهم بالجنان وقرب الجوار بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:25]، الإشارة في تحقيق الآية إن الله تعـــالى بشر الذين آمنوا وهم صنفان: خواص وخواص الخواص، فالخواص آمنوا بالنور الغيبي الروحاني المشاهد في غيب الأمور الأخروية.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:25]، أي: الصالحات التي تنبت بذر الإيمان في القلوب يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: 10]، وهي الطاعة التي ذكرت في الآيات الثلاث من أول السورة وغيرها، ﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة:25] أي: يحصل لهم من نتائجها هذه الجنات والثمرات.

وخواص الخواص آمنوا بنور الغيب الرباني وشاهدوا ما آمنوا به وعاينوا ما شاهدوا وكوشفوا بحقائقه، فقد حصلت لهم جنات القربة معجلة من بذر الإيمان الحقيقي وأعمالهم الصالحة القلبية والروحية والسرية بالتوحيد والتجريد والتفريد جنات من أشجار التوكل واليقين والزهد والورع والتقوى والصدق والإخلاص، والهدى والقناعة والعفو والمروءة والفتوة والمجاهدات والمكائد والشوق والذوق والرغبة والرهبة، والخوف والخشية والرجاء والصفاء والوفاء والطلب والإرادة والمحبة والحياء والكرم والسخاوة والشجاعة، والعلم والمعرفة والغرس والرفعة والقدرة والحلم والعفو والرحمة والهمة العالية، وغيرها من المقامات والأخلاق تجري من تحتها مياه العناية والتوفيق والرأفة والعطف والفضل.

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾ [البقرة:25]، أي: من هذه الأشجار ﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ [البقرة: 25]، من ثمرات المشاهدات والمكاشفات والمعاينات والموافقات والألطاف والأسرار والإشارات والإلهامات والمكالمات والأنوار والحقائق وغيرها من المواهب والأحوال

(1) ذكره حقي في تفسيره (1/ 92).

﴿رِزْقًا﴾ [البقرة:25]، أي: عطفًا وختمًا وعطية ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة: 25]، وذلك لأن أصحاب المشاهدات شاهدوا أحوالاً شتى في صورة واحدة من ثمرات مجاهدتهم فيظن بعضهم من المتوسطين أن هذا المشاهد هو الذي شاهده قبل هذا فتكون الصورة تلك الصورة؛ ولكن المعنى حقيقة أخرى مثاله شاهد السالك نورًا في صورة نار كما شاهد موسى عليه السلام نور الهداية في صورة نار كما قال: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [طه:10]، فتكون تارة تلك النار نار صفة غضب كما كان لموسى عليه السلام إذ اشتد غضبه اشتعلت قلنسوته نارًا أو تارة يشاهد النار وهي صفة الشيطنة، وتارة تكون نار المحبة تقع في محبوبات النفس فتحرقها، وتارة تكون ﴿نَارُ اللهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ [الهمزة: 6-7] فتخرق عليهم بيت وجودهم ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة:8-9] فالصورة النارية المشاهدة مشابهة بعضها ببعض.

كما قال تعالى: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾(1) [البقرة:25]، ولكن السالك الواصل يجد من كل نار منها ذوق صفة أخرى كما مر في ثمار الجنة فافهم واغتنم فإنك لم تجد ولا تجد هذه الحقائق والمعاني في كتب أخرى.

﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ﴾ [البقرة:25]، أي: لأرباب الشهود في جنات القربات أزواج من أبكار الغيب ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:25]، من ملامسة الأغيار ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ﴾ [الرحمن:56].

﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ [البقرة:25]، في اقتضاء، فهم ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة:25]، كما قال ﷺ: «إن من العلوم كهيئة المكنون لا يعلمها إلا العلماء بالله فإذا نطقوا بها لا ينكرها إلا

(1) قال الشيخ البقلي: أهل جنان الوَصْلة إذا كُشفت لهم أسرار الغيب، رأوا مشاهدات أنوار الصفات في مقامات الأرواح جميعها يَدُلّ بعضهم بعضًا، ويحصل لهم من نور الكبرياء ما يحصل لهم من نور العظمة، ومن نور القِدم ما يحصل من نور البقاء، هكذا جميع الصفات.

وأيضًا إذا تمكّن أهل المشاهدة في الجنة غذاءً، ورأوا ربهم تعالى، وجدوه على الصفة التي أظهر نفسه جلّ وعزّ لأهل المكاشفة في دار الدنيا يقولون: ﴿ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: ما نحن كنّا فيه من مشاهدته في العاجل، يجدها بتلك الصفات في الآجل؛ لأن وجوده يتغيّر بتغيُّر الزمان في المكان، أوّله في الربوبية وآخره في الألوهية، وآخره في الصمدية وأوّله في الأزلية.

أهل الغرة بالله»[1].

واعلم أن كل شيء يشاهد في الشهادات كما أن له صورة في الدنيا له معنى حقيقي في الغيب ولهذا كان النبي ﷺ يسأل الله تعالى بقوله: «أرنا الأشياء كما هي»[2] فتكون في الآخرة صورة الأشياء وحقائقها حاصلة، ولكن الحقائق والمعاني على الصورة غالبة فترى في الآخرة صورة شيء بعينه فتعرفه فتقول: ﴿هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ [البقرة:25] فيكون الاسم والصورة كما كانت ولكنها في ذوق آخر غير ما كنت تعرفه ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس شيء في الجنة مما في الدنيا غير الأسماء، وهذا كما قال رسول الله ﷺ: «كل كلم يكلمه المسلم في سبيل الله يكون يوم القيامة كهيئتها، إذا طعنت تفجر دمًا فاللون لون الدم والعرف عرف المسك»[3] فالآن لون ذلك الدم في الشهادة حاصل ولكن عرفه في الغيب لا يشاهد، ففي الآخرة يشاهد الصورة الدنيوية والمعاني الغيبية فافهم جدًا واغتنم.

ذكر بعد إظهار الحقائق في الأمثلة المتناسبة لتفهم المعاني المتشابهة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة:26]، إلى قوله: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:26]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ أي: لا يبالي الله أن يضرب مثلاً ﴿مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة:26]، أي: يلبس المعاني كسوة الأمثلة لبيان البعوضة ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:26]، في الحقارة والصغر أو فوقها في الكبر كالذباب والعنكبوت وذلك لأن في كل شيء من العرش العظيم والذرة الحقيرة لله تعالى آية تدل العباد إلى المعبود، وتهدي القاصد إلى المقصود ففي البعوضة دلالات وآيات إذا جاعت قويت وطارت، وإذا شبعت تشققت وتلفت فهذه تدل على الإنسان فإنه إذا جاع رجع إلى الله تعالى، وإذا أشبع يتبع الهوى كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:27].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:6-7]، ومنها أن

---

(1) ذكره السيوطي في «اللآلي المصنوعة» (1/ 202)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (1/ 58).

(2) ذكره حقي في تفسيره (10/ 290).

(3) رواه البخاري (1/ 417)، ومسلم (12/ 375)، وأحمد (17/ 460).

البعوضة خلقت على صورة الفيل وفيها معانٍ:

منها: أن القدرة على إيجاد كل واحد منها غير منقادة ليس خلق أحدها بأهون على الله تعالى من الأخرى.

ومنها: أن البعوضة إذا أعطيت على قدر حجمها الحقير كل آلة وعضو أعطيت الفيل الكبير القوي.

وفيه إشارة إلى حال الإنسان وكمال استعداده كما قال ﷺ: «إن الله خلق كل شيء على صورته»(1) أي: على صفته فعلى قدر صفة الإنسان أعطاه الله من كل صفة من صفات جلاله وجماله أنموذجًا ليشاهد في مرآة صفات نفسه كمال صفات ربه، كما قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»(2)، ليس لشيء من المخلوقات هذه الكرامة المختصة بالإنسان.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70]، وفيها وفي أمثالها دلالات يطول شرحها فقس الباقي على نداء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:26]، بنور الإيمان يشاهدون المعاني والحقائق في صورة الأمثلة ﴿فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة:26]، جحدوا الحق ظلمة إنكارهم غشاوة أبصارهم فما شاهدوا الحقائق في كسوة الأمثلة كما أن العجمي لا يشاهد المعاني في كسوة اللغة العربية فيسأل عن الحيرة: «ماذا أراد العربي بهذه اللفظة»، فكذلك الكفار والجهال عند تحيرهم في إدراك حقائق الأمثال قالوا: ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾(3) [البقرة:26]، فبجهلهم زاد إنكارهم على الإنكار فتاهوا في أودية الضلالة بقدم الجهالة.

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:26]، ممن أخطأه رشاش النور في بدء الخلقة كما

---

(1) رواه البخاري (2/ 902 ، رقم 2420)، ومسلم (4/ 2017 ، رقم 2612) بلفظ: «إن الله خلق آدم على صورته».

(2) رواه أبو نعيم في «الحلية» (10/ 208)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء».

(3) قال البقلي: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أما الذين شاهدوا بنعت الاصطفاء في مشاهد الأزل، ورأوا جمال مشاهدة الحق، وسمعوا كلامه، فيعلمون أن القرآن حقٌّ من ربهم؛ لأنهم صادفوا حقيقة مقام التصديق بنعت الأرواح قبل كون صورتهم، وبعد كونها قابلوا الآخر بالأول، والأول بالآخر، وجدوا صِرفًا صِدقًا، فاستقاموا في الصدق والإخلاص حين سمعوا خطاب الحق.

قال ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه فقد ضل»[1]، فمن أخطأه ذلك النور في عالم الأرواح فقد أخطأه نور الإيمان هاهنا، ومن أخطأه نور الإيمان فقد أخطأه نور القرآن فلا يهتدي، ومن أصابه ذلك هناك أصابه هاهنا نور الإيمان، ومن أصابه نور الإيمان فقد أصابه نور القرآن، ومن أصابه نور القرآن فهو ممن قال: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ [البقرة:26]، وكان القرآن لقوم شفاء ونعمة لأن كلامه صفة شاملة للطف والقهر؛ فبلطفه هدى الصادقين، وبقهره أضل الفاسقين بقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة:26]، والفاسق الخارج من إصابة رشاش النور في بدء الخلقة.

ثم أخبر عن نتائج ذلك الخروج ونقض العهد كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ [البقرة:27]، الذين يتقضون عهد الله الذي عاهدوه يوم الميثاق على التوحيد والعبودية والإخلاص من بعد ميثاقه، ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة:27]، من أسباب السلوك الموصل إلى الحق وأسباب النقل والانقطاع عن غير الخالق.

كما قال تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:8]، أي: انقطع إليه انقطاعًا كاملاً عن غيره ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:27]، أي: يفسدون بذر التوحيد الفطري في أرض طينتهم بالشرك والإعراض عن قبول دعوة الأنبياء، وسقي بذر التوحيد بالإيمان والعمل الصالح ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:27]، خسروا استعداد كمالية الإنسان المودعة فيهم كما تخسر النواة في الأرض استعداد النخلية المودعة فيها عند عدم الماء لقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [العصر :1-3].

ثم أخبر عن كمال جرأتهم بنسيان نعمة اختراع وجودهم وكفرانهم كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ﴾ [البقرة:28]، والإشارة في تحقيق الآية أن قوله تعالى: ﴿كَيْفَ﴾

(1) تقدم تخريجه.

خطاب التهديد للكافرين عمومًا وخطاب التوحيد للمؤمنين خصوصًا وخطاب التشريف للأنبياء اختصاصًا، فتهديد الكافرين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: 28]، نطفًا في أصلاب آبائكم ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: 28]، بنفخ الروح فيكم في أرحام أمهاتكم، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: 28]، عند مفارقة نفوسكم عن أبدانكم(1).

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28]، عند نفخ الصور والبعث عن القبور ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28]، بالسلاسل والأغلال، ثم يسحبون في النار على وجوههم. وفيه إشارة أخرى: كيف تكفرون بالله أي: لا تكفرون بالله وإنما تكفرون بأنبيائه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والبعث، والجنة والنار، يدل عليه قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: 28] وبأنبيائه لأنكم ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ [البقرة: 28] ذرات في صلب آدم فأحياكم بإخراجكم عن صلبه وأسمعكم لذلك خطاب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، وأذاقكم لذات الخطاب ووفقكم للجواب بالصواب حتى قلتم: ﴿بَلَى﴾ رغبة لا رهبة ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: 28] بالرجعة إلى أصلاب آبائكم، وإلى عالم الطبيعة الإنسانية ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28] ببعثة الأنبياء وقبول دعوته ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28] بدلالة الأنبياء وقدم التوحيد على جادة الشريعة إلى درجات الجنان والنعيم المقيم.

وأما خطاب التشريف للأنبياء والأولياء بقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: 28]، أي: لا تكفرون وكنتم في العدم، فأحياكم بالتكوين في عالم الأرواح ورشاش النور فخمر طينة أرواحكم بماء نور العناية، وتخمير الطينة أربعين صباح الوصال، ﴿ثُمَّ

---

(1) قال البقلي: أي: كنتم أمواتًا في قبور العدم، فأحياكم بأنوار القِدم. وأيضًا كنتم أمواتًا في غطاء الغَفْلة، فأحياكم بروح المعرفة. وقال الشبلي: وكنتم أمواتًا عنه، فأحياكم به.

وقال ابن عطاء: كنتم أمواتًا بالظاهر، فأحياكم بمكاشفة الأسرار، ثم يُميتكم عن أوصاف العبودية، ثم يُحييكم بأوصاف الربوبية، ثم إليه تُرجَعون عند تحيُّركم عن إدراك صرف الذّات والصفات عند شواهد المعرفة في طلب الحقيقة. قال فارس: كنتم أمواتًا بشواهدكم، فأحياكم بشواهده ، ثم يُميتكم عند مشاهدكم، ثم يُحييكم بقيام الحق عنه، ثم إليه تُرجَعون عن جميع ما لكم وكنتم له.

وقال الواسطيُّ: وَبَّخَهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه في شيء، فإنما النزاع من الهياكل الروحانية.

﴿يُمِيتُكُمْ﴾ [البقرة: 28] بالمفارقة عن شهود الجمال إلى معبرة الحسن والخيال، كما قيل:

لـولا مُفارقـة الأحـباب مـا وجـدت لهـا المـنايا إلى أرواحـنا سُـبُلا[1]

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: 28] أما الأنبياء فبنور نور الوحي لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإيمان وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: 52]، وأما الأولياء فبروح روح الإيمان لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: 22].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: 28] أما الأنبياء فبالعروج لقوله تعالى: ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ [الفجر: 28]، فلما أثبت أن الرجوع إليه أمر ضروري؛ إما بالاختيار كقراءة يعقوب ترجعون بفتح التاء وكسر الجيم، وأما بالاضطرار كقراءة الباقين أشار إلى أن الذي ترجعون إليه ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 29] أي: ما خلقكم لشيء وخلق كل شيء لكم؛ بل خلقكم لنفسه كما قال تعالى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: 41] معناه: لا تكن لشيء غيري فإني لست لشيء غيرك، فبقدر ما تكون لي أكون لك، كما قال ﷺ: «من كان لله كان الله له»[2] وليس لشيء من الموجودات هذا الاستعداد أي: أن يكون هو لله على التحقيق وأن يكون الله له، وفي هذا سر عظيم وإفشاء سر الربوبية كفر، فلا تشتغل بم الك عمن أنت له فتبقى بلا هو بلا هو.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) البيت لعمر الأنسي، من بحر «البسيط».

(2) ذكره حقي في تفسيره (1/ 106).

﴿وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۝٣٣﴾ [البقرة: 29 - 33].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة:29]، أي: شرع في تسويتها ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:29]، مستويات على مصالح الأرض ومنافع الخلق فيه، إشارة إلى أن وجود السماوات والأرض تبعًا لوجود الإنسان؛ لأنه قال: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:29]، أن الله تعالى خلق السماوات والأرض وما فيهن وسواهن على وفق مصالحك وانتفاعك من وسلوكك وتربيتك فيهن، كذلك ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:7-8] بنفخ روحه فيك.

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر:29]، ثم سواك بالوحي والإلهام بقبول فيض تجلي صفاته تعالى فيك لك كما قال ﷺ: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»[1]، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:29]، أي: عالم في خلق كل شيء كيف خلقه ولأي شيء خلقه، وكل ذرة من مخلوقاته وكل شيء من موجوداته يسبح ذاته وصفاته ويشهد بأحديته وصمديته ويقول: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران:191]، فلما ذكر أن السماوات والأرض خلقت للإنسان أخبر أن الإنسان لماذا خلق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2] [البقرة:30]، والإشارة في تحقيق الآية: أن الله تعالى إنما قال ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، ولم يقل: إني خالق معنيين: أحدهما: إن الجاعلية أعم من الخالقية فإن الجاعلية هي الخالقية وشيء آخر وهو أن يخلقه موصوفًا بصفة الخلافة إذ ليس لكل مخلوق هذا الاختصاص كما قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص:26] أي: خلقتك مستعدًا للخلافة فأعطيناكها، والثاني: إن للجعلية اختصاصًا بعالم الأمر وهو

---

(1) ذكره حقي في تفسيره (4/ 111).

(2) جعل الله تعالى آدم خليفة، وأعطاه حكم الخلافة، والخليفة لفظة مؤنثة؛ لأنها محل التكوين، وبها ظهر الكون، وهي زبدة مخضة الطبيعة التي ظهرت بتحريك الأفلاك وهي روح اللبن، فإذا خرج من العالم، فالعالم يكون كالنفل لا عبرة به، فافهم.

الملكوت وهو ضد عالم الخلق لأنه هو عالم الأجسام والمحسوسات، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:54]، أي: الملك والملكوت؛ فإنه تعالى حين ذكر ما هو مخصوص بعالم الأمر جعله بالجعلية لامتياز الأمر عن الخلق كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:1]، فالسماوات والأرض لما كانت من الأجسام والمحسوسات ذكرها بالخلقية، والظلمات والنور لما كانت من غير المحسوسات ذكرها بالجعلية، وإنما قلنا إن الظلمات والنور من الملكوتيات لقوله تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، فإنما هي من الملكوتيات لا من المحسوسات، والظلمات والنور التي من المحسوسات فإنها داخلة في السماوات والأرض فافهم جدًا.

فكذلك ما أخبر الله تعالى عن آدم مما يتعلق بجسمانيته ذكره بالخلقية، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص:71]، وما أخبر عما يتعلق بروحانية ذكره بالجعلية فقال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، وفي: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ إشارة أخرى وهو إظهار عزة آدم على الملائكة لينظروا إليه بنظر التعظيم ولا ينظروا إليه بما يظهر منه ومن أولاده من أوصاف البشرية فإنه تعالى يقول: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:119] وسماه خليفته، وما شرف شيئًا من الموجودات بهذه الخلقة والكرامة وإنما، سمي خليفة لمعنيين:

أحدهما: أنه يخلق عن جميع المخلوقات ولا يخلفه المكونات بأسرها، وذلك لأن الله تعالى جمع فيه ما في العالم كله من الروحانيات والجسمانيات والسماويات والأرضيات والدنياويات والأخرويات والجماديات والنباتيات والحيوانيات والمكونيات، فهو بالحقيقة خليفة كل العوالم، وأكرمه باختصاص كرامة: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [ص:72] وما أكرم بها أحدًا من العالمين، وأشار إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: 70] فلهذا الاختصاص ما صلحت الموجودات كلها أن تكون خليفة لآدم عليه السلام وللحق تعالى.

والثاني: أنه يخلف عن وجود الحق في الحقيقة؛ لأن وجود الإنسان يدل على وجود موجده كالبناء يدل على وجود الباني، وتخلف وحدانية الإنسان عن وحدانية الحق ذاته،

وصفاته عن صفاته فتخلف حياته عن حياته، وقدرته، وإرادته عن إرادته، وسمعه عن سمعه، وبصره عن بصره وكلامه عن كلامه وعلمه عن علمه ولإمكانية روحه عن الإمكانية ولجهته تفهم إنشاء الله، وليس لنوع من المخلوقات أن يخلف عنه كما يخلف آدم ﷺ وإن كان فيهم بعض هذه الصفات؛ لأنه لا تجتمع صفات الحق في أحدكم وتجتمع في الإنسان ولا تتجلى صفة من صفاته لشيء كما يتجلى لمرآة قلب الإنسان وصفاته.

فأما الحيوانات وإن كان لها بعض هذه الصفات ولكن ليس لها علم بوجودها وموجدها، وأما الملائكة فإنهم وإن كانوا عالمين بوجود موجدهم ؛ولكن لا يبلغ علمهم إلى أن يعرفوا أنفسهم بجميع صفاتها ولا الحق بجميع صفاته، ولهذا قولوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:32].

وأما الإنسان فله الخلافة صورة ومعنى؛ أما صورة فلأن له علمًا بوجود موجده ويبلغ علمه إلى أن يعرف نفسه بجميع صفاته والحق سبحانه بجميع صفاته ولهذا كان مخصوصًا بمعرفة نفسه بالخلافة وبمعرفة جميع أسماء الله تعالى. وأما معنى؛ فليس في العالم مصباح يستضيء بنار نور الله فيظهر أنوار صفاته في الأرض خلافة عنه إلا مصباح الإنسان، فإنه مستعد لقبول فيض نور الله تعالى لأنه أعطى مصباح السر في زجاجة القلب والزجاجة في مشكاة الجسد، وفي زجاجة القلب زيت الروح يكاد زيتها يضيء من صفات الله تعالى العقل، ولو لم تمسسه نار النور في مصباح السر فتيلة الخفي.

فإذا أراد الله تعالى أن يجعل في الأرض خليفة يتجلى بنور جماله لمصباح السر الإنساني فيهدي لنوره فتيله حتى من يشاء، فيستنير مصباحه بنار نور الله تعالى فهو على نور من ربه، فيظهر خليفة الله في أرضه فتظهر أنوار صفاته فيه هذا العالم فيأتي بالعدل والإحسان والرأفة والرحمة لمستحقها وبالعزة والقهر والغضب والانتقام لمستحقها كما قال تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص:26].

وقال لحبيبه ﷺ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:128]، وقال في حقه وحق المؤمنين: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:29]، ولا

تظهر هذه الصفات على الحيوان ولا على الملك، وناهيك عن هذا حالة هاروت وماروت ولما أنكروا على ذرية آدم ﷺ اتباع الهوى والقتل والظلم والفساد، قالوا: لو كنا بدلاً منهم خلفاء الأرض ما كنا نفعل مثل ما يفعلون، فالله تعالى أنزلهما الأرض وألبس عليهما لباس البشرية، وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق، والزنا وشرب الخمر.

قال قتادة: ما مر عليهما شهر حتى افتتنا فشربا الخمر، وسفكا الدم، وزنيا، وقتلا، وسجدا للصنم. فثبت أن الإنسان مخصوص بالخلافة وقبول فيض نور الله تعالى، فلو كان للملائكة هذه الخصوصية لم تفتتن بهذه الأوصاف المذمومة الحيوانية والسبعية، كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومين عن مثل هذه الأوصاف والأخلاق وكانت لازمة لصفاتهم البشرية؛ لكن بنور التجلي تنور مصباح قلوبهم واستنارت بنور قلوبهم جميع مشكات جسدهم ظاهرًا وباطنًا، وأشرقت الأرض بنور ربها فلم تبق لظلمات هذه الصفات مجالاً للظهور مع استعلاء النور. فالملائكة من بدء الأمر لما نظروا إلى جسد آدم ﷺ شاهدوا ظلمات البشرية والحيوانية والسبعية في ملكوت الجسد بالنظر الملكوتي الملكي ولم تكن تلك الصفات غائبة عن نظرهم.

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، فقولهم هذا يدل على معان مختلفة؛ أن الله تعالى أنطقهم بهذا القول ليتحقق لنا أن هذه الصفات الذميمة في طينتنا مودعة في جبلتنا مركبة فلا نأمن عن مكر أنفسنا الأمارة بالسوء ولا نعتمد عليها وما نبرؤها، كما قال تعالى حكاية عن قول يوسف ﷺ: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53].

ومنها: لنعلم أن كل عمل صالح نعمله ذلك بتوفيق الله تعالى إيانا وفضله ورحمته وكل فساد وظلم نعمله هو من شؤم طبيعتنا وخاصة طينتنا، كما قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ [النساء:79]، وكل فساد وظلم لا يجري علينا، ولا يصدر منا فذلك من حفظ الحق وعصمة ربه لقوله: ﴿إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:53].

ومنها: لنعلم أن الله تعالى من كمال فضله وكرمه قد قبلنا بالعبودية والخلافة وقال من حسن عنايته في حقنا مع الملائكة المقربين: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، من رحمته والتقطع عن خدمته.

ومنها: لنعلم أن فينا استعداد أمر عظيم وبناء جسيم ليس للملائكة به علم وهو سر الخلافة فلا نتغافل عن هذه السعادة ونتقاعد عن هذه السيادة ونسعى في طلبها حق السعي.

ومنها: أن الملائكة إنما ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30]، لأنهم نظروا إلى جسد آدم قبل نفخ الروح، فشاهدوا بالنظر الملكي في ملكوت جسده المخلوق من العناصر الأربعة المتضادة صفات البشرية والبهيمية والسبعية التي تتولد من تركيب أضداد العناصر كما شاهدوها في أجساد الحيوانات والسباع الضاريات؛ بل عاينوها فإنها خلقت قبل آدم عليه السلام، فقاسوا عليها أحواله بعد أن شاهدوها وحققوها، وهذا لا يكون غيبًا في حقهم، وإنما يكون غيبًا لنا لأننا ننظر بالحس، والملكوت يكون لأهل الحس غيبًا، ومنا من ينظر بالنظر الملكوتي فيشاهد الملائكة والملكوتيات بالنظر الروحاني كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:185]، فحينئذ لا يكون غيبًا، فالغيب ما غاب عنك وما شاهدته فهو شهادة، فالملكوت للملائكة شهادة والحضرة الإلهية لهم غيب، وليس لهم الترقي إلى تلك الحضرة، وإن في الإنسان صورة من عالم الشهادة المحسوسة، وروحًا من عالم الغيب الملكوتي المنزه عن المحسوس، وسراً مستعدًا لقبول فيض النور الإلهي، بالترقية يترقى من عالم الشهادات إلى عالم الغيب وهو الملكوت، وبسر المتابعة وخصوصيتها يترقى من عالم الملكوت إلى عالم الجبروت والعظمة وهو غيب الغيب، ويشاهد بنور الله تعالى المستفاد من سر المتابعة أنوار الجمال والجلال في خلافة الحق عالم الغيب، كما أن الله تعالى هو عالم الغيب والشهادة ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾ [الجن:26] أي: الغيب المخصوص وهو غيب الغيب ﴿أَحَداً﴾ يعني من الملائكة إلا من ارتضى من رسول يعني من الإنسان، فهذا هو السر المكنون والمدفون في

استعداد الإنسان الذي كان الله يعلمه منه والملائكة لا يعلمونه.

كما قال تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، ومنها أن الملائكة لما نظروا إلى كثرة طاعتهم واستعداد عصمتهم، ونظروا إلى نتائج الصفات النفسانية استعظموا أنفسهم واستصغروا آدم وذريته، فقالوا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، يعني في الأرض ﴿خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، مع أنه ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30]، يعني نحن من هذه الأوصاف أحق بالخلافة منه، كما قال بنو إسرائيل حين بعث لهم طالوت ملكًا قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة:247]، فأجابهم الله تعالى بأن استحقاق الملك ليس بالمال إنما هو بالاصطفاء والبسطة في العلم والجسم، وقال: ﴿إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي حكمه من يشاء﴾ [البقرة:247].

فكذلك هاهنا أجابهم الله تعالى بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30] لأنه فضله بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ﴾ [آل عمران:33]، وبقوله ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(1) [البقرة:31]، وبقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لما خلقت بيدي﴾ [ص:75] ليعلم أن استعداد تلك الخلافة واستحقاقها ليس بكثرة الطاعة، ولكنه مالك الملك والملكوت يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء، فلما تفاخرت الملائكة بطاعتهم على آدم عليه السلام من الله تعالى على آدم بعلم الأسماء ليعلموا أنهم أهل الطاعة والخدمة، فإنه أهل الفضل والمنة، وأين أهل الخدمة من أهل المنة، فبتفاخرهم على آدم صاروا ساجدين له ليعلموا أن الله تعالى مستغن عن طاعتهم وبمنته على آدم صار مسجودًا لهم ليعلموا ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الحديد:28] وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، إشارة أخرى إلى أنه كما يدل على أن لآدم عليه السلام

---

(1) قال البقلي: علّمه أسماء الصفات الخاصة التي عرف بها حقائق جميع الصفات، واهتدى بأنوارها طرائق معارف الذات. وأيضًا علّمه أسماء المقامات التي هي مدارج الحالات.

وقال الجريري: علّمه اسمًا من أسمائه المخزونة، فعلّم به جميع والأسامي.

وقال ابن عطاء: لو لم يَكشف لآدم عِلْم تلك والأسامي؛ لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها.

فضائل لا يعلمها الملائكة فكذلك رذائل أوصاف مذمومة لا يعلمها الملائكة؛ لأنهم لا يعلمون منه أوصافًا مذمومة يعني من نتائج النفس الأمارة عند نتائج نظر الروح إلى النفس حاله استعمال الشرع من العجب والرياء والسمعة والخسران واشتراء الحياة الدنيا بالأخرة والابتداع والزيغوغة واعتقاد السوء وغير ذلك مما لا يشاركه الحيوانات.

ثم أخبر عن فضله مع آدم عليه السلام بقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]، إلى قوله ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:33]، والإشارة في تحقيق الاية أن الله تعالى فضل آدم على الملائكة بفضائل جمة؛ منها: اختصاصه بتعليم الأسماء كلها ذكر الأسماء بالألف واللام وهي لاستغراق الجنس فيقتضي أن لا يكون شيء إلا وآدم يعلم اسمه وقوله: ﴿كلها﴾ أي: بكليتها، وهي حقائق بالمسميات ومعناها.

وعلم آدم الأسماء والمسميات في حقائقها؛ مثاله أن الله تعالى علمك اسم الغنم فما اقتصر منه على جزء هذا الاسم؛ بل علمك أسماءه كلها؛ بأن علمك ببصرك اسم لون أبيض أم أسود، وعلمك اسم صوته بسمعك، واسم ريحه بشمك، واسم طعمه بذوقك، واسم لينه وخشونته بلمسك، وكذلك جميع أسماء صفاته وأخلاقه، وخواص منافعه ومضاره، علمك بقولك وفعلك، وعملك بإيمانك اسم خلقه، فلكل جزء من أجزائه اسم ولون وطعم ورائحة وصفة وخاصة وماهية وحقيقة أخرى لا يعلمها إلا الإنسان؛ لأنه خلق في أحسن تقويم لإدراك صورة الأشياء ومعانيها وحقائقها، وإن له بحسب كل شيء عن الجملة المذكورة آلة مدركة لذلك الشيء كما هي، وليس للملائكة هذه المدركات كلها إلا ما يتعلق بالقوة المدركة العقلية الملكية؛ فلهذا لما قال: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] [البقرة:31] أي: إن كان لكم على آدم فضيلة

---

(1) قوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: الصور التي تجلَّى فيها الحق إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، كأنه قال لهم: وهل سبّحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجلّيات التي أتجلاّها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ونقدّس ذواتنا عن الجهل بك، فهل قدّستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجلّيات وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبّحوني بها؟ فقامت عليهم الحجة في ادّعائهم الإلهيَّة، فقالت بعد العلم: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾، واعترفت بالكمال الذي غاب عنها هذا، وقد قال تعالى لها: إنه خليفة،
-

بالتسبيح والتقديس ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ [البقرة:32]، أقروا له بالفخر والاعتذار عن الاعتراض وتنزيهًا لله أن يفرض في حكم من أحكامه ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ [البقرة:32]، بالأسماء وحقائقها ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ [البقرة:32]، مما أعطيتنا من النظر الملكوتي ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:32]، الذي أحاط بكل شيء علمًا ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:255]، ﴿الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:32]، فيما حكمت وقدرت ودبرت الخلافة لآدم لا راد لحكمك ولا مفر من قضائك.

فظهرت فضيلة آدم عليهم بفنون هذه العلوم وبعجزهم عن الإتيان بمثلها، فكما أن القرآن كان دليلاً على نبوة محمد ﷺ وفضيلته على الكافرين بإعجازهم عن إتيان مثله كذلك علم الأسماء، كان دليلاً على خلافة آدم عليه السلام وفضيلته على الملائكة بإعجازهم عن إتيان مثله، وهذه الفضيلة كانت لآدم عليه السلام بعد تعلمه لأسماء المخلوقات، فلم يكن مستحقًا لسجودهم بهذا المقدار، فما أقام استحقاقه للسجود كان بتعلم أسماء الله تعالى وصفاته بتعليم الله إياه بأن يجعل ذاته وصفاته مرآة قابلة لتجلي صفات جماله وجلاله تبارك وتعالى، كما قال ﷺ: «إن الله خلق آدم فتجلى فيه»(1)، فالتجلي فيه التخلق بأخلاقه والاتصاف بصفاته، وهذا هو سر الخلافة على الحقيقة؛ لأن المرآة تكون خليفة المتجلي فيه وقوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ﴾ [البقرة:31] أي: أسماء المخلوقات دون أسماء الله وصفاته ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:31]، في دعواكم بالفضيلة على آدم لتسبيحكم وتقديسكم؛ أي: لأن الفضيلة ليست بمجرد هذا فإن ذرات الموجودات مسبحات بحمدي كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:44]، وإنما الفضيلة في العلم لأن الطاعة من صفات الخلق، والعلم من صفات الحق، فالفضيلة لمن له صفة الحق والخلق جميعًا أولى منها بمن له صفة الخلق فحسب، وهذا أحد أسرار الخلافة بأن يخلف عن الخلق بصفاتهم ويخلف عن الحق بصفاته.

فكيف بها لو لم يقل لها ذلك، فلم يكن ذلك إلا لبطونه على الملائكة.

(1) تقدم تخريجه.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:33]، معان مختلفة:

منها: إن من دلائل فضيلة آدم واستحقاقه لخلافة الحق احتياج الملائكة إليه بإنبائه الأسماء، وكان آدم عليه السلام أول الأنبياء وأول ما بدأ بإنباء الملائكة بأمر الحق، وهذا من جملة ما كان الله يعلمه من آدم ولا يعلمون الملائكة منه، فقالوا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، وكان الإنباء بأسمائهم من إصلاح حالهم لا من الإفساد.

ومنها: أنه تعالى قال: ﴿أَنبِئْهُم﴾ ما قال: علمهم لأنه ما كان لهم من استعداد للتعلم؛ لأن التعلم موجب الترقي في العلم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:11]، فكلما ازداد علمًا ازداد درجة وليس للملائكة الترقي في الدرجات لقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات:164]، ولما كان آدم مستعد للترقي فقال في حقه: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31].

ومنها: أنه تعالى قال: ﴿أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:33]، وما قال بأسماء كلها، كما قال تعالى في حق آدم عليه السلام وإلا لكان هذا الأمر تكليفًا بما لا يطاق، وليس هذا من سنة الله تعالى؛ لقوله ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:286]، على أنا نقول لو كلف يجوز ولا يكون منه ظلمًا، ولكنه لا يكلف فإنه ليس من سنته ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:62] وإنما قلنا أنه كان في حق آدم التكليف بما لا يطاق لأن الملائكة غير مستعدين لإنباء الأسماء كلها؛ لأن الأسماء على ثلاثة أقسام: منها أسماء الروحانيات والملكوتيات وهي مقام الملائكة ومرتبتهم، فلهم علم بعضها واستعداد أيضًا لإنباء بما لا علم لهم بها، فإن الروحانيات والملكوتيات لهم شهادة كالجسمانيات لنا، **والقسم الثاني**: منها أسماء الجسمانيات وهي مرتبة دون مرتبتهم فيمكن إنباءهم؛ لأن الجسمانيات لهم كالحيوانات بالنسبة إلينا فإنها مرتبة دون مرتبة الإنسان فيمكن للإنسان الإنباء بأحوالها، والقسم الثالث: منها أسماء الإلهيات وهي مرتبة فوق مرتبة الملائكة، كما قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:50]، فلا يمكن للإنسان أن ينبئهم بها، ولا يمكن لهم الإنباء بما فوق ما علمهم الله منها؛ لأنها غيبهم وليس لهم الترقي إلى الغيب، ولهم مقام معلوم لا يتجاوزون عنه، وكذلك يمكن لهم النزول إلى هذا العالم، وذلك أيضًا بالأمر

لقوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم:64]، ولا يمكن لهم الترقي من سدرة المنتهى إلى عالم الجبروت؛ لأنهم أهل الملكوت كما قال جبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى ليلة المعراج «لو دنوت أنملة لاحترقت»(1).

﴿فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة:33] أي: بأسماء معرضهم على الملائكة وبأنفسهم، وإنما كان آدم عليه السلام مخصوصًا بعلم الأسماء دون الملائكة، وهم محتاجون إليه بإنباء أسمائهم وأسماء غيرهم؛ لأن آدم عليه السلام كان بالحقيقة أفضل العالم وخلاصته، وكان روحه بذر شجرة العالم، وشخصه ثمرة شجرة العالم، ولهذا خلق شخصه بعد تمامه بما فيه كخلق الثمرة بعد تمام الشجرة، وكما أن الثمرة تعبر عن أجزاء الشجرة كلها حتى تظهر على أعلى الشجرة، كذلك آدم عبر على أجزاء الشجرة الموجودات علوها وسفلها، وكان في جزء من أجزائها له منفعة ومضرة ومصلحة ومفسدة، فسمي كل شيء منها باسم يلائم تلك المنفعة والمضرة والمصلحة والمفسدة بعلم علمه الله تعالى واختص به من الملائكة، وغيرهم هذا من جملة ما كان الله يعلم من آدم عليه السلام والملائكة لا يعلمونه.

وكان من كمال حال آدم عليه السلام أن أسماء الله تعالى جاءت على منفعته ومضرته ومصلحته ومفسدته فضلاً عن أسماء غيره، وذلك أنه لما كان مخلوقًا كان الله خالقًا، ولما كان مرزوقًا كان الله رازقًا، ولما كان عبدًا كان الله معبودًا، ولما كان معيوبًا كان الله ستارًا، ولما كان مذنبًا كان الله غفارًا، ولما كان تائبًا كان الله توابًا، ولما كان منتفعًا كان الله نافعًا، ولما كان متضررًا كان الله ضارًا، ولما كان ظالمًا كان الله عدلاً، ولما كان مظلومًا كان الله منتقمًا له، فعلى هذا قس الباقي، فلما أظهر من آدم ما كان خفيًا ومغيبًا فيه من إنباء الأسماء، قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ [البقرة:23]، حين قلتم: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ﴾ [البقرة:33]، أي غيب أهل السماوات وهم الملائكة وغيبهم ما غاب عنهم من احتياجهم لآدم في إنباء الأسماء ﴿وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 33]، أي غيب أهل الأرض هو آدم وغيبه ما كان مغيًا مخفيًا فيه من إنباء الملائكة

---

(1) ذكره الملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح» (16/ 390).

بالأسماء ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ [البقرة:33]، من الطعن في آدم واستحقاقه الخلافة، وإظهار طاعتكم بالتسبيح والتقديس تفاخرًا به على آدم عليه السلام: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:33]، من غيرتكم على آدم، وحسبان استحقاقكم الخلافة. فلما أظهر عليهم من أمر آدم خلاف ما تصوروا فيه ومن أمرهم غير ما توهموه، أمرهم بالسجود لآدم إظهارًا لاستغنائه عن طاعات المخلوقين وعصيانهم وشركهم وكفرانهم؛ لأنه ليس كفران ومعصية أكبر من السجود لغيره، واستغفارًا لله باعتراضهم عليه وقالوا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، واعتذارًا من آدم عليه السلام عن قولهم ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة:30]، وانكسارًا لأنفسهم بإظهار ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30].

﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة: 35 - 40].

ثم أخبر بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، والإشارة في تحقيق الآية أن في قوله ﴿اسْجُدُوا﴾ ثلاثة معان:

أحدها: إنكم تسجدون لله بالطبيعة الملكية والروحانية ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة: 34]، خلافًا للطبيعة بل تعبدوا رقًا وانقياداً للأمر وامتثالاً للحكم.

والثاني: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، تعظيمًا لشأن خلافته وتكريمًا لفضيلته المخصوصة به، وذلك لأن الحق تعالى يتجلى فيه، فمن يسجد له فقد سجد لله تعالى، كما قال تعالى في حق حبيبه ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح:10].

والثالث: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، أي: لأجل آدم عليه السلام وذلك لأن طاعتهم وعبادتهم ليست موجبة لثوابهم وترقي درجاتهم، وفائدتها على الحقيقة

راجعة إلى الإنسان لمعنيين:

أحدهما: إن الإنسان يقتدي بهم في الطاعة، ويتأدب بآدابهم في امتثال الأوامر، وينزجر عن الإباء والاستكبار كيلا يلحق به اللعن والطرد كما لحق بإبليس، ويكون مقبولاً ممدوحًا مكرمًا كما كان الملائكة في امتثال الأمر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:6]، والثاني: إن الله تعالى من كمال فضله ورحمته مع الإنسان جعل همة الملائكة في الطاعة والتسبيح والتحميد مقصورة على استعداد المغفرة للإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:5]، فلذلك أمرهم بالسجود لأجلهم وليستغفروا لهم ﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة:34] أي: سجد الملائكة لأنهم خلقوا من نور، كما قال ﷺ: «خلقت الملائكة من نور»[1] والنور من شأنه الانقياد والطاعة، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ سجد وأبى لأنه خلق من النار والنار من شأنها الاستكبار وطلب العلو طبعًا ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:34]؛ لأنه ستر الحق على آدم عليه السلام وهذا أيضًا سمي إبليس؛ لأنه يلبس الحق وأصل الكفر الستر.

ثم أخبر عن تمام نعمته على آدم وكرمه في حقه بعد سجود الملائكة وطرد إبليس لأجله لقوله: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35]، والإشارة في تحقيق الآية أن فيها إشارات ومعاني منها: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35] أي: بعد أن سجدت لك الملائكة ولعنت لأجلك إبليس جعلت الجنة مسكنك وجعلت منك زوجك ولتسكن إليها وتسكن معك في الجنة، فأسكنا في الجنة ﴿وَكُلَا مِنْهَا﴾ [البقرة:35] أي: من أثمار أشجارها ونعمها وألوان أطعمها ﴿رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:35]، فتمت نعمتي لديكما ووجبت طاعتي عليكما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:35]، تقربا التي وطاعة لي لتكونا من المطيعين لأمري ونهيي والموفين بعهدي، وإلا ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35]، فلما قبلتما قولي وما أوفيتما بعهدي وعصيتما

(1) رواه مسلم (4/ 2294)، والبزار في «المسند» (4/ 175)، وأحمد (55/ 47)، والبيهقي (2/ 295).

أمري وظلمتيا على أنفسكيا، فهذا منكيا من خصوصية الظلومية الجهولية ظلوم بأنه مظلم نفسه جهولاً بأنه لا يعلم أن ظلمه عائد إلى نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يظلمون﴾ [البقرة:57].

ومنها: إشارة بأن أبحت لك يا آدم نعيم الجنة وما كان فيها، وما كان لك فيها حق لأنك ما عملت عملاً تستحق به الجنة، فأعطني هذه الشجرة الواحدة منها وهي كلها لي وأنا خلقتها، فإن لم تعطينها وتطمع فيها أيضًا، فاعلم ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:6-8].

ومنها: لتعلم أن لك همة عالية لا يسعها الجنة بما فيها، فإني أوهبتك الجنة منفردًا وحيدًا وأبحت لك نعيمها مع كثرة تنوعها دون شجرة واحدة، فما رضيت نفسك بها وما قنعت بها حتى تفرقت في تلك الشجرة، ولو كانت مكانها ألف جنة أخرى لم يكفها، وكانت جهنم حرصا تقول هل من مزيد ولا تملأ حتى يضيع الجبار فيها قدمه، فهنالك تمتلئ وتتردى بعضها إلى بعض وتقول: «قط قط» فافهم جدًّا.

ومنها: إنه يشير بقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35]، إلى أن الجنة مرتع النفس البهيمية الحيوانية، وغاية مطلبها وهمتها ونهاية نهمتها وشهوتها، ولكن فيه ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ [البقرة:35]، واقنعا بها واستريحا، ولا توقدا نار الفتنة على أنفسكما، ولا تصبا من قربة الجنة ماء الجنة على رأسكما ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة:35] أي: شجرة المحبة قد غرست لأجل آدم عليه السلام على الحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، وإنما نهى عنها لمعنيين:

أحدهما: للعزة والدلال المحبوبي، فإنها من ثمة الحزن وكمالية الجمال.

وثانيهما: نهي التحريض والحث عليها، فإن الإنسان حريص على ما يمنع منه. نقل أن آدم عليه السلام ما أكل من الجنة شيء آخر إلا من هذه الشجرة، ولو لم ينه عنها لعله ما فرغ إليها من كثر أنواع المستلذات النفسانية، وكانت المحبة غذاء روحانيًا قد كره منها، وحرضه عليها بنهيه عنها، وهذا كان كحال موسى عليه السلام، فلما أراد الله تعالى أن يشوقه إلى جماله ويبتليه ببلاء طلب الرؤية، ويفتح به هذا الباب على المحبين كلمه تكليما بلا واسطة

جبريل عليه السلام لما أسكره بأقداح الكلام، وأذاقه لذة شراب السماع، وقربه اشتياقاً إلى جماله وطمع في رؤيته، ورجا وصاله، فلما طمع في رؤيته ألقى جلباب الحياء وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [الأعراف:143]، ثم تروى بـرواة الكبرياء، وأتزر بإزار العظمة والعلاء وقال: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ [الأعراف:143]، فكذلك حال آدم عليه السلام خلصه بيده، ونفخ فيه من روحه واسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة في جواره وزوجه حواء حتى شاهد جمال الحق في مرآة كل جميل من جمال الله تعالى، وأنبت شجرة المحبة بين يديه ودله عليه نهيه ومنعه عنها، وقال: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:35]، إلى ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:35]، على أنفسكما باستجلاب محنة المحبة لأن المحبة والمحنة متلازمان، والبلاء والولاء توءمان، والجنة دار السلام والسلامة، فلما ذاقا الشجرة أخرجا من دار السلام فثبتا على زعم الحسود وبيننا حديث كطيب المسك شيب به الخمر، فلما أضاء الصبح فرق بيننا، وأتى نعيم لا تكدره الدهر.

ثم أخبر عن ذلتهما بعد عزتهما بقوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة:36]، والإشارة فيها أن آدم عليه السلام أصبح محمول العناية، مسجود الملائكة، متوجًا بتاج الكرامة، ملبسًا بلباس السعادة، في وسطه نطاق القربة، وفي جيده طوق الزلفة، لا أحد فوقه في الرتبة ولا شخص معه في الرفعة، يتوالى عليه حلاوة النداء كل لحظة، فلما جاء القضاء ضاق الفضاء فانقلب العصا، فلم يمس حتى نزع لباسه، وسلب استئناسه تدفعه الملائكة بعنف أن اخرج بغير مكث ولا بحث ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ يد التقدير بحسن التدبير ﴿الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ أي: عن تلك العزة والقرابة، وكان الشيطان المسكين في هذا الأمر كذئب يوسف لما اخذ بالجناية ولطخ فمه بدم كذب، وإخوته قد ألقوه في غيابة الجب، فأخذ الشيطان لعدم العناية ولطخ خرطومه بدم نصح كذب ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ من السلامة إلى الملامة، ومن الفرح إلى الترح، ومن النعمة إلى النقمة، ومن المحبة إلى المحنة، ومن القربة إلى الغربة، ومن الألفة إلى الكلفة، ومن الوصلة إلى الفرقة، وكان قبل أكل الشجرة مستأنسًا بكل شيء ومؤانسًا مع كل أحد، ولذلك سمي إنسانًا، فلما ذاق

شجرة المحبة استوحش من كل شيء، واتخذ كل أحد عدوًا، وهكذا شرط صحة المحبة عداوة ما سوى المحبوب، فكما أن ذات المحبوب لا تقبل الشركة في التعبد كذا لا تقبل الشركة في المحبة، ولهذا قال ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[1] [البقرة:36]، وكذا كان حال الخليل في البداية يتعلق بالكوكب والقمر والشمس، ويقول: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76]، فلما ذاق شجرة الخلة قال: ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76]، ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78]، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77].

فلما استقرت حبة المحبة كالبذر في قلب آدم جعل الله شخص آدم مستقر قلبه، وجعل الأرض شخصه وقال:﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ [البقرة:36] أي: التمتع والانتفاع ببذر المحبة بماء الطاعة والعبودية إلى حين إدراك ثمرة المعرفة؛ كقوله تعالى: ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم:25].

وعلى التحقيق ما كانت ثمرة شجرة المخلوقات إلا المعرفة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، أي: ليعرفون، ثمرة المعرفة - وإن ظهرت على أغصان العبادة - ولكن لا تنبت إلا من حبة المحبة كما أخبر النبي ﷺ: «أن داود عليه السلام قال: يا رب لماذا خلقت الخلق؟ قال: كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»[2]، فثبت أن بذر المعرفة هو المحبة، فاعلم واغتنم لعلك تشم رائحة فتسعد.

ثم أخبر عن أمطار الإلهام من سحاب الفضل والإنعام على أرض قلب آدم لإنبات حبة المحبة، وتميز شجرة المعرفة بقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ [البقرة:37].

والإشارة في تحقيق الآية: أن أول نبت مطرت أمطار الربانية من حبة المحبة في قلب آدم، وطينة الإنسان كان نبات: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ

(1) قال البقلي: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾: الإشارة فيه أن المُريد لا يجوز أن يعتدي بكل أحد، وربما يقع بكلام أهل الخداع في هاوية الهلاك، والمُريد قد غلب عليه الإرادة، وحلاوة المعاملة، وكلّ من يدعوه إلى شيء من المعاملة يسمع كلامه، وإن كان مدّعيًا؛ لأنه لا يعرف كيفية الأحوال، فيسقط عن درجة الإرادة بشؤم صحبة الأضداد. وأيضًا من سلك طريق الشهوة، احتجب عن مشاهدة القُربة؛ لأن سوء الأدب يوجب سقوط المُريد عن درجة الحُرمة.

(2) ذكره بنحوه العجلوني في «كشف الخفاء» (2/ 132).

الخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:23]؛ لأنه أبصر بنور الإيمان أنه ظالم لنفسه إذا أكل حبة المحبة، ووقع في شبكة المحنة والذلة، وإن لم يعنه ربه بمغفرته، ويغنه برحمته لم يتخلص من حضيض بشريته الذي أهبط إليه، ويخسر رأس مال استعداد السعادات الأزلية، ولم يمكنه الرجوع إلى ذروة مقام القربة فاستغاث إلى ربه وقال مضطرًا، وكانت الحكمة في إبعاده بالهبوط والاضطرار، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه، فبسابقة العناية أخذ بيده وأفاض عليه بحال رحمته: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:37]، للتائبين فأخرج من آيات الكلمات شجرة الاجتباء، وأظهر على دوحتها زهرة التوبة، وأثمر منها ثمرة الهداية، وهي المعرفة كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه:122].

ثم أخبر عن سر الهبوط مشروطًا بالشروط لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة:38][1]، الآيتين والإشارة فيهما: أن الله تعالى لما ابتلى آدم بالهبوط إلى الأرض بشر بأن إلهامه ووحيه بالهدى لا ينقطع عن ذريته هداهم بواسطة أنبيائه ووحيه، وإنزال كتبه ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ [البقرة:38]، فمن آتاه منك ومنهم من إلهامي ووحيي ورسولي وكتابي ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ [البقرة: 38]، كمن اتبع آدم بالتوبة، والنوح بالبكاء، والاستغفار، وتربية بذر المحبة بالطاعة، والعبودية حتى يثمر التوحيد والرفعة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 38]، في المستقبل من وبال إفساد بذر المحبة من طينة الصفات الحيوانية والسبعية، وإبطال استعداد السعادات أبدية باستيفاء التمتعات الدنياوية ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:38]، على هبوطهم إلى الأرض لتربية بذر المحبة؛ إذ هم

---

(1) قال البقلي: الإشارة فيه أن المُريد لا يجوز أن يعتدي بكل أحدٍ، وربما يقع بكلام أهل الخِداع في هاوية الهلاك، والمُريد قد غلب عليه الإرادة، وحلاوة المعاملة، وكلّ من يدعوه إلى شيء من المعاملة يسمع كلامه، وإن كان مدّعيًا؛ لأنه لا يعرف كيفية الأحوال، فيسقط عن درجة الإرادة بشؤم صحبة الأضداد.

وأيضًا من سلك طريق الشهوة، احتجب عن مشاهدة القُربة؛ لأن سوء الأدب يوجب سقوط المُريد عن درجة الحُرمة.

راجعوا بتتبع الهداية وجذبات العناية إلى أعلى ذروة حظائر القدس كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: 8]، ثم ذكر من كفر بهداه وجعل النار سواه، وقال ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: 39]، أي: ستروا بذر المحبة بتعلقات الشهوات النفسانية، وظلموا أنفسهم بتكذيب الآيات البينات من الجهالة الإنسانية متى أفسدوا الاستعداد الفطري ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [البقرة: 39]، على معجزات أنبيائنا بالوحي والإلهام والرشد في تربية بذر المحبة، وتثمير الشجرة الإنسانية بثمار التوحيد والمعرفة والبلوغ إلى درجات القربات، ونعيم الجنان والغرفات ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [البقرة: 39]، نار جهنم ونار القطيعة ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 39]؛ لأنهم خلدوا في أرض الطبيعة، واتبعوا أهواءهم فما نبت بذر محبتهم بماء الشريعة؛ فبقوا بإفساد استعدادهم في دركات نار الجحيم وخسران النعيم خالدين مخلدين.

ثم أخبر عن اختصاص بني إسرائيل ووعودهم بلسان النعيم وعهودهم بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 40]، من النعمة الظاهرة والباطنة.

فالظاهرة: نعمة الوجود والصحة والرزق وبعثة الأنبياء، وإنزال الكتب، وإظهار الدلائل والمعجزات.

والباطنة: إخراج ذراتكم من صلب آدم وتسميعكم خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، وتوفيقكم لجواب ﴿بَلَىٰ﴾ واستعدادكم للعقل، وهدايتكم للإيمان عليكم وآبائكم ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾[1] [البقرة: 40]، الذي آخذت منكم يوم الميثاق على

---

(1) قال البقلي: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: أوفوا بما نقشتُ في قلوبكم من حقائق إلهامي وخطابي في جميع الأحوال بامتثال أمري، أوفِ بكشف جمالي لكم حين احتجبتم عن وصالي وقُربي. وأيضًا أوفوا بما أُعطيكم من استعداد معرفتي وطهارة موقع نظري، أوفِ بأن أُطْلعكم على خزائن سرّي، وحقائق علمي في سواتر غيبي. وقال بعض البغداديين: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾، الذي عهدتم يعني: في الميثاق الأوّل بلفظ: بلى، فلا ترجعوا في طلب الشيء إلى غيري. وقيل: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾: احفظوا

التوحيد وإخلاص من العبودية ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:40]، وهو الهداية إلى الصراط المستقيم، وفيه معنى آخر وهو: أوفوا بعهدي الذي خصصت بالإنسان دون الخلق – وهو محبتهم إياي – أوف بعهدكم الذي خصصتكم به، وهو محبتي إياكم، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:40]، أي: فإن أحببتم غيري؛ فأرهبوا من فوات حظكم من قربتي ومحبتي وشهود جمالي، وكشف أسراري، ودقائق معرفتي، وحقائق وصلتي.

﴿ وَءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ (41) وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (42) وَأَقِيمُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ (43) ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) وَٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ (45) ﴾ [البقرة: 41 - 45].

ثم أخبر عن الإيمان بمحمد ﷺ، وبما أنزل عليه حذر الفوات تلك السعادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ﴾ [البقرة:41].

والإشارة فيها: أن الله تعالى أمرهم بالإيمان بالقرآن وبمن أنزل عليه القرآن، وهو محمد ﷺ ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة:41]، يعني محمدًا ﷺ، والقرآن مصدق ومقرر لما معكم من التوراة، والإيمان بموسى عليه السلام ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة:41]، أول من يجحده ويسن سنة الكفر، فإن وزر المقتدي يكون على المبتدي كما يكون على المقتدي

ودائعي عندكم لا تظهروها إلا عند أهلها، أوفِ بعهدكم، وأبيح لكم مفاتيح خزائن برّي، وأنزلكم منازل الأصفياء. وقال أبو عثمان: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾: في التوكُّل، أوفِ بعهدكم بكفاية مهمّاتكم. وقال أبو سعيد القرشي: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ في حفظ آداب الظاهر، أوفِ بعهدكم بتزيين سرائركم. وقال بعض العراقيين: أوفوا بعهدي في العبادات، أوفِ بعهدكم، وأوصّلكم إلى منازل الرعايات. وسُئل أبو عمرو البيكنديّ عن قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾، فقال وفاء العهد الأمانة، وهو: ألا يخالف سريرتك علانيتك؛ لأنّ القلب أمانة، والوفاء بالأمانة الإخلاص في العمل، فمَن لم يخلص لا نُقيم له يوم القيامة وزنًا.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي﴾ [البقرة:41]، من كشف الحقائق والأسرار والمشاهدات والأنوار ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:41]. من مشارب النفس؛ يعني: الذي يرى المؤمنين في الآفاق وفي أنفسهم بالالتفات إلى حركات ومعاملات توجب الحجب والأستار بالركون إلى شيء من الأحوال والمقامات، فتقطعوا طريق ظهور الحق والوصول إليه على أنفسكم بالاختيار ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة:41] أي: اتقوا بي مني وفروا إليَّ مني لتسلموا من مكري وقهري وكيد أنفسكم وضلالتها.

ثم أخبر عن تأكيد الاتقاء وترك الاشتراء بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة:42]، الآيتين والإشارة في تحقيق الآيتين أي: لا تقطعوا على أنفسكم طريق الوصول إلى الحق بالباطل الذي هو تعلق القلب بما سوى الله تعالى كما قال ﷺ: «إن أصدق ما قالته العرب قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»(1).

﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ [البقرة:42] أي: ولا تكتموا الحق بالتفاتكم إلى غير الله ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:42]، أنه ليس لغير الله وجود حقيقي ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة:43]، بمراقبة القلوب وملازمة الخضوع والخشوع، ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 43]، وأصل الزكاة الطهارة والنماء والزيادة أي: بالغوا في تزكية النفس عن الحرص الدنيوي والأخلاق الذميمة وتطهير القلب عن رؤية السيئة، وترك مطالبة ما سوى الله فإنه مع طلب الحق زيادة والزيادة على الكمال نقصان ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 43] أي: اقتدوا مع الانكسار ونفي الوجود بالمنكسرين الباذلين الوجود لنيل الجود.

ثم أخبر عن فريق منهم بقوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:44]، والإشارة فيها أنها شاملة لمن يحرض الناس على طلب الحق ومعاملة الصدق ويحذرهم الدنيا والهوى وينبئهم عن آفاتها، وهو تباعد عن ذلك، ولا ينتهي بنفسه مثل العلماء السوء والملتبسين الذين يأمرون بالمعروف ولا يأتونه، وينهون عن المنكر ولا ينتهون عنه، ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:44] أي: تقرؤون القرآن ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

---

(1) أخرجه أحمد (2/ 470 ، رقم 10076)، والبخاري (3/ 1395، رقم 3628) ومسلم (4/ 1768، رقم 2256)، وابن ماجه (2/ 1236، رقم 3757).

[البقرة:44]، معناه ولا تفهمون فحواه كي تنتهوا عن أفعالكم الردية وتعملوا بأقوالكم السنية.

ثم أخبر عما يخرجهم إلى الحق وترك الباطل بقوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا﴾ [البقرة: 45]، والإشارة فيها أن قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة:45]، عن شهوات النفس ومتابعة هواها ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:45] أي: دوام الوقوف والتزام العكوف على باب الغيب وحضرة الرب، ﴿وَإِنَّهَا﴾ [البقرة:45] أي: الاستعانة بهما ﴿لَكَبِيرَةٌ﴾ [البقرة: 45]، أمر عظيم وشأن صعب ﴿إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:45]، وهم الذين تجلى الحق لأسرارهم فخشعت لأنفسهم كما قال ﷺ: «إذا تجلى الله لشيء خضع له»[1].

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة: 46 - 51].

وقال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾ [طه:108] فالتجلي يورث الألفة مع الحق ويسقط الكلفة عن الخلق، ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة:46] أي: يوقنون بنور التجلي ﴿أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:46]، أنهم يشاهدون كمال الحق، ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:46]، بجذبات الحق الذي جذبه منها توازي عمل الثقلين.

ثم أخبر عن تأكيد ذكر النعمة لتجديد المنة بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:47]، والإشارة في تحقيق الآية أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:47]، ظاهره عام وباطنه خاص مع قوم منهم قد علم الله فيهم خيرًا، فأسمعهم خطابه في السر، فذكروا

---

(1) رواه عبد الرزاق (4943).

النعمة التي أنعم الله بها عليهم، وهي استعداد قبولهم رشاش نوره يوم خلق الله الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره، فآمنوا بمحمد ﷺ من خاصة قبول ذلك الرشاش كما قال ﷺ: «فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطأه فقد ضل»(1).

﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:47] أي: بهذه النعمة عند رش النور على من لم يصبهم ذلك النور مع العالمين ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة:48] أي: عذاب يوم يخوف الله العام بأفعاله، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا﴾ [البقرة:48]، ويخوف الخاص بصفاته كقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النحل:23]، وقوله تعالى: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب:8]، ويخوف خاص الخاص بذاته لقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:28]، وقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:12].

﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:48]، ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار:19] ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:48]، في حق نفسها ولا في حق غيرها بغير الإذن، كقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:255]، ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة:48] أي: عدل لأنه ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم: 39]، والسعي المشكور إنما يكون هاهنا ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة:48]، لأنهم ما نصروا الحق هاهنا وقد قال تعالى: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد:7].

ثم أخبر عن أنواع نعمته وأصناف كرمه معهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة:49]، والإشارة فيها أن النجاة من آل فرعون النفس الأمارة بالسوء، وهي صفاتها الذميمة وأخلاقها الرديئة في يوم: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة:49]، الروح والقلب بذبح أبناء الصفات الروحانية الحميدة، واستحياء نساء بعض الصفات القلبية لاستخدامهن في الأعمال القذرة الحيوانية لا تكن إلا بتنجية الله تعالى، كما قال ﷺ: «لا ينجي أحدكم عمله.

(1) رواه ابن حبان (6276).

قيل:ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضله ورحمته»(1) ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ [البقرة:49] أي: في استيلاء صفات النفس على القلب والروح ﴿بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:49]، في الخير والشر فمن يهدي الله ويصلح باله حتى يرجع إلى الله تعالى في طلب النجاة فينجيه الله تعالى ويهلك عدوه، ومن يضلله يخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان أمره فرطًا، فيرديه الله تعالى ويغلِّب عدوه.

ثم أخبر تعالى عن نعمته العظمى تارة بعد أخرى بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ [البقرة:50]، والإشارة فيها أن البحر هو الدنيا، ماؤه شهواتها ولذاتها وموسى هو القلب وقومه صفات القلب، وفرعون هو النفس الأمارة، وقومه صفات النفس وهم أعداء موسى وقومه يطلبونهم ليقتلونهم، وهم سائرون إلى الله تعالى من العدو وهم خلفهم وبحر الدنيا أمامهم، ولا بدَّ لهم في السير إلى الله تعالى من العبور على البحر، ولو يخوضون البحر بلا ضرب عصا، «لا إله إلا الله» على يد موسى القلب، فإن له يدًا بيضاء في هذا الشأن، لغرقوا كما غرق فرعون وقومه، ولو كانت هذه العصا في يد فرعون النفس لم يكن لها معجزة انفلاق البحر، فلما أن ضرب موسى القلب بعصا الذكر بإذن الله تعالى مرة بعد أخرى ينفلق بحر الدنيا بنفي لا إله، ويتفرق ماء شهواته يمينًا وشمالاً ويرسل الله تعالى ريح العناية وشمس الهداية على قعر بحر الدنيا، فيصير يابسًا من ماء الشهوات، فيخوض موسى القلب وصفاته، فيتجاوزون وتنجيهم عناية: «إلا الله» إلى ساحل: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم:42] وقيل لفرعون النفس: ﴿أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا﴾ [نوح: 25]، فافهم جدًّا، «فإن للقرآن ظهرًا وبطنًا»(2).

ثم أخبر بعد العبور عن ميعاد الحصول في ميقات القرب والوصول بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [البقرة:51]، الإشارة فيها معنيان: عدد الأربعين في

---

(1) أخرجه أحمد (6/ 273، رقم 26386)، والبخارى (5/ 2373، رقم 6102)، ومسلم (4/ 2171، رقم 2818).

(2) رواه ابن حبان في صحيحه (1/ 276)، وعبد الرزاق في «المصنف» (3/ 358)، والطبراني في «الأوسط» (1/ 236).

الميعاد لاختصاصه في الكمالية ذلك؛ لأن مراتب الأعداد أربع الآحاد والعشرات والمئات والألوف، والعشرة عدد في نفسها كاملة لقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: 196]، وإذا ضعفت العشرة أربع مرات، وهو أكمل مراتب الأعداد يكون أربعين، وهو كمال الكمال، وهو عدد أيام تخمير طينة آدم ﷺ لقوله تعالى: «خمرت طينة آدم بيدي أربعين صباحًا»(1) فللأربعين خاصية وتأثير لا توجد في غيرها من الأعداد.

كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنهما ـ قال: «حدثنا رسول الله ﷺ إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك... الحديث»(2) كما أن انعقاد الطلسم الجسماني على وجه الكنز الروحاني كان مخصوصًا بالأربعي،ن كذلك يكون انحلاله باختصاص الأربعين ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: 23].

ولهذا المعنى قال النبي ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»(3) وإنما اختصاص الليل بالذكر في قوله: ﴿أربعين ليلة﴾ فلمعنيين:

أحدهما: أن لليل خصوصيته في التعبد والتقرب لقوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من الرب في جوف الليل»(4) وهكذا قوله ﷺ: «ينزل الله كل ليلة إلى السماء الدنيا...

---

(1) أخرجه ابن وهب في كتاب القدر (1/ 36، رقم 10)، وأخرجه ابن سعد (1/ 27) وقال: عن سلمان أن ابن مسعود... فذكره. وابن جرير في تفسيره (3/ 225)، وأبو الشيخ (5/ 1546)، وأبو نعيم (8/ 264)، وقال عن سليمان فذكره. والدارقطني في العلل (5/ 338، رقم 931).

(2) أخرجه أحمد (1/ 382، رقم 3624)، والبخاري (3/ 1174، رقم 3036)، ومسلم (4/ 2036، رقم 2643)، وأبو داود (4/ 228، رقم 4708) والترمذي (4/ 446، رقم 2137) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (1/ 29، رقم 76).

(3) رواه القضاعي (466).

(4) أخرجه الترمذي (5/ 569، رقم 3579)، وقال: حسن صحيح غريب. والحاكم (1/ 453، رقم 1162) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضاً: ابن خزيمة (2/ 182، رقم 1147)، والبيهقي (3/ 4، رقم 4439). قال المناوي (2/ 69): قال الحاكم على شرط مسلم، وأقره الذهبي، وصححه الترمذي والبغوي.

الحديث»(1)، ولهذا المعنى قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [الإسراء: 79]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:1].

والآخر: أنه لو ذكر اليوم دون الليل لظن موسى عليه السلام أنه موعود بالتعبد في النهار دون الليل، وإنما الليل جعل للاستراحة والسكون لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس:67]، فلما اختص الليل بالذكر علم موسى عليه السلام أن التعبد في الليل والنهار جميعًا.

ثم أخبر عن نعمة عفوه عنهم مع ما يصدر من الظالم منهم بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُمْ﴾ [البقرة:52]، والإشارة فيها أن الله تعالى لما أراد أن يخرج جوهر الشكورية التي هي من صفات الربانية من معدن الإنسانية أنعم عليهم بإسباغ نعمه الظاهرة والباطنة.

فمن نعمه الظاهرة: ما ذكر في الآيات السابقة بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا﴾ [البقرة:40].

﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: 52 - 57].

ومن نعمه الباطنة: ما ذكر في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة: 52] أي: من بعد عبادتكم العجل ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:52]، والشكر على ثلاثة أوجه: شكر بالأقوال، وشكر بالأعمال، وشكر بالأحوال.

---

(1) أخرجه الطيالسي (ص 295، رقم 2232)، وابن أبي شيبة (6/ 72، رقم 29556)، وأحمد (3/ 34، رقم 11313)، وعبد بن حميد (ص 272، رقم 861)، ومسلم (1/ 523، رقم 758)، وأبو يعلى (2/ 400، رقم 1180)، وابن خزيمة (2/ 182، رقم 1146).

فشكر الأقوال: أن يتحدث بالنعم مع نفسه إسرارًا ومع غيره إظهارًا ومع ربه افتقارًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:11]، وقوله ﷺ: «التحدث بالنعم شكر»(1).

وشكر الأعمال: أن يعرف نعمة الله تعالى في طاعته ولا يعصيه بها، ويتدارك ما فاته من الطاعات وبادر من المعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ:13].

وشكر الأحوال: أن يتجلى المنعم بالصفة الشكورية على سر العبد، فلا يرى إلا المنعم في النعمة والشكور في الشكر، ويرى المنعم في النعمة من المنعم، والشكر في الشكر والشكر من الشكور، ويرى وجوده وشكر النعمتين من نعم المنعم ورؤية النعمة، فتكون نعمة وجوده مرآة جمال المنعم، ويكون شكره مرآة جمال الشكور، ورؤية النعمة والمنعم نعمة أخرى إلى غير نهاية، فيعلم ألا يقوم بأداء شكره ولا يشكره إلا الشكور ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الشورى:23].

ثم أخبر عن إيتاء الكتاب أنها نعمة أخرى في هذا الباب بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:53]، والإشارة فيها أن الله تعالى آتى لموسى الكتاب وهي التوراة والفرقان وهو نور النبوة والحكمة يؤتيها الله تعالى أنبياءه مع الكتاب، فيفرقون بها بين الحق والباطل للأمة، ويبينون بها الكتاب، ويعلمهم الحكمة لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ [الأنعام:89]، وقوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:151]، قال ﷺ: «أوتيتُ القُرآنَ ومِثلَهُ معَهُ»(2)، ﴿لعلكم تهتدون﴾ لكي تهتدوا بنور الكتاب ونور حكمة رسول الله ﷺ وحسن موعظته إلى التوبة الحقيقية، وهي الرجوع إلى الله تعالى بقتل النفس الأمارة التي تعبد عجل الهوى؛ كيلا يحتاجوا إلى قتل النفس في الصورة. فلما لم يهتدوا إلى هذه التوبة بالتعريض، أمرهم بالتصريح بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ [البقرة:54]، والإشارة فيها أن لكل قوم عجلاً يعبدونه من دون الله؛ قوم يعبدون عجل الدرهم والدينار قال ﷺ: «تعس

(1) رواه القضاعي (44).

(2) رواه أحمد (16546).

عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة»[1] ، وقوم يعبدون عجل الشهوات، وقوم يعبدون عجل الجاه، وعجل الهوى وهذه بغضها الله تعالى لقوله ﷺ: «ما عبد إله أبغض على الله من الهوى»[2].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:23]، فأرسل الله تعالى نبيه موسى قلب كل سعيد لقوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:54]، ارجعوا إلى الله تعالى بالخروج عما سواه، ولا يمكنكم إلا بقتل النفس ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:54]، بقمع الهوى لأن الهوى هو حياة، وبالهوى عبد ما عبد من دون الله على الحقيقة، وبالهوى ادعى فرعون الربوبية، وعبد بنو إسرائيل العجل، وبالهوى أبى واستكبر إبليس، وبه أكل آدم من الشجر، وبه عبدت الكواكب والأصنام.

وفيه معنى آخر: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ ارجعوا إليه للاستنصار على قتل النفس بنهيها عن هواها، فاقتلوا أنفسكم بنصر الله وعونه، فإن قتل النفس في الظاهر تيسر للمؤمنين والكافرين، وأما قتل النفس في الباطن وقهر ما قهر صعب لا يتيسر إلا خواص الحق بسيف الصدق ونصر الحق، ولهذا جعل مرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء بقوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:69].

وكان النبي ﷺ إذا رجع من غزو يقول: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[3] وذلك لأن المجاهد إذا قتل سيف الكفار يستريح من النصب والتعب بمرة واحدة، وإذا قتل بسيف الصدق في يوم ألف مرة تحيى نفسه على بصيرة أخرى وتزداد في مكرها وخداعها وحيلها، فلا يستريح المجاهد طرفة من جهادها، ولا يأمن مكرها. وبالحقيقة: النفس صورة مكر الحق ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ

(1) رواه الطبراني في الكبير (421)، وفي الأوسط (2696).

(2) ذكره حقي (2/ 451).

(3) رواه البيهقي في كتاب الزهد الكبير (2/ 165 ، رقم 373).

الله إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:99].

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة:54] يعني: قتل النفس بسيف الصدق ألف مرة خير لكم؛ لأن بكل قتلة رفعة درجة لكم عند بارئكم، فأنتم تقربون إلى الله تعالى بقتل النفس وقمع الهوى وهو يتقرب إليكم بالتوفيق للتوبة والرحمة عليكم، كما قال تعالى: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»(1)، وذلك قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:54]، أخبر عن سوء أعمالهم بمقالهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:55]، الآيتين، الإشارة فيهما أن مطالبة الرؤية جهرة هي تعرض مطالعة الذات المقدسة، فتوجب سوء الأدب وترك الحرمة، وذلك من أمارات البعد والشقاوة، فمن سطوات العظمة والعزة أخذتهم الرجفة والصعقة إظهارًا للعدل، ثم من سنة الكرم قاصد عليهم بحال النعم إسبالاً للستر على هيئات العبيد والخدم فقال: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة:55]، ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:56]، إظهارًا للفضل.

ثم أخبر عن نتائج الكرم بأنواع النعم بقوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة:57]، والإشارة: لما ابتلاهم بألسنة العزة وأدبهم بسوط القوة، أدركهم بالرحمة في وسطة الكربة، فأكرمهم بالإنعام وظللهم بالغمام ومن عليهم بالمن وسلاهم بالسلوى، فما ازدادوا بشؤم الطبيعة ولؤم الوقيعة إلا في البلوى، كما قيل: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:57]، بأمر الشرع ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [البقرة:57]، إذ تصرفوا فيها بالطبع ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة:57]، بالحرص على الدنيا ومتابعة الهوى.

﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى

---

(1) أخرجه البخاري (6/ 2741، رقم 7098). وأحمد (3/ 127، رقم 12309)، وعبد بن حميد (ص 353، رقم 1168)، وأبو يعلى (5/ 457، رقم 3180)، والروياني (2/ 375، رقم 1346).

لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ البقرة:[58 - 63].

ثم أخبر عن خروجهم من تيه البلاء ودخولهم قرية الابتلاء لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ [البقرة:58]، الآيتين والإشارة فيهما: أن الله تعالى لما علم من طينة الإنسان أن الأفعال والأقوال الطبيعية تنبت وتقوي ظلمة البشرية، وتزيد في حجب الروح العلوي أمرهم بالأفعال والأقوال الشرعية التي مودعة فيهما أنوار الشرع؛ لتكون مزيلة لتلك الظلمات الطبيعية، فلما أراد بنو إسرائيل أن يدخلوا قرية ويأكلوا من ثمارها وهذه القرية ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة:58] ليكون سجودكم مكفرًا لخطايا أعمالكم الطبيعية ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:58]، الذين يطيعوننا في أنوار إيمانهم وإحسانهم.

فلما أخبر بنو إسرائيل سوء أفعالهم وبدلوا ما أمروا من مقالهم وظلموا على أنفسهم بأعمالهم وأقوالهم، ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [البقرة:59]، بالقول والعمل ﴿رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة:59]، عذابًا مهلكًا في الدنيا وحجابًا مبعدًا في الآخرة ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:59]، عن أمر ربهم ويتبعون أهواء أنفسهم، كذا من لم يعرف قدر النعماء يقرع باب البلاء لتجري عليه أحكام القضاء فامتحن بأنواع المحن والوباء.

ثم أخبر عن إتمام النعماء بإجابة الدعاء عند الاستسقاء بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى

مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ [البقرة:60]، والإشارة فيها أن الروح الإنساني وصفاته في عالم الغيب بمثابة موسى وقومه وهو يستسقي ربه ليرويها من ماء الحكمة والمعرفة، وهو مأمور بضرب عصا «لا إله إلا الله»، ولها شعبتان من النفي والإثبات، فتتقدان نورًا عند استيلاء ظلمات صفات النفس، وقد حمل من جنة حضرة العزة على حجر القلب الذي كالحجارة أو أشد قسوة، ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة:60]، من ماء الحكمة لأن كلمة: «لا إله إلا الله» اثنا عشر حرفًا كل حرف عين ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:60]، سبط من أسباط الصفاء الإنساني، وهم اثنا عشر سبطًا من الحواس الخمس الظاهرة والحواس الخمس الباطنة والقلب والنفس، ولكل واحد حيث ساقه سائقه، وقاده قائده، فمشرب عذب فرات ومشرب ملح أجاج؛ فالنفوس ترد مناهل المنى والشهوات، والقلوب تشرب من مشارب النفي والطاعات والأرواح تشرب من زلال الكشوف والمشاهدات، والأسرار تروى من عيون الحقائق بكأس تجلي الصفات عن ساقي ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الإنسان:21] والخطي بخطى الاضمحلال في حقيقة الذات.

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [البقرة:60]، كل واحد منكم ﴿مِنْ رِزْقِ اللهِ﴾ [البقرة:60]، بأمره ورضاه، ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:60]، ترك الأمر واختيار الغرور، وبيع الدين بالدنيا وإيثار الأولى على الآخرة واختيارها على المولى.

ثم أخبر عن علامة نفس الإنسان وخستها ودناءة سمتها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ [البقرة:61]، والإشارة فيها أنه هكذا حال من لم يرض بقضائه، ولم يشكر على نعمائه، ولم يصبر على بلائه يكله إلى نفسه بالخذلان، ويرده إلى مقاساة الذل والهوى فيلقي جلباب الحياء، ويقطع حبل الوفاء بسكين الجفاء، ويبيح سفك دماء الأنبياء.

روي عن أبي ذر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كانت بنو إسرائيل تقتل في الغداة الواحدة ثلاثمائة نبي، ثم يقوم سوق بقتلهم من آخر النهار، وما يكترثون بقتلهم، منهم من

كان يأمر بالحق فينشر بالمنشار، ومنهم من كان يرجم»[1] ويقال: كان بنو إسرائيل متفرقي الهموم ومشتتي المقصود، ولم يرضوا لأنفسهم بطعام واحد ولم يكتفوا في تدينهم بمعبود واحد، حتى قالوا لموسى عليه السلام لما رأوا قومًا ما يعبدون الصنم: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:138] هكذا صفة أرباب التفرقة يجدون الصبر مع الواحد شديد، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء:46]، ﴿وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ [الإسراء:46] فكما أن بني إسرائيل لم يصبروا على طعام واحد كان ينزل عليهم من السماء، وقال لموسى عليه السلام من خساسة طبعهم وركاكة عقلهم: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ﴾ [البقرة:61]، كذلك نفس الإنسان من خسة طينتها ودناءة همتها لم تصبر على طعام واحد يطعمها الرب الواحد واردات الغيب وإلهامات الرب، كما كان يصبر نفس النبي ﷺ ويقول: «لست كأحدكم فإني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[2] بل تقول لموسى القلب: ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ﴾ أرض البشرية ﴿مِن بَقْلِهَا﴾ [البقرة: 61]، الشهوات الحيوانية ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ [البقرة:61]، اللذات الجسمانية.

﴿قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ [البقرة:61]، من البقول الدنيوية الفانية ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ [البقرة:61] أي: الباقيات الأخروية التي خير عند ربك ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ [البقرة:61]، القالب السفلي من مقامات الروح العلوي ﴿فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة:61]، من المطالب الدنيوية والمقاصد الردية.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة:61]، كالبهائم والأنعام بل هم أضل سبيلاً؛ لأنهم ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ [البقرة:61]، من الواردات الغيبية والمكاشفات الروحية وينسوا منها وطلبوا غيرها ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة:61] أي: يتركون ما يفتح الله لهم من أنباء الغيب في مقام الأنبياء إضرارًا بهم ﴿ذَلِكَ﴾ [البقرة:61] يعني: حصول هذه المقامات، ﴿بِمَا عَصَوا﴾ [البقرة: 61]، ربهم في نقض العهد وتبدل المجهود في طاعة المقصود ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة:

(1) أخرجه مسلم (4/ 2256، رقم: 2938)، وأبو يعلى (2/ 534، رقم: 1410).

(2) رواه أبو داود (2376)، والترمذي (783).

61]، من طلب الحق في مطالبة ما سواه.

ثم أخبر عن حال أهل السلامة من ثبت منهم على الاستقامة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ [البقرة:62]، والإشارة فيها بقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:62]، من مدعي الإسلام وغيرهم ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [البقرة:62] يعني: كان نور الله نور قلبه حتى آمن بذلك النور، كما قال تعالى: «كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق»[1]، كذلك هاهنا من آمن بالله من جملة المذكورين فبي يؤمن لا بالتقليد والرسم والعادة والاقتداء بالآباء وأهل البلد ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [البقرة:62] أي: ثوابهم وجزاؤهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:62] أي: مقام العندية والوصول، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: 62]، من حجب الأنانية ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:62]، بالأنانية لأن بها ينقطع الطالب عن المطلوب ويحتجب المحب عن المحبوب، ولذلك قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:62]، لأن الولي من أخرجه الله من ظلمات الأنانية والاثنينية إلى نور الوحدة والهوية، كما قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، فافهم جدًا.

وفيه معنى آخر ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:62]، بمعنى يوم البعث الذي فيه جزاء الأعمال وعمل صالحًا للقبول، فمعناه عمل على متابعة محمد ﷺ لأنه من يعمل على غير متابعة دين الإسلام لم يكن عمله صالحًا للقبول، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران:85].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أدركني عيسى ابن

---

(1) أخرجه الإمام البخاري (5/ 2384 ، رقم 6137) بلفظ: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ» وابن حبان (2/ 58 ، رقم 347)، والبيهقي (10/ 219 ، رقم 20769)، وابن أبي الدنيا في الأولياء (ص 9 ، رقم 1)، والحكيم (2/ 232)، وأبو نعيم في الحلية (8/ 318)، وابن عساكر (7/ 95).

مريم ثم لم يدخل شريعتي ومنهاج ديني لأكبه الله على وجهه في النار»[1]، ما استغنى [بنبوته] فكيف أنتم: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:62]، لا عند غيره من الجنة والنار ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:62]، فيما يرجعون إليه ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 62]، على ما كانوا عليه، أو جعلهم الله من المقبولين له.

ثم أخبر عن الميثاق عنهم وأن آبائهم عند رفع الطور فوقهم لابتلائهم بقوله تعالى: ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة:63]، إلى قوله: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:66] والإشارة فيها أن أخذ الميثاق كان عامًا في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172] ولكن قومًا أجابوه شوقًا وقلقًا، وقومًا أجابوه خوفًا وفرقًا، ليتحقق أن الأمر بيد الله في كلتا الحالتين، يسمع خطابه من يشاء موجبًا للهداية ويسمع من يشاء موجبًا للضلالة، فإنه لا برهان أظهر من رفع الطور عيانًا، فلما أوبقهم الخذلان لم يكن ينفعهم البرهان والعيان في قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة:63]، إشارة إلى أن أخذ ما يؤتي الله تعالى من الأوامر والنواهي وسائر الطاعات والعلوم وغير ذلك لا يمكن بقوة الإنسانية إلا بقوة ربانية وتأييد إلهي كما كان في حق يحيى عليه السلام قوله تعالى: ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:12]، ربانية لأنه كما كان في حال صباه، ولم يكن له قوة نفسانية لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:12].

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ [البقرة:63] أي: في كتاب الله تعالى من الرموز والإشارات والدقائق والحقائق ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:63]، بالله عما سواه ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة:64] أي: أعرضتم عن طريق الاتباع للشريعة لاستيلاء القوة الطبيعية، وبعد أخذ الميثاق وسلوك طريق الوفاء ابتلاء من الله تعالى.

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن

(1) لم أقف عليه.

تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوٓا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [البقرة: 64 - 69].

﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ [البقرة:64]، وهو سبق العناية في البداية وتوفيق أخذ الميثاق بالقوة في الوسط، وقبول التوبة وتوفيقها والثبات عليها في النهاية، ﴿لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:64]، المصرِّين على العصيان المغبونين بالعقوبة والخسران، والمبتلين بذهاب الدنيا والعقبى ونكال الآخرة والأولى، كما كان حال المصرِّين منكم والمعتدين بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ [البقرة:65]، بالخذلان وتقديم العصيان ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ﴾ [البقرة:65]، قهرًا وقرًا ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾ [البقرة: 65]، أمرًا منا وحكمًا جزمًا ﴿خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:65]، مردودين إلى دركات الحيوانات والسبعيات.

﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ [البقرة:66]، فضيحة وغيره ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ [البقرة:66]، لمن تكون في زمانهم وعهدهم ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة:66]، ومن يكون بعد زمانهم إلى يوم القيامة فيعتبرون ويتعظون بهم المؤمنون المتقون عن البلايا بالرجوع إلى الحق عند الابتلاء.

كما قال تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:66]، فهذا البلاء والخسران جزاء فمن لم يعرف قدر الإحسان ويكافئ النعم بالكفران يرد من عزة الوصال إلى ذل الهجران ورسوم الصدود والخذلان، وكانت عقوبة الأمم بالمسخ والخسف على الأجساد، وهذه الأمة بالخسف والمسخ على القلوب، وعقوبات القلوب أشد من عقوبات النفوس، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ [الأنعام:110]، هكذا حال من لم يتأدب في خدمة الملوك ينخرط في إيتاء السلوك، ومن لم يتخط بساط القربة بقدم الحرقة يستوجب الحرمان ويستجلب الخسران ويبتلى بسياسة السلطان.

ثم أخبر عن ابتلائهم بذبح البقرة إظهارًا لسر القدرة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة:67]، إلى قوله ﴿وَمَا

كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:71] والإشارة في تحقيق الآيات الخمس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة:67]، إشارة إلى ذبح بقرة النفس البهيمية، فإن في ذبحها حياة القلب الروحاني، وهذا هو الجهاد الأكبر الذي كان النبي ﷺ يشير إليه بقوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(1)، ويقوله للمجاهد نفسه، وقوله ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا»(2)، أيضًا إشارة إلى هذا المعنى.

﴿قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة:67] أي: تستهزئ بنا في ذبح النفس وليس هذا من شأن كل ذي نفس دنية ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:67]، الذين يظنون أن ذبح النفس أمر هين ويستبعد له كل تابع الهوى وعابد الدنيا ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ [البقرة:68]، أن يبين ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ﴾ [البقرة:68]، نفس تصلح للذبح بسيف الصدق فإشارة إلى بقرة نفس ﴿لَا فَارِضٌ﴾ [البقرة:68]، في سن الشيخوخة متعجزًا عن سلوك الطريق لضعف المشيب وحملاً لقوى النفسانية، كما قال بعض المشايخ: الصوفي بعد الأربعين نادر.

﴿وَلَا بِكْرٌ﴾ [البقرة:68]، في سن الشباب فإنه بشهوته سكره ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة:68] أي: عند كمال العقل والكهولة تعبد الشيخوخة، وتجنن رعونة الشباب كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:15]، ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ [البقرة:68]، فإنكم إذا تقربتم إلى الله تعالى بما أمرتم فإن الله يتقرب إليكم بما وعدتم، فإنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً في الشيب والشباب.

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) ذكره حقي (1/ 83).

شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (71) وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَاۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (72) فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (73) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةًۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74)﴾ [البقرة: 69 - 74].

﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا﴾ [البقرة:69] يعني: لون بقرة نفس تصلح للذبح في الجهاد ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ [البقرة:69] يعني: صفرة زين لا صفرة شين كما هي سيما الصالحين ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ [البقرة:69]، من نظر إليها يشاهدها في غرتهم، قد ألبست من آثر الطاعات ويطالع من طلعتهم أثار شواهد ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:29] وقوله عليه ﷺ: «أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله»(1).

﴿إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:70]، إشارة إلى كثرة تشبه البطالين بزي الطالبين وكسوتهم وهيئاتهم ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:70]، إلى الصادق منهم فالاهتداء يتعلق بمشيئة الله تعالى وبدلالته، كما كان حال موسى والخضر - عليهما السلام - فلو لم يدل الله موسى عليه السلام لما وجده قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة:71]، إشارة إلى نفس الطالب الصادق التي لا تحتمل الذلة بأن تثير بآلة الحرص أرض الدنيا بطلب زخارفها، وتتبع هوى النفس وشهواتها، كما قال ﷺ: «عز من قنع وذل من طمع»(2) وقال: «ليس للمؤمن أن يذل نفسه»(3).

﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ [البقرة:71]، حرث الدنيا بماء وجهه عند الخلق وعند الحق، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾

---

(1) أخرجه أحمد (6/ 459، رقم 27640)، والطبراني (24/ 167، رقم 423).

(2) ذكره حقي (1/ 202).

(3) أخرجه أحمد (5/ 405، رقم 23491)، والترمذي (4/ 522، رقم 2254)، وابن ماجه (2/ 1332، رقم 4016). وأخرجه أيضًا: البزار (7/ 218، رقم 2790).

[الشورى:20] ﴿مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ [البقرة:71] أي: نفس مسلمة من آفات صفاتها مستسلمة لأحكام ربها ليس فيها غير الله ولا مقصد لها إلا الله، كما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ [البقرة:273] إلى ﴿إِلْحَافًا﴾ قوله تعالى: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة:71].

ثم أخبر عن قتلهم القتيل وإحياء القتيل بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة:72]، الآيتين والإشارة في تحقيقهم:ا أن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ فيها إشارة إلى قتل النفس، وإن القتيل هو القلب الروحاني، وإن إحياءه في قتل النفس البهيمية، كما قال قائلهم:

أقتلوني يا ثقاتي إنَّ في قتلي حياتي

وكما أشار بعضهم:

سر بالإرادة تحيى بالطبيعة أو مت بالطبيعة تحيي بالحقيقة

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ فشككتم واختلفتم أنه كان من الشيطان أم من الدنيا أم من النفس الأمارة بالسوء.

﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة:72]، بإحالة النفس إلى الشيطان ومكرها إلى الدنيا وزينتها والشيطان والدنيا يحيلان إلى النفس الأمارة وهواها ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ [البقرة:73]، وكما أن الله تعالى أراد أن يحيي قتيلهم ليفصح بالشهادة على قاتله أمرهم أن يذبحوا بقرة ويضربوه ببعضها ليحيى فيخبر بقاتله فكذلك إذا أراد الله أن يحيي قتيل قلب الإنسان أمر بقتل حيوان النفس بسيف المجاهدات ليحيى قتيل قلبه بأنوار الشهادات، كقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122].

وكما أن البقرة بعد ذبحها ضرب على القتيل قام بإذن الله تعالى، وقال: قتلني فلان، كذلك من ضرب لسان النفس المذبوح بسكين الصدق على قتيل القلب بمداومة الذكر يحيي الله قلبه بنوره فيقول، ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53].

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:73]، يحيي الله الأجساد في الآخرة والقلوب

في الدنيا، ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ [البقرة:73]، دلالة مع الخواص وبراهينه مع أخص الخواص، كما قال تعالى في خواص المؤمنين ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت:53]، وقال في يوسف عليه السلام وهو أخص الخواص: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: 24] ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:73]، فأثبت الله تعالى العقل لمن كان مستعدًا لرؤية آياته باستحقاق إرادة الله تعالى آياته لا برؤية نفسه، فإن العقل الحقيقي هو المستفاد من أنوار مواهب الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40]، وقال في الذين لهم عقل المعاش دون المستفاد: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: 18].

ثم أخبر عن أهل هذه الشقاوة ووصفهم بالقساوة بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة:74]، والإشارة في تحقيق الآية أن اليهود وإن شاهدوا عظيم الآيات، وطالعوا واضح البينات فحين لم تساعدهم العناية ولم توافقهم الهداية لم تزدهم كثرة الآيات إلا قسوة على قسوة، ولم تنزلهم من مكامن التقدير إلا شقوة على شقوة، وذلك لأن الله تعالى أراهم الآيات الظاهرة فرأوها بنظر الحس، ولم يرهم البرهان الذي يراه القلب فيعجزهم عن التكذيب والإنكار، يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:24].

وسُئل الحسن ابن منصور رحمه الله عن البرهان فقال: البرهان واردات ترد على القلوب تعجز النفوس عن تكذيبها، فهكذا حال بعض المغرورين الممكورين من يدعي الطلب إذا لم يكن لهم شيخ كامل واصل حين شرعوا في الرياضة وأخذوا في المجاهدات بترك اللذات والشهوات يلوح لهم من صفاء الروحانية ظهور بعض الآيات وخرق العادات، فإذا لم يكن مقارنًا برؤية البرهان ليكون مؤيدًا بالتأييد الإلهي مؤكدًا بالعناية الأزلية لم يزدهم إلا العجب والغرور والخسران والقساوة والطغيان، وأكثر ما يقع هذا للرهبان والمتفلسفة الذين استدرجهم الحق بالخذلان من حيث لا يعلمون، وإنما شبه قلوبهم بالحجارة للقسوة وعدم اللين للذكر الحقيقي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر:23]، والذكر الحقيقي ما يتداركه الحق بذكره كقوله تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152].

ثم بين أنها دون الحجارة بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 74]، والإشارة فيها إلى مرتبة القلوب في القسوة؛ بعضها بمرتبة الحجارة التي تنفجر منها الأنهار، وهو قلب تظهر عليه تغلبات أنوار الروح لصفائه بعض الأشياء المشبهة بخرق العادات كما يكون لبعض الرهابين والكهنة.

وبعضها بمرتبة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾ [البقرة:74]، وهو قلب تظهر عليه في بعض الأوقات عند انخراق حجب البشرية من أنوار الروح، فيريد بعض الآيات والمعاني المعقولة، كما يكون لبعض الفلاسفة والشعراء.

وبعضها بمرتبة ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [البقرة:74]، وهو قلب فيه بعض الصفاء فيكون بقدر صفائه قابل عكس أنوار الروح من وراء الحجب، فيقع فيه الخوف والخشية كما يكون لبعض أهل الإيمان.

وأهل هذه المراتب مشتركة بين قلوب المسلمين وغيرهم، فالفرق بينهم أن أحوال هذه المراتب للمسلمين مؤيدة بنور الإسلام، فتزيد في قربهم وعلوهم ودرجاتهم ولغيرهم غير مؤيدة بالإيمان، فتزيد في غرورهم وردهم واستدراجهم، والمسلمون مخصوصون من غيرهم بكرامات وفراسات تظهر لهم من تجلي أنوار الحق دون غيرهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر:22]، وسيجيء شرحه في موضعه إن شاء الله تعالى، وبعض القلوب بمرتبة الحجارة القاسية التي لا يؤثر فيه القرآن والأخبار والحكمة والموعظة لقوله تعالى: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة:74]، وهذا القلب مخصوص بالكافر والمنافق، فإنه قلب مختوم عليه وفيه الدلالة على أن القلوب على فطرة الله التي فطر الناس عليها، ثم بالابتكار والجحود واستيلاء حب الدنيا وزخارفها وتتبع الشهوات ولذاتها تقسوا وتشتد قسوتها، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [البقرة:74].

﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:74] أي: يجازيكم عاجلاً وآجلاً، فأما عاجلاً: بأن يجعل إنكاركم سبب غفلة وقسوة قلوبكم فيقسيها بأعمالكم الفاسدة ويطبع

عليها بطابع إنكاركم وجحودكم كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: 155]، وقال ﷺ: «ما من قلب إلا هو بين أصبعين من أصابع الرحمن، فإن شاء أقامه وإن شاء أزاغه»(1) وأما أجلاً: فيعاقبكم يوم القيامة على قدر سيئات أعمالكم، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40].

﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة: 75 - 81].

ثم أخبر عن اليأس من إيمانهم بغاية خذلانهم بقوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾ [البقرة: 75]، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: 75]، والإشارة في تحقيق الآيات بمجرد سماع الكلام من الله تعالى وإن كان بلا واسطة لا يحصل الإيمان الحقيقي، فإن الفريق الذين يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه، ولو كان لهم من الإيمان الحقيقي حاصل ما حرفوا كلام الله وهم يعلمون العلم الحقيقي أنه حق، وهذا يدل على أن علم الرجل ويقينه ومعرفته ومكالمته مع الله تعالى لا يفيد الإيمان الحقيقي إلا أن يزكيه الله تعالى بفضله ورحمته كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ

---

(1) أخرجه أحمد (4/ 182 رقم 17667)، وابن ماجه (1/ 72، رقم 199) قال البوصيري (1/ 27): هذا إسناد صحيح. والحاكم (1/ 706، رقم 1926) وقال: صحيح على شرط مسلم. وأخرجه أيضًا: البخاري في التاريخ الكبير (8/ 126)، والطبراني في الشاميين (1/ 330، ترجمة 582)، وابن عساكر (10/ 157).

﴿أَبَدًا﴾ [النور:21]، وإن الله تعالى كلم إبليس وخاطبه بقوله: ﴿إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:75]، وما أفاده الإيمان الحقيقي إذا لم يكن مؤيدًا من الله بفضله ورحمته قال في حقه: ﴿وكان من الكافرين﴾.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ [البقرة:76] يعني: إذ لم يكن سماع الكلام يفيد الفريق منهم فكيف يفيد هؤلاء قولهم منا: ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:76]، وهم من جهلهم وغفلتهم: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة:77]، فيطلع رسوله على أسرارهم، وهذا أحد معاني إعجاز القرآن؛ يخبرهم عن مخفيات ضمائرهم ومجيبات سرائرهم ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة:76]، من تصديق بلا تحقيق وهم من عمى بصائر قلوبهم لا يبصرون المعجزات ولا يؤمنون بها.

ثم أخبر عن غاية جهلهم وخسة عقلهم بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ﴾ [البقرة:78]، الآيتين، الإشارة فيهما: أن اليهود متفاوتون في مراتب كفرهم، فقوم منهم أميون لا يعلمون الكتاب ما هو في الحقيقة إلا أماني أي: ما يتمنون من عند أنفسهم كما قال تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى:52]، وكما قال ﷺ: «ليس الدين بالتمني»(1) فبعضهم أحسن درجة وأكثر جهلاً، ركنوا إلى التقليد المحض، ولا يمكنهم استيفاء شهوة، بل اعترضوا بظنون فاسدة وتخمينات مبهمة، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها دون معرفة معانيها وإدراك أسرارها وحقائقها، وهذا حال أكثر أهل زماننا من مدعي الإسلام، ومنهم: من أكثر شأنه ما يتمناه في نفسه ولا يساعده مكان إلا بظنون وتخمين، ومنهم: من يعتمد على كتب الأوائل وأقاويلهم الفاسدة وظنونهم الكاذبة ويكتبونه بأيديهم ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:79]، من الحطام الدنيوية والوجاهة عند الناس ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة:79]، من الكفر والإلحاد عن الحق والاعتقاد

---

(1) أخرجه الديلمي (3/ 404، رقم 5232).

السوء، وإغواء الخلق وإضلالهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [المائدة:77]، في هذه الآيات أيضًا إشارة إلى بعض المنتمين إلى هذه الطائفة من مدعي الإخلاص في الصحبة في طريق الحق، فينضم إلى الأولياء وأرباب القلوب ظاهرًا، ثم يصدق له الإرادة ويميل إلى أهل الغفلة، وله مع هذه الطريقة جانب؛ كلما دعته هواتف الحظوظ يسارع إلى الإجابة طوعًا، وإذا قادته دواعي الحق يتكلف كرهًا من الحالة ما لم يختص نيته، وما أشد ندمه فيما أؤخر عن الله تعالى إن لم يصلح طويته حين اشترى بالحقوق الباقية الحظوظ الفانية.

ثم أخبر عن وساوسهم الشيطانية وهواجسهم النفسانية بقوله: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ﴾ [البقرة:80]، إلى قوله: ﴿خَالِدُونَ﴾ [البقرة:81]، والإشارة فيها: أن بعض المغرورين بالعقل من ضلاَّل الفلاسفة وجهال الطبائعية وغيرهم نوط غفلتهم وغلبات مغاليط ظنونهم، قد ظنوا أن قبائح أعمالهم وفضائح أفعالهم وأقوالهم لا تؤثر في صفاء أرواحهم، وتغيير أحوالهم، فإذا فارقت الأرواح إلى حضائر القدس، ولا يصحبها شيء من نتائج الأعمال.

﴿إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً﴾ [البقرة:80]، وذلك من فطام الأرواح عن ألبان التمتعات الحيوانية، وهذا ظن فاسد وكفر صريح من وسواس الشيطان وهواجس النفوس وليس بمعقول؛ لأن العاقل يشاهد حسًا وعقلاً أن تتبع الشهوات الحيوانية واستيفاء اللذات النفسانية تورث الأخلاق الذميمة من الحرص والأمل والحسد والبغض والغضب والبخل والكبر والكذب وغير ذلك؛ إن هذه وإن كانت من صفات النفس الأمارة بالسوء؛ فتصير بالمجاورة والشعور بأخلاق الروح ويتدنس بها، ويتكدر صفاؤه، ويتبدل أخلاقه الروحانية الملكية من الحلم والكرم والمروة والصدق والحياء والعفة والصبر والشكر وغير ذلك بالأخلاق الحيوانية السبعية الشيطانية، وإن الذي يرتاض نفسه بالمجاهدات وترك الشهوات وينهاها عن المألوفات والمستلذات، ويمنعها عن الأخلاق المذمومات تورث هذه المعاملات مكارم الأخلاق وصفاء القلب ورقة النظر

وصدق الفراسة وإصابة الرأي ونور العقل وعلو الهمة وغلو السر وشوق الروح وتحننه إلى وطنه الأصلي، وغير ذلك من المقامات العلية والأحوال السنية، فلا يشك العاقل في أن الروح المتبع للنفس الأمارة، كما يكون للعوام، لا يكون مساويًا بعد المفارقة مع الروح المتبع لإلهامات الحق كما يكون للخواص؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك:22]، وبعضهم قالوا: وإن تكدرت الأرواح بقبائح أفعال الأشباح فدنست بقدر تعلقاتها بمحبوبات طباعهم فبعد المفارقة بقيت في العذاب أيامًا معدودة على قدر انقطاع التعلقات عنها وزر الكدورات، ثم يتخلص من العذاب ويرجع إلى حسن المآب، وهذا خيال فاسد، وكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ [البقرة:81]، تظهر على مرآة قلبه بقدرها دينًا، فإن تاب محي عنه، وإن لم يتب ويصر على السيئات حتى إذا أحاطت بمرآة قلبه زين السيئات بحيث لا يبقى فيه الصفاء الفطري، وخرج منه نور الإيمان وضوء الطاعات فأحبط أعماله الصالحات وأحاط به الخطيئات ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:81]، والذي يدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14]، ومن كان في قلبه ذرة من الإيمان فلم يحط به خطيئته، وإن كان من أهل الكبائر يخرج من النار، ولا يخلد فيها بالشفاعة الشافعين، وجاء في الحديث الصحيح: «يخرج من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان، فيكون مع الذين آمنوا وعملوا الصالحات»(1).

وفيه أيضًا إشارة إلى بعض أرباب الطلب فمن يركن بنفسه في أثناء الطلب إلى شيء من الزخارف الدنيا ويميل إلى شيء من شهواتها، فيظهر عليه الشيطان بذلك فيوسوس

(1) أخرجه أحمد (3/ 56، رقم 11550)، والبخارى (5/ 2400، رقم 6192)، وأبو يعلى (2/ 423، رقم 1219)، وأبو عوانة (1/ 158، رقم 455)، والبيهقى (10/ 191، رقم 20568) بنحوه.

له؛ ليقطع عليه الطلب ويغره بمعاملاته وزهده وعزلته فيوقعه في ورطة العجب فينظر إلى نفسه بنظر التعظيم وإلى الخلق بنظر التحقير فيهلك المغرور، أو يغتر ببعض الأحوال التي تظهر على أهل الطلب في أثناء السلوك من الوقائع الصادقة والروايات الصالحات، وشيء من المشاهدات الروحانية الرحمانية، فيظن المغرور الممكور أن ليس وراء عيان هذه المقامات قربة، وأنه بلغ مبلغ الرجال البالغين ووصل إلى مقام الواصلين، فيسكن عن الطلب وتعتريه الآفات حتى أحاطت به خطيئته فيبقى بهذه الواقعة في نار الطبيعة ويرجع قهقرى إلى أسفل الطبيعة نعوذ بالله من الحور بعد الكور.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا
قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ
وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ
تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ
فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ
الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ
عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ
وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ
اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [البقرة: 82 - 87].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:82]، من أهل الطلب بأن المنازل إلى المقصد، وإن كانت متناهية، فإن السير في المقصد غير متناه ﴿وَعَمِلُوا﴾ [البقرة:82]، على قانون الشريعة بإشارة شيخ الطريقة ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:82]، وهي المبلغات إلى الحقيقة أولئك أصحاب الوصول إلى جناب الأصول خالدين فيها بالسير إلى أبد الآباد، وكذلك من اكتسب اعتقادًا فاسدًا من المتفلسفة على خلاف الشريعة وأحاطت به خطيئته فيبقى عليه

إلى أن يموت ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:81] أبد الآباد، ولن تنفعهم المجاهدات ولا النظر في المعقولات ولا الاستدلال بالشبهات، والذين آمنوا منهم بنبوة محمد ﷺ وعملوا الصالحات من المأمورات وغير المنهيات، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [البقرة:82]، وأهل الدرجات والغرفات في الجنات ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:82].

ثم أخبر الميثاق والعبودية على الإطلاق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة:84]، إلى قوله: ﴿وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:86] والإشارة فيها ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ [البقرة:84] أي: في عهد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ﴿لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ [البقرة:84]، بامتثال أوامر الشيطان في استجلاب حظوظ النفس، فإنه يسعى في إراقة دماء قلوبكم، كما قال بعضهم:

إلى حتفي سعى قدمي أرى قدمي أراق دمي[1]

وكذلك لا تسفكون بتربص الشيطان بينكم تسفكوا دماءكم بعضكم دماء بعض، كما قالت الملائكة في حقكم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [البقرة:84]، غير دينكم الذي كنتم عليه في أصل الفطرة ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ [البقرة:84]، بقولكم: ﴿بَلَى﴾ شهدنا والذي يدل على هذا التأويل، قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس:61]، ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:85]، باستيفاء حظوظ النفس ولذاتها وشهواتها، فإن المجرمين اقتضوا بأيديهم حتفهم وآثروا باختيارهم ما فيه هلاكهم واستئصالهم، قال بعضهم:

بعين نفسي أصبت نفسي فالله بيني وبين عيني

﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [البقرة:85]، فيعاون بعضكم بعضًا على

(1) البيت لأبي الفتح البستي،وهو من «بحر الوافر» على صورته المجزوءة، وأيضًا قاله الحلاج على نفس البحر والصورة.

الإعراض عن الله تعالى والتساعد في مزاولة الحظوظ والخروج عن مقامات الحقوق فآفات أحوالكم غير لازمة عليكم بل هي متعدية عنكم إلى إخوانكم وقرنائكم ﴿تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [البقرة:85] أي: مضرتكم لإخوانكم على بلائهم مظاهرة الشيطان ونصرته عليهم بما فيه هلاك أنفسهم.

﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى﴾ [البقرة:85]، وهم أصناف شتى فمن أسير في قيد الهوى فإنقاذه بأن يدله على الهدى، ومن أسير بقيد حب الدنيا فخلاصه في إخلاص ذكر المولى، ومن أسير بقى في قيد الوسواس فقد استهواه الشيطان ففداؤه أن يرشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذه من الشكوك والظنون والتخمين ويخرجه من ظلمة التقليد وما تعود بالتلقين، ومن أسير تجده في أسر هواجس نفسه ربيط زلاته ذلك أسير في إرشاده إلى إقلاعها وإعانته وإنجازه على ارتداعها، ومن أسير تجده في أسر صفاته وحبس وجوده فنجاته في أن تدله على الحق فيما تحل عنه وثاق الكون، ومن أسير تجده في قبضة الحق فبجزائه ليس لأسراهم فداء ولا لقتلهم قود ولا لربيطهم خلاص، ولا لبطشهم مناص ولا عنهم بدل ولا معهم جدل، ولا إليهم لغيرهم سبيل ولا لديهم إلا بهم دليل ولا منهم فرار ولا معهم قرار: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة:85] أي: بالذي سمعتموه من ربكم في أول الخطاب بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، آمنتم وقلتم ﴿بَلَى﴾.

﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:85] أي: بالذي عاهدتم عليه عند أخذ الميثاق ألا تعبدوا غيره من الشيطان والدنيا والنفس والهوى ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ﴾ [البقرة:85]، وهو عمى القلب عن المشاهدة والعمى في تيه الباطل ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:85]، وهو المبالغة في عمى القلب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:72] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [البقرة:86]، نعيمها ولذاتها وشهواتها ﴿بِالْآخِرَةِ﴾ [البقرة:86]، برفعة درجاتها وعلو عرفانها ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ [البقرة:86]، برحمة رب العالمين ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة:86]، بشفاعة الشافعين.

ثم أخبر عن كمال فضله وغاية جهلهم وسنة عدله بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة:87]، والإشارة فيها أنا وصلنا لهم الخطاب وأردفنا رسولاً بعد رسول والجميع دعوا إلى واحد لكنهم أصغوا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى، فما استلذته النفوس قبلوه وما استثقلته أهواءهم هجروه، وهذا حال أكثر البطالين الذين تلبسوا وتشبهوا بالطالبين الصادقين بعضهم بالزي واللباس وبعضهم بالعلم والوعظ والاقتصاص قبول الناس في هذا مع أهل البصيرة من المشايخ الواصلين والعلماء الراسخين يصغون إلى كلماتهم وإشاراتهم ليسمع الهوى فما استحلته نفوسهم قبلوه، وما استكرهته أهواءهم واستغرتهم عقولهم نبذوه وراء ظهورهم بل طعنوا فيه وشنعوا عليه بجهالتهم ونكره لمقالهم، فيكذبون فريقًا منهم فرارًا عن تحمل أعباء الطلب ويقاتلون فريقًا بالجدال وإثارة الفتنة حسدًا وإنكارًا والفتنة أشد من القتل.

﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ
عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا
عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا
وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن
كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ
وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم
بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ
بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [البقرة: 88 - 93]

ثم أخبر عن إنكارهم واستهزائهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: 88]، والإشارة فيها أنت المريد إذا ابتلي في أثناء الطلب بالوقفة والفترة مادام متمسكًا بذيل الإرادة لا يضره أحد بل يرجى رجوعه إلى صدق الطلب بمدد هذا الشيخ، فأما إذا زلت قدمه عن جادة الإرادة فأظهر الاعتراض والإنكار على شيخه ويعرض عنه حتى

أدركته رد ولاية الشيخ وطرده، فابتلي بموت القلب فلا يرجي رجوعه إلى صدق الطلب حتى قال الجنيد رحمه الله: من قال لأستاذه لم لا يفلح أبدًا.

ثم أخبر عن نتائج إنكارهم بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [البقرة: 89]، الآيتين الإشارة فيهما أن بعض إقرار الزهاد والمتقشفين من أهل العلم في كل زمان يتمنون أن يتبركوا بأحد من الأولياء والعلماء المخصوصين بالمكاشفات والمشاهدات والعلوم اللدنية، ويتوسلون بهم إلى الله تعالى عند رفع حوائجهم في مصالح دعائهم ويظهرون محبته عند الخلق، فلما وجدوا واحدًا من هذا القوم ما عرفوا قدره وحدوده وطعنوا فيه وأنكروا على كلماته وأظهروا عداوته فيكون حاصل أمرهم فيه الطرد من غيرة ولاية والبعد من الله باللعن.

﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة:90]، أن ينكروا على أولياء الله ﴿أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا﴾ [البقرة:90]، فتح الله لهم من حقائق العلوم حسدًا ﴿أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ﴾ [البقرة:90]، من رد ولاية الأولياء ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة:90]، من الله لأوليائه فإنه في الحديث الصحيح: «من عادى لي وليًا فقد بارزني بالحرب وأنا أغضب لأوليائي كما يغضب الليث لحرده»[1] وللمنكرين ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة:90]، في الدنيا والآخرة، في الدنيا بالهوان عند أهل النظر الواقفين على أحوالهم وبالحرمان عن تنسم نغمات ألطاف الحق، وفي الآخرة بالخسران والفضوح وإن الإنكار على أهل العرفان يورث الحرمان والخسران.

ثم أخبر عن إصرارهم على جحودهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [البقرة:91]، والإشارة فيها أنه إذا قيل للمنكرين اعتقدوا مواهب الحق التي ألهمها الله إلى أوليائه من أسرار القرآن ومعانيه وحقائقه هي مؤكدة بالبراهين من الآيات والأخبار المنقولة من المشايخ المتقدمين سمحت نفوسهم ببعض ما التمس منهم مما يوافق عقولهم وأهواءهم، وقالوا: تعتقد القرآن وما بعد له ظاهرًا، ثم ينكرون بما وراء حظوظهم

(1) رواه البخاري بنحوه (21/ 329)، والبغوي في «شرح السنة» (1/ 306).

مع أنه الحق من ربهم محققًا لما معهم من العلوم الظاهرة قال الله تعالى في جوابهم: فلو تقاتلوا وتجادلوا أولياء الله إن كنتم معتقدين للقرآن، فإن ما نطق به الأولياء فهو من أسرار القرآن وحقائقه، فالذي ينكرها فلا يكون معتقدًا للقرآن بحقيقته والمقاتلة مع الأولياء مقاتلة مع الأنبياء والإنكار على كلماتهم يكون إنكارًا على القرآن بحقيقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:11].

ثم كرر الإخبار عن إصرارهم على الجحود مع وضوح الآيات من موسى عليه السلام وغلوهم في حب العجل بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة:92]، الآيتين والإشارة فيهما أن الأنبياء - عليهم السلام - يدعون العباد إلى التوحيد وإقرار العبودية عن كل مشهود ومحدود ومعدود، ولكنهم لم يحتجوا إلا بعبادة ما لا يليق بقصر نظرهم وخسة همتهم، فقوم عبدوا الصنم وقوم عبدوا الهوى، وقوم عبدوا الدنيا، وإنهم قد ظلموا على أنفسهم بوضعهم عبادتها في غير معبودًا مع أن الله تعالى أخذ ميثاقهم بعبوديته من غير شرك، ورفع فوقهم طور الأمانة التي عرضها وحملها الإنسان في الميثاق الأول، وقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ [البقرة:93]، من خطاب ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، ﴿بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: 93]، بشوق وصدق في جواب بلى ﴿وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة:93]، الخطاب يسمع الإجابة في الثبات على العبودية ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ [البقرة:93]، اجبنا بقولهم بلى ﴿وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة:93] أي: بالثبات والاستقامة ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ﴾ [البقرة:93]، حب عجل الدنيا ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة:93]، بزلة أقدامهم عن صراط مستقيم العبودية بالميل إلى الدنيا وحب الدنيا رأس كل خطيئة، كما أن الكفر رأس كل خطيئة ﴿قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ﴾ [البقرة:93]، أن تعبدوا عجل الدنيا ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:93]، حقيقة لا مجازًا بالرسم والعادة فإن من علامة الإيمان ما أخبر عنه حارثة حين «سأله النبي ﷺ كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمنًا حقًا قال: إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت

نفسي عن الدنيا فأظمأت نهارها وأسهرت ليلها واستوى عندي ذهبها ومدرها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون وإلى أهل النار يتضاغون وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، فقال: أصبت فالزم»(1).

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة: 94 - 99].

ثم أخبر عن كمال جهلهم وغرورهم إن اليهود ادعوا الاختصاص عن الله تعالى بالأشياء، فكذبهم الله تعالى بقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ [البقرة:94]، إلى قوله ﴿وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:96] والإشارة في تحقيق الآيات أن من علامات الاشتياق تمني الموت على بساط العوافي، ومن وثق أن الجنة له فلا محب له ليشتاق إليها، وفيه معنى آخر وهو من أمارة أن يكون المرء من أهل الجنة تمنيه الموت لقوله تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ [البقرة:94]، قال عقيب ادعائهم أنهم أهل الجنة بفاء التعقيب يعني ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:94]، موقنين من أهل الجنة حقيقة، فتمني الموت يكون بوصف حالكم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة:95]، من سوء الأفعال والأقوال والأحوال؛ يعني: أن لا يكون تمني الموت من نتائج معاملات السوء التي توجب النار، وفيه إشارة إلى النار باب علوم الظاهر المنكرين على أرباب علوم الباطن يزعمون أنهم من أهل النجاة والدرجات دون الأئمة المحققين، فجعل الله تعالى أمارة أهل

(1) رواه الطبراني في «الكبير» (3/ 420)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (22/ 16).

النجاة السلامة من الحياة الدنيا وتمني الموت، وهذا وصف حال السالك الصادق والمحقق العاشق، كما قال بعضهم:

أقتلوني يا ثقاتي إنَّ في قتلي حياتي
وَمَماتي في حَياتي وَحَياتي في مَماتي[1]

وحال المنكرين من أهل الأهواء والبدع والعلماء الحريصين على الدنيا بخلاف هذا، فإنهم لن يتمنوه أبدًا قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [البقرة:96] لأن المشرك وإن كان حريصًا على الحياة، ولكن لم يكن له خوف العذاب لإنكاره البعث ولمنكر المعرفة حرص الحياة وخوف العذاب، فيكون أحرص على الحياة من المشرك، وفيه أن حب الحياة من نتيجة الغفلة عن الله، فأشدهم عنه غفلة أحبهم للبقاء في الدنيا وحال المؤمن على ضده فالعبد المطيع يحب الرجوع إلى سيده والعبد الآبق لا يريد الرجوع إلى سيده، وفي الحديث الصحيح: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[2] أي: محبة العبد للقاء نتيجة محبة الله للقاء العبد كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54].

ثم أخبر عن غاية خذلانهم من عداوتهم لجبريل لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:97]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى خص النبي ﷺ من سائر الأنبياء بإنزال القرآن على قلبه، فإن جميع الكتب كان ينزل ظاهرًا جملة واحدة في الألواح والصحائف مكتوبة.

* فمن فوائد ضرورة القرآن معجزة بأن يأتي بمثل هذا القرآن الذي لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله لآية.

ومنها: أن القرآن لما أنزل على قلبه ﷺ أنزل عليه آية وآيات أو سورة بدفعات في مدة ثلاث وعشرين سنة من سني النبوة؛ ليتصف قلبه بأخلاق القرآن، وما أشير إليه فيه

---

(1) البيتان للحلاج، وهما من بحر «الرمل» على صورته المجزوءة.

(2) رواه البخاري (21/ 400)، ومسلم (17/ 271)، والطبراني في «الكبير» (14/ 319)، والنسائي (4/ 308)، والترمذي (4/ 333)، وأحمد (20/ 215).

ويتأدب بآدابه كما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وعن أبيها حين سُئلت ما كان خلق النبي ﷺ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4]، قالت: «كان خلقه القرآن» كقوله تعالى في جواب الكفار حين قالوا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:32]، ومنها أن القرآن لما نزل أنزل على قلبه صار قلبه خاشعًا خاضعًا من خشية الله تعالى حتى قال: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم منه»، وهذا من خصائص إنزال القرآن على قلبه لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ [الحشر:21]، ولو كانت التوراة أنزلت على قلب موسى عليه السلام لا في الألواح ما ألقى الألواح في حال الغضب، وما يحتاج إلى صحبة الخضر عليه السلام لتعلم العلم اللدني.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:98] أي: عداوتهم لله وملائكته لأن الله وملائكته عدو لهم يعني عداوتهم لله نتيجة عداوة الله تعالى لهم كقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، فإن محبة المؤمنين نتيجة محبة الله تعالى لهم؛ لأن صفات الله تعالى قديمة وصفات الخلق محدثة، فلما نظر الله تعالى بنظر القهر والجلال والخذلان إلى ذات الكافرين، وقال: هؤلاء إلى النار ولا أبالي، صار ذلك النظر بذر شجرة شقاوتهم فأثمرت الشجرة شجرة العداوة لله تعالى وملائكته، وكذا أحوال المؤمنين على الضد من هذا.

ثم قال تعالى في جواب ابن صوريا حين قال: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [البقرة: 99]، إلى قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآيتين والإشارة فيهما أن معجزة كل نبي كان ظهورها على الأنبياء في الظاهر كإحياء الطيور لإبراهيم عليه السلام واليد والعصا لموسى عليه السلام وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى عليه السلام فهم والخلق في مشاهدتها سواء، وكانت معجزة النبي ﷺ إنزال الآيات البينات على قلبه فكان ظهورها في نفسه ﷺ أولاً، ثم تظهر على الخلق ثانيًا بعد أن صارت خلقه، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ إِلا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا آمَنَ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ

اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[1] حديث متفق على صحته.

فالآيات البينات هي أنواع معجزات القرآن منها: جزالة لفظه، وفصاحة عبارته، وبلاغة نظمه الذي عجز عنها فصحاء العالم وبلغاؤه من حين نزوله إلى الآن، ومنها: أن الله تعالى جمع بلفظ معانٍ وحكم كثيرة في الألفاظ يسيرة، ومنها: إيجاز الكلام في إشباع من المعنى فالكلمة القليلة الحروف منه تضمن كثيرًا من المعاني والحقائق وأنواعًا من الأحكام بحيث لا يتصور مثله من غير الله تعالى، ومنها: إدراج ما اشتملت عليه جميع الكتب المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام - فيه من الأحكام والمواعظ والحكم مع ما تضمنه ما لم يشتمل عليه الكتب المنزلة سواه كما أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «أوتيت جوامع الكلم»[2]، ومنها: أن الله تعالى أنزل فيه ما أكمل به الدين وأتم به نعمته على عباده من أحكام الشريعة وآداب الطريقة وأسرار الحقيقة بحيث لم يترك دقيقة يحتاج إليها الكاملون الواصلون البالغون في أثناء سلوكهم وسيرهم إلى الله تعالى إلا أودعها فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59]، هذا مما يعجز عنه جميع الخلائق، ومنها: الإخبار عن شهود الأشياء الكامنة في الغيب إلى يوم القيامة فظهر كثير منها في عهد النبي ﷺ وبعده إلى الآن كما أخبر عنه القرآن وغير ذلك من الآيات الواضحات.

﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:99]، الخارجون عن نور الروحانية إلى الظلمات البشرية الحيوانية وشدت عن إدراك بصائرهم، وسبق الشقاوة من الله تعالى قسمتهم؛ فكما لا عقل لمن يجحد أن النهار نهار، فكذلك لا إدراك لمن لم يساعده من الحق أنوار واستبصار لا جرم كلما عاهدوا عهدًا كان يشوشهم سابق التقدير لهم وينقص عليهم حق التدبير فيهم والله غالب على أمره، ولما جحدوا رسل الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر والإلهامات، فكذبوا رسولهم الذي آتاهم في الظاهر، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان، ويا حرماناً قارنه خذلان، حيث كذبوا رسله ورفضوا بارة كتابه واتبعوا السحر.

﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا

(1) رواه البخاري (24/ 66)، ومسلم (1/ 485)، وأحمد (18/ 246)، والنسائي (6/ 330).

(2) رواه أحمد (20/ 487).

جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ
ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا
كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى
ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ
فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا
بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ
مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟
وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا
تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ
يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ [البقرة: 100 - 105].

كما أخبر عنهم بقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: 101]، الآيات الثلاث والإشارة في تحقيقها أن الروح الإنساني في أصل الفطرة كان مناسبًا للأرواح الملكية في استماع خطاب الحق واستماع مكالمته قبل هبوط إلى العالم الجسماني، كما أخبر عنه بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، قالوا ﴿بَلَى﴾ وأخذ منهم العهد على هذا، ثم نبذ ذلك العهد فريق منهم بعد هبوطهم إلى العالم الجسماني بتعلقات الحيواني وتتبعات النفساني، ولما جاءهم رسول من إلهامات الحق موافق لما معهم من كتاب العهد والميثاق عند استماع الخطاب ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ﴾ [البقرة:101]، الذي أُلهِموا والذي عاهدوا عليه ﴿وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [البقرة:101]، بترك العمل به ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:101]، في أصل الفطرة ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ [البقرة:102]، النفوس ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ [البقرة:102]، الروح الذي هو خليفة الله في أرضه أي: ما حدثت به أنفسهم استهوتهم الشياطين وغرتهم به أنه من سليمان الروح ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ [البقرة:102]، الروح ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ [البقرة: 102]، النفس والهوى ﴿كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:102]، من تخيلات

الهواجس وتمويهات الوساوس التي تملي النفس ببيان وهو بمثابة السحر لقوله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا»(1) ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾ [البقرة:102]، فتنة وخذلانًا من العلوم ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ [البقرة:102]، أي: الروح والقلب فإنهما من العالم العلوي الروحاني أهبطا إلى أرض العالم الجسماني بالخلافة؛ لإقامة الحق وإزهاق الباطل فافتتنا بزهرة الدنيا واتباعا خداعها؛ فوقعا في شبكة الشهوات التي ركبت فيها ابتلاء وامتحانا، وشربا خمر الحرص والغفلة التي تخامر العقل وزينا ببغي الدنيا الدنيوية، وعبدا صنم الهوى وعلقا منكسين رءوسها بالالتفات إلى السفليات، وإعراضهما عن العلويات ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:5]، وفي كبتهما عن استقامتهما وحرما عن سماع خطاب الحق، وكشف حقائق العلوم النافعة الموجبة للجمعية ابتليا بإنزال أباطيل العلوم الضارة المؤدية إلى التفرقة مثل شبهات زنادقة الفلاسفة من قدم العالم وسلب الاختيار عن الله ونفي العلم بالجزئيات عنه وأمثال هذه الكفريات التي زلت بها أقدام خلق كثير عظيم في الجاهلية والإسلام، وكذلك شبهات أهل الأهواء والبدع التي يكفر بها بعضهم بعضًا ويقتلون عليها فإنها علوم يجب الاستعاذة منها لقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ونفس لا تشبع»(2)، ومع هذا من خصوصيته الروحية الملكية ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا﴾ [البقرة:102]، من الصفات البهيمية والسبعية والشيطانية والقوى البشرية التي يلهماها ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:102]، مرء القلب وزوج دينه، وفي هذه القصة إشارة أخرى إلى أن من مال في هذا الطريق إلى تمويه وتلبيس وإظهار دعوى تلبيس، فهو يستهزئ بمن اتبعه ويلقيه في جهنم بباطله ويصده بتمويه ظلماته عن طريق رشده، ومن اعتبر عبر بالسلامة فتارة ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهتك إشارة ظهر لذوي البصائر أغواره

---

(1) رواه البخاري (19/ 228)، والطبراني في «الكبير» (20/ 283) والحاكم في المستدرك (15/ 242)، ومالك في «الموطأ» (6/ 63).

(2) رواه مسلم (17/ 370)، الحاكم في المستدرك (5/ 8)، والطبراني في «الكبير» (5/ 134)، والبيهقي في «الشعب» (4/ 298).

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾؛ لأن الضار هو الله تعالى ولكن الجرم أنهم ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ [البقرة:102] أي: باعوا بالحظوظ النفسانية الحقوق الروحانية ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:102]، غاية ما خسروا من دولة الإيمان وسعادة العرفان ونهاية ما يصيرون إليه من العقاب والحرمان ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:103]، بما أعد الله لخواص عباده مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ما يستمدون به إلى استجلاب الحظوظ وترك الحقوق، وأثروا الإقبال على الله على ما شغلهم عن الله لا يثبتوا على مالهم فيه خير وخير الدارين، ووصلوا إلى غير الكونين ولكنهم كبتهم وصرفهم سطوات القهر فأثبتهم في مواطن العجز.

ثم أخبر عن خيانة عقائد اليهود ومكائدهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:104]، الآيتين والإشارة فيهما إلى أن أثر العناية في حق الأولياء يظهر في كل شيء من أخلاق قلوبهم وأوصاف نفوسهم وأعمال أبدانهم وأقوال لسانهم، ففي عهد النبوة وأيام دولة الرسالة كان في قولهم: راعنا للنبي ﷺ شائبة ترك أدب نهوا عنه وفي قولهم: انظر فارًا عن أدب أمروا به، وأما بعد عهد النبوة وانقطاع الوحي فأكرموا بخواطر الزماني وإلهامات الرباني ودلوا بها على الفجور والتقوى بقوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:8]، وعلى الضدين هذا في حق الأعداء ظهور أثر الخذلان عليهم فإن قصورهم في جميع أحوالهم من أعمالهم وأقوالهم قصور خشبة وعلى مناهجهم بينوا فيما يأتون ويذرون، ومن نتائج خذلانهم يحسدون أولياء الله على ما آتاهم الله من فضله وما يردون أن ينزل عليهم من خير من ربهم ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ﴾ [البقرة:105]، بأصناف ألطافه ﴿مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:105]، لا ينقص مثقال ذرة من بحر أفضاله بأن يفيض على العالمين سجال نواله.

﴿ ۞ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن
وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن
يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ
هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ
فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [البقرة: 106 - 112].

ثم أخبر تعالى عن كمال فضله في حق عباده بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:106]، الآيتين والإشارة فيهما أن تبدل أحوال أهل العناية في أثناء السلوك ومقام الوصول لترقيهم من مقام إلى فوقه وتقلبهم من حال إلى حال أعلى منه، فتحن باطنهم أبدًا خبره، ويختم وصلهم أبدًا ظاهره، فلا ننسخ من آثار عبادتهم شيئًا إلا بدلنا منها شيئًا من أقمار الربوبية قائدًا أسرارهم في الترقي وأقدارهم في الزيادة بحسن القبول، بل ترقيهم عن محل العبودية إلا أقمناهم يشاهدون من شواهد الألوهية، وفيه إشارة أخرى وهي: أن أرباب السلوك عند الترقي من مقام إلى مقام ربما يشاهدون بعض الوقائع الشريفة في صورة لطيفة كستها للتحلية بحسب صفاء الوقت وعلو المقام، فلما ارتقوا إلى مقام آخر لا يشاهدون تلك المشاهدة فيه فيظن لك العزيز أنه حجب عن ذلك المقام والحال فأشار بقوله: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ [البقرة:106] من آيات المقام ﴿أَوْ نُنْسِهَا﴾ بأن نمحوها من إدراك خيالك إلا ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ من تلك المشاهدة ﴿أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:106] أي: قادر على أمثال هذا ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة:107]، يخاطب رسول الله ﷺ ألم تعلم؛ إذ شاهدت ليلة المعراج بعين اليقين وكوشفت بحق اليقين أنه سبحانه كيف يجذب أولياءه عن شهود

ملكه إلى رؤية ملكه، ثم يأخذ من مطالعة ملكه لشهود فيأخذهم من رؤية الآيات إلى كشف الصفات، ومن كشف الصفات إلى عين الذات ثم يمحوهم عن العيان وسيمتهم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [البقرة:107]، يتوله لكم أمثال هذا ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة:107]، ينصركم على هذا.

ثم أخبر عن مكائدة المشركين واليهود وافترائهم على رسول الله ﷺ: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾ [البقرة:108]، والإشارة فيها أن طبيعة الإنسان تنافي اللطف الرباني حتى لو وكل الأولون والآخرون إلى أنفسهم لا يؤمن منهم أحد أبد؛ لأن الإيمان نور ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:35] وكان قوم موسى عليه السلام في الأولين يؤذون موسى عليه السلام بكثرة السؤال مع ظهور الآيات ورؤية المعجزات، وكان قوم محمد ﷺ في الآخر يؤذونه مع نزول الآيات الواضحات بسؤالات المجادلات، إلا أن الله تعالى خاطب مستعدي الإيمان في الأزل بخطاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى﴾ [الأحزاب:69]، كما خاطب النار: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء:69]، فكانت كما أمرت فكذلك آمنوا، وما كانوا يؤذون رسوله بالسؤال وغيره فأما مستعدي الكفر، فما أدركهم الخطاب ولا لسان الكتاب وبدلوا الكفر بالإيمان وضلوا عن سواء صراط الله تعالى، وتاهوا في بيداء طبيعة الإنسان بقدم تمتعات الحيوان، فلم يقدروا على الرجوع بقدم العبودية إلى عالم الربوبية.

ثم أخبر تعالى عن حسد اليهود والحسد لا يسود بقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة:109]، والإشارة فيها أن من أدركه الخذلان ولحقه الخسران، وإن يرد أهل الإيرادات عن طريق إمكان ويقطع عليهم سبيل التهمة ويوردهم مورد السلامة، وهذا من نتائج الحسد كما كان لإبليس فلما طرد عن الباب سعى في إخراج آدم من الجنة وأزله وأضله عن طريق الصواب، فمن أفل له كوكب عنايته كيف يرضى لأحد بطلوع شمس الهداية؟ ولكن الله ولي كفاية لأهل الولاية وكذلك حال المريد في البداية لو شمر عن ساق الطلب سيف العناية مما أن لم يساعده التوفيق في سلوك هذا الطريق عاينوا سر التعيين بالظواهر من أهل علم القال المحرومين من أنواع علوم الحال يمنعون هؤلاء من

السلوك بتمويهات الشكوك، فلا يزالون يخاطبونهم بلسان النصح والتخويف والفجر والتهديد بالفقر حتى يقلبوهم إلى سبيل الطغيان بقوم الكفران من بعد ما تبين لهم حقيقة الدين يكاشفه نور اليقين، فطريق أهل الحقيقة أن يعفوا عنهم لأنهم معذورون إذا لم يذوقوا حلاوة ما أذاقهم الله تعالى، وتصفحوا عن مساوئ أخلاقهم وعلى قلوبهم ومعاريض كلامهم، فإنهم معذورون إذ لم يهتدوا بأنوار ما هداهم الله حتى يأتي الله بأمره فيهم من الهدى والرد، إن الله قادر على كل أمر من قبل المريد إلى الثبات على قدم الصدق بالعبودية مع الحق واستعمال الخلق وبذل المجهود في طلب المقصود، فإن من يبذل جهده فعن قريب يفتح الله عليه طريقه.

كما أخبر تعالى بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:110]، والإشارة فيها أن كل من كان مشاراً إليه في علم الله تعالى عند الخطاب ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ في الأزل أقام الصلاة وأتى الزكاة الآن ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ﴾ [البقرة:110]، كل طاعة بدنية وقلبية ومالية ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ [البقرة:110]، في أم الكتاب مبرمًا أزليًا ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء:58]، وفيه معنى آخر تجدوه عند الله أي: تجدوا تلك الطاعات والخيرات موجبة لكم القربات في مراتب العندية في مقعد صدق عن مليك مقتدر، وفيه معنى آخر ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: تقربتم به إلى الله تجدوه عند الله بتقربه إليك كما قال: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»[1]، فالواجب على المريد إقامة المواصلات وإدامة التوسل بفنون القربات واتقاء بأن ما يقدمه من جياد المجاهدات يرى ثمرته في آخر الحالات، فإن المجاهدات تورث المشاهدات.

ثم أخبر تعالى عن دعاوي باطلة لليهود وبقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة:111]، الآيتين الإشارة فيهما أن كل ممكور مغرور يظن النجاة نفسه، ونيل الدرجات سهمه، وهو مُصر على حسابه أن ليس أحد في نصابه ﴿تِلْكَ

(1) رواه البخاري (6/ 2694)، مسلم (17/ 429)، رواه البيهقي في «الشعب» (3/ 103).

أَمَانِيُّهُمْ﴾ [البقرة:111]، الكاذبة وشهواتهم الغالبة ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [البقرة: 111]، من الأعمال الظاهرة والأحوال الباطلة ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:111]، في دعواكم بإتيان البرهان من إظهار معناكم، فإن مجرد الإحسان دون تحقيق البرهان لا يأتي بحاصل ولا يجود بطائل، ثم بين برهان أهل الحق ودعوى الصدق بقوله: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ يعني: أهل الحق من يكون توجهه بالكلية إلى الله خالصًا لله لا لطمع الجنة ولا لخوف النار لقوله تعالى: ولكل وجهة هو موليها ما ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، في توجهه بمزاولة الحسنات القالبية والقلبية ويكون نظره في جميع الحالات يرى في تعبده التوفيق من الله تعالى وذهابه إليه وفي الهداية إليه والهدايات منه، فإن «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه»(1) وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ [البقرة:112]، فله الوصول إلى مقام عندية الرب ﴿وَلَا خَوْفٌ عليه﴾ [البقرة: 112]، على مخلصي الحق في توجههم إلى الله تعالى من قطاع الطريق كقوله: ﴿إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر:40]، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:112]، على ما فاتهم في طلب عند وجدان الحق.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ
يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟
فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ
ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ
ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: 113 - 118].

---

(1) رواه البخاري (16/ 12)، ومسلم (1/ 36)، والبيهقي في «السنن» (2/ 74).

ثم أخبر تعالى عن بطلان دعوى اليهود والنصارى وشهادة بعضهم على بعض بقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة:113]، والإشارة فيها أن أكثر الحسد والحقد والتباغض يكون بين جهال العلماء الذين مقصدهم في تعلم المباحات مع السفهاء والمحاربات مع العلماء وطلب الرئاسة وقبول الخلق وجمع المال، فإذا ناظر بعضهم قال هذا لصاحبه: ما أنت على شيء، وقال هذا لصاحبه: ما أنت على شيء، كما جرت العادة بين سفهاء الفرق وطعن كل واحد منهم مذهب الآخر بالجهل والتعصب حتى يكفر بعضهم بعضًا ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:113]، القرآن ويدعون العلماء ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:113]، العلم والدين والقرآن من الزنادقة والفلاسفة وأهل الملل والكفرة ﴿مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ [البقرة:113]، للمسلمين ما أنتم على شيء ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ﴾ [البقرة:113]، بين المسلمين من أهل السنة والجماعة وبين أهل البدعة والأهواء المختلفة ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة:113]، يوم قيامة الحق ﴿فِيمَا كَانُوا﴾ [البقرة:113]، من الحق ﴿فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة:113]، بالباطل.

ثم أخبر تعالى عن الظلم المركوز في طبيعة الإنسان بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة:114]، الآيتين والإشارة فيها: أن - عند أهل النظر - مساجد الله التي يذكر فيها اسمه: النفس والقلب والروح والسر والخفي وهو سر السر وذكر مسجد منها مناسب لذلك.

فذكر مسجد النفس: الطاعات والعبادات ومنع الذكر فيه بترك الحسنات، وملازمة السيئات.

وذكر مسجد القلب: التوحيد والمعرفة ومنع الذكر فيه التمسك بالشبهات والتعلق بالشهوات، كما أوحى الله تعالى لداود عليه السلام: «حذر وأنذر قومك من أكل الشهوات فإن قلوب أهل الشهوات عني محجوبة»[1].

---

(1) ذكره الغزالي في «إحياء علوم الدين» (2/ 226)، والقشيري في «القشيرية» (1/ 72).

وذكر مسجد الروح: والشوق والمحبة ومنع الذكر فيه بالحظوظ والمساكنات.

وذكر مسجد السر: المراقبة والشهود ومنع الذكر فيه الركون إلى الكرامات والقربات.

وذكر مسجد الخفي: بذل الوجود وترك الوجود ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ﴾ [البقرة:114]، هذه المساجد ﴿أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [البقرة:114]، اسم الله بهذه الأذكار ومن أقدم على هذا المنع فقد ﴿سَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة:114]، أي: خرب هذه المساجد ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ﴾ [البقرة:114]، هذه المساجد بقدم السلوك إلا بخطوات الخوف من سوء الحساب وألم العقاب ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [البقرة:114]، من ذل الحجاب ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:114]، لحرمانهم عن جوار الله العلي العظيم.

ثم أخبر عن فتحه ملكه وسعة فضله بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة:115]، والإشارة فيها أن الله تعالى منزه عن الجهات، فالشرق والغرب بالنسبة إلى حضرته متساويان إذ ليس الاعتبار بتوجه الصورة إلى جهة من الجهات، وأن تعين جهة الكعبة لجمع هم القلب وبقوة التوهم فللوهم في جمعية القلب حالة التوجه أثر عظيم، وإنما الاعتبار لتوجه القلب بجمع الهمم إلى الله تعالى فلكل قلب وجهة هو موليها فإذا خص توجه القلب إلى الله بالإعراض عما سواه ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ﴾ [البقرة:115]، فضله ورحمته كل شيء لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [فصلت: 54]، ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]، أحاط بكل شيء علمه، وفيه إشارة أخرى إلى أن القلوب مشارق هبوب الأشواق ومغاربها والله في مشرق كل قلب ومغربه شارق وطارق، فطارق القلب من هواجس النفس يطرق لظلمات المنى عند غلبات الهوى وغروب نجم الهدى وشارق القلب من واردات الروح يشرق بأنوار الفتوح عند غلبات الشوق وطلوع قمر الشهود، فتكون القبلة واضحة والدلالات لائحة فإذا تجلت شمس صفات الجلال خفيت نجوم صفات الجمال، وإذا استولى سلطان الحقيقة على مماليك الخليقة طويت بأيدي سطوات الجود سرادقات الوجود، فما بقيت الأرض ولا السماء ولا الظلمات ولا الضياء،

وليس عند الله صباح ولا مساء وتلاشت العبدية في كعبة العندية ونودوا بفناء الفناء من عالم البقاء ورفعت القبلة وما بقي إلا الله: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:115]، يوسع القلب لمن يشاء من عباده ليسعه ﴿عَلِيمٌ﴾ يوسع القلب لسعته بلا كيف ولا حيف كما قال تعالى: «لا يسعني قلب عبدي المؤمن»[1].

ثم أخبر عن قصر نظر أهل الشرك بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾ [البقرة:116]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى أظهر بما قالوا غاية ظلومية الإنسان وجهوليته كما قال تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف:5]، وأظهر كمال حلمه إذ لم ينتقم في الحال كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل:61]، وفي قوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ سبعة معان:

أولها: التنزيه؛ نزه ذاته من تهمة الولد كما نزه عن عائشة رضي الله عنها عن تهمة الإفك بقوله: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور:16].

وثانيها: التعجب؛ تعجب به العباد كيف يتخذ الله الولد وله ما في السموات عبيد ملكه، وكيف يقول مثل هذا القول مخلوق في حق خالقه، وكيف يحلم عنهم ويمهلهم في مكانهم كقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾ [آل عمران:191]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء:1].

والثالث: التسخير أي: يسخر له ما في السماوات والأرض وسخرهما لعبيده، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا﴾ [الزخرف:13].

ورابعها: الخلق أي: من خلق السماوات والأرض وما فيهن كقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ [يس:36].

وخامسها: القدرة، كقوله تعالى: من بيده ملكوت السماوات والأرض، وما فيهن الإبقاء والإفناء ما ينبغي له أن يتخذ ولدًا كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ

---

(1) ذكره حجة الإسلام ﷺ في الإحياء، وفي كشف الخفا (2256)، ومعناه: وسع قلبه الإيمان بي ومحبتي ومعرفتي وقد روى الطبراني في مسند الشاميين (2/ 19 ، رقم 840) من حديث أبي عنبة الخولاني رفعه: «إن لله آنية من أهل الأرض وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها».

شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:83].

وسادسها: التوبة أي: سبح لله ذرات الملكوتيات توبة واستغفار بلسان الحال، عما قال بعضها بلسان القال: اتخذ الله ولدًا بقوله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد:1] أي: هو أعز من أن يتخذ ولدًا حيكم بأن لا يفعل مثل هذا، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143].

وسابعها: الدعاء أي: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:44]، ودعاء وتضرعًا وابتهالاً وتخشعًا واعتذارًا وتواضعًا وانكسارًا واعترافًا بظلم من قال هذا القول على أنفسهم، ولولا تضرعهم ودعائهم تكاد السموات تتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدًا، كما قال تعالى في حق يونس عليه السلام: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:143-144] أي: من الداعين وكان من دعائه قوله تعالى: ﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:87]، فكذلك قوله تعالى: ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة:116] أي: كل ذرة من ذراتها وإعواز بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:44].

ثم أخبر عن كمال تنزيهه وقدرته بقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: 117]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى نزه، ذاته أن يكون له ولد باسمه البديع عند أهل الحقيقة من لا مثل له ولا شبيه له يقال: هذا شيء بديع إذا كان عديم المثل، فالله ولي الموجودات بهذا الوصف؛ لأنه يمنع أن يكون له مثل أزلاً وأبدًا وولد الشيء يكون مثله وشبهه، فلهذا قال تعالى في موضع آخر: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ [البقرة:117] يعني: لو كان له ولد لما كان بديعًا إذا كان له شبيه، ولهذا نفى الكفر عن أحديته عند تنزيه ذاته تعالى عن الولد والوالد وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:3-4]، وقال تعالى: تأكيدًا لمعنى القدرة ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة:117]، معناه الولادات تكون بامتداد الزمان والزمان عبارة عن نقل حركات الفلك، والأفلاك من جملة مخترعاته إذ ﴿هو بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى

أَمْرًا﴾، أراد خلق شيء وإيجاده ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:117]، بكلام قديم ﴿كُنْ﴾ وهو أمر قديم فيه تتعلق القدرة القديمة وفق الإرادة القديمة بالشيء المحدث فيوجد بالصفة المخصوصة في الوقت المعلوم، فيكون كما أراد، فأنى حاجته بالولادة والولد تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ثم أخبر عن جهل أهل العناد بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة:118]، الآيتين والإشارة فيهما أن الذين لا يعلمون أن الله متكلم من الأزل إلى الأبد بكلام قديم واحد، وكلامه متعلق بجميع المكونات أمر التكوين، وهو خطاب ﴿كُنْ﴾ فأسمع السموات والأرض خطابه: أئتيا طوعًا وكرهًا، فسمعت، وقالت أتينا طائعين ويرى سائر المكلفين أمر التكليف، فقالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ [البقرة:118]، وما علموا أن الله يكلمهم على الدوام، ولكن لهم آذان لا يسمعون بها، وإنهم عن السمع لمعزولون، ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم كما أسمع قومًا أخبر عنهم، كما أخبر عنهم ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:83]، فالسمع الحقيقي يزيد معرفة القلب وكل قلب يكون حيا بحياة معرفة الحق يسمع كلام الحق وللقلوب الميتة قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل:80]، ولو أسمعهم خطابه بسمع الظاهر وقلوبهم ميتة لتولوا عنه وعنهم معرضون، كما أسمع نفرًا من قوم موسى عليه السلام خطابه فلم يطيقوا سماعه بعدما رأوا من عظيم الآيات وأن الله أماتهم ثم أحياهم حرفوا وبدلوا فما تغني الدلائل، وإن وضحت فيمن حقت له الشقاوة وسبقت الموتى مثل هؤلاء أشار بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة:118]، في الموت من حياة المعرفة.

وقال تعالى في حق من أحيى قلبه بحياة المعرفة ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: 122]، وإليهم أشار بقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:118]، فإن في الآيات التي أظهرها وأراها قلوب الأحياء من عباده كقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت:53]، ما يزيح العلة من الأغيار ويشفي الغلة من الأخيار ولكن ﴿لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:46].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [البقرة: 119 - 124].

ثم تعالى نبيه ﷺ عن كمال عنايته فيه وحال مخالفيه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:119]، والإشارة فيها: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ شواهد دليله قوله أن الله هو الحق يعني: أرسلناك بنا مبشراً للمؤمنين وهذا الاختصاص خصصتك به من بين سائر الأنبياء؛ لأنهم كانوا مبشرين بالجنة ومنذرين بالنار، وأنت مبشر بالله ومنذر بالله دليل هذا القول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب:46]، الحقيقية بشر من أجابك ومن اتبعك بالوصول إلى الله، وأنك سراج تبين طريق الوصول إلى الله، وأنذر من لم يجيبك بالانقطاع عن الله ﴿وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ [البقرة:119]، الذين زلت أقدامهم عن الصراط المستقيم.

ثم أخبر تعالى عن جهالة أهل الضلالة بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة:120]، والإشارة فيها أن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ غاية جهالتهم وغلوهم في ضلالتهم أنهم يرجون رجوعه إلى ملتهم والصلاة إلى قبلتهم، وأشار إليه أن لا تبالي برضائهم إذا حصل لك رضانا، فأظهر عداوتهم وأعلى التبرؤ عنهم ولا تمهلهم ﴿قُلْ إِنَّ﴾ [البقرة:120]، طريق ﴿الْهُدَى﴾ [البقرة:120]، الذي هداني ﴿هُدَى اللهِ﴾ [البقرة:120]، وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [البقرة: 120]، حرصًا على أن يتبعوك ويقبلوا دينك ويؤمنوا بك ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:103] ﴿بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [البقرة:120]، بأنك لا تهدي

من أحببت ﴿مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [البقرة:120]، في هدايتهم ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: 120]، على استتباعهم فكن بنا لنا متبرئاً عما سوانا، وقبلها إشارة أخرى أنه لن ترضى عن روح السالك يهود نفسه ولا نصارى هواه حتى تتبع ملتهم، يوافقهم في طلب الشهوات النفسانية وتتبع لذات الجسمانية، وتخلع عن الصفات الروحانية، قل إن هدى الله الذي دعاني إليه من التخلق بأخلاقه والتنور بأنواره هو الهدى، لا الذي تدعونني إليه من الصفات البهيمية والحيوانية والأخلاق الشيطانية، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من الإلهامات الربانية وواردات الألطاف الإلهية والمكاشفات الروحانية ما لك من الله من ولي في الخلاص عن الدركات السفلية، ولا نصير على نيل الدرجات العلية، وإياك أن تلحظ هذه الكرامات الواردات من تلك الحضرة بعين التقصير وبميل هواجس النفس إلى طرف تقصير فتعمى حينئذٍ عمى لا يصلح عنك بعده قادح ولا يفتح بابه عليك فاتح، فإن الأنفاس الرحمانية والنفحات الربانية لا تهب عن كل أرضي وسمائي ولا تمر على كل ماء وهواء إلا من قبل بمن الإيمان ولا تمر إلا على أرواح هي أدعية القرآن لا يدري ما مصحوبها إليك ومنشورها إلا عليك إلا هي حوامل آلاء ونعماء وبر ووفاء وود وصفاء معها تُحفَ الربوبية وطرف الخصوصية ومحو العبودية واستيلاء الألوهية.

ثم أخبر عن أهل الإيمان الحقيقي بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: 121]، والإشارة آتينا هاهنا بمعنى أعطينا أي: الذي أعطيناهم الكتاب دراية وفهمًا وقبولاً ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة:121]، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ [البقرة:87]، وقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة:253]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي﴾ [الحجر:87]، كلها بمعنى الإعطاء فالفرق بينهما بمعناه وغير معناه أن الذي بمعنى الإعطاء إضافة إلى نفسه فقال ﴿وَآتَيْنَا﴾ وبمعنى غيره ذكره بصيغة ما لم يسم فاعله فقال تعالى: ﴿أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران:19]، كقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [آل عمران:19].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ [البينة:4]، وأمثاله أي: يتدبرون ويتفكرون في معانيه وأسراره وحقائقه ولطائفه وظاهره وباطنه فإن للقرآن ظهرًا وبطنًا

يدل على هذا قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ [البقرة:121]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء:82]، ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة:121]، الإيمان الحقيقي ما يكون من إعطاء الله حقائق كتابه لقلوب عباده ليتلوه حق تلاوته ويؤمن به والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:22]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ﴾ [البقرة:121]، أي: ومن ينكر هذا المعنى ويجحد ﴿بِهِ﴾ [البقرة:121]، ولا يعرف قدر معاني القرآن وحقائقها ويقنع بما ظهر عنده من لغة العرب والأحكام الظاهرة والقصص فقد مر حقائق ما أشار إليه الله عز وجل بقوله ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [الكهف:19]، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:121].

ثم أخبر تعالى عما أنعم به على اليهود وما عرفوا بقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:40]، الآيتين الإشارة فيهما أن يتذكر النعمة المضافة إلى نفسه التي من خصائصها أن ينعم الله بها على عباده بما يفضلهم على العالمين ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ [البقرة:48]، فهاهنا الاتقاء من عذاب يوم ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:48]، من العذاب من نفس مثله ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة:48] أي: فداء من نفس دون نفس ولا ينفعها شفاعة؛ لأنها لم تكن أهلاً للشفاعة ﴿وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة:48]، بدفع العذاب عنهم أبدًا؛ لأنهم أبطلوا استعداد قبول فيض النصرة عن أنفسهم باتباع الهوى وترك التقوى.

ثم أخبر تعالى عن أهل التقوى وتارك الهوى بقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:124]، والإشارة فيها أن الولاء مظنة البلاء، فإن إبريز الولاء لا يبرز من معدن الإنسان الذي هو محل الابتلاء إلا بالتهاب نار الهوى، كما قيل البلاء للولاء كاللهب للذهب، فأصدقهم ولاء أشدهم بلاء، فلما ابتلي الخليل عليه السلام بكلمات هي أحكام النبوة ولوازم الرسالة وموجبات الخلة فوفى ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:124].

أما أحكام النبوة: فما ابتلاه الله تعالى بالخصال العشرة في جسده كما ذكره في تفسير الآية، وأما لوازم الرسالة فمنها الصبر عند صدمات المكروهات وفقدان المألوفات، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:35]، فصبر على كل

مكروه وحادثة في ماله وولده ونفسه، وعن كل مألوف فقده في المال بالبذل وفي الولد بالذبح وفي النفس بالفداء.

وأما موجبات الخلة: فمنها التبرؤ عما سوى الخليل، ورفع الوسائط فيما بينه وبين الخليل، والتسليم والرضا تحت تصرفات الخليل فيما أراده له الخليل.

أما التبرؤ فقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:78]، وأما العدواة فإنه قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77].

وأما رفع الوسائط فقوله حين عرضه جبريل عليه السلام في الهوا وهم يعذبونه في لجة الهلاك، وما الرضا ففي ذبح الولد قد أظهر الرضا، بما أمره وما راجع الحق تعالى في ولده كما راجعه نوح عليه السلام في ولده ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود:45]، فأخبره تعالى كمال رضاه بقوله: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:103] فلما خرج عن عهده إتمام كلمات الابتلاء فزيد له في الاصطفاء والاجتباء وأكرم بكرامة الأنبياء والاقتداء بقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:124]، وقد قيل: وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ﴾ [البقرة:124]، معنيان:

أحدهما: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:124]، تهدي الناس إلى طريق خلتي بأقوالك وأفعالك وأخلاقك على طريق هدايتك إليها بعد أن أسلموا لأحكام منا كما أسلمت وصبروا على بلائنا كما صبرت وأيقنوا بآياتنا كما أيقنت يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة:24].

والثاني: جاعلك إمامًا لمن يدعي محبتي ويريد خلتي أبدًا ليقتدى بك فيما ابتليتك من موجبات الخلة ذكره بأداء حقوقها والخروج عن عهده شرائطها كما أجرى منك والذي يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: 31].

ثم التمس الخليل ﷺ من الله تعالى إمامة لأوليائه ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: 124]، فأخبر تعالى أنها ليست باستحقاق فيا نسب أو باستحقاق سبب، وإنما هي باستعداد أزلي وقسم سرمدي ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:124] أي: غير

المستعدين لقبول هذه الكرامة الله أعلم حيث يجعل رسالته من ذريتك، وغرهم إذ ليس هذا كنعيم الدنيا وسعة الأرزاق فيها فإنه لا ادخار لها عن أحد وإن كان كافرًا كما كان في أهل ملكه لما دعوت، فقلت: ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:126]، قال: ومن كفر فليس بالدنيا من الخطر ما يمنعها من الكفار ولكن عهدي لا ينال إلا الخواص من عبادي وأخص.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130)﴾ [البقرة: 125 - 130].

ثم ندب هذه الأمة في اتخاذ مقام الخلة أشار بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:125]، الإشارة فيها أن البيت هو القلب كما جاء أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام وقال: «يا داود فرغ بيتًا أسكن فيه فقال: وكيف يا رب فقال: فرغ لي قلبك»(1) وكذلك قوله تعالى: «لا يسعني أرضي ولا سمائي وإنما يسعني قلب عبدي المؤمن»(2) فمعناه إذ جعلنا القلب الإنساني مثابة يرجعون إليه طلابي وزواري، كما يرجعون إلى الكعبة في الصورة وأمنا للسالك من تصرفات الشيطان ومكائده حين بلغ منزل القلب، وحصل له سلوك مقاماته وإن الشيطان لا يقدر على دخول القلب؛ لأن القلب خزانة الحق والخزانة محروسة بحراسة قلب المؤمن بين إصبعين

(1) ذكره حقي (9/ 144).

(2) تقدم تخريجه.

من أصابع الرحمن وإنما جولان الشيطان في ميادين الصدور لقوله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس:5].

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:125] يعني: إذا وصلتم إلى كعبة القلب اجعلوا مقام الخلة قبلة توجهكم فيكون قصدكم وذهابكم إلي لا إلى سواي اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم، وكانت ملته ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، ومما يدل على المعنى الذي جرى في الآية قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة:125]، والإشارة فيها أنه لما شرف البيت بإضافة إلى نفسه لقوله بيتي أكرمه بكرامات مخصوصة عن غيره من المساجد:

أولها: أنه كان أول بيت وضع للناس من بيوت الله تعالى.

وثانيها: عين موضعه بمكة خير المواضع بإرسال جبريل عليه السلام وقد خلق الله تعالى موضع البيت بألفي عام.

وثالثها: أمر الخليل عليه السلام ببنائه بيده.

ورابعها: جعله مباركًا على زواره ومستقبليه.

وخامسها: وهو سبب هداية لقوله تعالى: ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:96].

وسادسها: جعله حرمًا لا يصاد صيده ولا يقطع شجره.

وسابعها: مأمنا لا تجد جانٍ يأوي إليه ويغفر ذنوب من دخل فيه قال تعالى: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ [القصص:57].

وثامنها: جعلها قبلة حبيبه، وقال: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:144]، وقبلة أمته ﴿وحيث ما كنتم فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:144].

وتاسعها: جعله حجة ركنًا من أركان الإسلام وقال الله: ﴿عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران:97].

وعاشرها: جعله منزل الرحمة ومقسمها لقوله ﷺ: «إن الله في كل يوم وليلة مائة وعشرين رحمة تنزل على هذا البيت ستون للطائفين وأربعون للمصلين وعشرون

للناظرين»(1).

والحادي عشر: جعل طوافه عبادة وموجبًا للرحمة.

والثاني عشر: جعل النظر إليه عبادة وموجبًا للرحمة.

والثالث عشر: جعل جواره جوار الله.

والرابع عشر: جعله محل الآيات البينات.

والخامس عشر: جعل صلاة فيه كألف صلاة فيما سواه من المساجد.

والسادس عشر: جعله ملجأ الخلق ومعادًا يعودون إليه لا يقضون منه وطرًا كلما انصرفوا اشتاقوا إليه قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة:125].

السابع عشر: جعله مغناطيس القلوب بجذبها من المسافة البعيدة فالقلوب مشتاقة إليه وإلى أهله لما قال تعالى: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم:37].

والثامن عشر: جعل له كرامة ظاهرة وآية مبينة أن الطير يقع على حيطانه ولا يطير فوقه ولا روث في حرمه مع كثرة الحمام.

والتاسع عشر: جعله معظمًا مبجلاً في الجاهلية والإسلام من لدن آدم ﷺ إلى اليوم، وكانوا يعظمونه ويقصدونه ويزورونه ويقربون به أهل الأديان والملل كلها حتى الكفر والشرك.

وعشرونها: جعل فيه الحجر الأسود وهو ياقوتة من يواقيت الجنة قال النبي ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في أرضه»(2) شرفه الله بهذه الكرامة بما لا يحصى ولكن اقتصر على مخافة التطويل والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ [البقرة:125]، أنا عاهدنا معهما في الميثاق على تطهير القلب عن أدناس تعلقات الكونين واقتصار ملاحظة الأغيار فإنه بيتي، وإنما أضافه إلى نفسه ليكون مخصوصًا به عما سواه ولا يكون لغيره فيه مأوى ولا سكنى.

ولو كان الأمر بالتطهر مقصورًا على بيت الكعبة لكفى الخطاب إلى أحدهما دون

(1) ذكره حقي (1/ 298).
(2) رواه الأزرقي في أخبار مكة (395).

الآخر كقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج:27]، فلما كان الأمر بذلك مشتملاً على تطهير كلا البيتين خاطبهما به، وأما الطائفون فواردات الحق وإلهاماته وإشاراته ومحادثاته ولوامع أنواره وطوالع أسراره ووفور مواهبه فحملتها بلسان قوم الأحوال، وهي التي تطوف حول القلوب المطهرة من الملوثات السليمة من الآفات، وأما العاكفون فأنوار معرفته ومحبته وحقائق صفاته وأخلاقه فجملتها المقام فالأحوال تكون لأصحاب التلوين ولأرباب التمكين والمقام ولا يكون إلا لأرباب التمكين، وأما الركوع والسجود فإشارة إلى قلب الصفاء المطهرة وهي الإرادة والصدق والإخلاص والخضوع والخشوع والدعاء والتضرع والابتهال والانكسار والتواضع والخوف والرجاء والصفاء والوفاء والتسليم والرضا والخشية والهيبة والتوكل والتفويض فحملتها العبودية.

ثم أخبر عن دعاء إبراهيم عليه السلام لمكة وأهلها من شرف البيت بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة:126-127]، والإشارة فيها أنه كما كان في بدء أمر البيت أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض وفقد ما كان يجد من روائح ألطاف الحق في الجنة استوحش، فأنزل الله تعالى ياقوتة من يواقيت الجنة لها بابان باب شرقي وباب غربي، وفيها قناديل من الجنة فكذلك لما هبط الروح إلى أرض الجسد فقد ما كان يجد من روائح ألطاف الحق في جنة حضرة القدس استوحش فأنزل الله ياقوتة من يواقيت حضرة القدس لها بابان إلى حضرة رب العالمين يطلع منه شوارق الألطاف، وباب غربي إلى مغرب الجسد منه تخرج الشوارق إليه وفيه قناديل من جنة حضرة القدس، وهو العقل وأنزل حجرة الذرة المخاطبة بخطاب: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، منورًا بنور جواب ﴿بَلَىٰ﴾ وهو الإيمان الفطري وهو الحجر الذي لقمه كتاب العهد يوم الميثاق، وهو يمين الله في أرضه وهو الذي يلزم أن يصافح ويقال إيمانًا بوعدك ووفاء بعهدك فلما كان أيام طوفان آفات الصفات البشرية الطفولية إلى أوان البلاغة ودار تنور الشهوة رفع بيت معمور القلب إلى السماء الرابع يعني حجب أستار خواص العناصر الأربع وأخفى حجر الذرة في أبي قبيس

صفات النفس فلما أمر إبراهيم الروح بعد البلوغ ببيت القلب السكينة التي ينزل الله تعالى في قلوب عباده ولو كان نبيًا من الأنبياء لقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:26].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:4] فجعل إسماعيل النفس المطمئنة المارة تجيء بأحجار أعمال الشريعة من جبال أركان الإسلام، وتناولها بيد الصدق إبراهيم الروح وهو يبني إلى أن يبلغ موضع الحجر فنودي من أبي قبيس الهوى: وإن لك عندي وديعة فخذها فخلص حجر الذرة من أستار صفات النفس والهوى فوضعه مكانه وكان أبيض فلما لمسه حضيض اللذات الدنياوية ومشركوا الشهوات النفسانية في جاهلية الطفولية اسود، فلما أتما رفع قواعد بيت القلب رجعا إلى الحضرة بصدق النية وما سألا ربهما من الأجرة إلا تقبل العبودية: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: 127]، بما يحتاج إليه مما نعلم ومما لا نعلم.

ثم أخبر تعالى عن صدق التجائهما وخلوص دعائهما بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا﴾، والإشارة فيها أن إبراهيم الروح وإسماعيل النفس المطمئنة سألا ربهما بعد فراغهما من عمارة القلب أن يجعل سعيهما مشكورًا، ويجعلهما مسلمين منقادين للأحكام الظاهرة والباطنة، فأما الظاهرة: فهي أحكام الشريعة وأما الباطنة: فهي الأحكام الأزلية الحقيقية التي جف القلم بها قالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا﴾ أي: المتولدات منا من الصفات الروحانية والصفات النفسانية ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، حتى لا يتحرك عرق منا إلا بانقياد أوامرك ونواهيك، ولا يخطر ببالنا خاطر إلا بإلهاماتك ودواعيك ولا يكون لنا خلق إلا تخلقنا به من أخلاقك ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾؛ إذ لا سبيل إلى معرفة [مقتدراتك] إلا بإعلام [أوقاتك]، ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾، بتوفيق ترك حظوظنا والقيام بأداء حقوقك بعد القيام بجميع ما أمرتنا حتى لا تلاحظ حركاتنا وسكناتنا، ونرجع إليك عن شهود أفعالنا واستجلاء أحوالنا لئلا يكون يخطر الشرك الخفي بوهم منا ﴿إِنَّكَ أَنتَ﴾، وأنا بك لا بنا فلا يكون رجوعنا إلا إليك لأنك ﴿التَّوَّابُ﴾، فارجع بنا إليك بك فارحمنا فإنك ﴿الرَّحِيمُ﴾.

ثم أخبر تعالى عن إلحاحهما في الدعاء بقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ﴾، والإشارة فيها أن الرسول الخارجي لا يسمع من لم يكن له في القلب رسول قلبي بوارد من الحق سبحانه ويكون القلب به حيًا كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل:80]، وقال تعالى: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياًّ﴾ [يس:70]، فالقلب الحي بنور ورد الحق ليسمع بذلك النور كلام الرسول الخارجي ويفهمه ويقبله فسر القلب الذي هو قابل فيض نور وارد الحق يكون الرسول بين الحق والعبد، فيأخذ الأسرار والمعاني والحكم والمواعظ من نور وارد الحق ويبلغها إلى القلب والنفس وسائر الأمة المسلمة من الأوصاف والأخلاق.

كما قال ﷺ: «واعظ الله في قلب كل مؤمن»[1] فمعنى الآية أفض على سر القلب أنوار وارد فضلك ليكون رسولاً في الآمة المسلمة من الأوصاف الإنسانية وأخلاقها وأعمالها منهم، فيأخذ رسالات أنوار وارداتك ويبلغ إليهم ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾، بلسان الأنوار ﴿آيَاتِكَ﴾، وارداتك ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾ أسرار ﴿الْكِتَابَ﴾، ومعانيه وحقائقه ولطائفه ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾، وهي كل خبر معنوي يؤتيهم الله بوارد فضله سرًا فيخصه بذلك دليله قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة:269]، فإن قيل على هذا كيف يعلمهم الحكمة النبي ﷺ وأثبت أن الحكمة من مواهب الحق؟ فالجواب عنه من وجهين:

أحدهما: أنه يعلمهم من الحكمة التي أتاه الله ويدعوهم بها إلى سبيل الحق بيانه قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:125].

وثانيهما: شرائط الإسلام وواجبات الشرع فيها يهدي الله قلوبهم ويفتح عليهم أبواب الحكمة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:11]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ [الشورى:52]، وقوله تعالى: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، فيه إشارة إلى أن تزكية أوصاف الخلق لا يمكن إلا بتحلية أخلاق الحق، وذلك أيضًا من أنوار وارد الفضل لقوله

(1) ذكره ابن الأثير في جامع الأصول (61).

تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِنْ أَحَد أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور:21].

﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ﴾، والعزيز هو المنيع الذي لا يهدي إليه إلا بهدايته ولا يوصل إليه إلا بجذبات عنايته ﴿الْحَكِيمُ﴾، أي: ذو الحكمة يعني ليست الحكمة من صفات الخلق إنما هي من صفات الحق فمن لم يؤته الحكمة يكون على وصف جهولية ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:72].

ثم أخبر تعالى عن وصف من نبذ الملة وما فيه من العلة بقوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:130]، إشارة إلى أنه من يرغب عن ملة إبراهيم الروح وهي التوحيد بالكلية للحق، والتبرؤ عما سواه في تصحيح الخلة إلا النفس الأمارة التي من خصوصيتها الظلومية والجهولية فبجهلها لا يعرف قدر مقام الروح واختصاصه بالقرب واستحقاقه للخلة، ولا يعرف أيضًا خسته نفسها وعملها وضلالتها المذمومة، وإن هلاكها في هواها فترغب إلى متابعة هواها وتحصيل لذاتها وشهواتها وترغب عن مطاوعة الروح في طلب الحق ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة:130]، على كل شيء خلقناه ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة:130]، لقبول نور الله الذي هو مخصوص به من العالمين في قبوله وإلى هذا أشار بقوله ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ﴾ [الأحزاب:72]، فافهم جدًا.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: 131 - 136].

ثم أخبر تعالى عن كمال تسليمه وحسن استعداده بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131]، الإشارة فيها أن الروح الإنساني مخصوص من العالمين بالاستسلام لقبول أنوار فيض رب العالمين بلا واسطة والاستعداد والاستحقاق لخطاب ربه: أسلم لنور فيضي وفيض نوري، فيستسلم لقوله ويقول: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131] أي: لنور رب العالمين وبيانه قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ [الزمر:22]، وليس لغير الإنسان كرامة أن يكون على نور من ربه إلا بواسطة، هذا سر عظيم وشرحه يطول وأنت ملول.

ثم أخبر عن وصيته لبنيه أن يدينوا بدينه لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ [البقرة:132]، والإشارة فيها أن إبراهيم الروح يوصي أبناء ذريته من القلب وصفاته والنفس وصفاتها والقوى البشرية والحواس الخمس والأعضاء والجوارح، فإنها متولدات بعضها من بعض على الحقيقة لملته وهي الخلة عن التبرؤ عن غير الخليل في العبودية والخلة ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ [البقرة:132]، فيه إشارة شريفة وإشارة لطيفة، يعني لولا فضل الله عليكم ورحمته اصطفاؤه لكم الدين فلقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر:32]، فقال لولا أورثنا واصطفينا وإلا ما للتراب ورب الأرباب.

﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:132]، فيه إشارة إلى أنكم للفناء فلا تفنوا إلا في استسلام وجوهكم لنار نور الله وهي نار وقودها الناس والحجارة، فإن اشتعال نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة إنما هي تكون بعد استسلام حطب الوجود لها فيه، إنها عليهم موصدة في عمد ممددة، فمن لم يستسلم اليوم لنار الخلة والمحبة بالاختيار فلا بد غدًا يلقى في نار الغضب.

ثم أخبر عن تأثير الوصية في أولاده وأولاد أولاده بقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ [البقرة:133]، والإشارة فيها أن الله تعالى استجاب دعاء إبراهيم في أولاده وأولاد أولاده إذ قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة:128]، وأظهر استجابته بإيصاء يعقوب

وإقرار ولده وولد ولده لإبراهيم عليه السلام وأولاده، ولهذا قال النبي ﷺ: «الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم»(1) فجروا كلهم صلوات الله عليهم على منهاج واحد في التوحيد والاستسلام توارثوا ذلك خلفًا على سلف، فهم أهل بيت الزلفة ومستحقوا القربة، والمطهرون من قبل الله. وفيه إشارة أن الله تعالى إذا تجلى لروح عبد مخلص متضرع إليه محب له يظهر آثار تجليه على قلبه وسره ونفسه وقواه وحواسه وجوارحه وجميع أعضائه فيستسلمون له بكليتهم وخضعوا له فيعبدون كلهم إلهًا واحدًا، وإن كان كل واحد منهم يعبد إلهًا آخر من قبل من الهوى والدنيا والآخرة كقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:23]، وليستسلم كل واحد في العبودية لما يناسب حاله.

ثم أخبر أن كسب كل واحد يفيده وينفعه بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة:134]، والإشارة فيها أن معاملة كل إنسان تنفعه ولا تضره، لا ينفع عمل نبي وسعيه لأولاده ولا لغيرهم، كما كان النبي ﷺ يقول: «يا فاطمة يا بنت محمد أنقذي نفسك من النار فإني لا أغني عنك من الله شيئًا»(2).

---

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (2/ 416، رقم 9369). وأخرجه أيضًا: البخاري في الأدب (1/ 212، رقم 605)، والترمذي (5/ 293، رقم 3116) وقال: حسن. وأبو يعلى (10/ 338، رقم 5932)، وابن حبان (13/ 92، رقم 5776) والطبراني في الأوسط (3/ 116، رقم 2657)، والحاكم (2/ 377، رقم 3325) وقال: صحيح على شرط مسلم.

(2) حديث أبي هريرة: أخرجه البخاري (3/ 1012، رقم 2602)، ومسلم (1/ 192، رقم 206)، والنسائي (6/ 249 رقم 3646). وأخرجه أيضًا: الدارمي (2/ 395، رقم 2732).

حديث عائشة: أخرجه مسلم (1/ 192، رقم 205)، قلت: للإمام العارف محمد بهاء الدين البيطار - قدس سره - كلام نفيس في الكلام على أحواله - صلوات الله وسلامه عليه - فيما يتعلق بمثل تلك الأحاديث الشريفة، أوردنا إثباته لأنه تنحل به الكثير من المشكلات، وتفتح به الكثير من أسرار الشرع المتشابهات، قال - قدس سره - في كتابه «الواردات الإلهية في التفسير على طريقة الصوفية» ما نصه: والحاصل أنه ﷺ لا يُقاس كلامه بالأفكار؛ لأنه نور مغمور بالأنوار، قلبه مورد لتجليات الأسماء الإلهية، فيختلف كلامه بحسب اختلاف تجليات الأسماء الإلهية، فطورًا يقول: «أنا سيد ولد آدم»، وطورًا يقول: «إنما أنا عبد»، وتارة يقول: «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»، وتارة يقول: «يا فاطمة لا أغني عنك من الله شيئًا»، فهو ﷺ بحسب تجليات مَن ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[الرحمن:29]، فلا

وكقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء:13]، قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم:39]، فمن لم يساعده التوفيق لأعمال العبادة لا تنفعه أعمال الآباء والأجداد ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة:135]، إلى قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:137] والإشارة في تحقيق الآيات أن يهود الشيطان الإنساني، فإن لكل إنسان شيطان كما جاء في الحديث، ونصارى الهوى والنفسانية، ويدعو كل واحد منهم الأمة المسلمة من طينة الإنسان إلى دينه ويقول: كونوا على ديني فلا دين إلا ديني فيناديهم منادي ألطاف الحق ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة:135]، الروح ﴿حَنِيفًا﴾ [البقرة:135]، مائلاً إلى الحق: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:135]، الملتفتين إلى غير الحق ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة:136]، من أنوار الواردات والهامات ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة:136]، الروح من تجلي صفات الحق. ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [البقرة:136]، المتولدات من الروح ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ [البقرة:136]، القلب ﴿وَعِيسَى﴾ [البقرة:136]، السر.

﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ [البقرة:136]، وهم المدركات الروحانية والعقلية ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:136]، من مكاشفات الأسرار الربانية ومشاهدات الأنوار الإلهية ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ﴾ [البقرة:136]، في الإيمان بما أنزل إليهم وما أوتي كل واحد ﴿مِنْهُمْ﴾ [البقرة:136]، إذ هو من أصناف ألطاف الحق ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136].

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ

يتخلف عن الصدق كلام الحبيب المختار ﷺ، بل إنما من نقصنا تنقص الثمار، فأعمالنا ترد علينا وما بدا منا فهو يعود إلينا، فلا يصف لنا الطبيب الأعظم الداء، بل ما يصف إلا الدواء، وهو ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم:3] فلا يدري بحاله إلا حاله ولا يحيط بكماله إلا كماله.

مَا أَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ
(١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤١)
۞ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي
مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢)﴾ [البقرة: 137 - 142].

﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ [البقرة:137] يعني يهود الشيطان كما أسلم شيطان محمد ﷺ ونصارى الهوى ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [البقرة:137]، فإن الشيطان إذا آمن يكون للسالك بمثابة جبريل عليه السلام فيعرج به إلى سدرة المنتهى، وهي أعلى المراتب الروحانية فلا يستبعد هذا من الشيطان فإنه جبريل الأصل فبالإباء والاستكبار صار شيطانًا رجما، فإن أسلم وترك الإباء وسجد لآدم الروح، فرجع إلى أصل خلقته، ونصارى الهوى إذا رجما، فإن آمنت تكون المحبة والشوق والعشق وتكون للسالك بمثابة الرفرف لمحمد ﷺ فيها يصل السالك إلى الحق ويعرج من سدرة المنتهى.

ولهذا قال بعض المشايخ: لولا الهوى ما سلك أحد طريقًا على الله تعالى ﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة:137]، يعني العداوة والمخالفة من شر الشيطان والهوى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:137]، يا سالك شرهما وشرك من هو من قبليهما فلا تلتفت إليهم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ [البقرة:137]، بمقالاتكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:137]، بحالاتكم ومعاملاتكم.

ثم أخبر أن معالجة المؤمن بصبغة الله لا يغيرها بقوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة:138]، إلى قوله: ﴿مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة:139] والإشارة فيها أنه كما أن للكفر صبغة فللدين صبغة، وصبغة الدين هي صبغة الله فليس العبرة فيما يتكلفه الخلق، وإنما العبرة فيما يتصرفه الحق، فنصيب الأشباح من صبغة الله توفيق القيام بالأحكام وحظ القلوب تصديق المعارف بالعوارف في كفل الأرواح منها شهود الأنوار وكشوف الأسرار، وحق الأسرار منها فناء ليكون من صبغة الخلق بقاء التمكن في صبغة الله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ فإنها أزلية أبدية لا تغير فيها ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة:138]، يعني لصبغة أحكام أزليته منقادون بصبغة أنوار أبديته مكاشفون ﴿قُلْ

أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ﴾ [البقرة:139]، وأنتم بحجب الخلقية وأستار أوصاف البشرية تحتجبون.

﴿وَهُوَ رَبُّنَا﴾ [البقرة:139]، يربينا بحجر العناية بألبان الهداية ﴿وَرَبُّكُمْ﴾ [البقرة: 139]، يربيكم بألبان الخذلان في حجر الكفر والعصيان من إغواء الشيطان ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾ [البقرة:139]، مثمرة القبول والنجاة ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ [البقرة:139]، مثمرة الرد والهلاك لأنه ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة:139]، لا غيره وأنتم مخلصون لغيره لا له، وما أمرنا نحن ولا أنتم إلا أن نعبد الله مخلصين لقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:5].

ثم أخبر عن إقرارهم وكتمان شهادتهم بقوله تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [البقرة:140]، والإشارة فيها أن للنفس والشيطان تسويلات سولت لهم أنفسهم، فمنها: تخيلهم أن إبراهيم الروح وأتباعه كانوا لركونهم إلى شيء من الدنيا وزينتها وشهوات النفس وهواها على ملة يهودية الشيطان ونصرانية النفس والهوى ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ﴾ [البقرة:140]، بأحوال الروح وأتباعه ﴿أَمِ اللهُ﴾ [البقرة:140]، الذي خلقهم وركب فيهم خاصية تنافي جبلة النفس والشيطان، وأما الروح وأتباعه فيتصرفون في الدنيا وزينتها والشهوات النفسانية ولذاتها عند بلوغهم حدود الرجال البالغين الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله بقوة ربانية وبصيرة روحانية لا بشهوة حيوانية واستيفاء لذة نفسانية ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [الأعراف:160] ويكون لهم ذلك عمدًا في العبودية وجدًا في طريق الربوبية.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:32] على أن الله تعالى يتجلى ببعض صفاته على روح العبد فيظهر عكس أنوار الربوبية في مرآة القلب، فينعكس منها فيتنور بشعاعها هواء النفس ويقع على ضوء الشعاع على أرض الصدر فيقف الشيطان والنفس على كرامة الله الروح وأتباعه ويشاهدون آثار ألطاف الحق معهم، ولكي يكتمون ما شاهدوا ظلمًا وعدوانًا كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:140]، أيها الشيطان

والنفس من الإنكار والتمرد وأيها الروح وأتباعه من التبرؤ عن الأغيار في العبودية والتقرب في العبودية والتقرب إلى حضرة الربوبية وأتباعه من التبرؤ عن الأغيار في العبودية والتقرب إلى حضرة الربوبية بالتجرد والتفرد.

ثم أخبر الفريقين عن سلوك الطريقين بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: 141]، والإشارة فيها أن الروح وأتباعه قد خلت ديار الجسمانيات، فإنهم قطعوا مفاوز النفوس والأشباح وعبروا بحار الملكوت والأرواح وبذلوا ليحصلوا وانفصلوا فأدركتهم جذبات العناية، وأوفت لهم الكيل بلا نهاية، فوجدوا ما طلبوا وسعدوا بما كسبوا فيها أنتم أيها الشيطان والنفس وأتباعكم فأوقرتم ظهوركم بالإثم والعدوان، وأعظمتم الإساءات إلى أنفسكم بالمنع والحرمان فهلموا إلى ربكم بالمعذرة إن كانت لكم، وهاتوا حجتكم وإن كانت معكم، إلا فبعدًا وسحقًا لكم، ولما طلبتم فتلك ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة: 141]، ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ﴾ [البقرة: 141]، كل فرقة منكم ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 141]، فرقة أخرى كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: 164].

ثم أخبر عن إنكار المعرضين بالباطل وإعراض الجاحدين عن الحق بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة: 142]، والإشارة فيها أن من سفاهة الغيبة وجهالة أصحاب الحجة إذا خفيت عليهم أحوال أرباب القلوب، ومشاهداتهم في الغيوب وتصريفهم الحق من حال إلى حال، وتحريفهم من أفعال إلى أفعال يعترضون على حركاتهم وسكناتهم، ويطعنون في كل شيء من معاملاتهم؛ لأنهم ينظرون إليهم بعين الاستقباح وهمتهم الاستفضاح.

وقال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: 142]، فإن شرقوا فلله وإن غربوا فبالله، فلا توجه لقلوبهم إلا إلى وجه الله ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: 142]، من أوليائه وأحبائه ﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 142]، لقائه بآلائه ونعمائه.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ

رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [البقرة: 143 - 148].

ثم أخبر عن كمال فضله مع هذه الأمة وحكمة تحويل القبلة بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، والإشارة فيها أن الله تعالى جعل بمحض العناية والكرم هذه الأمة وسطاً عند الأمم وجعل في هذه الأمة هذه الطائفة بهم يمطرون وبهم يرزقون وهم القطب، وعليهم المركز وبهم حفظ الله جميع الأقطار فمن قبلته قلوبهم فهو المقبول المقبل ومن ردته قلوبهم فهو المدبر المردود؛ لأنهم شهود الحق يشاهدون وينظرونه به ويبصرون ويطالعون ولهذا قال: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:143]، فكما أن للرسول ﷺ مقامًا أعلى من مقاماتهم وشهودًا فوق شهادتهم، فيكون شهيدًا عليهم فكذلك هم مقام أعلى من مقامات الناس فيكونون مشرفين على سرائرهم مطلعين على ما في ضمائرهم من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان فيشهدون عليهم، وكما قال النبي ﷺ: «أنتم شهداء الله في أرضه»(1) وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:110]،

---

(1) أخرجه أحمد (6/ 456، رقم 27686)، وابن ماجة (2/ 141، رقم 4221) قال البوصيري (4/ 241): إسناده صحيح ورجاله ثقات. وابن أبي شيبة (7/ 411، رقم 36960)، والطبراني (20/ 178، رقم 382)، والحاكم (1/ 207، رقم 413) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (10/ 123، رقم 20177). وعبد بن حميد (ص 164، رقم 442)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (3/ 241 ، رقم 1602).

فلا يخفى أن هذا من سيرة القوم وإن كانوا أغرب من عنقاء مغرب اليوم، ولما أراد الله أن يميز بين المحق الموافق وبين المقلد المنافق حكم في أمر القبلة بالتحويل ليكبر على من نظر بعين التفرقة حكم التبديل، كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ [البقرة: 143]، ومن نظر بعين الحقيقة فيهديه الله للتسليم في العبودية فيستسلم لأحكام الربوبية، ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:143] أي: من كان لله بجميع أوصافه كان الله له بجميع ألطافه: ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:143]، من قرع باب رأفته فتح الله له أبواب رحمته.

ثم أخبر عن علة تحويل القبلة بقوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة:144]، والإشارة فيها أن النبي ﷺ من مكان تأدبه بآداب أدبه ربه بها لم يكن يظهر مع الله سؤاله، ولا يستدعي باللسان مأموله رعاية الآداب القربة؛ إذ أوحى الله تعالى إليه: «من شغله ذكرى عن مسألتي أعطيته فوق مسألة السائلين»[1] ومن كون نفقته على هذه الأمة كان يدخر دعوته المستجابة: «فدعا كل نبي دعوته وادخرت دعوتي شفاعة لأمتي»، فلما قدر الله تعالى شرف الكعبة أن تكون قبلته وقبلة أمته، فانعكس مسطور الكتاب من الكعبة في مرآة قلب النبي ﷺ فظهر فيه داعية استقبال القبلة ليقضي الله أمرًا كان مفعولاً، وكان تقلب قلبه إلى الله تعالى وتقلب وجهه إلى السماء لأنه كان قمر جبريل ﷺ، فقال تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة:144]، فالحبيب يترك سؤاله بطلب رضائه والرب يطلب رضاء رسوله بإنجاز مأموله ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:144]، يعني ول قلبك رب المسجد الحرام بقلب الوجه إلى المسجد الحرام.

﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ [البقرة:144]، أي: وجوه قلوبكم ﴿شَطْرَهُ﴾ [البقرة:144] أي: إلى الله إن كنتم في البيوت أو في المساجد ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾

(1) أخرجه الديلمي (3/ 168، رقم 4446)، والبيهقي في الشعب (573).

[البقرة:144]، من أهل العلوم الظاهرة ﴿لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:144]، علمًا لا ينتفعون به ليكون حجة لهم بل حجة عليهم ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 144]، تأييدًا للأولياء وتهويلاً للأعداء.

ثم أخبر عن ثبات الأعداء على قدم الكفر وثبات الأولياء على قدم الإيمان بقوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ [البقرة:145]، والإشارة فيها أن الحكم السابق الأزلي سبق للأولياء بالقبول والإيمان وللأعداء بالرد والخذلان وبينهما برزخ لا يبغيان، ولئن أتيت يا محمد أهل الخذلان بكل آية ﴿مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: 145]، ولا يزيدهم إلا الطغيان ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ [البقرة:145]، لأنك على بصيرة وهم عميان، ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة:145]، وإن كانوا كلهم أهل الأهواء لأنهم مختلفون الآراء ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:145]، معناه أن أتباع أهل الأهواء ممن سبقت لهم العناية الأزلية وهو عالم بها ظلم وعدوان، وهذا من شيم أرباب الخسران والضدان لا يجتمعان.

ثم أخبر عن معرفتهم النبي ﷺ وجحود بعضهم بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:146] أي: أعطيناهم الكتاب دراية وفهمًا، ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ [البقرة:146]، يعني محمدًا ﷺ بنور فهم الكتاب بقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى:52]، ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة:146]، بنور الحس ونور الباطن أقوى من المعرفة من النور الظاهر فمن كان مصباح قلبه منورًا بنور الكتاب، والإيمان إذا نظر إلى وجه النبي ﷺ والولي يعرفهم بسيماهم.

كما قال تعالى للنبي ﷺ: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:273]، كما كان حال عبد الله ابن سلام ﷺ قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة ونظرت إلى وجهه علمت أنه ليس بوجه كذاب ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة:146]، المعرفة ما عرفوه حق معرفته وجحدوا به لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام:33]، ثم قال: فأنت بتحقيق الحق ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:114]، بعدما حق الحق ﴿فَلَا تَكُونَنَّ

﴿مِنَ الْـمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:114]، في حق حقه ولا في حق نفسك تفهم هذه الدقيقة إن شاء الله تعالى.

ثم أخبر أن لكل أهل ملة قبلة بقوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْـخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: 148]، والإشارة فيها بمعنيين:

أحدهما: إن لكل شخص على حدة قبلة مناسبة لاستعداد جبل هو عليها موليها، هذا تحقيق قوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»(1).

وثانيهما: إن لكل شيء من الإنسان قبلة هو موليها إن وكل إليه فقبلة البدن هي بالتلذذ بالحواس الخمس من المأكول والمشروب والمشموم والمسموع والمبصر والملموس والمركوب والمنكوح وأمثاله، وقبلة النفس هي الدنيا وزينتها ورفعتها والحرص في جمعها والتفاخر بها والتكبر لها وأشباه ذلك، وقبلة القلب هي الآخرة ونعيمها ودرجاتها وأنواع التمتعات بها، وقبلة الروح هي القربة والزلفة والشوق والمحبة وما هو من هذا القبيل، وقبلة السر التوحيد والمعرفة وكشف العلوم والمعاني والأسرار، وما يناسب ذلك ولو وكل واحد من هؤلاء إليه حتى أقبل البدن إلى قبلته وأقبلت النفس إلى قبلتها فكانا يزاحمان القلب والروح والسر في إقبالهم إلى قبلتيهم ويشغلانهم عن ذلك، وما صح لهم أن يقبلوا على قبلتهم بل يحولانهم إلى قبلتهما ويسبقا بهم، فلما وكلهم الله إليهم أمروا جميعًا أن يخرجوا من طباعهم وأهوائهم ويطيعوا ربهم في إقبالهم إلى القبلة بأمره فاستبقوا الخيرات.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: 148]، فجعل قبلة البدن الكعبة، وقبلة النفس الطاعة والعبودية وترك الهوى، وقبلة الهوى وقبلة القلب الصدق والإخلاص والإيمان والإيقان والإحسان، وقبلة الروح التسليم والرضاء والصبر على مر القضاء، وقبلة السر الفناء في الله والبقاء بالله والكينونة مع الله على ما أراد الله بلا إعراض ولا اعتراض وأشار بقوله ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ على أنكم إذا شرعتم بشرط العبودية في الطاعة فيما لكم به قدرة واستطاعة من ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا﴾ بجذبات

(1) أخرجه أحمد (4/ 427، رقم 19847)، والبخاري (6/ 2745، رقم 7112)، ومسلم (4/ 2041، رقم 2649)، وأبو داود (4/ 228، رقم 4709)، والنسائي في الكبرى (6/ 517، رقم 11680).

الألوهية إلى أينما لم تكونوا بالله ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:148]، من أشياء الإنسان ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:148]، أن يغنيه به، فافهم جدًا.

﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [البقرة: 149 - 154].

ثم أخبر عن قبلة أهل هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:149]، إلى ﴿تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:150] والإشارة فيها أن الخطاب تكرر مع النبي ﷺ في الآيتين، ومن حيث خرجت فلا بد لتكرار من فائدة وهي أن الخروج الأول إشارة إلى الخروج من حجب الجهات معناه حين خرجت وتخلصت من حجب الجهات.

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:144] أي: إلى جهة المسجد الحرام لئلا يتعلق قلبك بالمسجد وبالجهات فإنه حرام على قلبك التوجه والتعلق بغيري ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [البقرة:149] يعني: التوفيق لهذا المعنى لحق من الله فلا سبيل للحق إليه إلا به ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:149]، ليس عنكم غافلاً حتى تعملوا بغير توفيقه والخروج الثاني إشارة إلى الخروج من الوجود لاندفاع الاثنينية وثبوت الوحدة، معناه: إذا خرجت من حجب وجود الأنانية بسطوات تجلي صفة الوحدانية ﴿فَوَلِّ﴾ وهذا أمر التكوين يعني كن موليًا بسطوات التجلي وجه ذاتك شطر الفناء لتبقى بصاحب المسجد الذي وصفه بالحرام لمعنيين:

أحدهما حرام لمن دخله الخروج أبدًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ [آل عمران:97]، من الخروج.

والثاني حرام على غيرك الوصول إلى هذا المقام لأنه المقام المحمود وهو مخصوص بك والمحمود هو الله، فافهم جدًّا.

ثم عمم الخطاب وقال: ﴿وَحَيْثُمَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:144]، وفيه معنيان:

أحدهما: وحيثما كنتم أيها المؤمنون يعني أي حال تكونون خرجتم من الحجب أو لم تخرجوا ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:144]، الهاء كناية عنه.

والثاني: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة:144]، الهاء كناية عن النبي ﷺ يعني يكون توجهكم إلى متابعته في الخروج عن حجب الوجود واقتداء به في الوصول إلى عالم الشهود ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة:150]، يعني الأوصاف الإنسانية لا تكون عليكم منازعة في سلوك طريق الحق ولا تمنعكم بحجج الدواعي عن الحق إذا كنتم في حقارة المتابعة.

﴿إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [البقرة:150]، يعني: صفة ظلومية النفس الأمارة والشيطان الظالم يزاحمانكم في أثناء السلوك في بعض الأوقات، وذلك لا يخلو من مصالح وحكمة ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ﴾ [البقرة:150]، فإنهم لا يقدرون على قطع طريقكم بدرقة الإخلاص في ظله راية المتابعة ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة:150] يعني: لا تأمنوا مكري في حالة من الحالات ومقام من المقامات وكونوا واثقين بفضلي وإحساني وإنعامي ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:150]، نعمة المتابعة وإتمامها بالوصال إلى الحضرة، والإشارة في إضافة النعمة إلى نفسه وإتمامها أي: إخراج السالك عن ظلمات حجب وجوده إلى نور عالم ربوبيته كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]، هو الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:150]، يعني: بعد خروجكم عن حجب الوجود تهتدون إلى شهود صفات جمالي وجلالي في ظل لواء متابعة من لا يصل

أحدًا إلى هذا المقام إلا في ظل لوائه، كما أخبر بقوله ﷺ: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر»[1].

ثم أخبر عن إتمام النعمة أنه يبعث رسول النعمة بقوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ﴾ [البقرة:151]، والإشارة فيها أنها متعلقة بما قبلها وبما بعدها أما تعلقها بما قبلها فقوله تعالى: ﴿وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:150]، كما مر تقديره وإن إتمام النعمة بتوفيق متابعة النبي ﷺ لكي تهتدوا في ظل متابعته إلى الوصول إلى حضرة الجلال ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ [البقرة:151]، في أنفسكم، كقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21] ﴿رَسُولًا﴾ [البقرة:151] أي: واسطة بيني وبينكم منكم أي: من أجزاء وهو السر الإنساني كالرسول يحمل رسالتي بقبول أنوار الفيض الوارد مني ويبلغها إلى أجزائكم، والسر في مشكاة الجسد الإنساني بمثابة الفتيلة في مصباح الزجاجة القلب هو القابل لنور نار الله، إذا تجلى بنور الربوبية عند صفاء زيت الروحانية عن أدناس الصفات الإنسانية والكدورات الجسمانية وخمود نيران آفات الشهوات الحيوانية تنور فتيلة السر بنور نار الإلهية فتصير زجاجة القلب كأنها كوكب دري توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية الأرواح ولا غربية الأشباح وهي الكلمة الطيبة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسه نار، نور الله على نور الروحانية يهدي الله لنوره من يشاء وهو السر.

﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:151]، على ظاهر مشكاة الجسد ظاهرًا ﴿آيَاتِنَا﴾ [البقرة: 151]، الآيات وباطنًا ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ [البقرة:151]، من مذمومات الأوصاف والأخلاق ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ﴾ [البقرة:151]، ويعلم كل واحد منكم عقيب استعداده في قبول الأنوار الإلهية وهو كلام الله وصفاته القديمة، يعني: يتخلق بخلق من أخلاق الله تعالى: ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة:151]، وهي أسرار الشريعة وأما تعلق الآية بما بعدها وهو ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ [البقرة:151]، ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:152]، والإشارة فيها أن ذكر العبد لله من نتيجة ذكر

---

(1) أخرجه أحمد (3/ 2 ، رقم 11000) ، والترمذي (5/ 587 ، رقم 3615) ، وابن ماجه (2/ 1440، رقم 4308).

الله العبد من وجهين:

أحدهما: خطاب الحق مع العبد بقوله: ﴿فاذكروني﴾ كلام أزلي ذكرهم به قبل وجودهم والخطاب على الحقيقة مع الذاكرين الله في علمه القديم فالآن من ذكر الله هو المخاطبون لا الغافلون فذكره نتيجة ذكر الله في الأزل.

والثاني: أن الله تعالى أمرهم بالذكر مع فاء التعقيب بقوله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:152]، فيه تقديم وتأخير معناه أذكركم فاذكروني كقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة:119]، فإن رضاهم عنه نتيجة رضاه عنهم وكقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54].

واعلم أن للذكر مراتب وللذاكر أيضًا مراتب: ذكر اللسان، وذكر الأركان، وذكر النفس، وذكر القلب، وذكر الروح، وذكر السر.

فذكر اللسان: بالإقرار أذكركم بالاختيار، وذكر الأركان: باستعمال الطاعات أذكركم بالكرامات، وذكر النفس: بالاستسلام للأوامر والنواهي، فاذكروني بالاستسلام أذكركم بنور الإسلام، وذكر القلب: بتبديل الأخلاق الذميمة وتحصيل الأخلاق الكريمة فاذكروني بالأخلاق أذكركم بالاستغراق، وذكر الروح: بالتفريد والمحبة فاذكروني بالتفريد والمحبة أذكركم بالتوحيد والقربة وذكر السر: ببذل الوجود والفناء فاذكروني ببذل الوجود والفناء أذكركم بنيل الشهود والبقاء، وهذا حقيقة قوله تعالى الحديث الرباني: «وإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»[1] وهذا هو الذكر الحقيقي أن يجعل الذاكر مذكورًا، والمذكور ذاكرًا بل يكون الذاكر والمذكور واحد كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر:16]، وكما قال قائلهم:

رَقَّ الزُّجاجُ وَرَقَّتِ الخَمْرُ فَتَشابَها فَتَشاكلَ الأمْرُ

(1) أخرجه أحمد (2/ 413، رقم 9340)، والبخارى (6/ 2694، رقم 6970)، ومسلم (4/ 2061، رقم 2675)، والترمذى (5/ 581، رقم 3603) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (2/ 1255، رقم 3822)، وابن حبان (3/ 93، رقم 811).

فَكَأَنَّهـــا خَمــرٌ وَلا قَــدَح   وَكَأَنَّمـا قَــدَحٌ وَلا خَمــرُ[1]

ولا يحل هذا المشكل إلا في صورة مثال مناسب مثل حال الفراش أن يبدل نفسه بشعلة الشمع والاشتعال بشعلة الشمع في نفسه بالحرقة عليها، وذكر للفراش باشتعال في نفسه نفس الفراش في نفسه، فلا يبقى التميز بين الشمع والفراش، فإن طلبت الفراش وجد الشمع، وإن طلبت الشمع وجدت الفراش، كما قيل:

أَنـا مَـن أَهـوى وَمَـن أَهـوى أَنـا   نَحـنُ روحـانِ حَلَـنا بَـدَنا

فَـإِذا أَبـصَرتَني أَبـصَرتَهُ   وَإِذا أَبـصَرتَهُ أَبـصَرتَنا[2]

فلما بذل الفراش للشمع وجوده نال من وجود الشمع مقصوده، وهو تحقيق قوله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومؤيدًا فبي يسمع وبي يبصر وبي ينطق وبي يبطش»[3]، حديث صحيح رباني، واعلم أن جزاء الذاكر بالذكر فضيلة مخصوصة بهذه الأمة ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي﴾ [البقرة:152]، أشكر لكم على نوعين: شكر النعمة، وشكر المنعم، وشكر النعمة أيضًا على نوعين: نعمة ظاهرة من صحة البدن وسلامة الحواس والمال فشكرها أن يستعان بها على الطاعة بما يناسب كل واحد منها، ولا يستعان بها على المعصية، ونعمة الباطن بقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان:20]، وهي المعاني الواردة على القلوب، وشكره بدوام المراقبة والتزام المحافظة للاستزادة.

وشكر المنعم أيضًا على نوعين: شكر رؤية نعمة التوفيق من المنعم لعبودية المنعم، وشكر نعمة وجود المنعم ببذل وجوده لوجدان جود وجود المنعم وثنائه في شهوده، ووجدان جوده لا يزيد في عينكم عنكم وشهودي لكم ولا تكفرون بترك طلب الزيادة، فإن ألطافي مع خواص عبادي غير متناهية ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ [النحل:18] وأداء شكرها كما قال داود عليه السلام: «إلهي كيف أشكرك وشكري لك نعمة من عندك،

(1) البيتان للسهروردي المقتول، من بحر «الكامل» في صورته الحذاء، وقاله أيضًا الصاحب بن عباد.

(2) البيتان للشيخ الحلاج رضي الله عنه، وهما من بحر «الرمل».

(3) تقدم تخريجه.

فأوحى الله إليه الآن قد شكرتني»[1].

ثم أخبر عن إقامة الشكر بإدامة الصبر بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ [البقرة:153]، والإشارة فيها بأن من ترك الكفران بالقيام بأداء الشكر، وآمن بالعجز عن أداء الشكر استعينوا على أداء الشكر ﴿بِالصَّبْرِ﴾ [البقرة:153]، مع الله وهو من أعمال القلب ﴿وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:153]، وهي من أعمال البدن؛ لتكونوا عمال الشكر، كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:13]، كما كان حال النبي ﷺ صلى حتى تورمت قدماه فقيل: «يا رسول الله أتعمل هذا، وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»[2] فبملازمة أعمال القلب والبدن وهي الصبر والصلاة يعينه الله على القيام بحق الشكر ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:153]، بالعون والنصرة.

ثم أخبر عن باذل الحياة المجازي لنيل الحياة الحقيقي بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:154]، والإشارة فيها أن لا تحسبوا أن من يقتل من أهل الجهاد الأكبر نفسه بسيف جلال الله في سبيل الله بالفناء في الله أموات، وإن فنيت أوصاف وجودهم، فإنهم أحياء بشهود موجودهم، ومن كان فناؤه في الله كان بقاؤه بالله، فتارة يفنيهم بسطوات تجلي صفات الجلال، وتارة يحييهم بنفحات ألطاف الجمال، فإنهم بين روضة وبين غدر يسرحون في رياض الجمال ولكن لا تشعرون أحوالهم ولا تطلعون على حالهم.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ

(1) رواه محمد بن نصر المروزي في قيام الليل (114) بنحوه من حكاية موسى ﷺ.

(2) البيهقي في شعب الإيمان (3/ 385، رقم 3838).

اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: 155 - 160].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ [البقرة:155]، إلى ﴿هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:157] والإشارة فيها أن البلاء والابتلاء من الله تعالى لاستخراج جواهر الأخلاق الإنسانية من معادنها؛ لأن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة بيانه قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:7]، والأعمال من نتائج أخلاق النفس، فالسنة في استخراج جواهر الشكر الابتلاء بالنعمة كما كان لسليمان عليه السلام فأخرج منه بها الشكر وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:3]، والسنة في استخراج جواهر الصبر البلاء بالمحبة، كما كان لأيوب عليه السلام فأخرج منه بها الصبر وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ [ص:44]، فيبتلي الرجل على حسب دينه فمنهم من يبتليهم الله بالخوف، وقال: ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ يعني ببعضه والسر فيه أن يكون البلاء لأهل العناية بقدر فوته، واستطاعته في النعمة والمحبة يستخرج منه الشكر والصبر، وهما جوهران من معادن الروحانية ولو زاد على قدرة القوة والاستطاعة في النعمة والمحنة ما يخرج إلا ضد الشكر والصبر، وهما الكفران والجزع وهما جوهران من معادن النفسانيات لأهل الرد.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر:21] أي: بقدر قدرة أهل القبول والعناية وعدم قوة أهل الرد والسخط، ومنهم من يبتليهم الله بالجوع ﴿وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: 155]، أو ببعض دون بعض من هذه الجملة أو بمجموعها، ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155]، بشارة في الحال، أما في الحال فبشر الصابرين على الخوف بالتوكل واليقين والشجاعة، وعلى الجوع بتزكية النفس وتنقية القلب وتصفية الروح وتحلية السر، وعلى نقص الأموال بدفع الحرص والغفلة، وإزالة حب الدنيا فإنه رأس كل خطيئة، وحصول القناعة وهي كنز لا يفنى ومال لا ينفد وشعار الصالحين، وهو العضد وعلى نقصان الأنفس إن كان بالمرض بكفارة الذنوب، وإن كان بموت الأقرباء بقطع التعلقات

والتجرد عن العلائق، وعلى آفة الثمرات بالخلف من الله تعالى في الحال، وأما في الحال فبشره بالنجاة من العذاب والدرجات والثواب بغير حساب كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:10]، وفيه معنى آخر في غاية اللطافة وهو بشر الصابرين بأني لهم معهم في كل حال من حالات الصبر وتصبرهم على المصائب وتخلقهم بخلق من أخلاقه، وهو الصبر ولو لم يكن معهم باللطف والعناية لما قدروا على الصبر يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:249]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل:127]، والصبر هاهنا محمول على ثلاثة أوجه: صبر بالأمر، وصبر بالاختيار، وصبر الاضطرار.

أما الصبر بالأمر: ففي الآية إضمار بقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ﴾ [البقرة:155] يعني: ولنبلونكم بأوامر هذه الأشياء، فالأمر بالخوف كقوله تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:175]، والأمر بالجوع بصيام شهر رمضان، والأمر بنقصان المال بأداء الزكاة، والأنفس بالجهاد في سبيل الله، والثمرات بأداء العشر منها.

وأما الصبر بالاختيار: ففي قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ﴾ [البقرة:155]، إشارة إلى أنا نخبركم هل تختارون ﴿بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة:155]، الخوف بأن يخافوا من الله ويفروا منه إليه، والجوع فتجوعون تقربًا إلى الله تعالى، كما كان إخبار النبي ﷺ: «أجوع يومًا وأشبع يومًا، فإذا جعت تضرعت إليك وصبرت، وإذا شبعت ذكرتك وشكرتك»[1] ونقص من الأموال فتخرجون عنها بتركها والإنفاق في سبيل الله، والأنفس فبذل الروح في طلب الحق، والثمرات فبالغذاء في طريق الحق كل ثمرة أثمرته شجر الوجود حتى الولد كما كان حال الخليل عليه السلام في صحيح مقام الخلة ببذل المال والنفس والولد.

وأما الصبر بالاضطرار: وهو الصبر على المصائب التي تقع من غير الاختيار كما سبق ذكره.

ثم نعت الصابرين بقوله: ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ﴾ [البقرة:156] يعني: بالأمر أو

(1) رواه أبو نعيم في «الحلية» (8/ 133)، والبيهقي في «الشعب» (21/ 343).

بالاختيار أو بالاضطرار، كما ذكرنا ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:156] أي: ليس لنا وجود حقيقي نملكه بل وجودنا مجازي، وله مالك له الوجود الحقيقي ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:156]، ببذل الوجود المجازي لنيل الوجود الحقيقي في مقام العندية، فيخرج من عندنا ببذل ما عندنا؛ ليدخلنا في مقعد صدق عند مليك مقتدر، فإن ما عندنا ينفد وما عند الله باق ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ﴾ [البقرة:157]، جذبات ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:157]، المفلحون بجذبات الحق إلى مقام العندية والتخلق بخلق من الأخلاق، وهو الصبر وهو الذي يشير به الصابرون بقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:155] أعني: صلوات بجذبات الحق والاهتداء بها إلى مقام العندية.

ثم أخبر عن شعائر الله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: 158]، والإشارة فيها أن لله تعالى شعائر الظاهر دالة على شعائر الباطن؛ لتستدل العبد بإقامة مراسم شعائر الله في الظاهر بالصفاء والمروة من شعائر الله في الباطن، فالصفا السر والمروة الروح، وللسالك بينهما سعي فساعة يسعى صفاء السر بقطع التعلقات عن الكونين، والتفرد عن الثقلين تبتلاً إلى الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: 8]، وساعة ليسعى في مروة الروح وهي إيصال الخير إلى جميع الأجزاء الإنسانية من الداخلية والخارجية، الباطنية والظاهرية بمراقبة أحوال الباطن ومزاولة أعمال الظاهر في الطاعة، وتقديم الخيرات إلى نفسه وأهله وعياله والعالمين بأسرهم، والإشارة في سبع مراتب أن لظاهر الإنسان سبعة أركان ولباطنه سبعة أطوار، فكذلك العالم سبعة أقاليم ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ [البقرة:158]، بيت القلب في طلب الرب ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:158]، خرج ﴿أَنْ يَطَّوَّفَ﴾ [البقرة:158]، بصفا السر فإنه تعظيم أمر الله، ويسعى ﴿بِهِمَا﴾ [البقرة:158]، في مروة الروح فإن الشفقة على خلق الله يكون من شعائر الله، ويصل بركات سعيه إلى سبعة أركانه الظاهرة، وسبعة أطواره الباطنة، وإلى سبعة أقاليمهم كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم:39]، وأن سعيه سوف يرى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة:158] يعني: في حق نفسه أو حق غيره ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ﴾ [البقرة:158]، يأخذ الواحد من الأعمال الفانية، ويعطي العشر

إلى سبع مائة ضعف إلى ما لا يرى من الحسنات الباقية، بل يأخذ الوجود المجازي ويعطي الوجود الحقيقي ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:158]، بنيات العباد في تقربهم إليه، فيقرب إليهم بقدر صفاتهم في الطاعات، ومردتهم في الخيرات، كقوله تعالى في الحديث الرباني: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا ومن تقربت إليه ذراعًا تقربت إليه باعًا ومن أتاني يمشي أتيته أهرول»[1]، وهذا من حقيقة صفة الشكورية، ومن كمال رأفته وغاية عاطفته مع أهل محبته وصفوته إن آثار أقدمهم وساعات أيامهم أشرف الأمكنة وأعز الأزمنة، فتلك المشاهد والآثار تعظم وتزار، وإلى تلك المشاهد والأطلال تشد الرواحل والرحال، كما قال قائلهم:

هوى أهوائها لمن قد كان ساكنها وليس في الدار لي هم ولا وطر

وإن لتراب أقدامهم بل لغبار آثارهم عند الأخيار أقدار عظيمة بل غبرة تبقى على حانات طريقهم عند صديقهم لأعز من المسك الأزفر، كما قيل: وما ذاك إلا أن متت بجنابه أميمة في سرب.

ثم أخبر عن خسارة أهل الخسارة في كتمان الأحكام ونعت حبيبه محمد ﷺ وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ [البقرة:159]، الآيتين والإشارة فيهما أن كمال ما كوشف به السالك الواصل من بينات علوم الحقائق، وأسرار القرآن والأنوار وهداية الطريق إلى الله تعالى آداب السلوك، ومعرفة آفات النفس وطريق الخلاص منها بتزكيتها ومعرفة المقامات والأحوال والفرق بينهما ﴿مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:159]، بينه الحق بتسليكه فيه وعرفه بطريق التسليك فيها عن طلاب الحق، وأهل الإرادة والصدق والمستعدين لقبول النصح والإرشاد مما يوجب المقت في الوقت، ويخشى عليه عذاب ذل الحجاب كما قال النبي ﷺ: «من سئل عن علم علمه الله فكتمه ألجمه بلجام من النار»[2].

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا﴾ [البقرة:160]، تداركوا ما سلف من

(1) رواه البخاري (6/ 2694)، ومسلم (4/ 2099).

(2) رواه الترمذي بنحوه (10/ 151).

تقصيرهم بحق الرجعة، والقيام للمريدين بحق النصيحة، والدعوة إلى سبيل الحق بالحكمة والموعظة الحسنة، وبينوا لهم تحميل البيان وإقامة البرهان على ما يقولون بحسن قيامهم بمعاملاتهم، فإن أظهر الحجج لسان أفعالك وأصدق الشهادة تصحيح ما تدعوا به الخلق إلى الله أن لا تخالف بمعاملتك ما تشير إليه بمقالتك قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:88]، ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:160] يعني: الذين تابوا وأصلحوا ما كان تؤتيهم من تلقاء أنفسهم إنما أنا أتوب عليهم؛ لأني ﴿وَأَنَا التَّوَّابُ﴾ [البقرة:160]، ولي التوبة، وليست التوبة للذين يعملون السيئات؛ لأني ﴿الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:160]، أرحم على من أشاء من عبادي بالتوبة، فأتوب عليهم ولولا تهديد هذه الآية، فإن أكثر أهل التحقيق ما خلطوا الخلق وما اشتغلوا بمناصحتهم وتربيتهم وإرشادهم، وما تكلموا على المنبر وما قعدوا على السجادة للشيخوخة فرارًا عن خسة الشركاء، واجتنابًا عن مزاحمة السفهاء، واحترازًا من معنى، وإن كثيرًا من الخلطاء ليبقى بعضهم على بعض اللهم إلا من كان منهم مأمورًا، فلا يكون معذورًا فيخالط الناس ويصبر على أذاهم تقربًا إلى مولاهم، وعارضة وصلا تعاظمت؛ إذ دعت وأحبت من دعاء تدعوا فاسمع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾ [البقرة: 161 - 166].

ثم أخبر عن المصرين أنهم بأنفسهم مصرون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا

وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [البقرة:161]، الآيتين والإشارة فيها أن الذين أنكروا على سير القوم وسنتهم، وجحدوا أنواع كراماتهم، وما هم عليه من استقامة الطريق في سلوك الطريق الشريعة، وما كوشفوا به حال الحقيقة خصوصًا من سلك مدة، ثم رجع إلى أحوال العادة فبمكر النفس والشيطان ينكر على الأحوال للإخوان، ثم أصروا على هذا الخذلان حتى ماتوا في تلك الوحشة وقبضوا في تلك الظلمة ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ﴾ [البقرة:161]، واللعنة في الحقيقة ضد الرحمة، فكما أن الرحمة إرادة إيصال زيادة الخير إلى أهل الخير فكذلك اللعنة إرادة إيصال زيادة الشر إلى أهل الشر، فمعناها أن الله تعالى طردهم عن الباب بإراداته القديمة فإنه فعال لما يريد، بلعنة الله وسخطه وقعوا في ورطة الإنكار ومهلكة الإصرار كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:13]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام:35].

ولعنته ﴿الْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة:161]، عليهم بتبعية لعنة الله وموافقته كما وافقوه في الصلاة بقوله تعالى: ﴿يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ [الأحزاب:43] فقال النبي ﷺ: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدًا نادى جبريل، فيقول: إني أبغض فلانًا فابغضوه فيبغضونه، ثم يوضع له البغضاء في الأرض»[1]، حديث صحيح أخرجه البخاري، فأخبرنا المشايخ بطرق مختلفة جميع كتاب «الجامع الصحيح» البخاري منها أخبرنا أبو العز عبد الباقي بن عثمان بن محمد بن أبي نصر محمد بن صالح الهمداني في ذي الحجة من إحدى وستمائة، أخبرنا الحافظ أبو جعفر بن الحسن بن محمد ابن الحسن الهمداني، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن موسى الصفار، أخبرنا أبو الهيثم محمد ابن مكي ابن محمد الكهني، أخبرنا أبو عبد الله محمد بن يوسف بن فطر العز منك، أخبرنا الإمام الحافظ أبو عبد الله بن محمد بن إسماعيل البخاري، أخبرنا عمرو بن علي، أخبرنا أبو عاصم، أخبرنا ابن جريج أخبرنا موسى ابن عقيب عن نافع أن أبا هريرة ﷺ قال: قال رسول الله

(1) رواه البخاري (11/ 353)، والبيهقي في «الشعب» (1/ 489)، ومالك في «الموطأ» (5/ 459).

ﷺ: «إذا أحب الله العبد...» في اللعنة مثل ذلك بعض ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة:162]، مقيمين أبدًا في أهوائهم ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾ [البقرة:162]، الغرفة لأنها مثمرة النكرة، فأبطلوا حسن الاستعداد وصفاء مرآة القلب برين الإنكار كقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14]، ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [البقرة:162]، لتصقيل مرآة قلوبهم بصقل الذكر كما قال ﷺ: «إن لكل شيء صقالة وإن صقالة القلب بذكر الله»[1]، لأن تحصيل نور القلب بالذكر في الدنيا لا في الآخرة، كقوله تعالى: ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ [الحديد:13].

ثم أخبر عن أوصاف وحدانيته ومع أهل التوحيد والمعرفة ألطاف رحمانيته، بقوله تعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:163]، إلى ﴿يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:164] والإشارة فيها أن شرف الإنسان وكمال عناية الله في حقه أن أضاف نفس الإلهية إليه قال: ﴿وَإِلَهُكُمْ﴾، فلما حصن البيت بإضافته إلى نفسه بقوله: بيتي جعله مسجد الخلائق لا مسجودهم، فلما خص الإنسان تارة بتشريف إضافة روحه إلى نفسه بقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر:29]، وأخرى بإضافة نفسه إليهم بقوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ﴾، جعله مسجود الملائكة، فشتان ما بين من يكون مسجد الخلق، ومن يكون مسجودًا للملائكة، وحد نفسه بقوله ﴿وَاحِدٌ﴾ حتى لا يخطر ببال الموحد احتمال إله ثان؛ لأنه لو احتمل ثالثًا ورابعًا إلى غير النهاية، فيؤدي إلى التفرقة، فيكون ضد التوحيد ومانعه الجمعية والحضور مع الله الواحد الأحد، فحسم مادة التفرقة عن قلب الموحد بقوله: ﴿إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾.

ثم نفى الإلهية عن غير الواحد مطلقًا بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:163] لأن إثبات الوحدانية ولا كان مقيدًا بقوله: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة:163]، وكان محتملاً أن يكون لغيركم من المخلوقات إله آخر، فنفى الشريك بقوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ ليخلص الموحد في عبوديته؛ لأن بتقدير وجود الشريك لا يعلم العبد أنه عبد لهذا، ولذلك أولها جمعًا فحينئذ لا يكون مخلصًا في عبوديته، مخلصًا في الافتقار إليه، مخلصًا في أن لا ملجأ له

(1) رواه البيهقي في «الشعب» (1/ 319-320).

إلا رحمته ولا منج له إلا كرمه وجوده، ولهذا وصف نفسه عقيب ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ بصفتي: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة:163]، وهما اسمان يدلان على صفتي الجلال والجمال، كما مرَّ شرحهما في تفسير ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فيكون معناهما حقيقة في قول ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لا إله إلا هو الخالق الباري المحي المميت الضار النافع المعز المذل المعطي المانع المعبود المحمود، وإلا هو الرحمن الرحيم الذي له هذه الأسماء الحسنى والصفات العلى، روي عن عمر أن ابن حصين ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ لأبي حصين: «كم تعبد اليوم من إله؟ فقال: سبعًا؛ ستًا في الأرض وواحدًا في السماء قال: وأيهم تعبده لرغبتك ورهبتك؟ فقال: الذي في السماء، فقال ﷺ: فيكفيك إله السماء، ثم قال: يا حصين لو أسلمت علمتك كلمتان تنفعانك، فأسلم حصين، ثم قال: يا رسول الله علمني هاتين الكلمتين، فقال ﷺ: قل اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي»(1).

فمن نتائج صفة الرحمن الرحيم في حق الإنسان ما أشار إليه في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة:164]، إلى: ﴿يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:164] يعني: أن الحكمة في خلق هذه الأشياء ليكون كل شيء مظهر آية من آيات الله، والفائدة في هذه الأشياء من الآيات المودعة فيها إن فائدتها عائدة إلى الإنسان؛ لأنهم قوم يعقلون الآيات لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت:53]، فالإشارة في تحقيق الآية أن العالم بما فيه خلق بتبعية الإنسان؛ لأن العالم مظهر آيات الحق، والآيات المرئيات للإنسان، والإنسان خلق لمعرفة الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56] أي: ليعرفون فلو لم يكن لأجل المعرفة ما خلق الإنسان، ولو لم يكن لأجل الإنسان ما خلق العالم بما فيه، كما قال النبي ﷺ: «لولاك لما خلقت الأكوان»(2) وكان العالم مرآة تظهر فيها جمال الحق وجلاله، والإنسان هو المشاهد لآيات الجمال والجلال في مرآة العالم، وهو مرآة يظهر فيه مرآة العالم، وما يظهر فيه كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات:21]، وهذا تحقيق قوله «من عرف نفسه

(1) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (2/ 430).

(2) لم أقف عليه.

فقد عرف ربه»(1) لأن نفسه مرآة جمال ربه، وليس لأحد غير الإنسان أن يشاهد جمال ربه في مرآة العالم ومرآة نفسه بإزاء الخلق، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾، فافهم جدًّا، واعرف قدرك لتعرف قدر ربك يا مسكين.

ومما يدل على أن خلق السماوات الأرض وما بينهما تبع لخلق الإنسان وقوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله الله»(2)، يعني: إذا مات الإنسان الذي هو يقول الله الله قامت القيامة، فلم تبق السماوات الأرض؛ لأن وجودهما كان تبعًا لوجود الإنسان، فإذا لم يبق المتبوع ما بقي التابع.

ثم أخبر عن أقوام دهتهم الغرة وأدركتهم الغيرة بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً﴾ [البقرة:165]، والإشارة فيها أن من لم يكن أهلاً لمحبته طردته العزة إلى محبة الأنداد أبدًا، وهي كل ما يحب سوى الله، واعلم أن المحبة نوعان: محبة هي من صفات الإنسان وهي من هوى النفس الأمارة بالسوء، ومحبة هي من صفات الحق وهي من الإرادة القديمة والقائمة بذاته التي اقتضت خلق العالم بما فيه كما قال: «كنت كنزًا مخفيًا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف»(3)، فمن وكل إلى محبة الإنسانية النفسانية تعلقت محبته بملائم هوى النفس من الأصناف، فكما أن الكفار بعضهم يحبون اللات ويعبدونها، وبعضهم يحبون العزى ويعبدونها، كذلك أهل الدنيا بعضهم يحبون الأموال ويعبدونها وبعضهم يحبون الأولاد ويعبدونها، فقال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾، ولهذا أعلم أن الخلق عن فتنة هذه الأشياء وعداوتها وحذرهم عنها بقوله: ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:28]، وبقوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُواً لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:14]، يعني فاحذروا عن محبتهم؛ لأن محبتهم تمنعكم عن محبة الله تعالى، وهو الحبيب وأنهم العدو، ومن أحب الله يرى ما سوى الله بنظر العداوة، كما كان حال الخليل عليه السلام قال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ

(1) رواه البيهقي في «الشعب» (2/ 10)، وأبو نعيم في «الحلية» (10/ 205)..

(2) رواه مسلم (1/ 471)، والحاكم في «المستدرك» (19/ 409).

(3) تقدم تخريجه.

﴿الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، ومن كان في الأزل أهل المحبة فما وكل إلى محبة الإنسانية جذبته العناية الأزلية، ونظمته في سلك العناية من خطاب: ﴿يحبهم﴾ للكفاية الأبدية، فيتجلى لهم الحق بصفة المحبة فانعكست تلك المحبة بمرآة قلبه، فبتلك المحبة محبون يحبونه، فإنها لا تتعلق بغير الله؛ لأنها من عالم الوحدة، فلا تقبل الشركة كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا للهِ﴾ [البقرة:165] لأن الأعداء أحبوا أنداداً بمحبة فانية، والأحباء أحبوا الله تعالى بمحبته باقية ربانية بل أحبوه بجميع أجزائهم الفانية والباقية شعر:

الشوق أكثر أن يختص جارحة ... أكلي إليك على الحالات مشتاق

﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: وضعوا محبة الله في غير موضعها من الأشياء وهي الظلم وانقطعوا عن الله وعكفوا على عبادة الدنيا واتخذوا آلهتهم الهوى ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ أي: عذاب قطيعة الله تعالى وذاقوا ألم حرقة، ونار فرقة الله التي تطلع على الأفئدة لتحقق لهم ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ للهِ جَمِيعاً﴾ أي: وقوة كل داء ومرض ووجع وعلة وشدة ومضرة وفتنة وبلية ومحنة وعقوبة وعذاب في الدنيا والآخرة من قوة عذاب القطيعة مستمد من منه وجميعًا مندرجة في ضمن فقدان الله تعالى ولا توجد شدة عذاب فقدان الله في الشدائد كلها كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ﴾ [الحجر:50] أي: عذاب فرقتي وقطيعتي.

ثم أخبر عن حاصل محبة أهل الأهواء بالتقاطع والرياء لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البقرة:166]، الآيتين والإشارة فيهما أن كل صحبة ووصلة ومحبة ومودة وموافقة ومتابعة تكون مشوبة بالهوى ومعلولة بالرياء والأغراض الفاسدة والأطماع الحيوانية والغضبية النفسانية، فلما انقطعت بالموت عنهم هذه الأسباب ورأوا فساد العذاب يكون حاصل أمرها للفرقة والعداوة والتبرؤ كقوله تعالى: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف:38]، وقوله تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:67].

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ [البقرة:166-167]، فلما كانت أسباب مواصلاتهم فانية

دنياوية بالموت وفناء الدنيا تقطعت عنهم، ولكن لما كانت أسباب وصلة المؤمنين ومحبتهم ومتابعتهم مبنية على الدين المتين والحق المبين فلا ينقطع بانقطاع العمر وزوال الدنيا، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:257]، وقال تعالى: ﴿إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:47] بل محبتهم إذا كانت للحق بالحق فتسلب الأرواح والأملاك والأزواج والأولاد بالحبس في القبور وبأهوال القيامة، ولوقوف للسؤال والعبور على الصراط والورود في النار، وإن بقوا فيها طول الأعمار فلا يزدادون إلا محبة كلما قلب.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: 167 - 172].

ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّهِ﴾ [البقرة:165]، ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:167] أي: حاصل معاملاتهم يريهم بأنواع العذاب العقوبات والحسرات على ما فاتهم من الدرجات والقربات والكرامات، وفيه معنى آخر أن الله يراهم حاصل أعمال المؤمنين من المقامات العلية الدرجات الرفيقة ليزيدهم حسرات:

أَيُّهَا القَانِصُ مَا أَحْسَنْتَ صَيْدَ الظَّبَيَاتِ
فَاتَكَ السِّرْبُ وَمَا زُوِّدْتَ غَيْرَ الحَسَرَاتِ(1)

(1) البيتان الشريف الرضي، وهما من بحر «الرمل» من صورته المجزوءة.

﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:167]، الحسرة والقطيعة أبد الآباد.

ثم أخبر عن ما يدل المؤمنين على اتباع الخير واجتناب الشر بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً﴾ [البقرة:168]، الآيتين والإشارة فيهما أن أكل الحلال الطيب يورث القيام بطاعة الله والاجتناب عن اتباع خطوات الشيطان، والحلال ما أباح الله أكله والطيب ما لم يكن مشوبًا بالشبهة من حقوق الخلق، ولا بسرقة حظوظ النفس والدليل على ذلك ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾ [المؤمنون:51]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]، والإشارة فيه أن العمل الصالح نتيجة أكل الحلال الطيب، وإنما لم يذكر هنا الحلال لأنه يكتفي بالطيب من الحلال، فإنه لا يكون الطيب إلا أن يكون حلالاً على ما أدلنا هما فكل طيب حلال طيب، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، «ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبِّ يَا رَبِّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»(1) ذلك حديث صحيح أخرجه مسلم - رحمه الله - برواية أبي هريرة ﷺ فظهر الفرق بين الحلال وبين الطيب بأن الله طيب؛ يعني غير مشوب بعيب أو شبهة مثل ولا يقال له: إن الله حلال. وفي قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة:168] أي: أوامره، بيانه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة:169]، الإشارة فيها أن لا تتبعوا أوامره ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة:168]، واتبعوا أوامر الله ورسوله ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ﴾ [المائدة:55].

ثم فسر خطوات الشيطان وبين عداوته بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ﴾ [البقرة:169]، النفس ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:169]، فالسوء كل معصية فيها حظ النفس، بيانه قوله تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:53]، والنفس لا تأمر بما فيه حظها، والفحشاء كل معصية فيها حظ

---

(1) أخرجه أحمد (2/ 328، رقم 8330)، ومسلم (2/ 703، رقم 1015)، والترمذي (5/ 220، رقم 2989)، والدارمي (2/ 389، رقم 2717).

للشيطان وحظه في الإغواء والإضلال، بيانه قوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: 82] وقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ [النساء:119] وليس للشيطان حظ فيما فيه للنفس حظ؛ لأن الشيطان عدو للإنسان لا يرضى له أن يظفر بشيء من حظوظ الروحانية والنفسانية إلا بالاضطرار عند التعجز عن إضلال الإنسان وإغوائه على وجه يكون له قسمة خسارة الدنيا والآخرة، فيرضى له حينئذ بارتكاب معصية يكون فيها حظ من حظوظ النفس، وكذلك ليس حظ النفس فيما للشيطان فيه حظ من الضلالة والغواية إلا أن يمنيها الشيطان بـتبعية حظ من حظوظها كما قال: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ [النساء:119] فتقع النفس عن الضرورة في ورطة الضرورة بتبعية استيفاء حظها، فعلى هذا ثبت أن السوء اختصاص بما فيه للنفس حظ، ولو استعمل في غير ذلك ولهذا قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة:268]، والفحشاء من الضلالة والغواية وهي المعتقدات الفاسدة والشبهات العقلية ألقها الشيطان في قلوب أهل الزيغ والضلال والأهواء المختلفة عند حرمانهم عن أنوار متابعة الأنبياء - عليهم السلام - واستبدادهم بآرائهم واقتدائهم بعقولهم المعلولة بآفات الحسن والوهم والخيال وظلمة الطبع التي لا تفارق العقل إلا بظهور نور الشرع، فأوقعهم في أودية الهلاك مثل الفلاسفة والإباحية، فاعتقدوا شيئًا بين الكفر والإباحة والزندقة، فضلوا كثيرًا وأملى عليهم الشيطان بعض مقعدهم حتى تلفظوا بها، كما قال تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:33] يعني: ما لا علم بكم به من علم التوحيد الفطري ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ وأخذ عنهم الإقرار والعهد بها بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، قالوا: ﴿بَلَى﴾ أما هذا من لقاء الشيطان وإملائه بمثابة كيده كقوله: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: 183] تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ثم أخبر عن جهلهم في الاقتداء بتقليد الآباء بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة:170]، والإشارة فيها أنه لا عبرة من أمر الدين بتقليد الآباء، واتباع مذاهبهم كقوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، بل الواجب على العبد اتباع ما أنزل الله بصدق النية في الطلب، وخلوص الطوية في العمل،

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:170]، إشارة إلى قطع النظر عن أسلافه وأتباعهم واتباع أهل الأهواء المختلفة والبدع الذين لا يعقلون شيئًا من طريق الحق، وضلوا في تيه محبة الدنيا، ويدعون أنهم أهل العلم وأهل الخرقة، وليسوا من أهل الخرقة، واتخذوا العلم والخرقة حرفة ومكسبًا للمال والجاه، ويقطعون الطريق على أهل الطلب للطلب، كما قال في بعض الكتب المنزلة: لا تسألن عني عالم أسكرته حب الدنيا، فأولئك قطاع الطريق على عبادي ﴿وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ طريق الحق لأنفسهم ليرجعوا عما هم فيه من الحرص على الدنيا ومتابعة الهوى، وفيه إشارة أن من يكن على عبادة جادة الحق، وقدمه ثابتة على صراط مستقيم الشريعة، وعنده معرفة سلوك مقامات الطريقة، فيجوز الاقتداء به إذ هو من أهل الاهتداء على عالم الحقيقة دون مدعي الشيخوخة بطريق من الآباء، ولا حظ لهم من طريق الاهتداء، فإنهم لا يصلحون للاقتداء وهذا حال أكثر المشايخ في زماننا تاب الله عليهم وأصلح بالهم.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾

[البقرة: 173 - 178].

ثم أخبر عن إرادتهم عملاً وضرب لهم مثلاً بقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ﴾ [البقرة:172]، والإشارة فيها أن ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وكان في عالم الأرواح عند الميثاق إذ خاطبهم الحق بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، كمثل الذي ينعق بها لا يسمع ﴿إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً﴾، لأنهم كانوا في الصف الأخير؛ إذ الأرواح كانت جنود مجندة في أربعة صفوف، وكان في الصف الأول أرواح الأنبياء - عليهم السلام - وفي الثاني أرواح الأولياء، وفي الثالث أرواح المؤمنين، وفي الرابع أرواح الكافرين، فأخرجت الذرات التي استخرجت من ظهر آدم من ذرياته، وأقيمت كل ذرة بإزاء روحها، فخاطبهم الحق ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172]، قالوا: ﴿بَلَى﴾، فالأنبياء - عليهم السلام - سمعوا كلام الحق كفاحًا بلا واسطة، وشاهدوا أنوار جماله بلا حجاب، ولهذا استحقوا هاهنا النبوة والرسالة والمكالمة والوحي، الله أعلم حيث يجعل رسالته.

والأولياء سمعوا كلام الحق وشاهدوا أنوار جماله من أنوار حجاب أرواح الأنبياء ولهذا هاهنا احتاجوا إلى متابعة الأنبياء، فصاروا عند القيام بأداء حق متابعتهم مستحقي الكلام والإلهام من وراء الحجاب، والمؤمنون سمعوا خطاب الحق وراء حجاب أرواح الأنبياء وحجاب أرواح الأولياء، ولهذا هاهنا آمنوا بالغيب وقبلوا دعوة الأنبياء، وإن بلغتهم من وراء رسالة جبريل عليه السلام وحجاب رسالة الأنبياء فقالوا: سمعنا وأطعنا، ومما يدل على هذه التقريرات قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْياً﴾ [الشورى: 53]، يعني الأنبياء أو من وراء حجاب يعني الأولياء أو يرسل رسولاً يعني المؤمنين: والكفار لما سمعوا من الخطاب نداء من وراء الحجب الثلاث، كانوا كمثل الذي ينعق بها لا يسمع إلا دعاء ونداء، فما شاهدوا من أنوار جمال الحق لا قليلاً ولا كثيرًا ﴿ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ قرأت، وما فهموا شيئًا من كلام الحق إلا أنهم سمعوا من ذرات المؤمنين ومن وراء الحجاب لما قالوا ﴿بَلَى﴾ لتقليد بلى، ولهذا هاهنا قلدوا ما ألفوا عليه آباءهم كقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:22]، فلما تعلقت أرواحهم بالأجساد فكدرت بكدورات الحواس والقوى النفسانية وأظلمت

بظلمات الصفات الحيوانية ﴿رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:14]، من التمتعات البهيمية والحركات السبعية والأخلاق الشيطانية واللذات الجسمانية، فأصمهم الله وأعمى أبصارهم فهم الآن ﴿صُمٌّ﴾ [البقرة:171]، عن استماع دعوة الأنبياء ليسمع القلوب ﴿بُكْمٌ﴾ [البقرة:171]، عن قول الحق والإقرار بالتوحيد ﴿عُمْيٌ﴾ [البقرة: 171]، عن رؤية الآيات والمعجزات ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:171] لأنهم أبطلوا بالرين صفاء عقولهم الروحانية، وحرموا عن فيض الأنوار الربانية وأيضًا ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

ثم أخبر أن أكل الطيبات يورث الشكر والعبادات بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:172]، والإشارة فيها أن من فضل الله وكرمه مع المؤمنين أمرهم بأكل الطيبات كما أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة لفائدتين أحدهما: أن يكون أكلهم بالأمر لا بالطبع فيمتازون عن الحيوانات ويخرجون عن حجاب ظلمة الطبع بنور الشرع، والثانية: ليثبتهم بإتمار أمر الأكل كما ثبتهم بإتمار أمر الصلاة والزكاة، قال النبي ﷺ: «إن المؤمن يؤجر في كل شيء حتى اللقمة يضعها في فيه أو في امرأته»[1] قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:172]، فالحلال ما لا يتبعه عليه ما لا ترى المخلوق فيه منه، ولهذا قال: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يعني: أنا الرزاق لا غيري ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ [البقرة:172]، نتيجة أكل الطيبات بالأمر مع العلم بأن الله رزاق واشكروا الله على ما رزقه وفي قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:172]، إشارتان أحدهما: أن من شرط العبودية شكر المعبود في السراء والضراء والشدة والرخاء، والثاني: أن الشكر نوع من عبادة المعبود وإن أكثرهم شكرًا أكثرهم عبادة.

ثم أخبر عما حرم في الظاهر من المأكولات وفي الباطن من المألوفات بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ [البقرة:173]، والإشارة فيها إن كان حرم على الظواهر هذه المعدودات حرم على البواطن شهود غير الله من الموجودات، فالميتة

---

(1) ذكره العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (4/ 270).

هي جيفة الدنيا، كما قال قائلهم:

عَلَـيها كِـلابٌ هَمُّهُـنَّ اجتِـذابُها وَمـا هِـيَ إِلّا جِـيفَةٌ مُـستَحيلَةٌ
فَـإِن تَجتَنِـبها كُـنتَ سِـلماً لِأَهلِهـا وَإِن تَجـتَذِبها نازَعَـتكَ كِلابُهـا(1)

والدم هي الشهوات النفسانية، قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم»(2)، ولولا أن الشهوات في الدم مستكنة لما كان للشيطان إليه سبيلاً؛ ولهذا قال ﷺ: «سدوا مجاري الشيطان بالجوع»(3) لأن الجوع بقطع مادة الشهوات ولحم الخنزير إشارة إلى هوى النفس، وتشبيه النفس بالخنزير لفائدة حرصها وشرها وخيانة ظاهرة وباطنة ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ [البقرة:173]، هو كل ما يتقرب به إلى غير الله من الطاعات البدنية والخيرات المالية من غير إخلاص في الله، بل للرياء والسمعة في سبيل الهوى ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ [البقرة:173]، أما الضرورة حاجة النفسانية إلى شيء منها، وأما الضرورة أمر الشرع بإقامة أحكام الواجبات عليه فليشرع في شيء مما اضطر إليه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ [البقرة:173] أي: غير حريص للدنيا وجمعها في الحرام والحلال، وغير مولع على الشهوات بالحرام والحلال، وغير مقبل إلى استيفاء حظوظ النفس الحرام والحلال، وغير مواظب على الرياء في الطاعات والخيرات من السنن والبدع ﴿وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة:173] أي: متجاوزين من الدنيا حد القناعة وهي ما سد الجوعة وستر العورة، ومن الشهوة ما لا يحجبه عن الحق وإباحة الشرع، فإن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: «يا داود حذر وأنذر

---

(1) البيتان للإمام الشافعي، وهما من بحر «الطويل».

(2) حديث أنس: أخرجه أحمد (3/ 156، رقم 12614)، والبخاري في الأدب المفرد (ص 438، رقم 1288)، ومسلم (4/ 1712، رقم 2174)، وأبو داود (4/ 230، رقم 4719)، وأبو يعلى (6/ 186، رقم 3470)، والقضاعي (2/ 113، رقم 995).

حديث صفية: أخرجه أحمد (6/ 337، رقم 26905)، والبخاري (3/ 1195، رقم 3107)، ومسلم (4/ 1712، رقم 2175)، وأبو داود (2/ 333، رقم 2470)، وابن ماجه (1/ 566، رقم 1779). وإسحاق بن راهويه (1/ 258، رقم 8)، وعبد بن حميد (ص 449، رقم 1556)، وأبو يعلى (13/ 38، رقم 7121)، والطبراني (24/ 71، رقم 189).

(3) ذكره النيسابوري في تفسيره (1/ 406).

قومك من أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها محجوبة عني»[1] من حظوظ النفس ما يقيها عن الهلاك صورة ومعنى، ومن أحكام الشرع ما لا يزيد على الواجبات لإرادة الزهد والورع والعبادة والمجاهدة بالرياء للشهرة، بل لا يترك الواجبات وإن كانت مشوبة بهذه الآفات إقامة للعبودية، وإزالة لهذه الآفات وطلباً للإخلاص، فلو يزيد على الواجبات بهذه النيات في النوافل فحسن، وإلا فلا يزيد على الواجبات للرياء، فإن النبي ﷺ قال: «اليسير من الرياء شرك»[2] ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:173]، على من قام بهذه الشرائط، فمن لم يكن من المستهلكين في طريق الحق وصولاً، فلا يسلكن غير سبيل الشرع سبيلاً، فإما يكون محوًا في الله، أو يكون قائمًا بالله، أو يكون عاملاً لله، ولا يكون للرابع مجال حظ له ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:173]، يغفر للعالمين له بآثار الرحمة، والقائمين بأنوار الرحمة والماحين فيه بأوصاف الرحمة.

ثم أخبر عن حال من باع الدين بالدنيا في الآخرة والأولى بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [البقرة:174]، والإشارة فيها أن العلماء المداهنين الذين يكتمون ما أنزل الله من مواعظ القرآن والوعيد لأهل الظلم والعشق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وحفظ حدود الله ورفع العادات وترك الشهوات وزينة الحياة الدنيا وفتنتها ومحبتها، وإنما يكتمون على الملوك والأمراء والوزراء المفترين وأرباب الدنيا إما خوفاً عن ضياع مرتبتهم ونقصان قدمهم عندهم، وإما طمعًا في برهم معهم، أو لأنهم شركائهم في بعض أحوالهم من حب الدنيا وجمعها والحرص وطلبها، أو طلب مناصبها وحب رياستها، أو بالتنعم في المأكول والمشروب والملبوس والمركوب والمسكن والأواني وآلات البيت والأمتعة والزينة، في كل شيء والخدمة والحول وغير ذلك ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ﴾ [البقرة:174]، بالكتمان ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة:174]، إما من متاع الدنيا وهي متاع قليل،

(1) تقدم تخريجه.
(2) رواه الطبراني (20/ 153 ، رقم 321) ، والحاكم (4/ 364 ، رقم 7933) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (2/ 1320 ، رقم 3989)، والبيهقي في شعب الإيمان (5/ 328 ، رقم 6812).

وإما تمتعات الحياة الدنيوية الفانية ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة: 174]، والحرص والشهوة والحسد التي تطلع على الأفئدة وتأكل الحسنات القلبية والأخلاق الروحانية، وتحرقها وتمحوها، كما قال ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات كما يأكل النار الحطب»[1] فعبر عما يفسد الطاعات ويحبط الصالحات بالنار المناسبة في العمل، وهي في الحقيقة نار معنوية كنار الغضب كشعلة نار في الجسد.

واعلم أن كل عمل وفعل وقول يصدر من العبد على خلاف الشرع شرار يجتني من نار السعير، فيحصل في القلب العبد تلك النار في الحال وفي كل عمل وفعل يصدر من العبد على وفق الشرع نور يجتبى من نار المحبة، فيظهر في القلب فإذا استولت المحبة واشتعلت نارها تحرق كل محبوب غير الله في القلب، كما أن الحلو حرارة محرقة، فإذا أكل الرجل ذلك الحلو يحصل تلك الحرارة في المزاج في الحال ويحرق الرطوبات والأخلاط، فكذلك تحرق تلك النار في القلب الحسنات والأخلاق في الدنيا والآخرة تجلب المره وتضله السعير، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: 10]، فافهم جدًّا.

ولقوله ﷺ: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة يجرجر في بطنه نار جهنم»[2] يا قليل الفهم قصير النظر آمن بهذه الأشياء، وإن لم تفهمها كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: 44]، فالإيمان به واجب، وإن لم تفهمه ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: 174] لأنهم كتموا كلامه في الدنيا ولا كلموه بالصدق وكلموا غير الحق، فقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: 40]، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 174] لأن تزكية النفس للإنسان مقدرة من الإيمان، والأعمال الصالحة تصدق النية من تهذيب الأخلاق بآداب الشرع، فإن من لم يزكها في

---

(1) أخرجه أبو داود (4/ 276، رقم 4903). وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد (ص 418، رقم 1430)، والبيهقي في شعب الإيمان (5/ 266، رقم 6608).

(2) رواه الطبراني في «الصغير» (1/ 350)، وابن حبان في «صحيحه» (22/ 220)، والبيهقي في «الشعب» (5/ 208).

الدنيا، فقد خاب وخسر وحرم في الآخرة من تزكيتها بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:9-10]، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:174]، من كتمان الحق وحرمان مكالمة الله وتزكية لهم، ومن النار التي أكلوها في بطونهم وأشعلوها في بطونهم، ومن تصليتهم السعير.

ثم أخبر عن خسران تجارتهم بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْـهُدَى﴾ [البقرة:175]، إلى قوله تعالى: ﴿شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة:176] أشار فيها أنه أولئك المداهنون من العلماء هم الذين اشتروا الضلالة بحب الدنيا بهدى إظهار الحق وأثروا الخلق على الحق، والمداهنة على أفضل الجهاد، كقوله ﷺ: «إن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»[1] ﴿وَالْعَذَابَ بِالْـمَغْفِرَةِ﴾ [البقرة:175] أي: عذاب نار القطيعة والفرقة بمغفرة القربة والوصلة ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:175]، الهجران في دركات الخذلان والخسران ﴿ذَلِكَ﴾ [البقرة:176]، المداهنة منهم ﴿بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْـحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا﴾ أي: داهنوا ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ [البقرة:176] أي: في أحكام الكتاب ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة:176] أي: لفي خلاف باطل بعيد عن الحق، فإن بين الحق والباطل بونًا بعيدًا، وفيه معنى آخر وإن الذين اختلفوا ودهنوا اليوم هاهنا اختلافهم مقدر في الكتاب الأزلي والقضاء السرمدي، وإنهم لفي شقاق أي: ضلال بعيد من العهد الأول لا قريب من الآن، كما قال ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطاه فقد ضل»[2]، فهذا ضلال بعيد من خطاء الرشاش لا ضلالة قريبة من خطاء الأوباش.

ثم أخبر عن البر في عبودية الحق البر بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْـمَشْرِقِ وَالْـمَغْرِبِ﴾، والإشارة فيها أن ليس الاعتبار في البر بظواهر الأشياء

---

(1) رواه الطيالسي (ص 286، رقم 2156)، وأحمد (3/ 19، رقم 11159)، وعبد بن حميد (ص 273، رقم 864) والترمذي (4/ 483 ، رقم 2191) وقال: حسن صحيح . وأبو يعلى (2/ 352، رقم 1101) ، والحاكم (4/ 551 ، رقم 8543) ، والبيهقي في شعب الإيمان (6/ 309، رقم 8289) .

(2) تقدم تخريجه.

والمعاملات الفارغة عن الحقيق، ولكن الاعتبار بالبر الحقيقي ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ أي: من آمن بهداية الله التي عينها من العناية؛ لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ﴾ فمن كانت هذه الكتابة عائدة عليه لتجلي الحق تعالى لروحه بصفة المحبة في بدء وجوده، فتتنور الروح بنور المحبة فالروح صارت محبًا لمحبه، كما عبر عن هذا بقوله: ﴿وَيُحِبُّونَهُ﴾ فشاهد بذلك النور محبوبه وآمن بنور المحبة بوحدانية ومشاهد الأمور الأخروية وآمن بها، وكذلك ﴿وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ﴾ وفيه معنى آخر ليس البر بركم بتولية وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر الحقيقي هو بر الذي يبركم معكم بتوليه وجوه أرواحكم بجذبات المحبة قبل الحضرة الربوبية المحبوبية، فتؤمنوا بدلالات نور بري ومبرتي لكم كما ذكرنا في الحديث: «**إن الله تعالى إذا أحب عبدًا نادى جبريل عليه السلام: إني أحببت فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل عليه السلام ثم ينادي جبريل عليه السلام في أهل السماء: إن الله أحب فلانًا فأحبوه، فيحبوه أهل السماء**»(1)، وبر حبي لكم ليس بمحدث كحبكم معي، بل هو بر قديم في الكتاب العلم الأزلي والكلام السرمدي: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54] أي: يحبهم في الأزل ويحبونه في الأبد، يحبهم بأن بر معهم ببر محبته لهم ليبروا معه بحبهم إياه ببر محبة التي بر بها معهم، ويحبونه ولولا محبته لهم ما كانوا ليؤمنوا به ويحبوه أبدًا، فافهم جدًّا.

قوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:177] أي: بنور هذه المحبة يهتدي المحبون إلى أهل محبة محبوبهم، فإن الجنسية علة الغنم فيؤمنون بهم، ويتابعونهم حق المتابعة، فأظهر فوائد خصوصية هذا الإيمان، وأخبر عن ثمرات بذر بر حبه فيهم بقوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة:177] يعني: من ثمرات حبه إيتاء المال على حبه، والمال إشارة إلى ما يمال إليه غير الله، فمن نتائج بذر بر الحب إنفاق كل محبوب غير الله على حب الله؛ ليكون ثمرة بذر حب الله في النهاية بر الوصول إلى حضرة المحبوب لقوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:92] لأن ثمرة كل بذر في النهاية يكون من جنس بذرها في البداية، ولكن فيه معنى وخصوصية أخرى، ولهذا سُئل الجنيد رحمه الله: ما النهاية؟

---

(1) أخرجه البخاري (3/ 1175، رقم 3037)، ومسلم (4/ 2030، رقم 2637)، ومالك (2/ 953، رقم 1710)، وابن حبان (2/ 86، رقم 365)، والطبراني في الأوسط (5/ 179، رقم 5001).

قال:الرجوع إلى البداية في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾ [البقرة:177] معنى آخر، وهو إنما حصل للعبد من بر الحب ومال إلى البر من عواطف الحق وإحسانه، بتجلي أنوار صفاته يعطيه وينقصه على حب حبيبه بأداء حقوق الشريعة والطريقة بالمعاملات الطيبة والقالبية ﴿ذَوِي الْقُرْبَى﴾ [البقرة:177]، وهم الروح والقلب والسر والقربة الحق ﴿وَالْيَتَامَى﴾ [البقرة:177]، المتولدات من النفس الحيوانية الأمارة بالسوء إذا ماتت النفس عن صفاتها بسطوات تجلي صفات الحق، فثبت وبقيت منها يتامى المتولدات على الدوام من أوصاف البشرية ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ [البقرة:177]، وهي الأعضاء والجوارح ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:177]، القوى البشرية والحواس الخمس، فإنهم في التردد والشعر في عوالم المعقولات والمخيلات والموهومات والمحسوسات، وإنما ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة:177]، وهم الدواعي الحيوانية والروحانية ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة:177] أي: فك رقبة السر عن أسر تعلقات الكونين، وعتق رقبته عن عبودية ما في الدارين، فإن المكاتب عبد ما بقي درهم، فإذا تخلص السر عن أسر غير الله وعبوديته بدوام الرقبة، ولزوم المعاملة صار أهل المشاهدة ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ [البقرة:177]، المحاضرة مع الله بالله ﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [البقرة:177]، زكاة مواهب الحق إلى استحقاقها من الحق، فهم ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ [البقرة:177]، مع الله بالتوحيد والعبودية الخالصة يوم الميثاق ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ [البقرة:177]، وإنهم من الصابرين في بأساء مراعاة الحقوق ﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ [البقرة:177]، مخالفات الحظوظ وفناء الوجود عند بقاء الشهود ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة:177]، حين بأس سطوات الجلال لا لصبرهم بل لقيام الحق عنهم وبقائهم بصفات الجلال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ [البقرة:177]، ببذل الوجود وما عاهدوا الله عليه يوم الشهود كقوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:23] ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:177]، من ترك الأنانية بالاستهلاك في الهوية، وإن ما ينقضي الآن من فنون الإحسان ووجود فضائل الإيمان، وتصفية الأعمال وصلة الرحم والتمسك بفنون الذمم والعفو والوفاء بالعهود ومراعاة الحد وتعظيم الأثر كثير الخطر محبوب الحق شرعًا ومطلوبه أمرًا، ولكن قيام الحق عنك عند قيامك عنه،

وامتحانك من مشاهدتك لاستهلاكك في وجود القدم، وتعطيل رسولك عن ساكنات إحساسك أتم وأعلى في المعنى.

ثم أخبر عن اختصاص القصاص للعوام والخواص بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: 178]، والإشارة فيها أن الله تعالى كتب عليكم القصاص في قتلاكم، وكتب على نفسه الرحمة في قتلاه، وقال: «من أحبني قتلته ومن قتلته فأنا ديته»(1)، وفي قوله تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ﴾ [البقرة: 178]، إشارة إلى أن في قتلكم قصاص المثل بالمثل، وفي قتلاي لمن له المثل من الأمثل له، فلهذا لا يشبه قصاصي قصاصكم، فإن في قصاصكم موت الرجلين وفناء الشخصين، وفي قصاصي حياة الدارين وبقاء رب الثقلين ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: 178]، يشير على أن من عفا له من الأخيار والأصفياء شيء من أنواع البلاء في الابتلاء الذي هو موكل بالأنبياء والأولياء، فإنه معروف من معارف إحسانه وعطف من عواطف امتنانه والواجب على العبد أداء شكره إلى الله بإحسان، ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: 60] ومن عومل معه بدل البلاء بالنعماء وعوض الشدة بالرخاء ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [البقرة: 178]، الوفاء بملابسة الجفاء وإلقاء جلبات الحياء ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 178]، فإن الكفران عواقبه وخيمة.

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ

(1) ذكره حقي في تفسيره (1/ 390).

فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة: 179 - 184].

ثم أخبر عن فوائد القصاص للعوام والخواص بقوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 179]، والإشارة فيها أنها دالة على تحقيق ما ذكرنا أن في قصاصي سعادة الدارين، وإن من قتل بسيف الصدق عن تجلي صفات جلال الحق وأفنى من وجوده فله في القصاص حياة حقيقية؛ لأنه إذا تلف فيه فهو الخلف عنه وحياته به أتم له من بقائه بنفسه، ولهذا اختص بهذا أولي الألباب بقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تتقون عن شرك وجودكم ببذل قشر الروح الإنساني عند شهود الجلال الوحداني والجمال الصمداني؛ لتؤيدوا ببيت الروح الرباني لقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: 22] وتكونوا أولي الألباب لكم حياة هم لب قشر هذه الحياة الإنسانية؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]، وإذا كان الوارث عنكم الله والخلف عنكم الله، فبقاء الخلف خير لكم مما ورد عليه السلف تفهم إن شاء الله تعالى[1].

ثم أخبر أهل المال بالوصية وأمر أهل الحال ببذل الوجود بالكلية بقوله تعالى:

(1) قال الشيخ حقي: أي في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة لأنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة كما قتل مهلهل بن ربيعة بأخيه كليب حتى كاد يفني بكر بن وائل وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع فيما بينهم التشاجر والهرج والمرج وارتفاع الأمن، فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه أي حياة لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل إذا قتل لا يقدم على القتل وإذا قتل فقتل ارتدع غيره فكان القصاص سبب حياة نفسين أو أكثر وهو كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده فان ضدية شيء لآخر تستلزم أن يكون تحقق احدهما رافعا للآخر والقصاص لاستلزامه ارتفاع الحياة ضد لها وقد جعل ظرفا لها تشبيها له بالظرف الحقيقي من حيث إن المظروف إذا حواه الظرف لا يصيبه ما يخل به ويفسده ولا هو يتفرق ويتلاشى بنفسه كذلك القصاص يحمي الحياة من الآفات فكان من هذا الوجه بمنزلة الظرف لها ولا شك فيه إذ جعل الضد حامياً لضده اعتبار لطيف في غاية الحسن والغرابة التي هي من نكات البلاغة وطرقها (يا أولي الألباب) أي ذي العقول الخالصة من شوب الأوهام ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة:180]، والإشارة فيها أنه كتب على الأغيار الوصية بالمال، وكتب على الأولياء والوصية بالحال، والأغنياء يوصون في آخر أعمارهم بالثلاث والأولياء يخرجون من مبادئ أحوالهم عن الكل قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ إذا حضر أحدهم قلب مع الله ولموت نفسه بالإرادة عن الصفات الطبيعية الحيوانية، كما قال ﷺ: «موتوا قبل أن تموتوا»[1] أو ترك كل خير وشر مكان مشربها من الدنيا والعقبى، فعليها أن توصي ﴿بالْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ﴾ [البقرة:180]، وهما: الروح العلوي والبدن السفلي، فإن النفس تولدت وحصلت بازدواجهما، ﴿وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:180]، وهم: القلب والسر وباقي المتولدات البشرية بتركه وبترك كل مشرب يظهر لهم من المشارب الروحانية الباقية والمشارب الجسمانية الفانية، ﴿بِالْـمَعْرُوفِ﴾ [البقرة :180]؛ أي: بالاعتدال من غير إسراف يفضي إلى إتلاف محترز في الأحوال من الركون إلى شهوة من الشهوات، وفي الأعمال متجنبًا من الرسوم والعادات، كما أن النبي ﷺ قال: «بعثت لرفع العادات وترك الشهوات»[2]، وقال ﷺ : «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3]، ومن مكارم الأخلاق أن يجعل المشارب مشربًا واحدًا، والمذاهب مذهبًا واحدًا، كما قيل:

وكـلٌّ لـهُ سـؤالٌ وديـنٌ ومـذهبٌ   ووصـلكم مـسئولي وديني هواكمُ

وأنـتمُ مـن الدنـيا مـرادي وهمـي   مـناي مـناكم واختـياري رضاكمُ

وقوله تعالى: ﴿حَقًّا عَلَى الْـمُتَّقِينَ﴾[4] [البقرة:180]؛ يعني: ما ذكرنا من الوصية

(1) تقدم تخريجه.

(2) ذكره حقي (1/ 194).

(3) أخرجه البيهقي (10/ 191، رقم 20571).

(4) قال البقلي: هذا نداء لأصحاب القلوب، وخطاب مع طلاب هلال المشاهدة في أقطار سماوات الغيوب، أي: يا أهل اليقين فرض عليكم الإمساك عن الكون أصلاً؛ لأنكم في طلب المشاهدة، فواجب أن تصوموا عن مألوفات الطبيعة في مقام العبودية، كما كتب على المرسلين والنبيين والعارفين والمحبين من قبلكم لكي تتخلصوا من رجس البشرية، وتصلوا مقام الأمن والقربة.

بجملتها حق واجب على متقي الشرك الخفي، ولهذا قال تعالى على المتقين وما قال على المسلمين والمؤمنين؛ لأنهم أهل الظواهر، والمتقون هم أهل البواطن، كما قال ﷺ: «التقوى هاهنا، وأشار إلى صدره»(1).

واعلم أن القرآن أنزل لأهل البواطن كما أنزل لأهل الظواهر، والأحكام تحتمل النسخ كما نسخ هذه الآية في الوصية الظاهرة، وباطنة الحكم والحقائق فهي لا تحتمل النسخ أبدًا؛ ولهذا قال أهل المعاني: بأن ليس من القرآن شيء منسوخ؛ يعني: وإن دخل النسخ في أحكام ظاهره فلا يدخل في حكم باطنه فيكون أبدًا معمولاً بالمواعظ والحكم والأسرار والحقائق، ﴿حَقاً عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:241]؛ لأنه مخصوص بهداية المتقين كقوله تعالى: ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:2]، فحكم الوصية في حقكم غير منسوخ أبدًا كقول بعضهم:

مـــا دمـــتُ حـــيًا فـــإن أمـــت يحـــبك عظـــمٌ في الـــتراب رمـــيمُ

وقال بعضهم في الوصية: له الثلثان من قلبي، وثلثا ثلاثة الباقي، وثلاث ثلاث ما بقي، وثلثا الثلث للراقي، فجاز الساجد الراقي بثلث ثلثه الباقي، فيبقى السهم ست تجزي بين عشاقي.

ثم أخبر عن وبال التبديل لأهل التحصين بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ [البقرة:181]، الآيتين والإشارة فيهما أن من غير من الروح والقلب والسر الوصية الصادرة من نفسه الميتة عن أوصافها الذميمة الحيوانية عند شواهد الغيب وإزالة شوائب الريب إليه بترك المشارب الجزئية من المطالب الغيرية، ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾ بسمع القبول في ترك الفضول، وشم رائحة ورد المحبة بمشام الرغبة، وذاق زلال الوصال من مشارب الأعمال، فهبت عواطف الجلال بتغير الأحوال العزة والملك الكبير المتعال، فحجب بعد ما كوشف ورد ما خوطب، والبعد بعد ما كان قريبًا، وعاد الإسلام غريبًا كما بدأ غريبًا، ﴿فَإِنَّمَا إِثْمُهُ﴾ [البقرة:181] أي: جرمه وجنايته، ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ [البقرة :181]؛

(1) أخرجه أحمد (2/ 277، رقم 7713) ، ومسلم (4/ 1986 ، رقم 2564). والبيهقي (6/ 92 ، رقم 11276).

أي: على القلب والروح والسر، أو على الكل الذي يبدلون الوصية ترك مشاربهم الطبيعية الإنسانية، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ [البقرة:181] لهذه الوصية المرضية، ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:181] بما في النيات والطويات من الرجوع إلى مشارب الطبيعة بعد تنسم روائح نفحات الحقيقة، وإنما اختصت النفس بهذه الوصية؛ لمعنيين:

أحدهما: لأن الوصية مخصوصة بمن حضره الموت مخصوص بالنفس عند حضور القلب والروح والسر مع الله؛ لأن حياة النفس في موتهم، وموتها في حياتهم، وحياتهم بالحضور مع الله، وموتهم في بعدهم من الله؛ ولهذا قال الله تعالى في حق أهل البعد: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل:80]، وقال في حق أهل الحضور: ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس:70]، وحضور كل واحد منهم من الله يوجب حياته، والوصية مخصوصة بمن حضره الموت وهي: النفس على التحقيق.

والثاني: لأن النفس لمَّا انعكست عليها أنوار الحضور من مرآة القلب ظهرت لها خساسة صفاتها الذميمة الحيوانية الفانية، وذاقت حلاوة ونفاسة الصفات الحميدة الروحانية الباقية فاطمأنت إليها ورضيت بها، فترجع إلى ربها وتموت عن صفاتها، وتركت كل ما كان خيرًا عندها؛ لأنها علمت بالحقيقة ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ [النحل: 96]، فكتب عليها بقلم العلم الحقيقي الوصية على الإنسان عند الموت عن صفاته للوالدين والأقربين من الروح والبدن والقلب والسر يتعظوا بها ويقبلوا وصيتها كقوله ﷺ: «كفى بالموت واعظًا»[1]؛ لكن القلب والروح والسر كلهم من العالم الروحاني، وصفاتهم روحانية حميدة باقية، فترك مشاربها والخروج عنها صعب جدًا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البقرة :182]؛ أي: تفرس من هذه الوصية على الموصى له، ﴿جَنَفًا﴾ في ترك مشاربه بأن يبالغ في المجاهدات لنيل المشاهدات، أو تجاوزًا عن حد الشرع في رفع الطبع، ﴿فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:182]؛ يعني الروح والبدن والقلب والسر والوصية إلى العدل والحق؛ ولكن بنظر صاحب ولاية

(1) أخرجه أحمد في الزهد (ص 176)، والقضاعي (2/ 302، رقم 1410)، والبيهقي في شعب الإيمان (7/ 353، رقم 10556).

كامل؛ ليطرق سلوك طريق الحق؛ ليخرجهم من ظلمات الطبع، وهذا أحد أسرار بعثة الأنبياء عليهم السلام، فافهم جدًّا.

﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:183] أي: فلا حرج على المصلح بينهم فيما يواسيهم ويداري معهم ويرفق بهم ببعض الرخص، فإن الحمل على الصدق المحض لا يثبت له إلا قليل من المجذوبين، ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [البقرة:182] أي: يستر ما به يغان على قلب السالك عند فترة أو وقفة أو رخصة في رجوعه إلى الله بالاستغفار، ﴿رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 182]؛ أي: يلطف ويعطف به بالرحمة كقوله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة»(1).

ثم أخبر عن أحد أركان الوصية في الإمساك عن المشارب القلبية والقالبية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:183]، والإشارة فيها أن الصوم كما يكون للظاهر يكون للباطن، وباطن الخطاب يشير إلى صوم القلب والروح والسر، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ شهود أنوار الحضور مع الله كما سبق ذكرهم، فصوم القلب: صومه عن مشارب المعقولات، وصوم الروح: عن ملاحظة الروحانية، وصوم السر: صومه عن شهود غير الله، فمن أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق.

وفي قوله ﷺ: «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته»(2)، عند أهل التحقيق الهاء عائدة إلى الحق تعالى، فينبغي أن يكون صوم العبد ظاهرًا وباطنًا لرؤية الحق وإفطاره بالرؤية كما قال قائلهم:

لقد صامَ طرفي عن شهودِ سواكم   وحق له لما اعتراهُ نواكم

---

(1) أخرجه أحمد (4/ 211، رقم 17881)، وعبد بن حميد (ص 142، رقم 364)، ومسلم (4/ 2075، رقم 2702)، وأبو داود (2/ 84، رقم 1515)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 144، رقم 446)، وابن حبان (3/ 211، رقم 931)، والبغوي (1/ 124، رقم 89)، والطبراني (1/ 302، رقم 887).

(2) أخرجه البخاري (2/ 674، رقم 1810)، ومسلم (2/ 762، رقم 1081)، والنسائي (4/ 133، رقم 2117)، وابن حبان (8/ 238، رقم 3457)، وأحمد (2/ 430، رقم 9552).

يعيد قوم حين يبدو هلالهم ويبدو هلالُ الصب حين يراكمُ

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة:183]؛ أي: على كل عضو في الظاهر وعلى كل صفة في الباطن، فصوم اللسان: من الكذب والفحش والغيبة، وصوم العين: عن النظر في الغفلة والريبة، وصوم السمع: عن استماع المناهي والملاهي، وعلى هذا فقس الباقي، وصوم النفس: عن التمني والحرص والشهوات، وصوم القلب: عن حب الدنيا وزخارفها، وصوم الروح: عن نعيم الآخرة ولذاتها، وصوم السر: عن رؤية وجود غير الله تعالى وإثباته، ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة:183]، هي إشارة إلى أن أجزاء وجود الإنسان من الجسمانية والروحانية قبل التركيب صارت صائمة عن المشارب كلها، فلما تعلق الروح بالقالب صارت أجزاء القالب مستدعية للحظوظ الحيوانية والروحانية بقوة إمداد الروح، وصار الروح بقوة حواس القالب متمتعًا من المشارب الروحانية والحيوانية، فالآن كتب عليكم الصيام وهم مركبون، ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ من المفردات، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:183]، من مشارب المركبات، وتصومون فيها مع حصول استعداد الشرب؛ لتفطروا من مشارب يشرب بها عباد الله ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الإنسان:21] فيطهركم من طهورية هذا الشراب عن دنس استدعاء الحظوظ، طلعت شمس استدعاء حقوق اللقاء من مطلع الالتقاء فحينئذ يتحقق إنجاز ما وعد سيد الأنبياء بقولهﷺ: «للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه»[1].

ثم أخبر عن كمال لطفه مع العباد بتقليل الأعداد في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:184]، إلى قوله تعالى: ﴿وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:185].

الإشارة فيها: أن صومكم في أيام قلائل معدودة متناهية، وثمرات صومكم وفوائدها من أيام غير معدودة ولا متناهية، فلا يهولنكم سماع ذكره وهذا كقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:78].

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ [البقرة:184]؛ أي: وقع له فترة من

(1) أخرجه أحمد (2/ 477، رقم 10178)، ومسلم (2/ 807، رقم 1151)، وابن ماجه (1/ 525، رقم 1638)، والنسائي (4/ 164، رقم 2218).

السلوك لمرض عارض قلبه من غلبات صفات النفس وداعي البشرية وكسل الطبيعة فانحرف خارج القلب، ﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [البقرة:184]، أو وقع له أثناء السلوك من العجز عن القيام بأعباء أحكام الحقيقة، فليمهل حتى تشتد إرادته وتقوى جرأته وتدركه العناية ويعالج سقمه بمعاجين الألطاف، ويزيل مرضه بملينات الألطاف، ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة :184]؛ يعني: في أيام سلامة القلب وزوال المرض فيستدرك ما فاته بالأخذ بالتأويل وما رخص له في التسهيل كما قال تعالى لأهل الرخص: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:16].

وقال تعالى لأهل العزائم: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:12] وذلك سنة من الله في التسهيل لأهل البداية، ثم استيفاء ذلك عنهم وواجب في آخر الحالة، ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ﴾ [البقرة:184]؛ أي: على من كان له قوة في صدق الطلب وهمة علية في المقصد واجبة لما أفطروا، وإن إمساك الهمة عن المشارب بالالتفات إلى بعض المطالب فرجع تسهيلات الشريعة عن شارب الحقيقة، ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة:184]، إشارة إلى أن كل مشرب ألطاف الحق؛ يعني: المسكين من يكون مشربه غير ما عند الله، وفيه إشارة إلى أن كفارته ما يكون ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ فيعطيه المساكين بالخروج عما سوى الله، ويواصل الصوم ولا يفطر إلا على طعام مواهب الحق وشرب مشاربه، كما كان النبي ﷺ يواصل ويقول: «إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»(1)، ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ [البقرة :184]؛ أي: فمن زاد في الغذاء؛ يعني: كلما فطر عن مشرب فلا بد سقي من مشرب فيغذي ذلك المشرب أيضًا، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ﴾ [البقرة:184]، أن يصير مشربه ترك المشارب كلها ودوام الصوم كقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:184]؛ يعني: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:184]، أن فوق كل مشرب آخر إلى ما لا يتناهى؛ ولهذا قال ﷺ: «من استوى يوماه فهو مغبون»(2) وفيه إشارة أخرى وهي: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي﴾ [البقرة:185]، شهر النصب على قراءة من قرأها؛ يعني: وإن تصوموا على

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه أبو نعيم (8/ 35).

المشارب كلها ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما اختص به، ﴿أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: 185] فمعناه: وأن من يكون حاله كحال رمضان في إدامة الصوم فينزل فيه حقائق القرآن؛ ليكون على مأدبة الله لا على معنى أن يأكل من المأدبة فإنه دائم الصوم، ولكن المأدبة تأكله تفنيه عن خلق الخلقية وتبقيه بخلق الخالقية، كما كان حال النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:4] والعظيم هو الله، فافهم جدًا.

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة: 185 - 190].

ولما سئلت عائشة رضي الله عنها ما كان خلق النبي ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»[1] فهنا ينقطع سير السالك فيكون السير بحقائق القرآن فيه يهديه من خلق إلى خلق، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْـهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة:185].

ثم أخبر عن وجوب الصوم عند شهود الشهر التام بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة:185]، الإشارة فيها أنه ذكر بعد قوله: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إن تدومون على إمساك النهمة عن المشارب كلها إن كنتم تعرفون قدر شهر

(1) رواه أحمد في المسند (56/ 173).

رمضان؛ وهو: عبارة عن دوام الصوم الحقيقي، ﴿الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ كما مر ذكره، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ﴾ [البقرة:185]؛ أي: من أدرك مؤنة دوام الإمساك عن المشارب بالكلية، ﴿فَلْيَصُمْهُ﴾؛ أي: فله دوام على ملازمة الإمساك لقوله ﷺ: لحارثة ﷺ «أصبت فالزم»[1]، وقال أبو يزيد- رحمه الله-: ناداني ربي، وقال: اترك نفسك ولازم بدك، فإن رمضان يرمض ذنوب قوم، فشهود رمضان الحقيقي يحرق وجود قوم، فشتان بين من يحرق ذنوبه رحمته وبين من يحرق رسوم حقيقته؛ وفيه معنى آخر وهو أن من كان منكم شاهدًا الشهر وحاضره لا غائب الشهر حاضره فليصمه، ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا﴾ [البقرة:185] بمرض الفترة والغفلات ﴿أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ [البقرة :185] من وقفات السلوك السالك، ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:185]، الرغبات وصحة صدق النيات والرجوع إلى مقام القربات بتصرف الجذبات فيقضي فيها ما فاته ويحيي فيها ما أماته.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:185]، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:5] فيريد بكم اليسر الذي هو مع العسر، فلا تنظر في امتثال الأوامر إلى العسر ولكن انظر إلى اليسر الذي مع العسر، فإن العاقل الذي ينظر مرارة الشراب فيتركه ولكن ينظر إلى حلاوة الصحة ولا يبالي بمرارة الشراب فيشربه بقوة الهمة؛ وفيه معنى آخر أنه ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ إذا هداكم للإيمان وبعث إليكم الرسول؛ لتؤمنوا به وأنزل معه القرآن وخاطبكم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ [البقرة:183]، ثم وفقكم لإعطاء حق ما وجب عليكم واتقاء مخالفة ما كتب عليكم والتصديق بالحسنى التي وعدكم بها، اليسرى وهي ما أراد به من اليسر لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل:5-7]، ومن يرد الله به العسر لم يوفقه لإعطاء حق الإيمان؛ ليبخل به ولاتقاء مخالفة ما وجب عليه ليستغني ولا للتصديق؛ ليكذب بالحسنى؛ لكي ييسره للعسرى؛ وهي ما أراد به من العسر كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل:8-10]،

---

(1) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (1/ 65).

ومن أمارات أنه أراد بعبده اليسر أنه أقامه لطلب اليسر، ولو لم يرد به اليسر لما جعله طالبًا لليسر هاربًا من العسر، قال قائلهم:

لو لم ترد نيلَ ما أرجو وأطلبهُ ... من فيضِ جودك ما علمتني الطلّبا

حقق رجاء أهل الوفاء للعطاء وأقلق قلوب العشاق ببلوغ اليسر، حيث قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة:185]، وأزال عن صدور العابدين الشجون، وأزاح عن قلوب المحبين بجوزات الظنون، حيث قال: ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة :185]، قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ [البقرة:185] أنواع الغاية بجذبات ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ ولتتموا عدة أيام الطلب بمبليات، ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ﴾ [البقرة:185]؛ أي: ولتعظموا الله عن الانفصال والاتصال، ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة: 185] إلى عالم الوصال بتجلي صفات الجمال، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:185] أي: ولكي تشكروا نعمة الوصال بأداء حق التنزيه لذات ذي الجلال في تحقيق ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام:91] أهل الكمال.

ثم أخبر أنه مع عظم الشأن قريب بالإحسان بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة:186]، والإشارة فيها أن من يكون مخصوصًا بخصوصية عبادي يكون سؤالهم عني لا عن غيري؛ ولأنه ﴿إِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾؛ أي: إنما كان سؤالهم عني حين سألوك؛ لأني كنت قريبًا باللطف إليهم أقرب إليهم منهم بهم كقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:16]، ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:186]؛ أي: صفتي أني أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ، ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ [البقرة:186]، كما إني أجيب لهم إذا دعوني؛ ليكونوا موصوفين بصفتي في الإجابة؛ ﴿وَلْيُؤْمِنُوا﴾ [البقرة:186]، إجابتهم أن يؤمنوا ﴿بِي﴾ [البقرة:186] بمعنى الطلب؛ أي: يطلبوني ولا يطلبون من غيري، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:186]؛ لكي يهتدوا بي؛ إذ يسألونك عني ولا يسألونك عن غيري، كما أن قومًا ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: 1]، وقومًا ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة:220]، وقومًا ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء:85] فإن قيل فلم لا تستجاب بعض الأدعية وقد وعد الله الإجابة بقوله:

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:186]، وبقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، فالجواب عنه إنها لا تستجاب بعض الأدعية؛ لأن الداعي ترك بعض أركانه وشروطه، فإن للدعاء المستجاب أسبابًا وشرائطًا وهي كثيرة منها ما يتعلق بالعموم كما مر ذكر بعضها وليس هاهنا موضعه، ومنها ما يتعلق بالخصوص وهي التزكية والتحلية، والإجابة موثوقة على تزكية الداعي فعليه أن يزكى البدن أولاً فليصلحه ولو بلقمة الحلال، فقد قيل: الدعاء مفتاح باب السماء، وأسنانه لقم الحلال، وقال النبي ﷺ: «الرجل يطيل السفر يمد يده إلى السماء أشعث أغبر يقول: يا رب يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»(1) ويزكي نفسه ويطهرها عن أوصاف البشرية والأخلاق الذميمة فإنه هو الأصل في الاستجابة؛ لكونها قاطعات لطريق الدعاء وفي الحديث: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب»(2)، ويزكي نفسه عن رين تعلقات الإنسان من النفساني والروحاني ويصفيه بالأذكار، وينوره بنور الأخلاق الرباني، فإن هذه أسباب القربة؛ لرفع الدعاء إلى الله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:10] ويزكي الروح عن دنس التفات لغيره؛ ليتعرض لنفحات ألطاف الحق، ويزكي السر عن وخيمة الشرك بتوجهه إلى الحق في الدعاء؛ لطلب الحق لا لطلب غير الحق؛ ليستجاب دعاؤه ولا يخيب رجاؤه، كما قال تعالى: «ألا من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني»(3)، وإن الله تعالى وعد الإجابة بالدعاء فإني ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾؛ أي: دعاءه، ﴿إِذَا دَعَانِ﴾؛ أي: إذا طلبني، وكذا قال تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:60]؛ أي: أطلبوني.

وقال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:62]، والمضطر من لم يكن له غير الله أن يطلبه من الله فيكون مضطرًا في طلب الله من الله فلا يطلب من الله غير الله، فمن أضل ببعض هذه الشرائط في الدعاء فلم يلزمه الإجابة كمن أضل بركن من أركان

---

(1) رواه مسلم (6/ 336)، وأحمد (18/ 101)، والترمذي (11/ 226).

(2) رواه مسلم (6/ 336)، وأحمد (18/ 101).

(3) رواه أبو نعيم في «الحلية» (10/ 193).

الصلاة، لم يلزمه القبول إلا أنه الجبار فيجبر كل خليل وكسر يكون في أعمال العباد وبفضله وكرمه، وفي الحقيقة أن إفضاله مع العباد مقدم على أعمالهم، وإنه ليعطي قبل السؤال ويتحقق مراد العبد بعد سؤاله بجميع النوال.

ثم أخبر عن تفضله بالنوال قبل السؤال بقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ [البقرة:187]، والإشارة في تحقيق الآية أن لخواص الإنسان بحسب تركيبهم من الروحاني والحيواني تلونًا في الأحوال لا بد لهم منه، فتارة يكونون بحكم غلبات الصفات الروحانية والواردات الربانية في ضياء نهار الروحانية النورانية، ففي تلك الحالة لهم سكر يغنيهم عن المشارب النفسانية، فيصومون عن الحظوظ الإنسانية، وبقوا مع تلك الحالة لتلاشت نفوسهم بسطوات صفات الجلال، وطاشت أرواحهم، وما عاشت أبدانهم، كما منَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ [القصص:72].

وتارة يكون بحسب الدواعي والحاجات الحيوانية مردودين إلى ليلة ظلمات الصفات الإنسانية، وفي تلك الحالة لهم صحو يعيدهم إلى أحكام عادات طبائع الحيوانية، ولو بقوا على تلك الحالة لماتت قلوبهم بهجوم الآفات وفات لهم من الحقوق ما فات، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القصص: 72]، فخصهم الله تعالى بنهار في كشف أستار الرحمة؛ ليسكنوا فيها ويستريحوا بها.

وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ [البقرة:187]؛ أي: ليلة تستريحون فيها وتستعدون لصيام غداتها؛ يعني: إن لم يكن ليلة الصيام ما أحل لكم فيها ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾، وهي التمتعات النفسانية من الأمتعة الدنياوية المسخرة للنفس؛ لنفوذ تصرفها فيها تصرف الرجال في النساء لاستيفاء الحظوظ تقوية على أداء الحقوق ولا تكون مسخرة لها؛ لينفذ فيها تصرفها، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:187]؛ أي: التمتعات بالحظوظ الإنسانية ستر لكم؛ ليحميكم عن حرارة شموس الشهود بلباس ظلمات صفات الوجود؛ كيلا تحرقكم سطوات تجلي صفات الجلال، ﴿وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ [البقرة:187]؛ أي: بلباس صفاتكم الحميدة وأنوار أعمالكم الصالحة تسترون معايب الدنيا وتمتعاتكم بمتاع

شهوات النفس ولذاتها؛ لقوله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح»(1)، والمال هو الملعون الذي قال ﷺ فيه: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه»(2)، فصار الملعون صالحًا ولقب بنعم إذا آمن بصلاح الرجل الصالح.

﴿عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ﴾ [البقرة:187] في خصوصية البشرية، ﴿تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:187] باستيفاء حظوظكم الحيوانية في ليالي الطلب من ضعفكم واستيلاء شهواتكم، ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:187] بنظر العناية إلى قلوبكم، ﴿وَعَفَا عَنكُمْ﴾ [البقرة:187]؛ أي: محا آثار ظلمات صفاتكم بأنوار هدايته عنكم، ﴿فَالآنَ﴾ [البقرة: 187]؛ أي: في هذه الحالة، ﴿بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة:187]، رخص لكم في مباشرة الحظوظ النفسانية بقدر الحاجة للضرورة الإنسانية بالأمر لا بالطبع، ﴿وَابْتَغُوا﴾ [البقرة:187] بقوة هذه المباشرة، ﴿مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:187] من المقامات العلية والدرجات الرفيعة، ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ [البقرة:187]؛ أي: تمتعوا بالحظوظ؛ لرفع الحاجات الإنسانية في ليالي الصحو، ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة:187]؛ أي: تظهر آثار أنوار شمس صفات الجلال وتمحو ظلمات الصفات والآمال في نهار السكر، ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ﴾ [البقرة:187]، بالامتناع عن الاستمتاع عن المشارب الروحانية والحيوانية، ﴿إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة:187]؛ أي: ليل الصحو بعد السكر.

فكما أن الرزق منقسم إلى حالة قبض وإلى حالة بسط، فالأحوال أيضًا تنقسم إلى قبض وبسط وزيادة ونقص وجدب وخصب وفرق وجمع وأخذ ورد وكشف وستر وصحو وإثبات ومحو وفناء وبقاء وتلوين وتمكين، قال قائلهم:

كان سناءً لم يزل إذًا أبدا ... كان سناءً لم يكن إذا مضى

وقيل:

إذا أكرمتني بتجلي لطف ... كأني لم أزل منكم سقيًا

(1) رواه أحمد في المسند (38/ 285)، والبخاري في «الأدب المفرد» (1/ 112).

(2) رواه الترمذي (4/ 561 رقم 2322)، وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (2/ 1377 رقم 4112).

فـــإن فاجـــأني بخفـــي مكـــرٍ كـــأني لم أجـــد مـــنكمُ نـــسيًا

﴿ولا تباشروهن﴾ أي: وتشغلوا القلوب بالحظوظ، ولا الأرواح بالاسترواح، ولا الأسرار بالاستظهار عن الأغيار، ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْـمَسَاجِدِ﴾ [البقرة:187]؛ أي: مقيمون في مقامات القربة والوصلة، مجاورون في حظائر القدس ومجالس الأنس؛ يعني: عند احتياج النفس بالضروريات الإنسانية في بعض الأوقات وإشغالها بها، كونوا بالضرورة فيها، وبالقلوب والأرواح والأسرار كائنين مع الحق بعيدين عن الخلق، وهذا مقام أهل التمكين، فإنكم إن كنتم مشاغيل بنفوسكم كنتم محجوبين فيكم بكم عنا، وإذا كنتم قائمين بنا فينا فلا تعودوا منا إليكم، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ [البقرة:187]؛ أي: تلك القربة والوصلة والاعتكاف والتبتل إلى الله حدود الله، ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:187]، بالخروج عنها يا أهل الكشوف والعكوف، ولا تقربوها بالدخول فيها يا أهل الكسوف والخسوف.

بأي نواحي الأرض أبغي وصالكم وأنتم ملوك ما لقصدكم نحو

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ﴾ [البقرة:187] يظهر الله، ﴿آيَاتِهِ﴾ [البقرة:187] ودلائله وبراهينه، ﴿لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:187] أهل الصدق والطلب، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 187] بأنوار العواطف والجود عن ظلمات شركة الوجود.

ثم أخبر عن فساد الأحوال من أكل الأموال بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة:188]، والإشارة فيها أن الأموال خلقت لمصالح قوام النفس، وأن النفس خلقت للقيام بمراسم العبودية؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْـجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:56]، ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْـمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْـجَنَّةَ﴾ [التوبة:111]؛ ليعلموا أن ليس لهم الأموال والأنفس وإنما هي لله، فلا تتصرفوا في الأموال والأنفس إلا بأمر الله تعالى، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:188]؛ أي: الأموال التي اشترى الله منكم بالباطل؛ أي: بهوى النفس والحرص والشهوة والإسراف على الغفلة، وكلوا بالحق بالأمر بالقناعة والتقوية على الطاعة والقيام بالعبودية.

﴿وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ﴾ [البقرة:188]؛ أي: ولا تدلوا إلى الحكام؛ وهي: النفس الأمارة بالسوء، ﴿لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ [البقرة:188]؛ أي: من الأموال التي خلقت للاستعانة على العبودية ،﴿بالإِثْمِ﴾ [البقرة:188]؛ أي: بالقطيعة والغفلة مستعينًا بها على المعصية كالحيوانات والبهائم؛ لتأكلوا بحظ النفس البهيمية فيكون حالكم ومرجعكم ومثواكم النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:12]، ﴿وأنتم تعلمون﴾ حاصل الأمر ولا تعملون.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: 189 - 190].

ثم أخبر عن سير الأخيار وسير الأبرار بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ [البقرة:189]، والإشارة فيها أن الأهلة ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:189]؛ أي: للناس فيها اختيار كاشتغال كل طائفة بما هو أهله في تلك المواقيت على تفاوت أعمالهم، ومواقيت هذا القوم في تفاوت أحوالهم، فللزاهدين مواقيت أورادهم، وللصادقين مواقيت مراقباتهم، ﴿وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:189]، إشارة إلى ما يرد بحكم الوقت على الصديقين من غير أخيارهم، ومن المحبوب على المحبين من غير اختيارهم بل باضطرارهم، فللصديقين مواقيت أوقاتهم، فمن كان وقته الصحو كان قياماً بالشريعة، ومن كان وقته المحو، فالغالب أحكام الحقيقة، وللمحبين مواقيت أوصاف محبوبهم، فإن خرجوا عن وصف وجودهم ودخلوا في حكم وصف محبوبهم والله غالب على أمرهم؛ فهو من إحساس أحكام البشرية واستيلاء سلطان الحقيقة، فإن تجلى لهم بوصف الجلال طاشوا، وإن تجلى لهم بوصف الجمال عاشوا(1).

(1) قال البقلي في تفسير الآية: أي: يسألونك طيور أطيار بساتين الغيب عن نقصان هلال المشاهدة عند الفترة، وزيادتها عند الكشوف بنعت تجلّي الأسرار؛ لأنهم إذا غابوا في أوصاف أحكام العبودية احتجبوا بها عن رؤية مشهود الغيب، وإذا خرجوا من وطنات أزمة الابتلاء، رأوا في سماء اليقين نواد
-

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة:189]، فيه إشارة إلى أن لكل شيء سببًا ومدخلاً لا يمكن الوصول إليه ولا الدخول إلا باتباع ذلك السبب والدخول؛ لقوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا * فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف:84-85]، نسب الوصول إلى حضرة الربوبية، والمدخل فيها هو التقوى اسم جامع لكل بر من أعمال الظاهر وأحوال الباطن، والقيام باتباع الموافقات واجتناب المخالفات وتصفية الضمائر ومراقبة السرائر، فبقدر السلوك في مراتب القوى يكون الوصول إلى حضرة المولى كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:13]، وقال ﷺ: «عليكم بتقوى الله فإنه جامع كل خير»[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ [البقرة:189]؛ أي: غير مدخلها بمحافظة ظواهر الأعمال من رعاية حقوق بواطنها بتقوى الأحوال، ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة:189]؛ أي: حق التقوى؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:102]، وقيل في معناه أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة:189]؛ أي: ادخلوا الأمور من مداخلها.

ثم ذكر مدخل القبول وقال: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [البقرة:189]؛ أي: اتقوا بالله عما سواه، يقال: فلان اتقى بربه؛ يعني: اجعلوا نحوركم ومتقاكم مفركم ومفزعكم

أنوار أقمار الصفات، فتاهوا عند ذهاب عقولهم في مجلس الخاص تحت حضيض سوانح الكبراء، وطاشوا في هوب البليات من تراكم سحاب الوجد عند تدريها مزن الشوق، فتحيروا بين المنزلين، واستفتوا من أشرف خلق الله حسام حكم الله رئيس البرية محمد عن مرسوم هذه الأوصاف كي يخلصوا عن أركان الشواهد بعد جمع الجمع في قلوبهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ وقال: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ أي: لهذه الأحوال المتشتتة في كشوف عز السرمدية وذات الأبدية عيانًا وغيبًا لمواقيت الأرواح في طيرانها إلى أعلى المقامات على ترتيبها، وظهور أوقات المواجيد، وقصورها إلى عالم الصفات، لشوق الله تعالى كشف القربة على قدر شوق الشائقين حتى علموا أحكام العبودية في الربوبية، والربوبية في العبودية على قدر بدء الأحوال، وكشف الصفات؛ لأن العارف محتاج إلى حقيقة علم الأحوال والآداب فيها ليستعملها بقدر وجدان أنوار القربة، وصفات المشاهدة.

(1) ذكره حقي في تفسيره (1/ 416).

ومرجعكم منه إليه، كما كان حال النبي ﷺ يقول: «أعوذ بك منك»[1]، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:189]؛ لكي تنجو وتتخلصوا من مهالك النفوس بإعانة الملك القدوس.

ثم أخبر عن النجاة وطريق نيل الدرجات بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة:190]، والإشارة في تحقيق الآية أن قاتلوا من يمنعكم عن السير في سبيل الله، أو أراد أن يقطع عليكم طريقه من شياطين الأنس والجن حتى نفوسكم، وإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول إذا رجع من جهاد: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[2]، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة:190]؛ أي: لا تجاوزوا عن حد الشرع، فتجاهدوا بالطبع ولكن كونوا قانتين على قدم الاستقامة بقدر الاستطاعة، وهو أن تقفوا حيث ما توقفون، وتفعلوا ما به تؤمرون، ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:190]، فلا تجمعون طرفي الإفراط والتفريط.

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾﴾ [البقرة: 191 - 192].

ثم أخبر عن إقامة حق الاستقامة بقوله تعالى: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة:191]، إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:193] والإشارة فيها: ﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ﴾؛ أي: اقتلوا الكافر النفس وهواها من قلوبكم كما أخرجتكم من جمعية القلب وحضوره، ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:191]؛ يعني: المحنة التي ترد على القلوب من طوارق فتنة النفس؛ لتحجبها عن الله أشد من المحن التي ترد على النفوس من القتل بمخالفة هواها، فإن حياتها بمألوفاتها، وحياة القلب لا تكون إلا بالله، ﴿وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:191]؛ يعني: لا تلتفتوا إلى النفس وصفاتها حتى تكونوا آمنين مطمئنين في مقامات القلب

(1) رواه الحاكم في «المستدرك» (1/ 449)، والنسائي في «السنن» (1/ 452).

(2) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (2/ 345).

والروح، ولا تنازعوهم مما نازعوكم، وكونوا مراقبين أحوالكم وحضور قلوبكم مع الله، ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ﴾ [البقرة:191]؛ أي: يزاحمونكم في الحضور، ويسمونكم بالهواجس ودواعي الهوى، ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ﴾ [البقرة:191]، نازعوكم في الجمعية والحضور، ﴿فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:191]، بسيف الصدق، واقطعوا ثائرة تلك الدواعي عن نفوسكم بكل ما أمكن؛ لئلا تبقى لكم علاقة تصدكم عن ذكر الله.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:192]؛ يعني: إذا انقطع عنكم مزاحمة النفس وهواها وانخمدت نار شهواتها وسكنت دواعيها وقنعت بها لا بد لها فصارت كالذمي لا يجوز أذيتها، فدعوها مع ذاتها وإعطاء جزيتها بأداء الحقوق وترك الفضول في الحظوظ، ولا تؤذوها بالقلق في مجاهداتها، وإن من طولب بحفظه الأسرار لا يفرغ إلى مجاهدات النفوس بل المطلوب فراغ القلب عما سواه وحضوره مع مولاه.

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: 193 - 196].

وإنما تعذب النفوس؛ لرفع فتنتها بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:193] وفتنتها معارضتها ومنازعتها مع القلب بدواعيها وشهواتها، وشربها عن شاربها، فعلاجها بمباشرة أضدادها حتى يصح مزاجها في العبودية ولا تبقى معها آثار البشرية(1)، ﴿وَيَكُونَ﴾ [البقرة:193]، استسلامها، ﴿الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:193]، فلا

(1) قال الشيخ روزبهان: أي: حاربوا أنفسكم على دوام الرعاية لأوقاتكم بنعت تصفية أحوالكم عن دنس

تعارض لحكم من الأحكام، ولا تنازع في شيء مما يرويه الإسلام، ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ [البقرة: 193]، فإن استسلمت النفوس ﴿فَلَا عُدْوَانَ﴾ [البقرة:193]؛ أي: الجور والتعذيب، ﴿إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:193]، الذين يعبدون الهوى والدنيا من دون المولى.

ثم أخبر عن اعتداء أهل الهوى ومجازاتهم بالاعتداء بقوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:194]، أشار فيها أن يفوتكم من الأوقات بتوالي النفوس ونزاعها وغلبات صفاتها واستيلائها فتداركوه؛ الشهر بالشهر، واليوم باليوم، والساعة بالساعة، والوقت بالوقت، والأوراد بالأوراد، ﴿وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ﴾ [البقرة:194]، واقضوا الغاية، واقتصوا الحقوق.

﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:194]؛ يعني: كل صفة من صفات النفس إذا غلبت واستولت عليكم، ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ [البقرة:194]، وعالجوها بضدها، فإن غلبت بالبخل عالجوها بالسخاء، وإن غلبت بالغضب عالجوها بالحلم، وإن غلبت بالحرص عالجوها بالترك والزهد، وإن غلبت بالشهوة عالجوها بالرياضة والعقلة، فعلى هذا فقس الباقي، ﴿بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:194]، فاعتدوا عليها حتى تغلبوا عليها، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة:194]، في إفراط الاعتداء والاحتراز عن هلاك النفس بكثرة المجاهدات، وفي تفريط الاعتداء اجتنابًا من الركون إلى شهوات النفس ومواقفها في المخالفات وهلاكها في فرط الآفات، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:194]، بالنصرة إلى جهاد النفس وقهرها، ومنعها من الاعتداء بالتوفيق للاتقاء.

﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:195]، من الأموال والأنفس التي اشتراها الله منكم كقوله تعالى: ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [الصف:11]، ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:195]، في جهاد النفس بإفراط

- الطبيعة، وخبث الجبلة، وإزالة أوصاف البشرية حتى لا يكون وقوع خطرات العدو في ديوان الأسرار يعني الصدور الصافية، والقلوب النقية المنورة بنور الأحدية، ويكون بعد جمع الهم أسراركم وطنات مكاشفات القربة، وحقائق الإيمان تستولي على بواطن حقيقة النفوس بنعت انفراد الأسرار بين يدي العزيز الغفار.

الاعتداء وتفريطه، ولا في جهاد الكفار بالإفراط بأن يبارز واحد على رهط، ولا بالتفريط بأن يفر واحد من الاثنين، وأيضًا: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ بالتفريط في الحقوق ولا بالإفراط بالحظوظ، وأيضًا: بموافقات النفوس ومخالفات النصوص، وأيضًا: بترك النفوس وتخلية القلوب، وأيضًا: بملاحظة الأعمال في استجلاء الأحوال، وأيضًا: بالركون إلى الفتور بالحسان والغرور.

﴿وَأَحْسِنُوا﴾ [البقرة:195]، مع نفوسكم بوقايتها عن نار الشهوات، ومع قلوبكم برعايتها عن دين الغفلات، ومع أرواحكم بحمايتها عن حجب التعلقات، ومع أسراركم بكلاءتها عن ملاحظة المكونات، ومع الخلق بالتصفية ودفع الأذيات وإيصال الخيرات، ومع الله بالعبودية في المأمورات والمنهيات، والصبر على المضرات والبليات، والشكر على النعم والمسرات، والتوكل عليه في جميع الحالات، وتفويض الأمور إليه في الجزئيات والكليات، وتسليم الأحكام الأزليات، والرضا بالأقضية الأوليات، والفناء عن الإيرادات المحدثات في إرادته القديمة القائمة بالذات، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:195]، الذين هم في العبادة بوصف المشاهدة.

ثم أخبر عن شرائط الإحسان بإتمام ركن من الأركان بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:196]، والإشارة فيها أن حج العوام وعمرتهم قصد البيت وزيارته، وحج الخواص قصد رب البيت وشهوده، كما قال الخليل: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، والحقيقة كما أنه أول من قصد الله وطلبه وتوجه بكليته إليه، وقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام:79] وسلك هذا الطريق وفدى بنفسه وماله وولده في الله واتخذ ما سواه عدوًا، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، كان الخليل عليه السلام، وهذا كله من مناسك الحج الحقيقي؛ فلذلك جعله الله أول من بني بيت الله وطاف وحج ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج:27]، وبين المناسك، وكان الحج صورة ومعنى، ظاهرًا، وحقيقة مقامه عليه السلام كقوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران:97]، ولكنه كما كان له مقامات كان للنبي ﷺ حالاً، والحال أتم من المقام؛ لأن المقامات من المنازل، والأحوال من المواهب، فيمكن سلوك

المقامات بغير المواهب، ولا يمكن المواهب بغير سلوك المقامات، فلما كان الخليل عليه السلام من أهل المقامات ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99]، ولما كان النبي ﷺ من أهل المواهب قيل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:1]، فلما كان ذهابه بنفسه في الحج الحقيقي بقي في السماء السابعة ﴿أُحْصِرْتُمْ﴾ الحج والعمرة، وقيل له: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة:196]، فأفدي بإسماعيل، ولما أسري بالنبي ﷺ وكان ذهابه بالله ما أحصره شيء، قيل له: ﴿وَأَتِمُّوا الْـحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:196]، فأتم حجه بإذن ربه، ﴿تَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9]، ثم أتم عمرته بأن تجلى له أقمار المقصود عن كشف تفرد بالشهود، وتجلي عناية المحبة عن شموس الوصلة، وجرى بين المحبين ما جرى، ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم:10]، ثم نودي من سرادقات الجلال في إتمام الحج والإكمال يوم الحج الأكبر عند وقوفه بعرفات في حجة الوداع، وهو آخر الحجاب ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:3].

ثم قال لأمته وقد علم فيهم الضعيف والعليل، وذا التعلق والآفات، وأصحاب الحوائج والموانع: ﴿وَأَتِمُّوا الْـحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي: واسعوا في إتمام صورة الحج وحقيقة بقدر استطاعتكم في متابعة صورة سير النبي ﷺ وحقيقته، أما إتمامه في الصورة بأن تقيموا شرائعه المشروعة، ويكون قصدكم من بيوتكم أن تخرجوا لا للتجارة ولا للنزاهة ولا للرياء والسمعة، بل يكون خالصًا لله تعالى، وأما إتمامه في الحقيقة فبأن يكون خروجك من وجودك وقصدك الله بالله لا لشيء من المقاصد في الدارين، وبأن يقيم شرائطه في الطريقة؛ لتبلغ الحقيقة وتيقن بأنه ﴿لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ [النحل:7]، ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ بعداوة النفس، وغلبة الهوى، وبملالة القلب، ودناءة النفس فيهدي بما كان الحصر منه، ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْـهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ [البقرة:196]؛ معناه: لا تكونوا فارغين عنه مشغولين بغيره؛ حتى تبلغوا المقصد والمقصود.

﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا﴾ [البقرة:196]؛ يعني: إن عارض لأحدكم مرض في الإرادة أو ضعف في الطلب ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ﴾ [البقرة:196]؛ يعني: إذ يعله

وتعتريه مانعات من إكماله من غير فترة من نفسه، فلم يجد بدا من الإقامة بفناء الرخص والنزول بساحة تأويلات العلم، فليجتهد أن لا ينصرف خطوة من الطريق ولا يعرض لمحة عن هذا الفريق، فإنه قال بعضهم: من أقبل على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله، بل يلازم عتبة الفقر، وليطلب الفرج بالصبر، ويتدارك الأمر بما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ﴾ [البقرة:196]؛ أي: الإمساك عن المشارب، ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ [البقرة:196]؛ أي: بالخروج عن المعلوم، والتقرب بما أمكنه من التضرع والابتهال والتطوف على الأولياء وخدمة الفقراء، ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:196]، أو بذبح النفس في مقامات الشدائد، والصبر على البلاء، وبذل المجهود في طلب المقصود.

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ [البقرة:196]؛ يعني: إذا زال الحصر وأشرق بنور الجبار هواء الزمان وقضاء العصر أقبل الجد الصاعد، والزمان المساعد، وتجدد عهد الطلب، وانقطع كلفة التعب، فليستأنف للوصلة وقتًا، وليفرش للقربة بساطًا، وليتجدد للقيام بحق السرور نشاطًا، ولتقبل هي على البهجة، فقد مضت أيام المحنة، وليكمل الحج والعمرة، وليستدم القيام بحق الصحبة والخدمة، ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ [البقرة:196]، فموجب الهدي لمعنيين:

أحدهما: الاستدراك ما فاته في أيام الفترة والوقفة، والاستغفار عنها، والثاني: الاستدراج ما استقبله من العواطف وشكرها، والهدي هو أن يهدي بأعز شيء من أمواله واجهًا إليه، ويصرفه عن أصحابه وإخوانه في الدين وأعوانه في الطلب، وينفقه على أرباب الهمم العلية من الفقراء الصادقين والأغنياء المتقين.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ [البقرة:196]؛ يعني: في الظاهر يسارًا أو سعة، ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:196]، فعليه الإمساك عن مشارب حصول كمالات الوصول في تلك الحالة، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة:196]؛ يعني: باقي العمر، ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة:196]؛ يعني: الإمساك عن المشارب كلها في غلبات الأحوال، وبعد الرجوع إلى عالم الأعمال من أوصاف الكمال وأخلاق الرجال، ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:196]؛ يعني: ذلك التوفيق لدوام المراقبة في الإمساك لمن لم

يكن مقيمًا في منزل من منازل النساك، بل يكون لقريب من الأوطان بل قريب من أهل الزمان، غريب في الأقران من الغرباء في آخر الزمان، الذين قال فيهم ﷺ: «فطوبى للغرباء»(1).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة:196]؛ أي: احذروا أن تسكنوا في فترة أو وقفة، أو تركنوا في مشرب من هذه الشرائط، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:196]، للغافلين من هذا الخطاب، والمعرضين عن طريق الصواب، الغائبين بذل الحجاب، المردودين إلى العذاب(2).

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي

---

(1) أخرجه الطبراني (6/ 164 ، رقم 5867) . وأخرجه أيضًا : في الأوسط (3/ 250 ، رقم 3056) ، وفي الصغير (1/ 183 ، رقم 290) ، قال الهيثمي (7/ 278) : رجاله رجال الصحيح غير بكر بن سليم وهو ثقة . والقضاعي (2/ 139 ، رقم 1055) ..

(2) قال الشيخ البقلي: أوجب الحق سبحانه على قدر أهل الحقيقة إتمام مقاصدهم إلى بساط القربة بأن يتجردوا عن الكائنات في توجههم إلى مزار القدم، وأن يخرجوا من الحوادث بنعت التفريد والتجريد طلبًا بفنائهم بقاءه في تحقيق التوحيد، وأن يغتسلوا من شوائب البشرية، وأوساخ الطبيعة في أنهار المعرفة، وأن يلبسوا إحرام العبودية لقصدهم عرفان الربوبية، ويتموا إجابة الحق بأدائهم ما افترض عليهم من بذل النفوس في العبودية والأرواح في سلطة الربوبية، لتقترن إجابة الظاهر بإجابة الباطن؛ لأنهم أجابوا الحق في بدء أمرهم؛ إذ قالوا: بلى، فيستدعي الله عنهم إتمام ميثاق الأول، ويذكرهم عهد الأول من تعريف نفسه إليهم ليتأهبوا في أمر الظاهر إتمام حقيقة الإجابة بأن يقولوا: لبيك، فالحج لأهل التمكين، والعمرة لأهل التلوين، وإتمام الحج البلوغ إلى رؤية الربوبية، وإتمام العمرة الوصول إلى حقيقة العبودية. قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أي: اصبروا في إتمامها لله حتى تجدوا مأمولكم في الله. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: إن منعتكم أوصاف البشرية عن الطيران في هواء الحقيقة، وحبستكم حجب الابتلاء في أشجار الطبيعة، فلا تميلوا عن حقيقة الطريقة، والشروع في طلب المشاهدة، وابذلوا أنفسكم هديًا لله ليرشدكم لشفقته عليكم إلى أوطان المشاهدات، ويبلغكم حقيقة القربات، وأيضًا فإن حبستكم غيرة الحق عن الوصول إليه لسبب ما، فتحللوا من قتل نفوسكم حيث أوقفكم، واشتغلوا بالعبودية عن الربوبية؛ لأن في غيرة الحق إشارات تمنع أولياء الله عن السير في قُربة الحق، وذلك بأن القلوب إذا مرضت وسقمت عن الجهد في طلب الحقيقة، وسكنت بحظوظ البشرية، فأثابها الله بالإحصار في وطنات الطبيعة.

ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [البقرة: 197 - 202].

ثم أخبر عن أشهر الحج وشرائطها وحث على رعاية وسائطها بقوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة:197]، الإشارة فيها أن قصد القاصدين إلى الله تعالى وطلب الطالبين؛ إنما يكون في أشهر معلومات وأيام معلومات من حياتهم الفانية في الدنيا، فأما بعد انقضاء الآجال وفناء الأعمال فلا يصلح لأحد السعي ولا يفيد القصد، كما لا يفيد للحاج القصد بعد مضي أشهر الحج؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنعام:158]، وكما أن للحاج مواقيت معينة يحرمون منها، فكذلك للقاصدين إلى الله ميقاتًا؛ وهي: أيام الشباب من بلاغة الصورة إلى بلوغ الأربعين؛ وهو: حد بلاغة المعنى؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف:15]؛ ولهذا قال المشايخ: الصوفي بعد الأربعين نادر؛ يعني: إن كان ظهور إرادته وطلبه يكون بعد الأربعين، فوصوله إلى القصد الحقيقي يكون نادرًا مع إمكانه، ولكن من يكون طلب صدقه في الإرادة قبل الأربعين، وما أمكنه الوصلة بقرب الاحتمال أن يكون بعد الأربعين حصول مقصوده بأن يبذل غاية مجهوده بشرائطه وحقوقه وحدوده من إقامة، أو أن الطلب في عنفوان شبابه يستبعد له الوصلة في حال شيبه، فجرى منه على الحيف بأن ضيع اللبن في الصيف؛ ولكن يصلح للعبادة التي أجرها الجنة، قيل: وقف صاحب ولاية على باب الجامع والخلق يخرجون منه في ازدحام وغلبة وكان ينظر إليهم ويقول: هؤلاء حشو الجنة، وللمجالسة أقوام آخرون.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ [البقرة:197]؛ أي: صادقه صدق الالتجاء، وقصد الحق في شرخ شبابه يتزر بإزار التواضع والانكسار، ويرتدي برداء التذلل والافتقار، ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ﴾ [البقرة:197]؛ أي: لا يخرج من أمر من الأوامر، ولا يدخل في منهى من المناهي، بل لا يخرج من حكم الوقت ولا يدخل فيما يورث المقت.

﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:197]؛ أي: لا نزاع للسالك الصادق في طلب الوصول مع أحد في شيء من الدنيا لا بالفروع ولا بالأصول، وإلا فما تخاصم مع أحد، ولا في جاهها لأحد تزاحم، فمن نازعه في شيء منها يسلمها إليه ويسلم عليه، فإن من دأب القوم ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ [الفرقان:63].

﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة:197]؛ يعني: من هذه الجملة وغيرها من الخيرات، ﴿يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة:197]، قليله وكثيرة وإخلاصه ورياءه وسره وعلانيته، ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:197]، في الكلام تقديم وتأخير وإضمار تقديره وتزودوا يا أولي الألباب؛ يعني: لكل سالك طريق زاد يناسب طريقه، فزاد أولي القشور؛ وهم: أهل الدنيا من الكعك والسويق وأمثاله؛ لأن طريقهم ومقصدهم ومقصودهم أيضًا قشر بالنسبة إلى طريق الحق، فإن طريقهم الأرض، ومقصدهم البيت، ومقصودهم الجنة، وهذا قشر بالنسبة إلى ما ذكرنا، ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ فإن خير المقاصد ينبغي أن يكون من ﴿خَيْرَ الزَّادِ﴾، فأشار إلى: ﴿تَزَوَّدُوا﴾ يا أولي الألباب من لب الزاد وهو التقوى ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وخير التقوى أن تكون متقي، إن تتقون بي مني، فتقوى أهل القشور مجانبة الزلات والمزلات بالطاعات والمبرات تفهم إن شاء الله تعالى وتنتفع به.

ثم أخبر عن الفضل مع ذوي الفضل بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة:198]، الآيتين والإشارة فيهما أن قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة:198]، إعلام بأن للفضل كثرة وتنوعًا؛ لأنه ذكره بالنكرة تقع على واحد على التعيين؛ كقولك: جاءني زيد، فهذا يدل على أن في الرجال كثرة، ولكنه ما جاءك إلا واحد منهم، فكذلك هنا يدل على أن في الفضل كثرة، وليس على

العبد جناح أن تبتغي أي: فضل يريده من الله وهو كثرة تنوعه تنقسم على ثلاثة أقسام بالنسبة إلى أحوال العبد والتنوع والأقسام راجع إلى تغير أحوال العباد ولا إلى تغير صفات الحق تعالى.

والقسم الأول منها: ما يتعلق بالمعاش الإنساني، وهو على نوعين: نوع يتعلق بالأسباب من المال والجاه، ونوع يتعلق بالغذاء واللباس الضروري وهذا القسم من الفضل مفسر بالرزق كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ﴾ [الجمعة:10]؛ أي: من رزق الله.

والقسم الثاني منها: ما يتعلق بالمصالح الأخروية للعبد من الفضل، وهو على نوعين: أحدهما ما يتعلق بالأعمال البدنية على وفق الشرع، ومتابعة الشارع مجانبة طريق الشيطان المنازع كقوله تعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:29]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:83]، وثانيها: ما يتعلق بأعمال القلب، وتزكية النفس لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ [النور:21].

والقسم الثالث: منها: ما يتعلق بالله عز وجل، وهو أيضًا على نوعين: أحدهما: ما يتعلق بمواهب القربة كقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:47]؛ أي: قربًا كثيرًا فإنه أكبر من الدنيا والآخرة، وثانيها: ما يتعلق بمواهب الوصل كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: 21]؛ يعني: فضل مواهب الوصلة أعظم من الكل كما قال تعالى لحبيبه ﷺ: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:113]؛ يعني: أعظم فضله ما كان عليك خاصة دون الخلائق كلها، ثم أعلم أن لكل قسم من هذه الأقسام الثلاثة من الفضل مقامًا في الابتغاء.

فأما القسم الذي يتعلق بالمصالح الأخروية: وهو فضل الرحمة، فمقام ابتغائه ترك الوجود، وبذل المجهود، وهو في السير إلى عرفات، وأما القسم الذي يتعلق بالله تعالى: وهو فضل المواهب فمقام ابتغائه هو عند الوقوف بعرفات المعنى، فإن عرفات هي إشارة إلى المعرفة معظم أركان الوصلة لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

[الذاريات:56]، وأما القسم الذي يتعلق بالمصالح الدنيوية: وهو فضل الرزق فمقامه بعد استكمال الوقوف بعرفات المعرفة عند الإفاضة، ففي الآية تقديم وتأخير تقديره إذا أفضتم من عرفات فليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم، وذلك لأن حال أهل السلوك في البداية ترك الدنيا والتجريد عنها، وفي الوسط التوكل والتفريد، وفي النهاية المعرفة والتوحيد، ولا يسلم الشروع في المصالح الدنيوية إلا لأهل النهاية؛ لقولهم في المعرفة وعلو همتهم بأن يطهر الله قلوبهم من رجز حب الدنيا الدنية، ويملأها نورًا وحبورًا وسرورًا بالألطاف الحقيقية، فلا اعتبار للدنيا وشهواتها ونعيم الآخرة ودرجاتها عند الهمم العلية، فلا يتصرفون في شيء إلا وتصرفهم بالله، وفي الله ولله لا لحظوظ النفس بل لمصالح الدين، وإصابة الخير إلى الغير ولهذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة:199] والناس هاهنا محمد المصطفى ﷺ، وجميع الأولياء والأنبياء عليهم السلام؛ فمعناه لا تفيضوا يا أرباب الطلب إلا بعد الوقوف بعرفات المعرفة ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ [البقرة:198]، المعرفة أفيضوا من حيث أفاض الأنبياء والأولياء في القيام بأداء حقوق التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله لا لاستيفاء الحظوظ، كما قال عز وجل لحبيبه ﷺ عند إفاضته بالرسالة إلى الخلق بعد وقوفه بعرفات ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم:9] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:17].

فأعلم الله تعالى أن الإفاضة من عرفات المعرفة إلى مصالح الدنيا ورعاية حقوق الخلق، ودعوتهم إلى الله خطر عظيم ولا يخلو عن نوع حظ من الحظوظ فعلق الإفاضة بشرطين لرفع الخطر، وإزالة غائلة الحظوظ، أحدهما: أمر بالمواظبة على وظائف الذكر بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:198]؛ يعني: بالقلب والمشعر الحرام هو القلب الذي حرام عليه الاطمئنان مع غير ذكر الله وحبه لقوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:28]، ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:198]، معناه اذكروا الله ليهدي نفوسكم كما هدى قلوبكم لئلا تقع النفوس في خطر حب الدنيا ولا تميل إلى استيفاء حظوظها ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة:

198]؛ يعني: كما كنتم قبل الوقوف بعرفات المعرفة من الضالين في طلب الدنيا وحظوظ النفس.

والثاني: أمرهم بالاستغفار لإزالة ضرر المحافظة مع الخلق وكدورة حظها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: 199]، وهذا كما أمر النبي ﷺ بالاستغفار مع كمال مرتبته وجلال قدره بقوله ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:1- 3]؛ يعني: يزيل غين الحظ بالاستغفار وهو ﷺ يقول: «إنه ليغان على قلبي، وإني لاستغفر الله في يوم سبعين مرة»(1).

ثم أخبر عن وجود رعاية الأحوال لأهل الكمال بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة:200]، إلى قوله: ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:202]، والإشارة فيها أن في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة:200]؛ أي: قضيتم مناسك وصلكم، وبلغتم محل الرجال البالغين من أهل الكمال الواصلين، فلا تأمنوا مكر الله ولا تهملوا وظائف ذكر الله، فاذكروا الله كذكركم آبائكم، كما تذكرون في حال طفوليتكم آباءكم للحاجة، والافتقار بالعجز والانكسار، وفي حالة رجوليتكم تذكرون آباءكم للحجة، والافتخار بالمحبة، والاستظهار فاذكروا الله افتقارًا وافتخارًا؛ لأنه يمكن للطفل الاستغناء عن أبيه، وكذلك البالغ يحتمل أن يفتخر بغير أبيه ولكن العباد ليس لهم من دون الله من ولي ولا واق، ولهذا كان النبي ﷺ مع كمال بلاغته يفتقر إلى الله تعالى ويقول: «اللهم واقية كواقية الوليد»(2)، ويفتخر بافتقاره، ويقول: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر والفقر فخري»(3) ﴿فَمِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة:

(1) أخرجه أحمد (4/ 211 ، رقم 17881) ، وعبد بن حميد (ص 142 ، رقم 364) ، ومسلم (4/ 2075 ، رقم 2702) ، وأبو داود (2/ 84 ، رقم 1515) ، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ص 144 ، رقم 446) ، وابن حبان (3/ 211 ، رقم 931) ، والبغوي (1/ 124 ، رقم 89) ، والطبراني (1/ 302 ، رقم 887).

(2) أخرجه أبو يعلى (9/ 396 ، رقم 5527).

(3) تقدم تخريجه.

200]، من أهل الطلب والسلوك ﴿مَنْ يَقُولُ﴾ [البقرة:200]، بتسويل النفس وغرورها بحسبان الوصول والكمال عند النسيان، وتغير الأحوال ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ [البقرة: 200]؛ يعني: تميل نفسه إلى الدنيا وتركن إلى زخارفها وشهواتها وتستحلي الجاه والقبول فيها عند أربابها بأن ينسى المقصد الأصلي، والمقصود الحقيقي، وظن الطالب الممكور أنه قد استغنى عن الجد والاجتهاد فأهمل وظائف الذكر، ورياضة النفس، وغلبت عليه الهوى واستهوته الشياطين في الأرض حيران له حتى أوبقته في أودية الهجران والفراق ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:200]؛ يعني: من أهل الوصول والكمال وأرباب الفتوة وأصحاب الأحوال ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [البقرة:201]؛ أي: نعمة من النعم الظاهرة، وهي العافية، والصحة، والسعة، والأمن، والفراغة، والطاعة، والاستطاعة، والبذل، والإعطاء، والوجاهة، والقبول، ونفاذ الأمر، وطول العمر في العبودية، والتمتع من الأمور، والأولاد، والأصحاب، والإرشاد، والأخلاق ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:201]؛ أي: نعمة من النعم الباطنة، وهي الكشوف والمشاهدات وأنواع القربات في المواصلات والعبور عن المقامات بتعاقب الجذبات، والتمكن في الأحوال بحصول الكمال، وبقاء الفناء في فناء البقاء، وفناء الفناء في فناء البقاء ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:202]، نار القطيعة وحرقة الفراق".

---

(1) قال الشيخ روزبهان البقلي: حسنة الدنيا معرفة الله وطلب مرضاته بترك الاشتغال في الدنيا، ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ وحسنة الآخرة مشاهدة الله تعالى والاشتغال به عن نعيم الآخرة، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: وقنا عذاب الحجاب باحتراقنا في نيران شهوات نعيم الآخرة، وأيضًا حسنة الدنيا اليقين، وحسنة الآخرة الكشف، وأيضًا حسنة الدنيا المواجيد السرمدية، وحسنة الآخرة الشكر بمشاهدة الحق جل جلاله، وأيضًا حسنة الدنيا الذكر الصافي في خاطر صافٍ على دوام المراقبة بلا غبار الكدورة، وحسنة الآخرة الغيبة عن الذكر بمشاهدة المذكور.

وقيل: حسنة الدنيا الإعراض عنها، وحسنة الآخرة ترك الاشتغال بها، وقنا نيران شهواتها فإن ما شغل عندك فهو مشئوم.

وقال الواسطي: في الدنيا حسنة الغيبة عن كل متظلم من الحق، وفي الآخرة حسنة الغيبة عن رفع الأفعال والرجوع إلى الفضل والرحمة.

وقال ابن عطاء: القناعة بالرزق والرضا بالقضاء. وقيل: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ محبة، ﴿فِي ٱلْآخِرَةِ

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ﴾ [البقرة:202]؛ أي: لهؤلاء البالغين الواصلين السائلين وحظ دائم ونصيب وافر ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة:202]، من المقامات والكرامات، ومما سألوا من أنباء الحسنات ﴿وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة:202]، لكلا الفريقين فيما سألوا أي: يعطيهم بحسن نياتهم على قدر هممهم وطوياتهم، لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى:20]، وكقوله تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم:34]، وفي ﴿سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إشارة إلى سرعة الحساب، فيما يخطر ببال العبد في الحال يحاسبه به ويظهر أثر تلك الحسنة التي خطرت بباله في قلبه وروحه مع الخطرة بلا توقف قبل أن يتكلم بها، أو يعلمها دليله قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ [البقرة:284]، فإن تكلم بها أو عمل زاد آثرها أو تركها؛ فأما الحسنة فيبقى أثرها، وأما السيئة فمحا أثرها، وأثبت مكانها نور حسنته وذلك قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد:39]، وقال ﷺ: «قال الله عز وجل: إذا تحدث عبدي بأن أعمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم يعملها، فإذا عملها فأنا أكتبها له بمثلها، وقال: قالت الملائكة يا رب ذلك عبد يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به، فقال: ارقبوه فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، فإنه تركها من جبر أي: من أجلي»[1].

﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي

حَسَنَةً﴾ قربة، ﴿قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ نيران القطيعة والفرقة، ولا ينالون من نار جهنم.

وقيل: ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ذكرك، ﴿فِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربك، ﴿قِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ أن تحرمنا ذكرك.

(1) رواه مسلم (1/ 117)، وأحمد (17/ 420)، والبيهقي في «الشعب» (15/ 82).

نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: 203 - 208].

ثم أخبر عن رعاية المحدودات أنها أيام معدودات بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة:203]، والإشارة أن المداومة على الذكر والملازمة على العبودية في أيام معدودات العمر المختصر من البداية إلى النهاية بجميع أجزاء الوجود مندوب إليه في الشريعة، وأمر واجب لأرباب الطريقة، كما نقل عن بعضهم وقد سئل عن مدة هذا العمر؟ فقال: من المهد إلى اللحد، ولو شئت لقلت: من الأزل إلى الأبد، وهذا مما لا يفهم بهذه العقول المدنسة بالفضول، وقال تعالى لحبيبه ﷺ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:99]؛ أي: الموت ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ [البقرة:203]؛ يعني: من أرباب السلوك وأصحاب القلب ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ [البقرة:203]؛ يعني: يوم البداية ويوم النهاية، أو يوم الطلب ويوم الوصول بازدياد في الأوراد وجد في الاجتهاد، وتأخر هاتين الحالتين عن بعض المجاهدات، أو يرفق بالنفس في شيء من المباحات ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة:203]؛ أي: لمن كان ثابتًا في التقوى راسخًا في الاستقامة مع المولى ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [البقرة:203]، في جميع الأحوال بتزكية النفوس وتنقية القلوب، وحفظ الأعمال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة:203]؛ يعني: إن لم ترجعوا بالاختيار تحشرون إليه بالاضطرار.

ثم أخبر عن مقال أهل القال، ومعاملة أهل الحال بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [البقرة:204] إلى قوله: ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة:206]، والإشارة فيها أن قومًا أعرض الحق تعالى عن قلوبهم؛ فأعطاهم في الظاهر بسطة في اللسان وتقريرًا في البيان ويدعون شيئا بأقوالهم يكذبون فيها بأخلاقهم وأفعالهم فيعجب الخلق بأقوالهم ما لم يروا أعمالهم، ولكن الله يشهد سرائرهم، ويعلم ضمائرهم إن عقود أسرارهم حضور أخبارهم، وفي الحقيقة هذه خصلة بعض النفوس الأمارة بالسوء أن تظهر السوء باللات المموهة والأقوال المزخرفة تسر بقبائح أوصافها وفضائح أخلاقها،

وتعلن الصداقة وتخفي العداوة، وترى أنها أولى الأولياء، وتراها أعدى الأعداء ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى﴾ [البقرة:205]؛ أي: وجد التمكن والولاية ﴿سَعَى فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:205]؛ يعني: في أرض القلب ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ [البقرة:205]، يخربها ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ﴾ [البقرة:205]، ويبطل حرث الصدق في ترك الدنيا، وطلب الآخرة والتوجه إلى الحق ﴿وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة:205]، ما تولد من الأخلاق الحميدة، والخصال السريدة ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة:205]، بالأقوال الكاذبة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ﴾ [البقرة:206]، يعني لأرباب النفوس من أهل الكبر والأنفة ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة:206]، ثم سمحت أرواحهم عن قبول الحق وتمادت نفوسهم بالباطل، ولو ساعدت العناية وأدركتهم العاطفة؛ لتقلدوا المنن لمن هداهم إلى الجنة ونبههم عن نوم الغفلة، ودلتهم على طريق الوصلة، ولكن من رزق العناد زال عن منهج السداد وضل عن سبيل الرشاد ﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: 206] أي: حسبه جهنم الغرور والتكبر، فإنها دركة من دركات نار القطيعة في الحال ﴿وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، والمرجع في المآل.

ثم أخبر عن معاملة أهل الوداد من العباد بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة:207].

والإشارة أن الخواص من أولياء الله منهم لمن يشتري نفسه ابتغاء مرضات الله كما أن الله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111].

والفرق بين الفريقين أن الله اشترى من المؤمنين أيام الميثاق من غير اختيارهم، فكان ثمن نفس المؤمن الجنة أما الأولياء فإنهم باعوا باختيارهم أنفسهم في هذا العالم فكان ثمن الأولياء مرضات الله، ﴿وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعني: الفريقين فلرأفته بالمؤمنين اشترى الأمارة بالسوء مع غب الظلومي والجهولي بثمن الجنة، والنعيم المقيم، ولعاطفته بالأولياء وفقهم لشري أنفسهم بغير حظ من حظوظها؛ بل خالصًا لوجه الله ابتغاء مرضاته.

ثم أخبر عن المدخول في الإسلام بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ

كَافَّةً﴾ [البقرة:208]، معنى عامًا، ومعنى خاصًا؛ فأما المعنى العام مع جميع من آمن في الظاهر ادخلوا في جميع شرائط الإسلام في الباطن كما دخلتهم في شرائعه في الظاهر من شرائطها، قال النبي ﷺ: «المسلم من سَلِم المسلمون من يده ولسانه، والمؤمن من أمن الناس بوائقه»(1).

وأما المعنى الخاص كخطاب حاضر مع شخص الإنسان، وجميع أجزائه الظاهرة كما أن لسانه دخل في الإسلام بالقول، فينبغي أن يدخل أركانه في الإسلام بالفعل، فالعين بالنظر، والأذن بالسمع، والفم بالأكل، والفرج بالشهوة، واليد بالبطش، والرجل بالمشي، ودخول كل واحد منها في الإسلام بأن يستسلم لأوامر الله تعالى، ويجتنب من نواهيه بترك ما لا يعنيه أصلاً، ويقع على ما لا بد له منه، ودخول أجزاء الظاهر في شرائع الإسلام ميسر للمنافق، فإنا إدخال معاني الباطن في شرائط الإسلام وحقائقه، فعريكة إبطال الدين، ومزلة الرجال البالغين، فدخول النفس في الإسلام بخروجها عن كفر صفاتها الذميمة، وعبورها عن طبعها في إيقاع الهوى، وترك مألوفاتها، ومستحسناتها، ومستلذاتها، ونورها بنور الإسلام، وتتبع أحكامه، واطمئنانها بالعبودية؛ لتستحق بها دخول مقام العباد المخصوصين بخطابه تعالى إياها كقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:27-30]، دخول القلب في الإسلام بتصفيته عن رذائل أخلاق النفس وخساسة أوصاف الحيوان، وتحليته بشمائل أخلاق الروح، ونفاسة أوصاف الملك، ودخول أنوار الإيمان بكتابة الحق فيه، وتأييده بروح منه كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإيمان وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة:22]، ففي الحقيقة لا يدخل القلب في الإسلام ما لم يدخل الإيمان في القلب لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:14]، ودخول الروح في الإسلام بتخلقه بأخلاق الله تعالى، وتسليم الأحكام الأزلية، وقطع النظر، والتعلق عما سوى الله بتصرفات الجذبات الألوهية ودخول السر في الإسلام بفنائه في الله، وبقائه بالله ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ

---

(1) رواه أحمد (26/ 430)، والحاكم في «المستدرك» (1/ 28)، وابن حبان في «صحيحه» (3/ 14).

الشَّيْطَانِ﴾ [البقرة:168]؛ أي: لا تكونوا على سيرته وصفته وهي الاستكبار والإباء فإنه ضد الإسلام وهو الكفر لقوله تعالى: ﴿اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [ص:74].

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 209 - 214].

واعلم أن كل جزء من أجزاء ظاهر الإنسان وباطنه ما لم يكن مستسلمًا لأوامر الشرع وأحكام القضاء الأزلي ويأبى على الحق ويستكبر فإنه ما دخل في الإسلام ويتبع خطوات الشيطان وما خرج بعد من العداوة، فهو إظهار محبته ـ أي الله ـ فإن محبته ـ أي الشيطان ـ مضمرة في عداوته وعداوته - أي الشيطان - مضمرة في محبته - أي الله - ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ [البقرة:209] أي: زالت أقدامكم عن صراط الإسلام الحقيقي ﴿مِنْ﴾ [البقرة:209]؛ أيضًا معه العداوات فهو إظهار محبته أي: الله فإن محبته أي: الشيطان مضمرة في عداوات الشيطان ﴿بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة:209]؛ أي: البراهين القاطعة والحجج الساطعة من القرآن ومعجزاته والأمر بدخول الإسلام الحقيقي والنهي عن اتباع الشيطان ونزعاته ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ الله عَزِيزٌ﴾ [البقرة:209]، فلعزته لا يهتدي إليه كل ذليل دنيء الهمة قصير النظر ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:209]، بحكمته يهدي من يشاء إلى سرادقات عزته.

ثم أخبر عن أهل الزلل وغرورهم وعواقب أمورهم بقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الله فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة:210]، والإشارة فيها أن الله تعالى أخبر عن

أهوال القيامة وأحوالها بكلام قريب إلى أفهام العوام، وأما الذين في قلوبهم نور الإيمان وشرح الله صدورهم بنور الإسلام، فقد هدوا وفهموا مقصود الكلام في هذه الآية وأمثالها وانتفعوا بها بلا توهم تشبيه أو تمثيل أو تخيل نفي وتعطيل، وأما الذين هم أهل الأهواء كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران:7]، فشرعوا فيها بأهوائهم وفسروها بآرائهم، فوقعوا في أودية الضلالة فهلكوا وأهلكوا خلقًا بالجهالة فنادتهم العزة: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران:7]، فإنهم أصحاب الكشوف وأرباب المشاهدات، فيتجلى الله لهم تارة بصفات الجمال فيريهم لمعة من أصناف ألطافه وأنواع إعطائه مع خواص عباده، ومرة بصفات الجلال فيذيقهم شظية من آثار هيبته وقهره مع المتمردين من أهل عناده، فيحل لهم كل أشكال وينجيهم من كل ضلال، ويغنيهم بها عن كل تفسير وتأويل، ويخلصهم من كل تشبيه وتعطيل، وكوشفوا بحقائق ما أخبروا وعاينوا بخلاف ما أضمروا ولكن يضيق عن إعلامه نطاق النطق ولا يسع إظهار لا في ظهوره الحروف كما قيل، وإن قميصًا خيط من نسج تسعة وعشرين حرفًا عن معانيه قاصر، بل لا يـتهي إليها حظي العقول والأوهام، ولا يدركها إبصار البصائر والإفهام، فإن هذا عما يكاشف الخواص والأولياء في حال غيبتهم عن الخلق وشهودهم الحق وهم مسلوبو النطق مغلوبو العقل، ومن تأمل هذا وتكشف له أثر من الغوامض التي درج عليها المتقدمون مكلفين عقولهم ما ليس في وسعها طمعًا في أن ينالوا ما لا ينال وكان عاقبتهم الحيرة والضلالة.

ثم أخبر عن زوال النعمة لأهل الضلالة والنعمة بقوله تعالى: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾ [البقرة:211]، الآيتين والإشارة فيهما أن السؤال وإن كان للنبي ﷺ ولكن فائدته راجعة إلى عامة أمته وخاصتها، فإنا فائدته فهي أن يعلموا أن الله إذا أنعم على عبد بنعمة من أنواع نعمه الظاهرة والباطنة فإن لم يعرف قدرها فيبدل نعمته بالنقمة أن يكفرها ولا يشكرها، كما فعل بنو إسرائيل من بعد ما جاءتهم البينات من المعجزات والكرامات فما عرفوا قدرها فبدلوها بما قالوا. ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138] وبعبادة العجل فجازاهم الله شدة العقاب فيما ابتلاهم بأنواع البلاء من القحط

وقتل النفس وغير ذلك أو بأن يصرف نعمه في مصروف دون رضاه ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:211]، في المجازات والمكافات.

وأما فائدة الخواص في أن يتحقق لهم أن الله إذا فتح باب الملكوت على قلب عبد من خواصه ويريه آياته في الملك والملكوت، ويظهر عليه أنواع كراماته فإن لا يغتر بأحواله أو يعجب بكماله فيقبل على شيء من مرادات النفس وبما يلائم هواها ويبدل نعمته برأفته للنفس ورضاها ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:211]، بأن يغير عليه أحواله ويسلب عنه كماله والذي يدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد:11]، ومن شدة عقابه إذا أذنب عبد ذنبًا صغيرًا ولم يتب عنه ويصر عليه أن يعاقبه مثل تبديل النعمة ليعاقبه بزوال النعمة في الدنيا ودوام النقمة في العقبى.

وأيضًا من شدة عقابه أن يزين: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ [البقرة:212]، ويمكر بهم حتى يغلب عليهم حب الدنيا: ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:212]، من فقرائهم وكبرائهم حملهم شدة العقوبة على الوقيعة في أوليائه واستحقار أحبابه: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:227] ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة:212]، بأنهم في أعلا عليين وإنهم في أسفل سافلين ﴿وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:212]، من درجات أعلا عليين ودركات أسفل سافلين ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [البقرة:212]، بغير نهاية أبد الآباد فإن ما لا نهاية له لا يدخل تحت الحساب، وفيه معنى آخر بغير حساب يعني ما يرزق العبد في الدنيا فلحرامها عذاب ولحلالها حساب وما يرزق في الآخرة من النعيم المقيم فبغير عذاب وبغير حساب.

ثم أخبر عن حال الخلق في البداية وإن العناية في الهداية بقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [البقرة:213][1]، والإشارة فيها أنه كان الخلق في بدء الأمر على الفطرة التي فطر الناس عليها أمة واحدة حين أشهدهم على أنفسهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: 172]، قالوا: ﴿بَلَى﴾ إن ولدوا على الفطرة لقوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه

---

(1) أخرجه أبو يعلى (2/ 240، رقم 942)، والطبراني (1/ 283، رقم 828)، والبيهقي (6/ 203، رقم 11923)، وأخرجه ابن عدي (2/ 434).

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[1] ما قال: أو يسلمانه؛ فللمعنيين: أحدهما: أن الكفر يحصل بالتقليد ولكن الإيمان الحقيقي لا يحصل بالتقليد.

والثاني: أن الأبوين الأصليين الأنجم والعناصر، فعلى التقديرين الولد بتربية الآباء والأمهات يضل عن سبيل الله ويزل قدمه عن الصراط المستقيم؛ التوحيد والمعرفة، ولو كان نبيًا فإنه يحتاج إلى هاد يهديه إلى الحق كما قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى:7] ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:213]، للهداية ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ [البقرة:213]، مجيبي الدعوة إلى الله بالنجاة، ونيل الدرجات في مقام القربة والوصلة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾

---

(1) ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني في ميثاق الأول حين خاطبهم الحق سبحانه وتعالى جل سلطانه بتعريف نفسه لهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف:172]، كانوا أمة واحدة في إقرارهم برؤية خالقهم، وإلزام عبوديته على أنفسهم لمّا رأوا من عظم برهانه، وشواهد سلطانه، وما سمعوا من عجائب كلامه، وما أدركوا من أنوار قربه وصفاته وتلك الجمعية قبل أن يبتليهم الله بالعبودية، فلمّا اختبرهم ببلايا العبودية إلى الدنيا، فتفرقوا جميعًا، فأهل الصفوة ساعدهم التوفيق، فبقوا على المشاهدة والقربة، وإدراك أنوار الصفوة، ثابتين في دفع حطام الدنيا عن مجالس أسرارهم مع سيدهم، مستقيمين في خدمته بلا طلب الأعواض من الكرامات، مقتصدين في سلوك المعرفة والمحبة، فأنزل الله سكينته في قلوبهم، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، فلا جرم ما زاغوا عن طريق الاستقامة، وما زاغوا عن مشاهدة الحبيب إلى حضرة الدنيا وشهوتها، وما باعوا كرامة الحق بالدنيا الدنية، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:23]، وأما أهل الخذلان فأوبقهم الحق في ظلمة هواء نفوسهم حتى استأثروا الدنيا على الآخرة، ونسوا عهد الله، ونزلوا على مراد الهوى، وتركوا نعيم الرضا، ومالوا عن طريق الهدى إلى مضلة الضلال ودول الجهال، وأيضًا كانوا بعد كونهم من العدم جملة في غيبة من الحق قبل خطاب الحق معهم، وكشف قربه لهم فإذا كشف الله عنهم حجب الإنسانية، وأراهم مشاهدة القربة، فتفرقوا جميعًا في شعب المعارف والكواشف، فبعضهم صادفوا حقائق المقامات فوقفوا بها على شرط العبودية، وبعضهم صادفوا لطائف الحالات فبقوا فيها متنعمين بمشاهدة الربوبية، وبعضهم نالوا خصائص الكرامات والمعجزات فشاهدوها بشرط أداء الأمانة، وبعضهم أدركوا صرف المشاهدة من الحق جل كبرياؤه فتاهوا في وادي العظمة، وطاروا في هواء الهوية، وساروا في قفار الديمومية، وأما أهل الحرمان فصادفوا في أول نهوضهم من زمرة الوحدة مهالك القهريات، فغابوا في شعاب الضلالات، فبعضهم تهودوا، وبعضهم تنصروا، وبعضهم تزندقوا، وبهذا جف القلم إلى يوم ليس لهم في الإيمان والخذلان اكتساب؛ لأنه اختيار الله الذي قد سبق لهم في العدم، وختم به القضاء المبرم، ومن هاهنا تفرقت القلوب وانشقاقها عن الموبقات؛ لأن الأرواح جنود مجندة. [عرائس البيان].

[البقرة:213]، مخالفي الدعوة من الويل والهلاك في الدركات بالفرقة والقطيعة ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة:213]، إشارة إلى كتاب الله الذي جف القلم لكل واحد بالسعادة أو الشقاوة، كما قال ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ وَمَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ إِلاَّ كُتِبَ مَكَانُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلاَّ قَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً، قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله أَفَلاَ نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدَعُ الْعَمَلَ فَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنَّا مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، قَالَ: أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ»[1] تلا هذه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل:7]، ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [البقرة:213]؛ أي: هذا الكتاب ﴿فِيمَا اخْتَلَفُوا﴾ [البقرة:213]، أهل السعادة ﴿فِيهِ﴾ [البقرة:213]، في طلب ما كتب لهم واختلف أهل الشقاوة فيما كتب لهم، وكل ميسر لما خلق له بحكم الكتاب ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ [البقرة: 213]؛ يعني: وما اختلف كل فريق من الفريقين في طلب السعادة والشقاوة إلا وقد أوتوا السعادة أو الشقاوة في حكم الله وقضائه، ولكنه ما حصلت السعادة والشقاوة للفريقين إلا ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة:213]؛ يعني: بالبينات معاملات أهل السعادة، وأهل الشقاوة فإنها تبين السعيد من الشقي والشقي من السعيد؛ فأما الشقي يسعى في ضلالته التي أورثها الآباء والأمهات وردته في ذيل أسفل الطبيعة الإنسانية، فيعامل الله والخلق بالشرك والظلم والفجور والحسد، كما قال تعالى: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:213]، فيستحق بذلك دركات الشقاوة، وأما السعيد فبجذبات العناية يتمسك بحبل الهداية، ويرقى بقدم صدق الطلب قوة الإيمان، وسعي الأعمال الصالحة من حضيض البشرية إلى ذروة العبودية ودرجات مقامات القربة والوصلة، كما قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ [البقرة:213]؛ أي: إلى ما اختلف فيه كل فريق من أهل السعادة والشقاوة في البداية من الوصول إلى الحق سبحانه فأهل العناية وصلوا إليه بهدايته

---

(1) رواه البخاري (16/ 375).

﴿بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:213]؛ أي: إلى الله كما قال تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد:27].

ثم أخبر عن أحوال الأولياء، وأن لا بد لهم من البلاء والابتلاء بقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ [البقرة:214]، والإشارة فيها أن الله تعالى خلق الجنة وصفها بالمصاعب والمصائب، وخلق النار وصفها بالشهوات والرغائب، وابتلى الأولين بفنون مقامات الشدائد والمحن، كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران:146]، ثم نادى الآخرين: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾ [البقرة:214]؛ يعني: ما لم يمسكم البأساء والضراء مثل ما مسهم لم يرجعوا بالاضطرار إلى رحمة الرحيم ﴿حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾ [البقرة:214]، ويقول الله تبارك وتعالى للمضطرين ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة:214]، على هذا أدرج الأولون والآخرون أي: سلوك طريق الولاء بقدم البلاء فمن كان نصره أعلى في مراتب قربة المولى فبلاؤه أقوى، وهو بالبلاء أولى فمن ظن غير ذلك؛ فهو في تيه الهوى هالك مردود من باب المالك.

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ
وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥) كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ
وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ (٢١٦) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا
يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ
وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ
رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢١٨) ۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ
وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠)﴾ [البقرة: 215 - 220].

ثم أخبر عن سؤالهم في إنفاق أموالهم بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة : 215]، والإشارة فيها: أن سؤالهم ماذا ينفقون من جنس الأدب لأهل الطلب لكيلا يتصرفوا في شيء من أموالهم، ويغيروا حالاً من أحوالهم بالهوى والطبع؛ بل بالأمر والشرع يوجب الرفعة والقربة، فليس للعبد تحرك إلا بإذن مولاه، ولا سكون إلا على وفق رضاه؛ لأن العبودية الوقوف حيث ما أوقفك الأمر والصرف أينما صرفك الحق؛ فأجاب الله تعالى سؤالهم بقوله: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة:215]، دنياوي وأخروي من مال وجاه علم، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، فأبدوا ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة:215].

كما أمر النبي ﷺ، ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:214]، وقال ﷺ: «ابدأ بنفسك ثم بمن تعول»(1) على ترتيب الأمر ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 215]، ثم جعل الخير عامًا، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة:215] يعني: من أي نوع من أنواع الخيرات مع كل ذي روح كما قال ﷺ: «في كل كبد حراء أجر»(2)، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:215] أي: بالخير الذي تفعلون وبمن معه تفعلون، وبأي اعتقاد ونيته؛ بالحق أو بالباطل، بالرياء أو بالإخلاص، بالطبع أو بالشرع، بالهوى أو بالله، والله عليم ومجازيكم عليه بقدرات استحقاقكم.

ثم أخبر عن فرض القتال بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾(3)

(1) أخرجه أبو داود (2/ 129، رقم 1677)، وابن حبان (8/ 134، رقم 3346)، والحاكم (1/ 574، رقم 1509) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقي (4/ 180، رقم 7561). وأخرجه أيضاً: أحمد (2/ 358، رقم 8687)، وابن خزيمة (4/ 102، رقم 2451).

(2) أخرجه الطبراني (7/ 132، رقم 6600).

(3) قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ أخبر سبحانه أن مقاومة النفس ومخالفتها صعب على صاحبها؛ لكن في درب كل خلقٍ دنا في نيران المجاهدة انفتاح كنز من كنوز الحقائق من الفراسات

[البقرة:216]، والإشارة فيها: أن قتال النفس وجهادها في الله أمر لازم حق واجب بقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:78]؛ ولكنه للطبع فيه كراهة عظيمة، وحقيقة الجهاد رفع الوجود المجازي، فإنه الحجاب بين العبد والرب كما قيل: وجودك ذنب لا يقاس به ذنب، وكما قال ابن منصور رحمه الله: بيني وبينك أني يزاحمني فارفع بجودك أني من البين ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ [البقرة:216]؛ يعني: تكره النفس رفع وجودها ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:216] أي: خير للنفس بأن تتبدل أوصاف الوجود الحقيقي ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ [البقرة:216]، وهو تمتعات النفس البهيمية باللذات الجسمانية ﴿وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة:216]؛ أي: شر للنفس بحرمانها عن السعادة الأبدية، واللذات الروحانية، وذوق المواهب الربانية ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ [البقرة:216]، أن في كراهة النفوس ما أودع من راحة القلوب، وفي قتلها ما قدر من الحياة ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:216]، أن حياة القلوب في موت النفوس، وفي حياة النفوس موت القلوب، كما قال:

أَقْتلوني يا ثِقاتي إنَّ في قَتلي حَياتي

ثم أخبر عن السؤال عن الشهر الحرام، وفيه القتال بقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة:217] الآيتين والإشارة فيهما أن المعاصي بعضها أكبر

- والكرامات والمناجاة والمكاشفات والمشاهدات؛ لأن النفس الحجاب الكلي يحجب القلب عن مشاهدة الملكوت، ورؤية أنوار الجبروت، وسنة الله قد مضت بأن من خالف نفسه وهواه فقد استنَّ عجة المثلى وأدرك ممالك العليا، ورقي مدارج المكاشفات، وبلغ معارج المشاهدات؛ لأن مخالفة النفس هي موافقة للقلب، ومَنْ وافق قلبه أنس سعادة الكبرى، ونال منزلة الأعلى؛ لأن مَنْ باشر أنوار القلب فقد باشر أمر الحق، ومَنْ أدرك الحق بوصف الإلهام باشر سره نور الحكمة، ومَنْ أدرك نور الحكمة فقد أبصر نور معرفته، ومَنْ أبصر نور معرفته عاين حقيقة الكل بالكل، وقد استمسك بالعروة الوثقى، وهي مشاهدة مولاه، فأين هذه المنزلة والمرتبة في هوى حسن حظوظ البشرية، وحصول النفس عند توقانها نفائس الشهوة؛ بل الأمر المعظم في قتال النفس، وقمع شهواتها، وقلع صفاتها عنها حتى تصير مطمئنة ساكنة تحت قضاء الحق، ويبقى القلب فارغًا عن وساوسها، وسرُّ عالم الملكوت بنور البصيرة، كما قال ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء». [عرائس البيان].

من بعض، أن سوء الأدب على الباب لا يوجب على البساط يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:217] أي: ذنب كبير؛ لأن فيه ترك حرمة الشهر ولكن ﴿وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ﴾ [البقرة:217]، وترك حرمة ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:217]، وحرمة النبي ﷺ وإخراجه من مكة أكبر من ذلك؛ لأن ترك حرمة الشهر زلة النفس والصد عن سبيل الله والكفر بالله وإخراج النبي ﷺ كفر، فمؤاخذة النفوس الكافرة على الزلات بالعقوبة المؤجلة وهي الافتراق بعد الاحتراق وزلات المؤمنين وسيأتيهم تبدل حسنات عند التوبة والاستغفار والأعمال الصالحة ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ [البقرة:217]، التي يشرونها بطريق القتال والخداع أهل الكفر حتى يردوكم بها عن دينكم إن استطاعوا أكبر وأعظم عند الله ﴿مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:217]، شرك في الشهر الحرام ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: 217]، فإنه ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [البقرة:217]، ويؤاخذ الله أهل هذه الفتنة بها كما يؤاخذهم بكفرهم ﴿وَأُولَئِكَ﴾ [البقرة:217]؛ يعني: أهل الفتنة: ﴿أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:217]، لأنهم كفروا وأثاروا الفتنة لارتداد المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا وما استطاعوا ولكن يؤاخذون بالسعي في الترديد ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى﴾ [النجم:39]، وأما الذين كانوا أهل الفتنة يسعون في ترديدهم أدركتهم العناية الأزلية بدفع البلية وبدل خوفهم بالرجاء وجفاءهم بالوفاء وأنزل فيهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ [البقرة:218]؛ أي: مع أنهم آمنوا هاجروا عن أوطانهم ﴿وَجَاهَدُوا﴾ [البقرة:218]، بأبدانهم ﴿فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ﴾ [البقرة:218]؛ يعني: أولئك هم المستحقون لرحمة الله ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ [البقرة: 218]، يغفر ذنب قتالهم في الشهر، أم ﴿رَحِيمٌ﴾ [البقرة:218]، يرحم عليهم إذا هاجروا وجاهدوا في سبيل الله.

ثم أخبر عن أهل مراعاة الأمر وسؤالهم عن الخمر بقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا﴾ [البقرة:219]، والإشارة فيها أن الخمر الظاهر كما يتخذ من أجناس

مختلفة كالعنب والتمر والعسل والحنطة والشعير وغير ذلك فكذلك خمر الباطن من أجناس مختلفة كالغفلة والشهوة والهوى وحب الدنيا وأمثالها، وهذا الخمور تسكر النفوس والعقول الإنسانية وفيها ﴿إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:219]، ولهذا كل مسكر حرام، وما يسكر كثيره فقليله حرام، ومنها ما يسكر القلوب والأرواح والأسرار وهو شراب الواردات وأقداح المشاهدات من ساقي تجلي الصفات، فإذا أدارت الكئوس انخمدت النفوس، وتسكر القلوب بالمواجيد عن المواعيد، والأرواح بالشهود عن الوجود، والأسرار بلحظ الجمال عن ملاحظة الكمال، فهذا شراب حل ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 219]، قال قائلهم:

فتهجرك من لفظي هو الوصل كله وسكرك من لحظي فسح لك الشرب
فما مل ساقينا وما مل شارب غفار لحاظ كأسها يسكر اللب

فالعجب كل العجب أن قومًا أسكرهم الشراب، وقومًا أسكرهم شهود الساقي كقولهم:

فأسكرَ القومَ دَورُ كأسٍ وكان سكري من المُديرِ(1)

وإثم الإعراض عن كئوس الوصال في النهاية أكبر من نفع الطلب ألف سنة في البداية، وكما أن السكران ممنوع من الصلاة فسكران الغفلة والهوى ممنوع عن المواصلات، وأما إثم الميسر فهي إن آثار القمار هي شعار أكثر أهل الديار في سلوك طريق الحيل والخداع بالفعل والكذب والفحش في المقال، وإنه كبير عند الأخيار بعيد عن خصال الأبرار، وأما نفعه فعدم التفات إلى الكونين، وبذل نقوش العالمين في فروانية نقش الكعبتين: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:219] لأن إثمهما للعوام ونفعهما للخواص وقليل ما هم ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة:219]، وهو ما يعطيه المرء ويعفو أثره عن قلبه عند الإنفاق يعني: يطيب القلب لأن أصل العفو المحو والطمس يدل

(1) البيت للخبز أرزي، وهو من بحر «البسيط» في صورته المخلعة.

عليه قوله ﷺ: «أفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى»(1) وقال: ليس الغنى عن كثرة الغرض، ولكن الغني غنى النفس، وفيه معنى آخر قيل: العفو التجاوز عن الذنوب وترك العقاب، والذي يدل عليه قوله ﷺ في تأويل قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف:199]، قال وعفوك عن ظلمك وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة:237]، وقيل العفو ما فضل عن حاجتك، وهذا للخواص أن يخرجها عن فاضل أموالهم عن قدر كفايتهم، فأما خاص الخاص فطريقهم الإيثار وهو أن يؤثر غيره على نفسه وبه فاقة إلى ما يخرج وإن كان صاحب الذي يؤثر به غني ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [البقرة:219]، في هذه السؤالات ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:219]، في أحوالكم وحاصل أموالكم ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران:22]، فستعلمون أن ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة:220]، تأديب وتعليم وبذل النصح لهم من إصلاح ما لهم ولكم في ذلك أيضًا خير وثواب وأجر عند الله ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾، في المعاملة والمجالسة والمكالمة ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾، فكونوا معهم كما تكونون مع إخوانكم في الصبر على الاحتمال عنهم عند الإرشاد والنصيحة والشفقة عليهم بكل حال من غير سآمة وملالة ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ﴾ [البقرة:220]، في الإفساد والفساد ﴿مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:220]، في الإصلاح فيعامل كلا على سواكن قلبه من المقصود لا على ظواهر كسبهم من جميع الفنون ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ [البقرة:220]، يعز بعزته من يشاء ويذل من يشاء ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:220]، يحكم بحكمه ما يشاء.

﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ۖ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (222) نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ

(1) رواه مسلم (1/ 218)، وأحمد (16/ 82)، والنسائي (8/ 375).

فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾ [البقرة: 221 - 226].

ثم أخبر عن نهج نكاح المشركات لعزة المؤمنات لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:221]، والإشارة أن صلة رحم الدين والتمسك بعصمة المسلمين خير من صلة حبل الكفر والتمسك بعصم الكوافر، وإن كان فيه ما يعجبكم من مستحسنات للهوى والمشتهيات النفس، فإنها تدعو إلى النار لأنه خفت النار بالشهوات وترك ما يعجبكم به لامتثال أوامر الله تعالى، وإن لكم فيه كراهة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:221]؛ لأن الجنة خفت بالمكاره: ﴿وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة:221]، أن يظهر في كل شيء آثار ألطافه مع عباده الناسين عهد الميثاق وما شاهدوا من ألطافه وعاينوا بلا واسطة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة:221]، ما شاهدوا ويشتاقون إلى ما عاينوا أو لا يغترون بقليل فان عن كثير باق.

ثم أخبر عن سؤالهم عن المحيض وجواب مقالهم بقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة:222].

والإشارة فيها أن لله تعالى أحكامًا موجبات للنقائص وليس فيها للعبد اختيارًا ولا كسب، ولله فيها أسرار عجيبة وألطاف خفية، فمن ذلك كتب الله تعالى على بنات آدم من المحيض ولله فيه امتحان وابتلاء مع الرجال والنساء، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ ثم امتحن الرجال بالاعتزال عن النساء، فقال تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:222]، وجعل التباعد عنهن في أيام الحيض تقربًا إليه، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة:222]، ثم جعل التقرب إليهن على شرائط الأمر ومجانبة الطبع موجبًا للمحبة والوصلة، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:222]، عن موافقة الطبع ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:

222]، عن مخالفة الشرع وجعل اعتزال النساء وبعدهن عن الأزواج موجبًا للقربة، وإن كان في الظاهر موجبًا للعبد عن مقام المناجاة لأنهن منعن عن صورة المناجاة، وهي مداومة الذكر ومراقبة القلوب وقال تعالى: «أنا جليس من ذكرني»[1] وجعل تطهرهن ومحافظة أنفسهن عن إتيان المنهي موجبًا للمحبة والوصلة، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة:222]؛ أي: محافظي النفس عن المنهيات ويحب المتطهرين أي: مربي النفس بالمأمورات، فكما أن للنساء محيضًا في الظاهر، وهو سبب نقصان إيمانهن عن الصلاة والصيام، فكذلك للرجال محيض في الباطن هو سبب نقصان إيمانهم عن حقيقة الصلاة هي المناجاة وعن حقيقة الصيام، وهو الإمساك عن مشتهيات النفوس، وهو هوى النفس كما أن المحيض هو سيلان الدم عن الفرج، فكذلك الهوى هو غَلبات دواعي الصفات البشرية والحاجات الإنسانية فكلما غلب الهوى تكدر الصفاء، وحصل الأذى وقيل: قطرة من الهوى تكدر بحرًا من الصفا، فحينئذ غلبة منعت النفس عن الصلاة والصوم في الحقيقة، وإن كانت مشغولة بها في الصورة فأذى الحيض الصوري إن الحائض ممنوعة عن القربات بالصورة لا بالمعنى، وأذى الحيض المعنوي أن الحائض ممنوع عن القربات بالمعنى لا بالصورة إذا نودي قلوب الرجال من سرادقات الجلال، فاعتزلوا النساء النفوس في المحيض غلبات الهوى حتى يطهرن أن يفرغن من قضاء الحوائج الضرورية للإنسان من المأكول والمشروب والمنكوح وغير ذلك، فإذا تطهرن بماء التوبة والاستغفار والإنابة رجعن إلى الحضرة في طلب القربة فأتوهن بالتصرف فيهن من حيث أمركم الله يعني: عند ظهور شواهد الحق بزهوق باطل النفس واضمحلال هواها، إن الله يحب التوابين عن أوصاف الوجود، ويحب المتطهرين بأخلاق المعبود بل يحب التوابين عن بقاء الشهود.

ثم أخبر عن حال النساء وحرث الأولياء بقوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾[2] [البقرة:223]، والإشارة فيها أن طبقات الخلق ثلاثة:

---

(1) رواه أحمد في الزهد (360).

(2) قال الشيخ ابن عجيبة: أي: مواضع حرثكم، شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام أرض لها. البحر المديد (1/ 182).

العوام والخواص وخاص الخواص.

أما العوام: فلما كانوا أهل الغيبة عن الحقيقة أبيح لهم السكون إلى أشكالهم إذ كان على وصف الحضور يحرم عليهم المساكنة بالإذن وقيل لهم: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:223].

وأما الخواص: فلما كانوا بوصف الحضور يحرم عليهم المساكنة إلى أمثالهم وقيل لهم: ﴿قُلِ اللهُ ثُمَّ ذرهم﴾ [الأنعام:91] سلكوا بقدم التجريد مسالك التفريد حتى وصلوا إلى كعبة التفريد.

وأما خاص الخواص: فهم الرجال البالغون الواصلون إلى عالم الحقيقة المتصرفون في ما سوى الله تعالى بخلافة الحق فهم رجال الله، وما دون الله نساؤهم فقيل لهم ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ [البقرة:223]، فهم الأنبياء وخواص الأولياء القائمون بالله الداعون إلى الله بإذن الله، وكما أن الدنيا مزرعة الآخرة لقوم فإن الدنيا والآخرة مزرعتهم ومحرثهم يحرثون فيها أنى شاءوا وكيف شاءوا وما يشاءون إلا إن شاء الله فقد فنيت مشيئتهم في مشيئته فبقيت قدرة تصرفهم بتقويته ﴿وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة:223]، فيقدمون لأنفسهم لا بأنفسهم بل هو المقدم لما يتقدمون وهو المؤخر لما يؤخرون ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ [البقرة:223]؛ يعني: خواص الأولياء المتصرفون في حرث الدنيا والآخرة واتقوا الله بالله، وأنكم بلا قوة ولا يحجبكم عنه شيء ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:223]، بأنهم ملاقوا الله أيضًا أن اتقوا الله بالله يعني: مرتبة خواص الأولياء مبشرة للمؤمنين أو تسعوا في طلبها حق سعيها.

ثم أخبر عن إيمان الأيمان بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 224]، والإشارة فيها أن عظموا الله ونزهوه أن تجعلوه في معرض لك غرض خسيس وحظ دنيء، وأن تجعلوا ذكره وسيلة لرفع الخيرات وذريعة لجلب المضرات ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:224]، يسمع بسمع القبول إذا ذكر بالتعظيم يعلم عظم ذكره في القلوب فيجازيهم على قدر تعظيمهم إياه.

ثم أخبر عن عفوه اللغو وبتجاوزه السهو بقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي

﴿أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة:225]، والإشارة فيها أن يجري على الظواهر من غير قصد ونية في البواطن ليس له كثير خطر في الخير والشر ولا زيادة أثر، ولو كان له أثر في الخير لما غاب على قوم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وكذلك ما يجري على اللسان بنية القلب بلا فعل الجوارح، ولو كان مؤثرًا في القبول لما عاب قومًا بقوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:3]، ولو كان له أثر في الرد لما وسع على قوله بقوله: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:225]، وما عفا عن قوم بقوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمانِ﴾ [النحل:106]، وذلك لأن القلب كالأرض للزراعة والجوارح إلا من كره، وقلبه مطمئن بالإيمان، وذلك لأن القلب كالأرض للزراعة، والجوارح كآلات الحرث، والأعمال والأقوال كالبذر، فالبذر ما لم يقع في الأرض المربية للزراعة لا ينبت، وإن كان في آلة من آلات الحراثة، فافهم جدًا.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: 227 - 232].

وأما إن كان لما يجري على الظواهر من الخير، وفيه أثر في القلب، ولو كان مثقال

ذرة، فإن الله تعالى من كمال فضله وكرمه لا يضيعه، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:7]؛ بل يضاعفه أضعافًا مضاعفة حتى يكون القليل كثيرًا والصغير عظيمًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:40]، وأما إذا كان لما يجري على الظواهر من الشر أدنى أثر في الطلب، فإن الله تعالى من غاية لطفه وإحسانه لا يؤاخذ العبد به؛ بل يحلم عنه ويتوب عليه، ويغفر له كما قال الله: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [البقرة: 227]، الآيتين والإشارة فيهما أن يعلم العبد أن الله تعالى لا يضيع حق أحد من عباده لا على نفسه، ولا على غيره فلما تقاصر لسان الزوجة لكونها أسيرة في يد الزوج، فالله تعالى تولى الأمر بمراعاة حقها، فأمر الزوج بالرجوع إليها أو تسريحها، فإذا كان حق صحبة الإشكال محفوظًا عليك حتى لو أخللت به أخذك بحكمة فحق الحق أحق بأن تجب مراعاته ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ [البقرة:227]، ارجعوا عن تضييع حقوقه إلى إحياء ما أماتوا واستدركوا ما ضيعوا ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ [البقرة:227]، يغفر بالتوبة والإنابة ما صدر منهم ﴿رَحِيمٌ﴾ [البقرة:227]، يرحم عليهم بتدارك ما فات لهم، وفي تعين تربص أربعة أشهر، في الفيء إشارة عجيبة، وهي أنها مدة تعلق الروح بالجنين كما قال ﷺ: «أن الله خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا ما نطفه ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم بعث الملك بأربع كلمات يقول: اكتب رزقه وعمله وأجله وشقيا أم سعيدًا ثم نفخ فيه الروح»(1)، فمن وقع له من أهل القصد وقفة أو فترة في أثناء السلوك من دلالة النفس ونفرة الطبع فعلى الشيخ، وعلى الأصحاب أن لا يفارقوه في الحقيقة، وأن يعاونوه بالهمم العلية لاستجلابه، وتربصوا أربعة أشهر الرجوع، فإن فاءوا إلى صدق الطلب ورعاية حق الصحبة، واستغفر على ما جرى منه، ونفخ فيه روح الإرادة مرة أخرى أقبلوا عليه، ويعفون عما لديه فإن هذا ربيع لا يرعاه إلا المهزولون، وربع لا يسكنه إلا المعزولون

---

(1) أخرجه أحمد (1/ 382، رقم 3624)، والبخاري (3/ 1174، رقم 3036)، ومسلم (4/ 2036، رقم 2643)، وأبو داود (4/ 228، رقم 4708) والترمذي (4/ 446، رقم 2137) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (1/ 29، رقم 76).

ومنهل لا يرده إلا اللاهون، وباب لا يقرعه إلا الماكثون بل هذا شراب لا يذوقه إلى العارفون وغناء لا يطرب عليه إلا العاشقون ﴿وَإِنْ عَزَمُوا﴾ [البقرة:227] بعد مضي أربعة أشهر: ﴿الطَّلَاقَ﴾ [البقرة:227]، طلاق منكوحة المواصلة، وأصروا على ذنب المفارقة فلهم التمسك بعروة ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:78] ﴿فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ﴾ [البقرة:227]، بمقالتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:227]، بحالتهم.

ثم أخبر عن المطلقات، وأحوالهن في العذاب بقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ [البقرة:228]، والإشارة فيها أن المطلقات أمرن بالعدة وفاء لحق الصحبة، وإن كان الانقطاع من الزوج لا من الزوجة، وأمرن أن يغرن على عزة مقامه بالسرعة، ويصبرن حتى يمضي مقدارًا من المدة إلى آخر القصة كلها دلالات على وفاء الربوبية في رعاية حق العبودية، فإن الله تعالى من كمال كرمه يرخي زمام الفضل بالاصطناع، وإن كان من العبد الفضل والانقطاع، ويمهل العبد إلى انقطاع عدة الجفاء لا يعرض عنه سريعًا لإقامة شرط الوفاء لعل العبد في مدة العدة يتنبه من نوم الغفلة وتتحرك داعيته في ضمير قلبه من نتائج محبته ربه إذ لم تكن له. ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:228]، لا يكتم ما خلق الله في رحم قلبه من المحبة، وإن ابتلاه بمحنة الفرقة؛ فيقرع بإصبع الندامة باب التوبة، ويقوم على قدم الغرامة في طلب الرجعة والأوبة، فيقال من كمال الفضل والنوال: يا قارع الباب دع نفسك وتعال من طال منا فلاحًا فليلزم عتبتنا مساءً وصباحًا ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة:228]، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة:228]، إشارة إلى أن للعباد حقًا في ذمة كرم الربوبية كما أن لله حقًا في ذمة عباده فمهما راعى العبد حق الربوبية بتقربه إليه شبرًا، فالله أحق أن يراعي العبودية فيتقرب إليه ذراعًا، ولله عز وجل في رعاية حق العباد درجة عليهم ورعايتهم حق الله تعالى؛ لأنهم راعون حقه على عجزهم وضعف حالهم، وتغير أحوالهم، والله تبارك وتعالى يراعي حقوقهم على قدر كماله وعظمته وجلاله وسعة فضله

ونواله، وقال تبارك وتعالى: «إن أتاني يمشي أتيته هرولة»(1)، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26] أي: أحسنوا برعاية حق الربوبية في العبودية، فلهم الحسنى بنعيم الجنان لرعاية حق عبوديتهم من كرم الربوبية، ولهم مزيدًا لفضل الألوهية بزيادة الرؤية توفيةً لحقوق عباده، كما قال معاذ بن جبل ﷺ كنت رديف النبي ﷺ فقال: «هل تدري يا معاذ ما حق الله على الناس؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري يا معاذ ما حق الناس على الله إذا فعلوا ذلك؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإن حق الناس على الله أن لا يعذبهم»(2) أي: بذل الحجاب، فإن الكفار معذبون بذل الحجاب لقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:15] ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ [البقرة:228]، أعز من أن يراعي العباد مع عجزهم وضعفهم كجمال حقوق ربوبيته ﴿حَكِيمٌ﴾ [البقرة:228]، لا يقتضي أن يطالبهم بما لا يسع في وسعهم وطاقتهم بل بحكمته يقبل منهم القليل، ويوفيهم الثواب الجزيل.

وأخبر عن حل الطلاق، واختيار الفراق بقوله تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: 229]، والإشارة فيها أن أهل الصحبة لا يفارقون بجرمة واحدة صدرت من الرفيق الشفيق والصديق الصدوق ولا بجرمتين؛ بل يتجاوزون مرة أو مرتين، وفي الثالثة ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾(3) [البقرة:229]، إما صحبة جميلة أو فرقة جميلة كما تجاوز خضر عن موسى - عليهما السلام - مرتين وفي الثالثة قال: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:78]، فأما الصحبة من غير تعظيم وحرقة، وإذهاب لذات العمر بالأخلاق الذميمة، وإضاعة الوقت في تحصيل المقت فغير مرضي في الطريق، ولا محمود

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) رواه الطبراني في الكبير (245)، (20/ 126).

(3) قال ابن عجيبة: فإمساكٌ لها بمعروف بأن يواسي بها من يحتاج إليها، أو تسريح لها من يده بإحسان من الله إليه، حتى يدخله في مقام الإحسان، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبداً حتى يأخذها من يد الله بالله، بعد أن كان بنفسه، فكأنه أخذها بعصمة جديدة، فإن تمكن من الفناء والبقاء، فلا جُناح عليه أن يرجع إليها غنياً بالله عنها، والله تعالى أعلم. البحر المديد (1/ 188).

في الشريعة؛ بل قاطع طريق الحق، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾ [البقرة:229]، إشارة إلى أن ليس لأهل الصحبة إذا اتفقت المفارقة أن يستردوا خواطرهم عن الرفقاء بالكلية، ويقطعوا رحم الأخوة والدين، ويأخذوا عنهم قلوبهم بعد ما آتوهم الهمم العلية، فإن العائد في هبة كالعائد في ميسرة: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ [البقرة:229]، في رعاية الصحبة ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ [البقرة:229]، بأن تؤدي إلى مداهنة، أو إهمال في حق من حقوق الدين ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [البقرة:229]، من الحظوظ لرعاية الحقوق ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللهِ﴾ [البقرة:229]، من الحظوظ والحقوق ﴿فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة:229]، بترك الحقوق لنيل الحظوظ ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ﴾ [البقرة:229]، في تلك الحقوق ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:229]؛ أي: الواضعون أرواحهم في وضع الحظوظ موضع الحقوق.

ثم أخبر عن تمام الفراق بتثليث الطلاق بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [البقرة:230]، والإشارة فيها أن أهل الصحبة لما تجاوزوا عن زلة الإخوان مرة ومرتين، ثم في الثالثة أن يسلكوا طريق الهجران، وخرجوا عن مناصحة الإخوان فلا يحل للإخوان أن يواصلوا الخوان حتى يصاحب الخائن صديقًا مثله، فإن ندم من أجل ذلك عن أفعاله وسلم عن ذلك الصديق وأمثاله، وترك صحبته وخرج عن خصاله، ورجع إلى صحبة إخوانه وأشكاله ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ [البقرة:230]، شرائط العبودية والصحبة في الله، وتلك حدود الله طريق قربات الله للسائرين إلى الله بالتصريح والتعريض والعبارات والإشارات، وفي الآية أيضًا إشارة إلى أن الله تعالى يتجاوز عن زلات العبد مرة بعد أخرى، ويعفو عن سيئاته تارة بعد أخرى، فإن استمر العبد على أخطاءه ودوام على جفائه، فالله تعالى يبليه بالخذلان، ويجعله قرين الشيطان كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:36]، فإن طلق قرين الشيطان، ورجع بالإنابة إلى باب الرحمن يخرجه بفضله وكرمه من الخذلان، ويتداركه بالغفران والرضوان، ويهديه إلى درجات الجنان، ويجعله من أهل القربات والعرفان كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ

﴿إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:60].

ثم أخبر عن إمساك المطلقين قبل انقضاء العدة بمعروف، أو تسريح بإحسان بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [البقرة:232]، والإشارة فيها أن الأذية في المصادرة ليست من الإسلام، ولا من آثار الإيمان، ولا من شعار المسلمين عمومًا كما قال النبي ﷺ: «المؤمن من آمن الناس، والمسلمون من سلم المسلمون من لسانه ويده»(1)، ويتضمن حسن المعاشرة مع الخلق جميعًا.

فأما معاشرة الزوجين ففيها خصوصية بالأمر بحسن المعاشرة معهن، وترك أذيتهن والمغالظة معهن على وجه الجناح، فإما تخلية السبيل من غير جفاء، أو قيام بحق الصحبة على شرائط الوفاء فلا اعتداء ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ [البقرة:231]، أي: من الأذية والمضارة والاعتداء بالجفاء ﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:231]، وهو يحسب أنه ظلم غيره؛ لأن الله تعالى يجازي الظالم والمظلوم يوم القيامة بأن يكافئ المظلوم من حسنات الظالم، ويجازي الظالم من سيئات المظلوم، وفيه معنى آخر، وهو أن الظالم إذا أساء إلى غيره؛ فصارت نفسه ميتة، وإذا أحسن صارت نفسه محسنة، فترجع إساءة الظالم إلى نفسه لا إلى نفس غيره حقيقة، فإنه ظالم نفسه لا غيره؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:7]، ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُواً﴾ [البقرة:231]، أي: تلاوة ظاهرة من غير تدبر معانيها، وتفهم إشاراتها، وتحقيق أسرارها، وتتبع حقائقها، والتنور بأنوارها، والاتعاظ بمواعظها، وحكمها يدل على هذا سياق الآية ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة:231]، يعني ما سبق ذكره من دلالات القرآن ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ [البقرة:231]، في تضييع هذه المعاني، والتغافل عنها ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:231]، تعلمون من هذه الحكمة، وتتركونه بما تفهمون منه وتعلمون ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:231]، بجميعه، وهو أنعم به

(1) أخرجه مسلم (1/ 66 ، رقم 42)، والترمذي (4/ 661 ، رقم 2504)، والنسائي (8/ 106، رقم 4999)، وأخرجه أيضاً: البخاري (1/ 13 ، رقم 11)، والطبراني في الأوسط (2/ 323 ، رقم 2106)، وأبو يعلى (13/ 274 ، رقم 7288).

عليكم، وعلمكم كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31].

ثم أخبر عمن يتعظ بمواعظ في المطلقات لا يؤذيهن بالمضرات بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ﴾ [البقرة:232]، والإشارة فيها أنها وإن تضمنت نهي الأولياء عن مضارتهن، وترك أحكام الجاهلية، والانقياد لحكم الله في تزويج النساء إذا أردن النكاح من دون استشعار الأنفة والحمية الجاهلية، فإنها تضمنت نهي أهل الصحبة عن مقايضة بعضهم بعضًا خصوصًا لمن أملى بالفرقة، وانقطع عن المعرفة؛ ثم أدركته العناية، وسلكته الهداية بعد أن بلغ أن ينكحن أزواجهن، فبقبح علمه عاد إلى صلة الإخوان بعد انقضاء مدة الهجران، فلا يعضله أحد من الخذلان أن يرجع إلى صحبة الأقران ﴿إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة:232]، بقية الأخوان ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ﴾ [البقرة: 232]، ويزجر بهذا الزواجر ﴿مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة:232]، لأن المؤمن ينظر بنور الله يرى أن التعاون على البر والتقوى خير من التعاون على الإثم والعدوان ﴿ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ﴾ [البقرة:232]، لنفوسكم من الأخلاق الذميمة ﴿وَأَطْهَرُ﴾ [البقرة:232]، لقلوبكم من الأوصاف البشرية ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ [البقرة:232]، ما يضركم، وما ينفعكم، وما يوصلكم، وما يحجبكم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:232].

﴿ ۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ
رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ
بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ
أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا
بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا
جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ
سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ
النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً

وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: 233 - 238].

ثم أخبر عن أوضاع الوالدات بعد حكم المطلقات بقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ [البقرة:233]، والإشارة فيها أنها تدل من أولها إلى آخرها على أصناف ألطافه، وأوصاف إعطائه في الآية، ونعمائه مع عبيده، وأمانه أنه تبارك وتعالى أرحم بهم من الوالدات الشفيقة على ولدها في الحقيقة على أن غاية الرحمة التي يضرب بها المثل رحمة الأمهات، فالله سبحانه وتعالى أمر الأمهات بإكمال الرحمة، وإرضاع المولدات، وقال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:233]، وفي قطع الرضاع على المولود قبل الحولين، إشارة إلى أن - رحمة الله- للعبد أتم من رحمة الأمهات، ثم رحم على الأمهات المرضعات، وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:233]، ثم اشتملت رحمته بالعدل والنصفة على الأقرباء والضعفة فقال: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة: 233]، في الإرضاع، وما يجب عليها من الشفقة والوالد بولده فيما يلزمه من النفقة، ثم أن الله تعالى كما أوجب حق الولد على الوالدين أوجب حق الوالدين على المولود، وقال: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ [البقرة:233]، وهو المولود؛ ثم أنه تعالى لما علم ضعف الإنسانية، وعجز البشرية خفف عنهم، ورخص في الفطام قبل الحولين والاسترضاع للوالدين، وقال: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:233]، بعد أن راعيتم مصلحة المولود؛ ثم وعدوا وعد كل واحد منهم في رعاية الآخر وإهماله بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:233]، كلكم في رعاية الحقوق وإهمالها ﴿بَصِيرٌ﴾ [البقرة:233]، فيجازي المحسن بالإحسان، والمسيء

بالإساءة، وهذا أيضًا من كمال اللطف والرحمة، واعلم أن الآية مشتملة على تمهيد قواعد الصحبة وتعظيم محاسن الأخلاق في أحكام العشرة؛ بل أنها اشتملت على سبوغ الرحمة، والشفقة على البرية، فإن من لا يرحم لا يرحم، وقال النبي ﷺ لمن ذكر أنه لم يقبل أولاده: «إن الله لا ينزع الرحمة إلا من قلب شقي»[1].

ثم أخبر عن عدة المتوفى عنها زوجها ومدتها وحكمها بعد انقضاء عدتها بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة:234].

والإشارة فيها أن موت المسلم لم يكن فراقًا اختياريا للزوج فكانت عدة وفاته أطول، وكذلك العبد الطالب، وإن حال الموت بينه وبين مطلوبه من غير اختياره، فالوفاء بحصول مطلوبه في ذمة كرمه محبوبه كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾ [النساء:100]، ففي هذا التسلية قلوب المريدين؛ لئلا يقطع طريق الطلب وساوس الشيطان وهواجس النفس بأن طلب الحق بأمر عظيم وشأن خطير، وأنت ضعيف، والعمر قصير، فإن منادي الكرم من سرادقات الفضل ينادي «ألا من طلبني وجدني»[2]، فأين الطلاب في طلبي ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ [البقرة:234]، وانقضت عدة الطلب بمضي مدة العمر ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:234]، يا أهل الإسلام ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:234]، في طلب المرام فإن الناقد بصير ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة:234]، فلا يضيع عمل عامل منكم بالنقير والقطمير، ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:140].

ثم أخبر عن تعريض الخطبة قبل انقضاء العدة بقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [البقرة:235]، والإشارة فيها أن الله تعالى من كمال رأفته، وشمول عاطفته يظهر آثار فضله، وكرمه في حق الخاطب والزوجة

---

(1) رواه البيهقي في الشعب (11049).

(2) ذكره الغزالي في «الإحياء» (6/ 388).

والمتوفي جميعًا؛ ففي حق الخاطب أن رخص له في الخطبة بالتعريض، وإن منعه بالتصريح، كيلا يفوته نكاح مرغوبته بأن يسبقه فيه غيره، وقال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ﴾ [البقرة:235]، إلى قوله قولاً معروفًا، وفي الزوجة بما أجاز للمعرض في خطبتها تسلية لقلبها بأنها تنكح بعد زوجها، ويعوضها الله بدلاً خيرًا من زوجها أو مثله، وفي المتوفى برعاية حقه بعد وفاته؛ لأن لا يصرخ أحد في خطبته زوجته ولا يعزم عقدة النكاح حتى يتم عدتها في حفظ وفاته، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ [البقرة:235]، ثم قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ [البقرة: 235]؛ أي: الرجال والنساء ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ [البقرة:235]، بعلمه الأزلي ﴿مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:235]، ما قدر من السعادة والشقاوة والرزق والأمل والأجل والعمل وما دبر وما ركب وما عنى وما خلق ما دبر من التسويل، والتعديل وحسن الاستعداد، وفي أحسن تقويم، وما ركب من الروح والقلب والسر والعقل والشهوة والهوى والغضب، وما عنى من خواص مفردات العناصر ومركباتها، وخاصية النباتية والأوصاف الحيوانية والبهيمية والسبعية والشيطانية والأخلاق الملكية والروحانية، وما خلق لحظة فلحظة فيها من الدواعي والخواطر والخير والشر والحركة والسكون والأقوال والأفعال ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة:235]، بمراقبة السرائر والضمائر في الباطن بمحافظة ما أمركم به، وما نهاكم عنه في الظاهر، فاحذروا في البواطن بتزكية النفوس عن المذمومات من الأوصاف، وبتجلية القلوب المحمودات من الأخلاق، وتصفية الأرواح من قطع التعلق بالمكونات، وبتعرض الأسرار لأنوار الجذبات، وفي الظاهر بالاحتراز عن المخالفات، والتزام المتابعة، وإن زالت أقدامكم بزلة من الزلات، وابتليتم من سبق الكتاب بآفة من الآفات، فاعتصموا بحبل التوبة، والاستغفار ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:235]، ولولا حلمه لعجل بعقوبة الأسرار، وما أمهل الأخيار في زلة من الزلات إلى أن يتداركها بالتوبة والاستغفار.

ثم أخبر عن أحوال المطلقات، وما لهن من المهور والمطلقات: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة:236]، الآيتين والإشارة

فيهما أن مفارقة الأشكال من الأصدقاء والعيال لمصلحة دنيوية؛ إذ لا جناح عليكم فيها فكيف يكون عليكم جناح بأن فارقتموهم لمصلحة دينية؛ بل أنتم مأمورون بمفارقتهم لزيارة بيت الله، فكيف لزيارة الله، فإن الواجب في زيارة بيت الله مفارقة الأهل والأوطان، وفي زيارة الله مفارقة الأرواح والأبدان «دع نفسك وتعال»، ﴿قل الله ثم ذرهم﴾ وفي قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ [البقرة:236]، إشارة إلى أن من ترك من الطلاب وأهل الإرادة مالاً فليمتع به أقرباؤه حين فارقهم في الله سبحانه ليزيل عنهم بحلاوة المال مرارة الفراق، فإن الفطام عن المال صفات الشديد، وتنفيق المال عليهم بقدر قربهم في القرابة وبعدهم؛ بل يقسم بينهم فرائض الله كالميراث، فإنه قد مات عنهم بالحقيقة، وإن هذا ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:236]؛ لأن الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فالمحسن من لا يكون نظره إلى غير الله وفي قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة:237]، إشارة إلى أن الوصول إلى تقوى الله حق تقاته إنما هو بترك ما سوى الله والتجاوز عنه، فإن المواصلة إلى الخالق على قدر المفارقة عن المخلوق والتقرب إلى الله تعالى بقدر التعبد عما سواه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:237]، هاهنا في الدنيا، فإن حلول الجنة ودخولها هناك لا ينال إلا من فضله لقوله الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:237]، في وجدان الفضل وفقدانه ﴿بَصِيرٌ﴾ [البقرة:237].

ثم أخبر عن وجدان الفضل وفقدانه بقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:238]، الآيتين والإشارة فيهما أن الله تعالى أشار في حفظ الصلاة بصورة المفاعلة التي بين الاثنين وقال: حافظوا على الصلاة يعني محافظة الصلاة كما قال النبي ﷺ: قال الله تعالى: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل»(1)؛ فمعناه أني أحافظكم بقدر التوفيق والإجابة والقبول والإنابة

(1) أخرجه عبد الرزاق (2/ 128، رقم 2767)، وأحمد (2/ 285، رقم 7823)، وأبو داود (1/ 216، رقم 821)، ومسلم (1/ 296، رقم 395)، والترمذي (5/ 201، رقم 2953)، وقال: حسن. والنسائي (2/ 135، رقم 909)، وابن ماجه (2/ 1243، رقم 3784)، وابن حبان (5/ 84، رقم 1784).

عليها، فحافظوا أنتم على الصلاة بالصدق والإخلاص والحضور والخشوع والمناجاة بالتذلل والانكسار والاستعانة والاستهداء والسكون والوقار والهيبة والتعظيم وحفظ القلوب بدوام المشهود، فإنها هي الصلاة الوسطى؛ لأن القلب هو الذي في وسط الإنسان ما هو واسطة بين الروح والجسد، ولهذا سمي القلب فالإشارة في تخصيص المحافظة على الصلاة الوسطى هي القلب بدوام الشهود، فإن البدن ساعة يحفظ أركان الصلاة وأبنيتها، وساعة يخرج منها فلا سبيل إلى حفظ صورتها يبعث الدوام ولا إلى حفظ معانيها بوصف الحضور والشهود، وإنما هو من شأن القلب لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:37]، فإنه من نعت أرباب القلوب أنهم في صلواتهم دائمون والإشارة إليهم في قوله تعالى: ﴿وَقُومُوا لله قَانِتِينَ﴾ [البقرة:238]، رأي لعين الله قانتين أي: طالبين ومعنى الآية في التحقيق أن حافظوا على صورة الصلاة بشرائطها المأمور بها عمومًا، وحافظوا على معاني الصلاة وحقائقها بدوام شهود القلب للرب في الصلاة بعد الخروج خصوصًا ﴿وَقُومُوا لله﴾ أي: اجعلوا القيام إلى الصلاة معراجًا في طلب الحق ﴿قَانِتِينَ﴾ طالبين من الله الوصول إليه لا تسألوا عنه غيره إذا قال: «ولعبدي ما سأل» وهذا هو الصراط المستقيم، فافهم جدًّا لكيلا تقع عن الصراط ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ [البقرة: 239]، عن حدة هذا الصراط ووقته وطول مسافته لضعف قلوبكم ولعجز نفوسكم ولغلبات شهواتكم وطلبات صفاتكم فاستعينوا بالله وتوكلوا ولا تيأسوا من روح الله واخرجوا من حولكم وقوتكم فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ففروا إلى الله ﴿فَرِجَالًا﴾ [البقرة:239]، على قدم العبودية ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:239]، على نجائب جذبات الربوبية فإنه قال تعالى: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»(1)، فلا تخف من طول الصراط واسجد واقترب، ولا تفزع من حدة الصراط ووقته، فإنك محمول العناية:

---

(1) حديث أنس: أخرجه البخاري (6/ 2741، رقم 7098). وأحمد (3/ 127 ، رقم 12309)، وعبد بن حميد (ص 353 ، رقم 1168)، وأبو يعلى (5/ 457 ، رقم 3180) ، والروياني (2/ 375 ، رقم 1346). وحديث أبي هريرة : أخرجه البخاري (6/ 2741 ، رقم 7099). وأخرجه أيضا: أحمد (2/ 509 ، رقم 10627) ، ومسلم (4/ 2067 ، رقم 2675) ، وأبو يعلى (11/ 479 ، رقم 6601) ، وابن حبان (2/ 100 ، رقم 376).

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء:70] إشارة إلى أنه يحملكم في الصراط فعليكم بالمشي على قدم العبودية في طلب هداية الربوبية ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ﴾ [البقرة:239]، من خوف ضعف البشر ثقة بالألطاف الإلهية: ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ﴾ [البقرة:239]، في الفاتحة: ﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:239]، بقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:5-6]، فإنه يهديك إلى الصراط، ويحملكم عليها كما وعدكم بفضله وكرمه على لسان نبيه ﷺ قال: «يقول العبد: الحمد لله رب العالمين يقول الله: حمدني عبدي، ويقول العبد: الرحمن الرحيم يقول الله: أثنى علي عبدي، ويقول العبد: مالك يوم الدين يقول الله: مجدني عبدي، ويقول العبد: إياك نعبد وإياك نستعين هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ،ويقول العبد: اهدنا الصراط المستقيم إلى آخر السورة، فهؤلاء لعبدي ولعبدي ما سأل»(1) حديث صحيح.

ثم أخبر عن المتوفى عنها زوجها في الجاهلية لما كانت من حسن عهدها مع زوجها أن تحفظ وفاءه بعده بالعدة حولاً ولا تخرجه من بيته سنة إظهارًا للوفاء، فالعبد المؤمن إذا لم يوف بعهده وأتى بالعاصي في حضرة ربه كل يوم كذا مرة يكون مع ادعاء إيمانه أقل وفاء وأدنى حياء من تلك المرأة مع كونها ونقصان عقلها بكثير، وفيه إشارة أخرى وهي أن الله تعالى لما أمر أولياء الزوج المتوفى بأن يوفوا مع الزوجة المعتدة الموفية مع زوجها بالنفقة والسكنى، فيستحق العبد المؤمن المعاهد لربه صدق قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ [التوبة:111]، وتحقيق قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:40].

ثم أكد هذا المعنى بما أخبر عن حال المطلقات وما لهم من المتعات بقوله تعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:241]، الآيتين. والإشارة فيهما أن المطلقة لما ابتليت بالفراق، فالله تعالى جبر كسر قلبها بالمتعة يشير بهذا إلى أن المريد الصادق لو ابتلي في أوان طلبه بفراق الأعزة والأقرباء وهجر الأحبة والأصدقاء، والخروج عن مال الدنيا

(1) تقدم تخريجه.

وجاهها والهجرة عن الأوطان وسكانها والتقرب في البلاد لصحبة خواص العباد ومقاسات الشدائد في طلب الفوائد فالله تعالى يبدل له إحسانه ويزيل أحزانه ويأخذ بيده ويجبر كسر قلبه بمتعة: «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي»، فيكون للطالب الملهوف متاعًا بالمعروف ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ﴾ [البقرة:242] يظهر الله: ﴿لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ [البقرة:242]، أصناف ألطافه وأوصاف إعطائه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:242]، بأنوار ألطافه وكمالات أوصافه.

ثم أخبر عن فضل الجهاد وبالتعريض حث عليها العباد بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة:243]، الآيتين والإشارة فيهما أن قومًا لما أمروا بالجهاد في سبيل الله وهو الجهاد الأصغر فجبنوا وخالفوا الأمر وهربوا حذرًا من مقاسات شدائد الجهاد، وابتلاهم الله تعالى بموت الأجساد فكيف بقوم أمروا بالجهاد في الله وهو الجهاد الأكبر بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:69].

ثم أخبر أن نفع جهادهم إلى أنفسهم وقال تعالى: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت:6]، فإن جبنوا وخالفوا الأمر وفروا من محل مشقة المجاهدة وأعرضوا عن طلب الحق واتبعوا الهوى واشتغلوا بالشهوات واللذات فلا يبتليهم الله بموت القلب بل ولعمري لو لم يمت قلوبهم ما أعرضوا عن الحق في طلب الباطل وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [غافر:61]، والإشارة أن الله تعالى بفضله وكرمه أحيا قلوب المؤمنين بنور الإيمان قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام:122]، فقليل منهم أقدموا على أداء شكر الإيمان بالقيام في الأوامر والنواهي كما هو الواجب فاستحقوا بذلك المزيد كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:13]، وأكثرهم كفروا بنعمة الإيمان، وركنوا بالخذلان في مخالفة الرحمن فكذبوا بحرمان الجنان وأغرقوا في بحار العصيان، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:244]، إشارة إلى أن إحياء القلوب الميتة مضمر في قتل النفس الأمارة كما قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن

﴿لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:154] يعني: قتلوا أنفسهم ولكن الله أحيى قلوبهم وأرواحهم فقاتلوا في سبيل الله مع نفوسكم، فإنها أعدى عدوكم واعلموا أن الله سميع دعائكم وتضرعكم إليه في الاستغاثة به والاستعانة به على قتل نفوسكم وإحياء قلوبكم كما سمع دعاء نبيهم ﷺ في إحياء قومه عليم بصدق نياتكم وبذل جهدكم في جهادكم فيعينكم على قتل نفوسكم ويحيي بأنوار فضله قلوبكم.

ثم أخبر عن طرق من حقيقة القتال مع النفس بطريق بذل المال بقوله تعالى: ﴿مَّنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:245]، والإشارة فيها أن من كمال فضله وكرمه مع عباده أنه خلق أنفسهم ومدهم الأموال ثم اشترى منهم أنفسهم وأموالهم ثم ردها لهم بالعارية، ثم أكرمهم فيها بالاستقراض ثم شرط بأضعاف كثيرة عليها فقال تعالى: ﴿مَّنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:245]؛ يعني: يقرض إلى الله لا إلى الفقير ويعطي لله لا للجنة قرضًا حسنًا فالقرض الحسن ما لا يقصد في عوضه غير الله ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة:245]؛ يعني: أن العبد لا يطلب إلا على قدره فيعطيه ما هو مطلوبه ما أخفى لهم من قرة أعين أضعافًا كثيرة على قدر كرمه فمن يكون له متاع الدنيا بأسرها قليلاً، فانظر ما يكون له ثم ما يكون أضعافًا كثيرة وقال تعالى: ﴿وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ [البقرة:245]؛ يعني: هو القابض والباسط هو يقبض الصدقة عن الأغنياء ليطهرهم بها عن أنجاس الدنيا وأدناسها ويبسط على الفقراء لئلا يتقلدوا المنة من الأغنياء ويعظمونهم بقبض؛ لئلا يرى الأغنياء غيره ويبسط لئلا يرى الفقراء غيره بقبض قلوب الأحباء عن الدنيا والآخرة، ويبسط الجود ويقبض الفاني ويبسط الباقي عنك ببقاء يفنيه ويبسط به عن باسطيه(1)، وهذا هو معنى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:245].

---

(1) قال في «عرائس البيان»: ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ﴾ يقبض أرواح الموحدين بقبضة الجبروتية في نور الأزلية، ويبسط أسرار العارفين من قبضة الكبرياء، وينشرها في مشاهدة سناء الأبدية، وأيضًا يقبض المشتاقين في رفاق التوحيد، فيتجلى لهم مشاهدة العظمة، ويبسط العاشقين في حجال الأنس، فيتجلى لهم مشاهدة الجمال، وصرف القربة. ويقال: القبض سره، والبسط كشفه. ويقال: القبض للمريدين، والبسط للمرادين. ويقال: القبض للمشتاقين، والبسط للعارفين، ويقال: القبض لمَنْ تولى عن الحق، والبسط لمَنْ تجلى له الحق. ويقال: يقبضك إياه، ويبسطك إياه.

ثم أخبر عن قتال أهل المال وجدال أهل الضلال بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ [البقرة:246] والإشارة فيها أن القوم لما أظهروا خلاف ما أضمروا وزعموا غير ما كتموا أعرض نقد دعواهم على محك معناهم فما أفلحوا عند الامتحان إذ عجزوا عن البرهان وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة:246]؛ يعني: أنكم هو شمول إذا ادعيتهم دعوى عريضًا تصريحًا لا تعريضًا أن تقاتل في سبيل الله وإن القتال في سبيل الله من شأن الأنبياء وخواص الأولياء وليس من منبع أهل الطباع والهوى فأنا أتوقع إن كتب عليكم القتال أن تقاتلوا فيما ادعيتم كالرجال وتكون أفعالكم دون أقوالكم وأعمالكم ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة:246]، فكان أول مقالهم دعوى إخلاص لله في قتالهم فظهر عن المقصود وأخرجا لهم معنى الذب عن أولادهم وأموالهم، فهذا حال أكثر مدعي الإسلام والإيمان يزعمون يصلي ويصوم ويحج ويزكي ويعمل ويصنع لله وفي الله، فإذا امتحنوا بصدق الجنان وعرضوا النقود على الميزان فيكشف الغطاء ويظهر الخفاء ففي كفتي الميزان يرى ما كان لله، وما كان للهوى فيقال هذا أثر الحياة، فإن الجنة هي المأوى، وهذا لمن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة:246]، تبين الأبطال من البطال واسودت وجوه أصحاب الدعاوي، وابيضت وجوه أرباب المعاني: ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة:246]، ولا شك أن أهل الحق في كل زمان وإن كان أعز من العنقاء وأعوز من الكيمياء، قال بعضهم:

تُعَيِّرُنا أَنّـا قَليـلٌ عَديـدُنا فَقُلْـتُ لَهـا إِنَّ الكِـرامَ قَليـلُ
وَمـا ضَرَّنـا أَنّـا قَليـلٌ وَجارُنـا عَزيـزٌ وَجـارُ الأَكثَـرينَ ذَليـلُ(1)

قال الواسطي: يقبضك عما لك، ويبسطك فيما عليه. وقال البغداديون: يقبض أي يوحش أهل صفوته من رؤية الكرامات ليصغرهم، ويبسطهم بالنظر إلى الكرم.

(1) البيتان للسموأل، وهما من بحر «الطويل».

وإنما لم ينل المدعون مقصدهم؛ لأنه لم يخلص بالحق لله مقصودهم، ولو أنهم قالوا ما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أمرنا ربنا وأوجب القتال علينا وإنه سيدنا ومولانا، فالله صدق دعواهم وأعطى مناهم وأكرم مثواهم، كما قال قوم من السعداء في أثناء التضرع والبكاء بالنفس الصعداء: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ [المائدة:84]، لا جرم ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة:85]، ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:29] على قدر ظلمهم ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:7].

ثم أخبر عن إجابة سؤالهم وبعد الإجابة بين مع النبي أحوالهم وأخلاقهم وأفعالهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:247]، والإشارة فيها أن الحكمة الإلهية الأزلية جلت وتجلت جلباب تعاليها عن أن تكون العقول القاصرة الخلقية مدركة لكل معنى من معانيها وأنه ليس العجب في أن العقول البشرية المشوبة بظلمة الهوى والغضب كبني إسرائيل حارت عند سماع قوله: ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ حتى ﴿قَالُوا﴾ [القلم:29]، متحيرين ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ﴾ [البقرة:247]، ولكن العجب أن العقول الكاملة المؤيدة بالأنوار القدسية للملائكة المقربين طارت عند استماع خطابه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:30]، حتى قالوا مدهوشين: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30]، فالله تعالى أخبرهم عن قصور عقولهم في إدراك حقائق حكمه وقال: ﴿قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]، ثم اصطفى آدم عليه السلام على الملائكة بالعلم والجسم، وقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص71- 72]، وكذلك اصطفى طالوت على بني إسرائيل، قال: ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:247]، أعطى ملك نبي إسرائيل لطالوت كما أعطى ملك الخلافة لآدم وإنما حرم بنو إسرائيل عن الملك؛ لأنهم كانوا معجبين بأنفسهم

متكبرين على طالوت ناظرين إليه بنظر الحقارة ومن عجبهم قالوا: ﴿نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة:247]، ومن تكبرهم عليه قالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:247] ومن تحقيرهم إياه قالوا: ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة:247] فلما تكبروا وضعهم الله تعالى وحرموا من الملك ولما عرض صمويل على طالوت تواضع لله تعالى، وقال: كيف أستحق الملك وسبطي أدنى أسباط بني إسرائيل، وبيتي أدنى بيوت بني إسرائيل؟ فرفعه الله تعالى وأعطاه الملك وقال: ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ كذلك الملائكة إنما حرموا من الخلافة لأنهم كانوا محتجبين بحجب الأنانية والتحتية متفوقين على آدم ناظرين إليه بالحقارة حتى قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:30]، وقد أضمروا في هذا القول: ونحن أحق بالخلاف منه وإن لم يظهروا فتفوقوا عليه في حضرته وقالوا: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، فلما تفوقوا عليه وترفعوا أمرهم بسجوده، ولما جاء جبريل عليه السلام ليقبضه من أديم الأرض وقال له: أحب ربك، فقال: إيش يريد مني؟ عرض عليه الخلافة وقال: يريد أن يجعلك خليفة فتواضع الله تعالى وقال: ما للتراب ورب الأرباب وأقسم على جبريل برب العزة ألا يقبضه وأن يستعفي له من الحضرة، فالله تعالى أكرمه بسجود الملائكة وحمل أعباء الأمانة وأعطاه ملك الخلافة ورفعه على أكناف الملائكة إلى دار المقامة والكرامة وقال: ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:247]؛ أي: واسع الرحمة حتى رحمته وسعت كل شيء، ولكنه عليم بمستحقي خلافته وملكه.

ثم أخبر عن آيات استحقاق ملكية طالوت في إتيانه التابوت بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:248]، والإشارة فيها أن آية تلك الخلافة للعبد أن يظفر بتابوت قلبه فيه سكينة من ربه وهي الطمأنينة بالإيمان والأنس مع الله كقوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ [الرعد:28]، وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260]؛ أي: بازدياد الإيمان مع الإيمان وهي السكينة لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:4]، ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ [البقرة:248]، وهو عصا الذكر

كلمة لا إله إلا الله وهي كلمة التقوى وهي الثعبان الذي إذا قرعت فإنها تلقف سحر عظيم السحرة صفات فرعون النفس، فإن الله تعالى جعل سكينة بني إسرائيل تعينهم في تابوت السماء وهو عصا موسى، فقد جعل سكينة رسول الله ﷺ وأمته عصا الذكر وكلمته في تابوت القلوب.

كما قال تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ الله سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:26]، وألزمهم كلمة التقوى ثم شرفهم بتخصيص هذه الكرامة على سائر الأمم وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح:24] وإن تابوتهم الذي كانت سكينتهم فيه تتداوله الأيدي من الأعداء وغيرهم فمرة كان يدنس وتارة كان يغلب عليه فيحمل ويوضع على الصنم أما تابوت قلوب المؤمنين خالٍ بين أربابها وبينها ولم يستودعها ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً وأودعها بين أصبعي جلاله وجماله كما قال ﷺ: «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»(1) فشتان بين أمة سكينتهم فيها للأعداء عليهم تسلط وبين أمة سكينتهم فيها ليس للأولياء ولا للأنبياء عليه تسلط وكان النبي ﷺ يقول: «نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر»(2)، وإن كان في تابوتهم رضاض ألواح كتبت عليه التوراة فالله تعالى كتب في قلوبهم الإيمان، وإن كان في ذلك التابوت بعض التوراة موضوعًا ففي تابوت قلوبهم هذه الأمة جميع القرآن محفوظًا، وإن كان في تابوت بيوت فيها صور الأنبياء ففي تابوت قلوبهم خلوات لا يسع فيها معهم غير الله كما قال تعالى: «لا تسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»(3)، فإذا تيسر لطالوت روح الإنساني أن يؤتى تابوت القلوب الرباني فسلم إليه ملك الخلافة وسرير السلطان واستوثق عليه جميع أسباط الإنساني فلا يركن إلى الدنيا الغدارة المكارة بل يتهجر منها ويبرز لقتال جالوت النفس الأمارة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ [البقرة:249]، الإشارة ﴿لآيَةً لَكُمْ﴾ [البقرة:249] لتبينها لكم وأعلامًا عن

---

(1) أخرجه أحمد (2/ 168، رقم 6569) ومسلم (4/ 2045، رقم 2654)، والدارقطني في الصفات (1/ 27، رقم 29). وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في السنة (1/ 100، رقم 222).

(2) رواه الشافعي في مسنده (8 ترتيب السندي).

(3) تقدم تخريجه.

أحوالكم: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:249]، بحقائق القرآن وإشاراته.

ثم أخبر عن خروج طالوت لقتال جالوت بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾ [البقرة:249]، والإشارة فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ [البقرة:249]، تعالى ابتلى الخلق ﴿مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة:249]، الدنيا وماء زينتها وما زين للخلق فيها كقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ [آل عمران:14]، ليظهر المحسن من المسيء وليميز الخبيث من الطيب والمقبول من المردود كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:7]، ثم امتحنهم وقال تعالى: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ [البقرة:249]؛ يعني: من أوليائي ومحبي وطلابي وله اختصاص بقربي وقبولي والتخلق بأخلاقي ونيل الكرامة مني كان النبي ﷺ يقول: «أنا من الله والمؤمنون مني»[1] ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ [البقرة : 249]؛ يعني: من قنع من متاع الدنيا على ما لا بد له من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن وصحبة الخلق على حد الاضطرار بمقدار القوام كما كان النبي ﷺ وأصحابه وكان يقول: «اللهم أرزق آل محمد قوتًا»[2] أي: يمسك رمقهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ [البقرة:249]؛ يعني: المبتلى ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة:249]، وهم الأقلاء في كل عصر وزمان، الأعيان والأحساب، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [البقرة:249]، إشارة إلى أن النبي ﷺ جاوز بهم الدنيا إذا قال: «ما لي وللدنيا»[3] والذين آمنوا معه كانوا يسيرون معه بسيرته كما قال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا﴾ [الفتح:29]، وفي قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة:249]، والإشارة إلى

---

(1) ذكره العجلوني في كشف الخفا (1/ 205).

(2) أخرجه البخاري (5/ 2372، رقم 6095)، ومسلم (4/ 2281، رقم 1055).

(3) أخرجه أحمد (1/ 391، رقم 3709)، وهناد (2/ 382، رقم 744)، والترمذي (4/ 588، رقم 2377) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (2/ 1376، رقم 4109)، وابن سعد (1/ 467)، والطبراني (10/ 162، رقم 10327)، والحاكم (4/ 345، رقم 7859)، والبيهقي في شعب الإيمان (7/ 311، رقم 10415).

أن كل من شرب من نهر الدنيا وشهواتها وتجاوز عن حد الأمر فيها لا يكون له طاقة المنازلة لقتال جالوت النفس وجنوده صفاتها وعسكر هواها؛ لأنه صار معلولاً مريض القلب فيبقى على شط الدنيا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللهِ﴾ [البقرة:249]؛ أي: يستيقنون أنهم عند ملاقاة العدو، ملاقون لربهم وهو ناصر لهم على العدو ولهذا قال: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة:249]؛ أي: بنصره ﴿وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:249]، بالنصرة على العدو وبتوفيق الصبر عند الملاقاة كما قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ [النحل:127].

ثم أخبر عن بروز طالوت وقتل جالوت بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا﴾ [البقرة:250]، الآيتين والإشارة فيهما أن المجاهدة في الجهاد الأكبر وهو الجهاد مع جالوت النفس الأمارة لا يقوم بحوله وقوته على قتال النفس ولا يظهر عليها حتى يبرأ من حوله وقوته ويرجع إلى ربه تعالى متسغيثًا به مستعينًا به مستدعيًا منه ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ [البقرة:250]، على الائتمار لطاعتك والانزجار عن معاصيك ومخالفة الهوى وترك تيه الدنيا ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة:250]، في التسليم عند الشدة والرخاء ونزول البلاء وهجوم أحكام القضاء في السراء والضراء وفي التوكل على الحالات عليك، وفي تفويض الأمور إليك والرضا بما في الكتاب المسطور لربك ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:250]، وهم أعداؤنا في الدين عمومًا والنفس الأمارة وصفاتها التي أعدى عدونا بين جنبينا خصوصًا فإذا كان الالتجاء عن صدق الرجاء برب الأرض والسماء فيكون مقرونًا بالإجابة الدعاء والظفر على الأعداء عند اللقاء.

﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة:251]، بنصرة الله فإنه هو الذي صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ﴾ [البقرة:251]، القلب ﴿جَالُوتَ﴾ [البقرة: 251]، النفس إذ أخذ حجر الحرص على الدنيا وحجر الميل إلى العقبى وحجر تعلقه إلى نفسه بالهوى، حتى صار الثلاثة صحراء واحدة وهو التفات إلى غير المولى فوضعه في مقلاع التسليم والرضا فضرب به جالوت النفس فسخر الله ريح العناية حتى أصاب بيضة هواها وخالط دماغها فأخرج منه الفضل والفضول وخرج من قضاها وقتل من

رآها ثلثين من صفاتها وأخلاقها ودواعيها وهزم الله باقي جيشها وهو الشياطين وأحزابها، ﴿وَآتَاهُ اللهُ الْـمُلْكَ وَالْـحِكْمَةَ﴾ [البقرة:251]؛ يعني: داود القلب ملك الخلافة وحكمة الإلهامات الربانية ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة:251]، من حقائق القرآن وأسرارها وإشاراتها ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة:251]؛ يعني: أرباب الطلب المشايخ البالغين الواصلين الهادين المهديين.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ [البقرة: 251]، استعداداتهم المخلوقة في أحسن تقويم لتثمر كمالات الدين القويم والعبور على الصراط المستقيم والدخول في جنات النعيم عن استيلاء جالوت النفس وجنود صفاتها وتخريب بلاد الأرواح بتبديل أخلاقها وتكرير صفاء ذواتها وترويدها إلى جحيم صفات البهائم والأنعام وأسفل دركاتها ﴿وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:251]؛ يعني: من كمال فضله وكرمه يحرك سلسلة طلب الطالبين ويلهم أسرارهم بإرادة المشايخ الكاملين وتوفيقهم للتمسك بذيول تربيتهم والتسليم تحت تصرفاتهم في تنقيتهم وتثبيتهم بالصبر والسكون عن الرياضات والمجاهدات في حال تزكيته، ويشير إلى المشير بقبولهم والإقبال عليهم ويصبرهم على الفطام عن ألبان صفاء الأوقات ولذات المناجاة في الخلوات وتقويلهم لذيذ المخاطبات وينعم عليهم بالترحم والتعطف واللين على المريد.

كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُم﴾ [آل عمران: 159]، فلو لم تكن هذه الألطاف وأضعافها من الله ما يسر لها تزكية نفوسهم أبدًا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النور:21]، بهذه الأسباب وغيرها فهذه إشارات ولطائف لا تتحقق إلا لأهل الخير ولا عبرة في إدراكها بالعقول الجامدة لأهل العزة ولهذا خص الله تعالى حبيبه سيد المرسلين يعني: في ضمن هذه الآيات رموز وإشارات وأمارات ودقائق وحقائق وأنوار وأسرار: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ﴾ [البقرة:252]؛ أي: نجلوها لديك ﴿بِالْـحَقِّ﴾ [البقرة:252]؛ أي: بالحقيقة كما هي: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْـمُرْسَلِينَ﴾ [البقرة:252]، الذين عبروا على هذه المقامات وشاهدوا هذه الأحوال والكرامات وظفروا بقهر النفس وتبديل الأخلاق والصفات وصح لهم صفاء

الأوقات ولذة المناجاة في الخلوات ثم فطموا عن ألبان تلك اللذات في حجر القربات وأرسلوا إلى أهل الغفلات، وعبدوا طواغيت وأصنام الشهوات ليدعوهم من دار الغرور إلى دار السرور من الظلمات إلى النور ولكنهم بالغوا إلى ما بلغت من تحقيق إشارة هذه الآيات لأنهم بالغوا مثل ما بلغت في قهر النفس بسيف الرياضات وكنت نبي السيف على النفس كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: 11]، فالعلم هو الضوء من نور الوحدانية فكلم النفس بالخوف، وإنهم تدرجوا في الدرجات وما قاربوك في القربات، وما وصلوك في الوصلات، وإنهم ليلة المعراج وإن تابعوك في الصلوات؛ ولكنهم ما صاحبوك في الخلوات فإنهم بقوا في الشهوات وأنت عبرت عن المكونات ثم خصصت بقرب ﴿قاب قوسين أو أدنى﴾ خصصت، بسهم ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾، فوجبت بالكلام بعد ما نوديت بالسلام وعاينت بعدما باينت وأبقيت بها أبقيت بعد ما أفنيت، أسري بك وأنت موسوم بالعبدية، فوصفت بالرحمة إذ أرسلت من مقام العندية ثم فطمت عن رضاع: «لي مع الله وقت»، وابتليت بسفارة جبريل عليه السلام وقتًا دون وقت ثم لقيت من القوم ما لقيت بعدما تعلمت عما سقيت فحق لك أن تقول: «ما أوذي بي مثل ما أوذيت»[1] فعلى هذا لا يحق لأحد من العالمين حتى الأنبياء والمرسلين والملائكة والمقربين كشوف حقائق هذه الآيات والوقوف على دقائق هذه المشكلات بقدم السير في هذه المقامات وجناح الطير في هذه الكرامات فهنيئًا لك ما نلت ومريئًا لك ما قلت: «لو كان موسى وعيسى حيًا لما وسعهما إلا اتباعي»[2] وقولك: «الناس يحتاجون إلى شفاعتي يوم القيامة حتى إبراهيم»[3] بل قولك: «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة ولا فخر وأنا سيد ولد آدم»[4]؛ ولهذا نظم الله ورد هذه الإشارات في سلك صرّح وعرض بالعبادات بقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ

---

(1) أخرجه ابن عدي (7/ 155، ترجمة 2065 يوسف بن محمد بن المنكدر)، وأورده الذهبي في الميزان (7/ 305، ترجمة 9892 يوسف بن محمد بن المنكدر).

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (1/ 200، رقم 176).

(3) ذكره حقي (7/ 125).

(4) تقدم تخريجه.

دَرَجَاتٍ﴾ [253]، والإشارة في تحقيق الآية أن التفاضل في الدين والدنيا ليس بسعيهم وامتثالهم وإنما بتفضيل الله تعالى إياهم.

كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: نحن فضلنا، فلكل واحد من أهل الفضل أنوار ولأنوارهم آثار فمنهم من هو أعلى نورًا وأتم في الرفعة وقورًا فرفعة درجاتهم وعلو مقامهم على قدر استعلاء أضواء أنوارهم لا على قدر سعيهم واختيارهم، وهذا التفاوت صادر من تلك الأقسام حين جرت به الأقلام(1).

كما قال ﷺ: «إن الله خلق خلقه في ظلمة فألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل»(2) فلذلك أقول حق القلم على علم الله فلما خلق الله تعالى استعداد وجود العباد والمقبولين قابلاً لفيض نوره استخصهم بفضل عام وفضل خاص فأما العام: فيما خصهم عن الخلق المردودين بفضل قبول فيض النور فأخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء:11].

وأما الفضل الخاص: فيما خص بعضهم عن بعض بزيادة كماليته استعداد الوجود في قبول فيض النور فإن التفاوت في الأنوار على قدر التفاوت في الظلمات المخلوقية المستعدة لقبول فيض النور في بدء الخلقة لا في حقيقة النور فإنه موصوف بالوحدة لا تعدد فيه ولا في تفاوت بالزيادة والنقصان، وإن التعدد والتفاوت في الحقيقة راجع إلى الظلمة لا إلى النور؛ ولهذا ذكر الله تعالى النور في مواضع من القرآن بلفظ الواحد أن ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة:16] وأمثالها كثيرة فافهم جدًا.

---

(1) قال الشيخ البقلي في «العرائس»: فضل أنبياء بعضهم على بعض تطيب لقلوب أوليائه؛ لأنهم أهل غيرة الحق، وأيضًا حتى لا يسكنوا عن طلب زيادة المقامات والدرجات، وأيضًا حتى لا يركن بعضهم إلى بعض في حقائق المعرفة والمحبة.

وقال أبو بكر الفارسي الصوفي: ما خلق الله شيئًا إلا متفاضلاً متفاوتًا أقدارهم حتى الرسل.

(2) أخرجه أحمد (2/ 176 ، رقم 6644)، والترمذي (5/ 26 ، رقم 2642)، وقال : حسن. والحاكم (1/ 84 ، رقم 83) ، وقال : صحيح . والبيهقي (9/ 4 ، رقم 17488)، وابن أبي عاصم في السنة (1/ 107 ، رقم 243)، والبزار كما في كشف الأستار (3/ 21، رقم 2145)، وابن حبان (14/ 43 ، رقم 6169)، والطبراني في مسند الشاميين (1/ 304 ، رقم 532) ، والديلمي (1/ 170 ، رقم 634).

ثم إن فضيلة كل صاحب فضل يكون على قدر استعلاء ضوء نوره لأن الرفعة في الدرجات على قدر قوة الاستعلاء كما قيل: «ازدياد العلم رفعة الدرجة» فناهيك عن هذه المعاني قول النبي ﷺ فيما يخبر به عن المعراج أنه رأى آدم عليه السلام في السماء الدنيا، ويحيى وعيسى عليهما السلام في السماء الثانية، ويوسف في السماء الثالثة، وإدريس في السماء الرابعة، وهارون في السماء الخامسة، وموسى في السماء السادسة، وإبراهيم في السماء السابعة عليهم الصلاة والسلام.

وعبر النبي ﷺ حتى رفع إلى سدرة المنتهى ومن ثمة إلى قاب قوسين أو أدنى فهذه الرفعة في الدرجات والقربة إلى الحضرة كانت له على قدر قوة ذلك في استعلاء ضوئه على قدر غلبات أنوار التوحيد على ظلمات الوجود، كانت مراتب الأنبياء بعضهم فوق بعض لما غلب نور الوحدانية على ظلمة إنسانية النبي ﷺ فاضمحلت وتلاشت وفنيت ظلمة وجوده بسطوات تجلي صفات الجمال والجلال، فكل نبي بقدر ظلمة وجوده بقي في مكان من أماكن السماوات، فإنه ﷺ ما بقي في مكان ولا فيه مكان؛ لأنه كان فانيًا عن ظلمة وجوده، باقيًا بنور جوده ولهذا سماه الله تعالى: نورًا وقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15] فالنور محمد ﷺ والكتاب هو القرآن فافهم واغتنم فإنك لا تجد هذه المعاني إلا هاهنا والله أعلم.

ثم أخبر عن فضيلة الخواص أنها كانت من تفضيله إياهم وأخبر عن اختلاف العوام وافتراقهم أنه كان بمشيئة الله لا بمشيئتهم بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [البقرة:253]؛ يعني: خصوصًا بعد ما جاءتهم البينات، ﴿وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا﴾ [البقرة:253]، مع رؤية المعجزات؛ لأن الأمر بمشيئة الله لا بمشيئتهم فما نفعتهم المعجزات مع إعواز المشيئة فلما كانت المشيئة في حق البعض دون البعض ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ [البقرة : 253]، السعادة في حق الجميع ﴿مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ﴾ [البقرة:253]، إلى الأبد ﴿مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:253]، في الأزل بل اختلاف الأزل والأبد راجع إلى الخلق، الأزل أبد والأبد أزل تعالى عما يشركون به علوًا كبيرًا.

ثم أخبر عن إحراز الفضل أنه في الإنفاق والبذل في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة:254]، والإشارة فيها أن مع تنزه تحقيقها عن تقديره بالعبادات وتقديره بالإرشادات أنه سبحانه عظم شأنه وعز سلطانه أخبر عن كمال ذاته بذاته وعن جلال صفاته بصفاته وعن جمال مكنونه بمكنوناته فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يخبر عن ذات منفرد بالألوهية والديمومية، متوحدة بالوحدانية والربوبية بمن عرف بقضايا هذا طلاسم حق العرفان عرف أنه ينعت الكمال موصوفًا بجميع صفات الجلال والجمال فلا يحتاج إلى تعريفه بتعداد أوصاف كماله ونشرها فإنها تقدست وتعظمت عن إحاطة نطاق النطق بحصرها؛ ولكن لما دعت الضرورة لقصور العقول عن درك شأوها إلى تعدد، شرع في شرحها وعدها فبدأ بنفي إله يصلح للضدية في الألوهية والندية في الربوبية بقوله تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ﴾ [البقرة:255]، ثم أثبت بالاستثناء عن الجنس هوية ذاته بوصف الوجود والإيجاد معبودية العباد لا ضدية ولا ندية بقوله تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة:255].

ثم بين صفة هي لازمة اللاهوتية بقوله تعالى: ﴿الْحَيُّ﴾ [البقرة:255]، لا حي إلا هو ولا حياة إلا حياته فلا يحيى حي إلا بإحيائه وحياته، ثم ذكر صفة أخرى ذاتية له مقرونة بقوله تعالى: ﴿الْقَيُّومُ﴾(1) [البقرة:255]؛ يعني: هو القائم بذاته القيوم لمخلوقاته

---

(1) قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قطع بها أبدى من وصف ألوهيته عن قلوب عباده أسباب العبودية؛ لأن العبودية تكون عرفان الربوبية، لأجل ذلك ذكر نفسه في أول إظهار وجوده، وأيضًا كشف عن نفسه بوصفه لعباده حتى أثبتهم ببروز سلطنته في قلوبهم عند خطرات الهجران عند قوله، وأيضًا دعا الخلق بنفسه إلى نفسه قبل ذكر الأسباب حتى حيرهم به فيه، وأيضًا رسخ أشجار المحبة في سواقي أسرار أهل المعرفة بذكره ألوهيته قبل كل شيء، ثم ذكر ليحيرهم في سراب العدم، ثم كشف لهم عن جمال القدم، وأيضًا أفرد قدمه عن العدم، وأيضًا ضرب سرادق التنزيه على سواحل بحر التوحيد قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أزال العلل عن قدس الأزل، وكشف بالأزل عن الأزل.

سُئل ابن منصور عن هذه الآية؛ فقال: لا إله إلا الله يقتضي شيئين: إزالة العلة عن الربوبية، وتنزيه الحق عن الدرك. وقال ابن عطاء: صدق قبول لا إله إلا الله الصبر، وبه ثبت على إيمانه والصدق، وبه اجتهد في الطاعات لربه في سره وإعلانه وإنفاق من ماله مبتغيًا به رضاه حتى لا يبقي لنفسه مدخرًا غير خالقه، والخلوة بربه في الأسحار وإظهار الافتقار بلسان الاستغفار نادمًا على عصيانه خائفًا من

ليس لشيء من مكوناته قيام بنفسه إلا هو قائم بقيوميته، وقد مر من دعاء النبي ﷺ: «يا قيوم السماوات والأرض»(1) وإنما أشير في معنى الاسم الأعظم إلى الاسمين وهما الحي القيوم؛ لأن اسمه الحي مشتمل على جميع أسمائه وصفاته فإن من لوازم الحي أن يكون قادرًا عالمًا سميعًا بصيرًا متكلمًا مريدًا باقيًا، واسمه القيوم مشتمل على افتقار جميع المخلوقات إليه، فتجلى الله لعبده بهاتين الصفتين فالعبد يكاشف عند تجلي صفة الحي بجميع ما في أسمائه وصفاته ويشاهد عند تجلي صفة القيوم فناء جميع المخلوقات إذا كان قيامها بقيومية الحق لا بأنفسهم فلما بدا الحق زهق الباطل فلا يرى في الوجود إلا الحي القيوم.

وإذا كان بسبب الحي قيام جميع أسماء الله تعالى، وبسبب القيوم قيام المخلوقات فترتفع الاثنينية بينهما إذا أفنت التعدد وبقيت الوحدة فيصيران أسمى وأعظم للمتجلى له فيذكره عند شهود عظمة الوحدانية بلسان عيان الفردانية لا بلسان بيان الإنسانية فقد

هجرانه. وقال أيضًا: يحتاج مع قائل لا إله إلا الله ثلاثة أنوار نور الهداية، ونور الكفاية، ونور العناية، فمتى منَّ الله عليه بنور الهداية فهو من خواصه، ومتى منَّ عليه بأنوار: الكفاية فهو معصوم من الكبائر والفواحش، ومتى منَّ عليه بأنوار العناية فهو محفوظ من الخطرات الفاسدة. وقال بعضهم: يحتاج قائل لا إله إلا الله إلى أربع خصال: تصديق، وتعظيم، وحلاوة، وحرمة، فمَنْ لم يكن له تصديق فهو منافق، ومَنْ لم يكن له تعظيم فهو مبتدع، ومَنْ لم يكن له حلاوة فهو مرائي، ومَنْ لم يكن له حرمة فهو فاسق. قيل لأبي الحسن النوري: لمَا لا تقول لا إله إلا الله، قال: بل أقول الله، ولا أبقي به ضدًا. وقال بعضهم: مَنْ قالها وفي قلبه رغبة أو رهبة أو طمع أو سؤال فهو مشرك. ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الحي الذي قامت به الأحياء، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي يحيي بقيوميته الأموات، وأيضًا ﴿ٱلْحَيُّ﴾ الذي تتهمهم به الأنفاس، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي تقوم بكفاية الأشخاص، والحياة من صفاته الخاصة في العدم وعامة فيما أوجد الخلق من العدم، والقيومية صفته التي لم يزل كان موصوفًا بها، ويحصلها أنه استقبل بنفسه في أزليته وأبديته، و﴿ٱلْحَيُّ﴾ الذي لبس حياته أسرار الموحدين فتوحدوا به له، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي يربي بتجلي الصفات وكشف الذات أرواح العارفين، ففنوا في ذاته، واحترقوا بنور كبريائه. وقيل في قوله: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أجعله مراقبًا في قيوميته عليك وعلى جميع العالم. وقيل: أنه قيوم بحفظ أذكاره على أسرار أهل صفوته.

وقال سهل: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ قائم على خلقه بكل شيء، وآجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم. [العرائس].

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط» (1/ 52، رقم 145).

ذكره باسم الأعظم الذي إذ دُعي أجاب، وإذا سئل به أعطى، فأما الذاكر عند غيبة فبكل اسم دعاه لا يكون الاسم الأعظم، بالنسبة إلى حال غيبته وعند شهود العظمة فبكل اسم دعاه يكون الاسم الأعظم كما سئل أبو يزيد عن الاسم الأعظم فقال: الاسم الأعظم ليس له حد محدود؛ ولكن فرغ قلبك لوحدانيته فإذا كنت كذلك فاذكره بأي اسم شئت.

ثم الله تعالى نزه نفسه عن صفات النقص بعد ما أثبت له صفات الكمال وقال: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ [البقرة:255]، لأن النوم أخو الموت بل سمى الله تعالى النوم بالموت وقال: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر:42] أي: منامها والموت ضد الحياة وهو الحي الحقيقي فلا يخلفه ضد الحياة، ففي هذا أشار إلى أن ذاته سبحانه وتعالى كأنه موصوف بصفات الكمال، منزه عن جميع صفات النقصان.

ثم أظهر ملكيته ومالكيته بالانفراد في قوله تعالى: ﴿وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة:255]، ملكًا وملكًا خلقًا وعبدية كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ [مريم:93] قائمًا عبدًا ليس له أن يعارض مالكه وملكه عند إجراء حكمه في ملكه فقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:255]، قلت: هذا الاستثناء راجع إلى النبي ﷺ إن الله قد وعده المقام المحمود بقوله تعالى: ﴿أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾ [الإسراء:79] بالشفاعة فمعنى الآية من ذا الذي يشفع عنده يوم القيامة إلا عبده محمد فإنه مأذون بالشفاعة موعود بها مستعد لها كما مر ذكره في حديث الشفاعة إذ تعينه الأنبياء للشفاعة ويدل عليه سياق الكلام وهو قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:255]؛ يعني: يعلم محمد ﷺ ما بين أيديهم من أمور الأولياء قبل خلق الله الخلائق لقوله ﷺ: «أول ما خلق الله نوري»(1) وفي رواية «روحي»(2)، و«أول ما خلق الله العقل»(3)، و«أول ما خلق الله القلم»(4) و«أول ما خلق

(1) ذكره بهذا اللفظ الشيخ جنون في فتح الأقفال (ص161)، وانظر كتابنا: شرح أنوار النبي ﷺ أسرارها وأنواعها لسيدي عبد الحق بن سبعين.

(2) ذكره السادة الصوفية في كتبهم مثل الشيخ الحلواني في «مواكب الربيع» (52) بتحقيقنا.

(3) رواه الديلمي في «الفردوس» (1/ 13).

(4) رواه أبو داود (4/ 225)، والترمذي (4/ 457).

الله جوهرة»، و«إن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد بألفي عام»[2] وأمثال هذا كثير ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أحوال القيامة وفزع الخلق وغضب الرب وطلب الشفاعة من الأنبياء وقولهم: نفسي نفسي وخذلة الخلق بعضهم إلى بعض حتى بالاضطراب يرجعون إلى النبي ﷺ لاختصاصه بالشفاعة وأشباه ذلك، كما أخبر النبي ﷺ.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾[1] [البقرة:255]، وكذلك يحتمل أن يكون إمّا كناية عنه ﷺ يعني هو شاهد على أحوالهم يعلم ما بين أيديهم عن سير معاملاتهم وقصصهم كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120] وما خلفهم من أمور الآخرة وأحوال أهل الجنة والنار وهم لا يعلمون شيئًا من معلوماته ﴿إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:255]، أن يخبرهم عن ذلك فأحمل على علم الله فهو ظاهر وقد سبق ذكره، ولا يحيطون يعني الخلق بشيء من علمه؛ لأن علمه قديم أزلي لا يكون مسبوقًا بالعلم المحدث إلا بما شاء أن يخبرهم عن بعض معلوماته.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة:255]، فهذا مما يخبر عن جمال مكنوناته بمكوناته يعني ذلك سيد هذا الكمال أن يكون محيطًا بالسماوات والأرض والنار، وهو مع عظم شأنه كخلقه حلقات في فلات بالنسبة إلى العرش، فانظر إن كمالية جمال العرش كم يكون، أما القول معنى الكرسي فاعلم أن مقتضى الدين والديانات لا يؤوّل شيئًا من الأعيان مما نطلق به القرآن والحديث بالمعاني لا بصورها كما فسر النبي ﷺ والصحابة وعلماء السلف الصالح اللهم إلا أن يكون محققًا خصه الله تعالى بكشف الحقائق والمعاني والأسرار وإشارات التنزيل وتحقيق التأويل، فإذا كوشف بمعنى خاص وإشارة وتحقيق بقدر ذلك المعنى من غير أن يبطل صورة الأعيان مثل الجنة والنار والميزان

---

(1) ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ حجب علم القدم عن إدراك مَنْ أوجد من العدم، إلا ما كاشف لأهل القلوب من معانات الغيوب، وأيضًا أي: ولا يحيطون بشيء مما علمه الله من نفسه من علم الأزل إلا بما شاء، أي إلا به لأنه لا وسيلة إلى علمه سواه. وقيل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ يعني من معلوماته وإذا تقاصرت العلوم من الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه فأي طمع لها في الإحاطة بذاته قالها أبو القاسم القشيري.

(2) ذكره العجلوني في كشف الخفا (1/ 113).

والصراط، وما في الجنة من الحور القصور والأنهار مجرى المعنى ويبطل صورته بل يثبت تلك الأعيان كما جاء ويفهم منها حقائقها ومعانيها، فإن الله تعالى ما خلق شيئًا في عالم الصورة الأولى نظير في عالم المعاني وما خلق الله شيئًا في عالم المعنى وهو الآخرة إلا وله حقيقة في عالم الحق وهو غيب الغيب، فافهم جدًّا.

وما خلق الله في العالمين شيئًا إلا وله مثال وأنموذج في عالم الإنسان، فإذا عرفت هذا فاعلم أن مثال العرش في عالم الإنسان قلبه؛ إذ هو محل استواء الروح عليه بخلافة الله، ومثال الكرسي سر الإنسان وسنبينها في تحقيق ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:5] إن شاء الله تعالى. فالعجب كل العجب أن العرش مع سعته باستواء الرحمانية فقد قيل هو كخلقه حلقات بين السماء والأرض بالنسبة إلى سعة قلب المؤمن وسيجيء شرحه إن شاء الله تعالى.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة:255]، فتحقيقه أن لا تؤد الروح الإنساني حفظ أسرار السموات والأرض ومعانيها التي أودعها في السر الإنساني بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة:31]، فالله تعالى بعد ما أظهر وأثبت لمخلوقاته من العرش والكرسي والقلب الإنساني وسره علوًا في المرتبة وعظمة في الخلقة إظهار الكمال القدرة والحكمة، ترد برداء الكبرياء والعزة والعلاء، واتزر بإزار العظمة في الرفعة والسناء، وهو أولى وأحق بالمدحة والثناء، فقال عز وجل وعلا: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:255] عين له العلو في الشأن والعظمة والسلطان فمن علا في الآخرة والأولى فبإعلائه قد علا، ومن عظم فبتعظيم قد عظم واستعلى فسبحان ربنا العظيم وسبحان ربنا الأعلى.

ثم أخبر عن عزة الدين لأرباب اليقين بقوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ والإشارة فيها أن الله هو محب الذين آمنوا ومتولي إيمانهم ويخرجهم من ظلمات الخلقة إلى نور الهداية حتى آمنوا، ويدل على هذا التحقيق قول النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه ذلك النور فقد اهتدى ومن أخطاه فقد ضل»(1) فقد ثبت أنه

(1) تقدم تخريجه.

أخرجهم ذلك اليوم بإصابة النور المرشوش من ظلمات الخلقة وهي ظلمة الحدوث فافهم حتى اهتدوا اليوم فآمنوا، ولولا محبته إياهم وهو مزيد العناية وتوليته بالنصرة والمعونة فضلاً ورحمة منه آمنوا وكانوا كافرين بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [البقرة:64].

ثم اعلم أن مراتب المؤمنين في الإيمان متفاوتة، وهم ثلاثة طوائف: عوام المؤمنين وخواصهم وخواص الخواص، فالعوام يخرجهم الله من ظلمات الكفر والضلالة إلى نور الإيمان والهداية كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:17]، والخواص يخرجهم من ظلمات الصفات النفسانية والجسمانية إلى نور الروحانية الربانية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ [الرعد:28]، واطمئنان القلب بالذكر لم يكن إلا بعد تصفيته عن الصفات النفسانية وتحليته بالصفات الروحانية ومن صفة النفس الاطمئنان بالحياة الدنيا وشهواتها لقوله تعالى: ﴿رَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ [يونس:7]، فلما استولى سلطان الذكر على نفس المؤمن وقلبه تنور النفس بنور، وخرجت من ظلمات صفاتها فتبدلت أخلاقها الذميمة بالحميدة، فيكون اطمئنانها مع الذكر يدل ما كانت مع الدنيا، فتستحق حينئذ أن يخرجها الله تعالى بخطاب: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ﴾ [الفجر:27-28] من ظلمات الصفات الغير المرضية إلى نور صفة ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ [الفجر:28-29] أي مقام خواص عبادي وخواص الخاص يخرجهم من ظلمات حدوث الخلقة الروحانية بإفنائهم عن وجودهم إلى نور تجلي صفة القدم لهم لتفنيهم به كقوله تعالى: ﴿فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾ [الكهف13-14]، نسبهم إلى الفتوة لما خاطروا بأرواحهم في طلب الحق وآمنوا بالله وكفروا بالطاغوت أوقيانوس، فلما تقربوا إلى الله تعالى بقدم الفتوة تقرب إليهم بمزيد العناية، وقال تعالى: ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد:17]؛ يعني: إذا خرجوا من ظلمات الكفر بقدم الفتوة إلى نور الهداية أخرجناهم بمزيد العناية من ظلمات النفسانية إلى نور الروحانية، فلما تنورت أنفسهم بأنوار أرواحهم اطمأنت إلى ذكر الله وأنست به واستوحشت عن صحبة أهل الدنيا وما فيها فأحبوا الخلاء.

كما كان حال النبي ﷺ في بدء الأمر قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أول ما بدء به كان حُبب إليه الخلاء، ولعمري وهذا دأب كل طالب محق مريد صادق فقال أكبرهم: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾ [الكهف:16] وبالحقيقة كان الحق ينطق على لسانه إذا أمرهم بعد المفارقة عن الأوطان والأخدان، ولم يجدوا مربيًا من هذا الشأن بأن يأووا إلى غار ليخلوا مع الله ويطلبوه منه، فإذا قاموا عن وجودهم وبذلوا جهدهم في طلبه ومشوا إليه استقبلهم بجوده هرولة فبدل أوصافهم بألطافه.

كما قال تعالى: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف:14]، أي: أفناهم عنهم بنا بنشر رحمتنا عليهم، والنشر هو الأحياء ينشر لكم ربكم من رحمته، أي: يحييكم ربكم بصفات رحمته بعد أن يميتكم عن صفاتكم ويهيئ لكم من أمركم مرفقًا، يعني: إذ نحن ما نعلم طريق السير إلى الله، ولم نجد من يسيرنا إليه بالتربية، فالله تعالى يتولى أمرهم بنهي أسبابها بالرفق، فلا جرم من تهيئ أسباب تربيتهم فأنامهم نومة العروس بعزل الحواس، فإنها أصل معتبر في تصفية القلب وسرعته إلى التوبة بالكلية إلى الحق في قبول فيض النور الإلهي، ولئلا تتأذى نفوسهم بنصب الرياضة وتعب المجاهدة، وتولى تربيتهم بلا واسطة، فقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف:18]، تقلبهم عن صفات أصحاب الشمال إلى صفات أصحاب اليمين، وكلبهم عين كلب نفوسهم ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: نائم باسط ذراعيه عنهم، ولا يزاحمهم بدواعي البشرية حتى تمده مدة تربيتهم في أوصاف البشرية بأخلاق الربوبية فإفنائهم عنهم وإبقائهم به من أمارات هذا المقام، وهو الولاية التي يكرم الله بها خواص عباده إذ يخرجهم من ظلمات وجودهم إلى نور جوده فأظهر الله عليهم هيبة من آثار صفات جلاله، كما قال تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ [الكهف:18].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ [البقرة:257]، ذكر الطاغوت بلفظ الواحد والأولياء بلفظ الجمع؛ ليعلم أن الولاء والمحبة من قبل الكفار للطاغوت لا من قبل الطاغوت لهم فلو كان من قبله لقال: وليهم الطاغوت أو الطاغوت وليهم فمعناه

والذين كفروا هم أولياء الطاغوت، دليله قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ﴾ [البقرة:165]، ولأنه لو فسرنا الطاغوت بالأصنام فإنه بمعزل عن الولاية والمحبة، وإن حملنا على الشيطان والنفس فإنهم أعداء لا الأولياء وإن حملنا على الرؤيا المتقدمين، فإن لهم فراغة عن ولايتهم ومحبتهم وإن كانوا يقطعون الطريق عليهم ويمنعونهم عن الإسلام ويدعونهم إلى الكفر، فهذا من العداوة لا من الولاء فثبت أنهم أولياء للطاغوت، ولهذا الفرق ذكر الأولياء بلفظ الجميع، ولما كان في حق المؤمنين الولاء والمحبة من الله تعالى ابتداء لا منهم قال لله عز وجل: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[1] [البقرة: 257]، دليله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، بدع بمحبته إياهم قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:257]، فليس لكل طاغوت في العالم قدرة بالحقيقة على إخراج أحد من النور إلى الظلمات، كما قال ﷺ: «بعث الشيطان مزينًا، وليس إليه من الضلالة شيء»[2]، وإنما نفوس الإنسان تميل إلى ما يلائم هواها وشهواتها فيسكن ولاءها

---

(1) قوله: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ أخرجهم من ظلمات العدم إلى كشف أنوار القدم، وأيضًا يخرجهم من ظلمات الامتحان إلى مشاهدة البيان، وأيضًا يخرجهم من ظلمات العبودية إلى جمال الربوبية، وأيضًا يخرجهم من الفرح بما وجدوا من المقامات والدرجات إلى نور مشاهدة الذات والصفات، وأيضًا يقدسهم ويخرجهم من ظلمات البشرية بمياه الشفقة لنور الأبدية، وأيضًا يزيلهم عن أوصافهم المحدثة ويقربهم إلى بساط الحرية، ويلبسهم صفات الأزلية وسناء الصمدية.

وقال ابن عطاء: يغنيهم عن صفاتهم بصفته، فتندرج صفاتهم تحت صفاته، كما اندرجت أكوانهم تحت كونه، وحقوقه عند ذكر حقه فيصير قائمًا بالحق مع الحق للحق.

وقال أيضًا: بذل النفس لله على حكم الإيمان من علامة الهدى والقيام بأداء ما استدعى منهم من علامة التوفيق والانتهاء عما زجر عنه من علامة العصمة، فذلك لنفي الظلمات عنه بها، نوّره الله تعالى أنوار من الإيمان، وذلك الذي يوجب له الولاية، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآية.

وقال الواسطي: يخرجهم من ظلمات نفوسهم، صدقها ورضاها وتقواها إلى نور صفاته وما سبق لهم من متابعة. وقال أيضًا: يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلى أنوار ما جرى لهم في السبق عن الرضا، والصدق والمحبة وغيرها. وقال النوري: يخرجهم من ظلمات العلم إلى نور المشاهدة؛ لأنه ليس المعاين كالمخبر. وقال الجنيد: يخرجهم من الظلمات أوصافهم إلى أنوار صفاته.

قال أبو عثمان: يخرجهم من رؤية الأفعال إلى رؤية المنن والإفضال.

(2) ذكره السيوطي في الدر المنثور (8/ 6).

ومحبتها فيتمنى نيل مرادها ومرامها من شيء أو شخص أو شيطان أو صنم تثبت بذلك وتعلق به وتتولاه وتجعله طاغوتًا يشغلهم عن الله، فلهذا المعنى ينسب الله تعالى الإخراج إليهم بقوله: ﴿يخرجونهم﴾، كقوله: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ رَبِّ * إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم:35-36] إنما بتعبدهم ضلوا إلا بإضلالهن، فكذلك الكفار بتوليهم الطاغوت أخرجوا من النور، ومعنى الآية يخرجونهم من نور الروحانية والإيمان الفطري إلى ظلمات الصفات النفسانية البهيمية والسبعية والشيطانية ظلمات بعضها فوق بعض، ودركات بعضها تحت بعض إلى أن تكدرت الأرواح وأظلمت بهذه الظلمات وتخلقت بأخلاق النفوس واتصفت بصفاتها.

وكما أن النفوس إذا تنورت بنور الإيمان والأرواح وعلت إلى عالم الأرواح وأعلى عليين القرب مع كونها سفلية، فبإكسير الشرع تصير متصفة بصفة العلويات فتدعى بقوله تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي﴾ [الفجر:27-28]، فكذلك الأرواح العلوية لما اتصفت بصفات النفس الأمارة وانقلبت جواهر النورانية بإكسير الطبع الحيواني ظلمانية أمرت بالهبوط إلى أسفل سافلين البعد، دليله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين4-5]، فإفساد استعداد الروحاني بالكفر ومتابعة الهوى ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ استثنى منهم أرواح المؤمنين ﴿أُولَئِكَ﴾ [البقرة:39] يعني: أرواح الكفار ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [البقرة: 39]؛ أي: مع أصحاب النار وهم النفس والشيطان والطاغوت ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:39]؛ أي: معهم فيها خالدون لأنكم أيها الأرواح وإن لم تكونوا من جنس لما شبههم بهم فمن تشبه قومًا فهو منهم ومن أحب قومًا فهو معهم خالدين في النار وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

ثم أخبر عن الكافر أنه إذا عجز عن العبودية كيف عارض الربوبية بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة:258]، الإشارة فيها أن الله تعالى لما أعطى نمرود ملكًا ما أعطى لأحد قبله، وذلك لأن الله تعالى أعطى الإنسان حسن استعداد لطلب الكمال ما أعطى لأحد من العالمين كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ

تَقْوِيمٍ﴾ [التين:4]، يعني: حسن استعداد في طلب الكمال فمن حسن استعداده في الطلب وغاية لطافته في الجوهر دائم الحركة في طلب الكمال فحيث ما توهم جهة الكمال يأخذ في السير فيها إلى أقصى مراتبها في العلوي أو السفلي لا يتوقف لحظة إلا لما هي، ولكن الإنسان جبل على الصفة الظلومية والجهولية كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:72]، فإن وكل إلى نفسه في طلب الكمال فينظر بنظر الحواس الخمس إلى المحسوسات وهي الدنيا فلا يتصور الكمال إلا فيها، فيأخذ في السير لطلب الكمال فيها، وهذا السير موافق لبشرية الطبيعة لأنه خلق من تراب، والتراب سفلي الطبع فيميل إلى السفليات طبعًا والدنيا هي السفل فيسير فيها بقدر الطبع ويطلب الكمال، وفي البداية يرى الكمال في جميع المال فيجمعه، ثم الكمال في الجاه فيصرف المال في طلب الجاه، ثم يرى الكمال في المناصب والحكم، ثم يرى في الأمارة والسلطنة فيسير فيها ما لم يكن مانع إلى أن يملك الدنيا بأسرها كما كان حال نمرود، ثم لا يسكن جوهر الإنسان في طلب الكمال كلما ازداد استغناؤه ازداد حرصه وكلما ازداد حرصه ازداد طلبه إلى أن لا يبقى شيء من السفليات أن ملكه بقصد العلويات، وإلى الآن كان ينازع ملك الملوك ومالك الملك، وكان سبب طغيانه استغناؤه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق6– 7]، فإذا كمل كمال الله أتاه الملك وكان سبب طغيانه حتى يكفر بالنعمة ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، فهذا كله عند فساد جوهره لما وكل إلى نفسه، فبحسن استعداده أينما تصور الكمال توجه إليه لتحصيله إلى أنه رأى الكمال في الربوبية قصدها وادعى الربوبية ولكن جوهر الإنسان إذا صلح بالتربية ولم يوكل إلى نفسه هدي إلى جهة الكمال المستعد له، كقوله: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:38] فصاحب التربية وهو النبي أو بنيابته وخلافته الولي وهو الشيخ يربيه وتربيته في تربية عما سوى الله، وعداوته لتحقق تولية الله ومحبته، كما كان حال إبراهيم عليه السلام في طلب الحق بقوله: ﴿أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود:54]، ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، إلى أن يبلغ الإنسان حد كماله في طلب الكمال، وهو إفناء الوجود في وجود الموجود الموجد؛ ليكون مفقودًا عن وجوده موجودًا بوجوده، فكما كان يقول عند فساد الجوهر وإبطال

حسن الاستعداد للكمال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ [البقرة:258] وليس للعالم رب إلا أنا جهلاً بهذا الكمال، فيقول عند صلاح الجوهر وصرف حسن الاستعداد في طلب الكمال وحصوله: «ليس في الوجود سوى الله»، وهذا هو حقيقة ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾؛ يعني: كن فانيًا عن وجودك بالكلية، فإذا فنيت عنك به علمت ما في الوجود سوى الله واستغفر لذنبك حسبان وجود غير وجوده، فافهم جدًّا.

وإن لم تكن مجدًا، فإن المجد من يدق بمطرقة لا إله إلا الله دماغ نمرود دماغ النفس إلى أن يؤمن بالله، ويكفر بالطاغوت وجوده وجود كل موجود سوى الله، ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:258] يعني إلى عالم التوحيد والوحدة القوم المشركين فإن الشرك لظلم عظيم بالشرك ضل من ضل عن الصراط المستقيم.

ثم أخبر عن إظهار قدرته في إحياء الموتى بعد انقطاع المدعي في محبته عقيب الدعوى بقوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾(1) [البقرة:259].

والإشارة فيها: أن قومًا أنكروا حشر الأجساد مع أنهم اعتقدوا وأقروا بحشر الأرواح، وقالوا: الأرواح كان تعلقها بالأجساد ولاستكمالها في عالم المحسوس كالصبي يبعث إلى المكتب لتعلم الأدب، فلما حصل مقصوده من التعلم بقدر استعداده وخرج من المكتب ودخل محفل أهل الفضل وصاحبهم سنين كثيرة، واستفاد منهم أنواع العلوم التي لم توجد في المكتب واستفاد العلوم

(1) قال الشيخ النيسابوري: لم يتغير. وأصله من السنة أي لم يأت عليه السنون لأن مرّ السنين إذا لم يغيره فكأنها لم تأت عليه. وعلى هذا فالهاء إما للسكت بناء على أن أصل سنة سنوة بدليل سنوات في الجمع وسنية في التحقير، وقولهم «سانيت الرجل مساناة» إذا عامله سنة. وإما أصلية على أن نقصان سنة هو الهاء بدليل سنيهة في التصغير، وقولهم «أجرت الدار مسانهة». وقيل: أصله لم يتسنن إما من السن وهو التغير قال تعالى: (مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ) [الحجر: 26] أي متغير متن. وإما من السنة أيضاً بناء على ما نقل الواحدي من أن أصل سنة يجوز أن يكون سننة بدليل سنينة في تحقيرها وإن كان قليلاً. [تفسير النيسابوري (2/ 127)].

من الفضلاء بقوة أدبه التي تعلم في المكتب، وصار فاضلاً في العلوم فما حاجته بعد أن كبر شأنه وعظم قدره أن يرجع إلى المكتب وحالة صباه. فلذلك الأرواح لما خرجت من سجن الأشباح واتصلت بالأرواح المقدسة بقوة علوم الجزئيات التي حصلتها من عالم الحس مستفادة عن الأرواح العلوية علم الكليات التي لم توجد في عالم الحس فما حاجتها أن ترجع إلى سجن الأجساد، فكانت نفسهم تسولت بهذه التسويلات والشيطان يوسوسهم بمثل هذه الشبهات، فالله سبحانه وتعالى من كمال فضله ورحمته على عباده المسلمين أمت عزيزًا مائة سنة وحماره ثم أحياهما جميعًا ليستدل به العقلاء على أن الله مهما يحيي عزيز الروح يحيي معه حمار جسده فلا يشك العاقل بتسويل النفس ووسوسة الشيطان وشبهات المتفلسفين في حشر الأجساد كما قال تعالى: ﴿وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة:259]؛ يعني: انظر إلى حمارك الميت والعظام الرميمة، ثم انظر إلى العظام ننشزها لنجعل حالك وحال حمارك في الأحياء آية، والآية واضحة وأمارة لائحة للعاقل المؤيد عقله بنور الإيمان ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ [البقرة:259]، بعد كشف الحجاب برؤية مشاهدة أنوار الغيب ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:259]، يقر ويؤمن بأن الله يحيي عزيز الروح ويحيي معه حمار جسده، فكما أن عزيز الروح يكون في مقعد صدق عند مليك مقتدر يكون حمار عزيز الروح، وهو جسده ونفسه في الجنة، فلعزيز الروح مشرب من كئوس تجلي صفات الجمال والجلال عن ساقي ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان:21] ولحمار الجسد مشرب من أنهار الجنان وحياض رياض، ﴿ولكم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين﴾ ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة:60] مشربنا، وأهرقنا على الأرض سؤرنا وللأرض من كأس الكرام نصيب، وإن لحشر الأجساد وإعادة الأرواح إليها فوائد وحِكَمًا سنبينها في موضعه إن شاء الله تعالى.

ثم أخبر عن إراءة كيفية الإحياء لخليله «شيخ الأنبياء» عليهم الصلاة والسلام

بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:260]، والإشارة فيها أن في قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾(1) [الأعراف: 143]، تفوح رائحة معنى قول موسى عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]،

---

(1) قال الشيخ البقلي: وقوله تعالى: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ يجوز أن الله تعالى امتحن الخليل عليه السلام بأنواع البلايا في ظاهره وباطنه، أما ما في ظاهره؛ فهو الذي أخبر الله تعالى في كتابه أنه أُلقي في النار وعذبه بأيدي الكفار، وأيضًا ابتلاه بذبح الولد وما أشبهه.

وأما الذي في باطنه فهو ما أخبر الله من اضطراب قلبه في تحصيل إدراك محض الربوبية، وكان يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ مرة، ويقول: ﴿أَرِنِي﴾ مرة؛ لأنه كان يطلب من خاطره إثبات محض اليقين، فأخبر الله تعالى عن جميع امتحانه مع خليله عليه السلام في آية من كتابه قال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ ومقصود الحق - سبحانه وتعالى- في ذلك أن يذيع بواطن أنبيائه وأوليائه بخطرات نفوسهم حتى يحترقوا بفقدان الحبيب وتتقدس عن شوائب البشرية وإلقاء الشيطانية، وأكثر ابتلاء الخواص هكذا كإبراهيم عليه السلام وموسى عليه السلام وعزير عليه السلام، محمد ﷺ.

وذكر الله تعالى أحوالهم جميعًا في كتابه، أما لموسى عليه السلام ما رُوِيَ عنه أنه كان يقول في مناجاته: «أي ربِّ، من متى أنت!».

وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ﴾، وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة».

هكذا ابتلاء خواص الأنبياء والأولياء لا بأس؛ لأن الرب رب والعبد عبد، وأيضًا سأل الخليل عليه السلام مشاهدة الحق في لباس الخلق، وأيضًا أراد في سؤاله زيادة المعرفة في وسائط الآية لا من الاضطراب في الشك والتهمة.

وأيضًا قال: ﴿أَرِنِي﴾ حقيقة بطنان الألوهية والربوبية، وهذا من الخليل عليه السلام غاية استغراقه في الاشتياق وغوصه في سر حبيبه وأوصاف قدرته؛ لأن المحب أراد أن يحيط بحقيقة ذات المحبوب من جميع الوجوه وذلك من شرط الاتحاد.

وتحصيل ذلك زوائد اليقين وحقائق مقام التمكين، وأن الله تعالى منزه عن أن يدركه أحد من خلقه؛ لأن ذاته تقدس وتعالى امتنع بعزة هويته عن مطالعة المخلوقات، فأجاب الله تبارك وتعالى خليله وقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أنك لم تدركني بشرائط سر القدم، وأنت مخلوق أسير بنعوت الحدث، قال: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ بعد رؤية فنائي في عز عظمتك وبقاء ربوبيتك؛ لأن قلبي لا يسكن عن طلب مشاهدة جمال ربوبيتك، وأراد عليه السلام في سؤاله حيلة كي يخرج من عجز العبودية ويلتبس بصفاء الربوبية، ولهذا السؤال أعظم من سؤال موسى عليه السلام بأن موسى عليه السلام سأل كشف المشاهدة، والخليل عليه السلام سأل حقيقة علم صاحب المشاهدة وصرف ربوبيته، فإذا علم الحق سبحانه من الخليل عليه السلام أنه أراد علوم الربوبية وحقائق صفات القدمية وكنه ذات السرمدية.

ولكن موسى عليه السلام كان الغالب عليه السكر فإذا أديرت عليه كاسات المكالمات وأثر فيه شراب ملاطفات المحاورات، وسكر قلبه بشراب الذوق وطاش لبه عن غلبات الشوق وارتفعت الحشمة والحياد، وانقطعت الكلفة والعناد أرويت الآذان بالإصغاء تعطشت العيون إلى اللقاء فانبسط على بساط البسط، وأطلق عنان اللسان بالتصريح في ميدان البيان لسبق رؤية العيان وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:143]، فلم يحفظ الأدب في الطلب فما أرى غير النصب والتعب وأدب تأديب الخاطئ الجاني وعرك بتعريك ﴿لَن تَرَانِي﴾ فأما الخليل عليه السلام فكان الغالب عليه الصحو على أنه أسقي بأقداح الخلة ما لو سقى موسى عليه السلام بقطرة منه لم يفق أبدًا لأنه كان صاحب شرب، وكان الخليل عليه السلام صاحب ري، فصاحب الشرب سكران وصاحب الري صاح كما قيل شعر:

شرب الحب كأسًا بعد كأس ... فما نفد الشراب وما رويت

كان شرب موسى عليه السلام من شراب الكلام بأقداح السماع في أفواه السماع أحيانًا فكان دائمًا سكراناً فتارة ينبسط مع الحق بقوله ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وأجري يعربد بقوله ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:155] وتارة يعربد مع هارون ﴿وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه﴾، وتارة يعربد مع الخضر عليه السلام ﴿لقد جئت شيئًا منكرًا﴾، وتارة يعربد مع ملك الموت فلطمه ففقأ عينه، وأما القبطي وقتله فوكزه موسى فلا يقربه به.

والخليل عليه السلام شرب من شراب الخلة بكاسات الوصلة في أفواه الأرواح ومع هذا ما زلت قدمه في أدب من آداب العبودية في الحضور والغيبة من كمال صحوه بسطوات الهيبة، فلا جرم أكرم اليوم بكرامة الشيبة: «إن أول من شاب شيبة إبراهيم عليه السلام» ويحترم غدا بالكسوة أما أول من بكى إبراهيم عليه السلام ولما ابتلي في ماله بذل الضيفان وابتلي في ولده ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:103]، للقربان وابتلي في نفسه استسلم لمنجنيق ابن كعنان وابتلي بجبريل عليه السلام فقال: أما إليك فلا عند الامتحان فلا جرم على قضيته عند الامتحان يكرم الرجل أو يهان، أكرمه بالإمامة للإنسان قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة:124]، ومن إمامته أنه كان أول من دق باب الطلب للحق، وقال: ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:76]، وأول من سلك طريق

الحق، وقال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:99] وأول من نطق بمحبته وقال: ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ [الأنعام:76]، وأول من أظهر الشوق، وقال: ﴿لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام:77]، وأول من أظهر العداوة مع غير المحبوب وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء:77]، أول من اشتاق إلى الرب سأل الرؤية وقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [البقرة:260]، ولا تحسبن أن اشتياقه إلى الرب وتعطشه للرؤية، إنما كان وقت سؤال رب أرني، كما قيل شعر:

ولست حديث العهد شوقًا لوعة حديث هواكم في حشاي قديم

فإنه كان برهة من الدهر مستغرقًا في هذا البحر؛ ولكن من غاية الحلم والحياء في مقام الصدق والوفاء يراعي حق إجلال العظمة والكبرياء، ومن حفظ آدب الإجلال لا يفتح على نفسه باب السؤال، ويقول: «حسبي من سؤالي علمه بحالي» والله تعالى يرى قلبه وتقلبه والعشق وليسمع تحننه وتأوهه من الحرقة والشوق، ويشاء تحلمه وتحمله وتجلده إجلالاً لمولاه، فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:114]، وهو في ذلك يترصد فرصته يجد للسؤال فيها رخصة إلى أن يساقه التقدير إلى حسن التدبير وسأله نمرود: من ربك؟ فأجرى الحق على لسانه من فضله وإحسانه: ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة:258]، قال نمرود: وهل رأيت منه ما تقول أو رميت برمية ما به رأيت فوجد الخليل عليه السلام فرصة بهذا المقال لحق رخصته السؤال فأدرج في السؤال، فطلب بهذا الطريق مأموله فأخفى سره وهو: أرني في علته، وهو كيف يحيي الموتى بحفظ الأدب مع الرب، وهو يعلم أنه يعلم السر وأخفى، وكان يعلم الجليل ما هو مقصود الخليل وأول باب فتح عليه من مقصوده بأن خاطبه واسمعه بكلامه بفضله وجوده، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ [البقرة:260]، وكان فيه هذه الكلمة من إعجاز القرآن ثلاثة أجوبة مضمرة وثلاثة معان مدرجة مناسبة للسؤال.

وأما الأجوبة: فظاهر السؤال كان دالاً على طلب إحياء الموتى.

فأجابه وقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ يعني ما آمنت عند نمرود بأني أحيي وأميت، فما كان إيمانك حقيقيًا.

والجواب الثاني: وذلك أن الخليل أخفى سره وهو طلب الرؤية وعين سؤاله، فكذلك الرب تعالى أخفى سره، وقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بميعاد رؤيتي في الجنة فأريك ثمة.

والجواب الثالث: أن الخليل ما كان شاكًا فيما التمس ظاهرًا؛ ولكنه أرى نفسه مشككًا تعللاً لسؤال المرام في ثناء الكلام، فكذلك الرب تعالى ما كان شاكًا في مقصود الخليل المضمر في سؤاله؛ ولكنه أجاب تشككه في إراءة نفسه كالمتشكك في المقصود والمضمر في سؤاله وقال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ يعني بما طلبت من الإحياء وتغافل عن مرام الجليل من كلامه مجيبًا فيما صنع.

وأما المعاني الثلاثة: فالأول: أنه أضمر معنى الإثبات في لفظة النفي قال: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أي: بل تؤمن، كقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:172] أي: أنا ربكم، والثاني: أنه أدرج فيها معاني جواز الرؤية يعني ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بأني أرى يوم الميعاد، فتراني أنت أيضًا، فتتضمر في سؤالك طلب رؤيتي.

والثالث: أنه أحيى فيها معنى معالجة الخليل بالبصر يعني: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بإنجاز وعدي لك بالرؤية فاصبر فإن الميعاد لخواص العباد، ثم قال الخليل في الاستفهام للمبالغة في تحصيل المرام: ﴿بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ عن الاستفهامات ببلى السر بالسر، وقرر المضمرات في السؤال بقوله: ﴿وَلَكِن﴾ يعني ولكن مع الحديث اعلم واضمر في لفظه: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ضرورات السؤال وحقائقها إضمار بإضمار، فأما الجواب عن الاستفهام الأول في جواب المفهوم الأول منه طلب الأحياء، ومعنى الاستفهام أي: ما آمنت عند نمرود بأني أحيي وأميت قال: ﴿بَلَى﴾ وكان إيماني حقيقيًا، ولكن كان مقصودي من السؤال عن إحياء الموتى الإيمان والإيقان، فإنه حاصل لي ولا إحياء الموتى، فإني فارغ من الموتى وإحيائهم ولي اضطراب قلبي بمثل هذه الأشياء حتى تطمئن، وإنك تعلم ما نريد.

والجواب عن مفهوم الثاني بالاستفهام، وهو قوله: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بميعاد رؤيتي في الجنة فأريك ثمة، فقال: أؤمن بهذا ولكن لا يسكن اضطراب قلبي في الطلب وقلقه في الشوق أرني ليطمئن قلبي، فإن سبب اضطراب القلب عين الإيمان، وكلما ازداد يقينه بالرؤية ازداد شوقه وقلقه.

والجواب الثالث ﴿بَلَىٰ﴾: اعلم أنك أبهمت الجواب عن سؤال الرؤية وأظهرت التشكك عن معنى الرؤية كما أبهمت السؤال عن الرؤية وأظهرت التشكك عن معنى الرؤية كما أبهمت السؤال عن الرؤية وأظهرت التشكك في معنى الإحياء، وقلت: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ بقدرتي على الإحياء، ولكن ما سألتك عن الإحياء مسألتك عن كيفية الإحياء أن ترني كيف ﴿تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ ففي ذلك تحصيل مقصودي، وهذا كما أن العاشق معشوقًا احتياطًا وهو يريد أن يرى مشاهدة معشوقه، ويحتشم منه أن يقول له: ﴿أَرِنِي﴾ وجهك لأنظر إليك؛ لأنه يعلم أن الدلال قرين الجمال، وأن الحسرة والحسن توءمان، وفي مذهب الملاح الطلب والسبيل سر، وغلبات الشوق مزعجة، وطلبات العشق تخرجه حتى يضطرب إلى السؤال، فيتصنع في طلب المقصود من صاحب الكمال، فيقول: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ﴾ يختط الثياب، وكل صانع فاخر في صنعه يريد أن يرى جودة صنعه صاحب بصيرة وتمييز، ويحب أن يظهر كماله في ذلك فلا يبخل أن يريه كيفية خياطة الثوب ولا يستنكف عن هذا المعنى ليريه بأن يحضره عنده بلا حجاب، وهو يخيط الثوب ويقول: انظرني كيف أخيطه، فالعاشق يصل بعله الصنع إلى الصانع، ويحظى منه بلا مانع ولا دافع ويطمئن قلبه بذلك؛ فالخليل لما اعتذر عن الخليل من استعمال الاضطرار حاله في سؤاله وتضرع بين يدي مولاه، وهو من يجيب المضطر إذا دعاه وحقق رجاه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة:260].

والإشارة فيها أنك محجوبٌ بك عني فحجاب صفاتك عن صفاتي محجوب، ولحجاب ذاتك عن ذاتي ممنوع، فمهما تموت عن صفاتك تحيى بصفاتي، وإذا فنيت عن ذاتك أبقيت ببقاء ذاتي: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ وهي الصفات الأربعة التي تولدت من العناصر الأربعة التي تخمرت طينة الإنسان منها، وهي التراب والماء والنار والهوى، فتولدت من أزواج كل عنصر مع قرينة صفتان منها، وهي التراب وقرينه وهو الماء تولد الحرص والبخل، ومن النار وقرينه، وهو الهواء تولد الغضب والشهوة، وهو قريتان يوجدان معًا، ولكل واحد من هذه الصفة زوج خلق منها ليسكن إليها كحواء وآدم.

وتتولد منها صفات أخرى فالحرص زوجة الحسد، والبخل زوجة الحقد،

والغضب زوجة الكبر، وليس للشهوة اختصاص بزوج معين بل هي كالمعشوقة بين الصفات، فيتعلق بها كل صفة ولها منها متولدات يطول شرحها، فهي الأبواب السبعة للدركات السبع من جهنم التي لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم يعني: من الخلق، فمن كان الغالب عليه صفة منها، فيدخل النار بذلك الباب فافهم جدًّا.

فأمر الله تعالى خليله ﷺ بذبح هذه الصفات وهي الطيور الأربعة: طاووس البخل، فلو لم يزين المال في نظر البخيل كما يزين الطاووس بألوانه ما بخل به، وغراب الحرص، وهو من حرصه يكثر في الطلب، وديك الشهوة وهو بها معروف، ونسر الغضب ونسبته إليه لتصريفه في الطيران فوق الطيور وهذه صفة الغضب، فلما ذبح الخليل ﷺ بسكين الصدق هذه الطيور وانقطعت منه متولداتها ما بقي له باب يدخل به النار، فلما ألقي فيها بالمنجنيق قهرًا ووقرًا صارت عليه ﴿بَرْداً وَسَلاماً﴾ [إبراهيم:69]، تفهم إن شاء الله تعالى وحده.

والإشارة في تقطيعهن بالمبالغة ونتف ريشها، وتفريق أجزائها، وتخليط ريشها ودمائها ولحومها بعضها ببعض، إشارة إلى: محو آثار الصفات الأربعة المذكورة، وهدم قواعدها على يد إبراهيم الروح بأمر الشرع ونائب الحق وهو الشيخ، والأمر بتقسيم أجزائها وجعلها ﴿عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً﴾ [البقرة:260]، فالجبال الأربعة هي النفوس التي جُبل الإنسان عليها:

أولها: النفس النامية وتسمى النفس النباتية.

وثانيها: النفس الأمارة وتسمى الروح الحيواني.

وثالثها: قوة الشيطنة وتسمى الروح الطبيعي.

ورابعها: قوة الملكية وهو الروح الإنساني.

وطيور الصفات لما ذُبحت وقُطعت وخُلطت أجزاء بعضها ببعض، ووضعت على كل جبل روح ونفس منهما جزءًا بأمر الشرع، يكون بمثابة أشجار وزرع يجعل عليها اقتراب المخلوط بالزبل والقاذورات، باستصواب دهقان ذي بصارة في الدهقنة بمقدار معلوم ووقت معلوم، ثم يسقيها بالماء ليتقوى الزرع بقوة التراب والزبل، وتتصرف

النفس النامية النباتية في التراب المخلوط الميتة فيحيها بإذن الله تعالى بقوله: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:50].

فكذلك الصفات الأربع وهي: الحرص والبخل والشهوة والغضب، فمهما كانت كل واحدة منها على حالها غالبة على الجوهر الروحاني تكدر صفاؤه وتمنعه من الرجوع إلى مقامه الأصلي ووطنه الحقيقي، فإذا كسرت صورتها وذهبت قوتها، وأميتت شعلتها، ومحيت آثار طباعها بأمر الشرع، وخلطت أجزاؤها المتفرقة بعضها ببعض، ثم قسمت بأربعة أجزاء وجعل كل جزء منها على جبل قوة أو نفس أو روح، فيتقوى كل واحد من هؤلاء بتقويتها، ويتربى بتربيتها، فيتصرف فيها الروح الإنساني بقوة الملك فيحييها، ويبدل تلك الظلمات التي هي من خصائص تلك الصفات المذمومة بنورٍ هو من خصائص الروح الإنساني والملكي، كقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ [الأنعام:122]، فتكون تلك الصفة ميتة عن أوصافها، حية بأخلاق الروحانيات، هذا لخواص الخلق الذين غلبت على أحوالهم الروح، وأما خواص الخواص، ولمن أدركته العناية ﴿وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ [يوسف:21]، كما كان حال الخليل عليه السلام، فإن الله تعالى بعد خمود هذه الصفات يتجلى لها بصفة المحيي، فيحيي هذه الصفات الغالبية عن أوصافها بنور صفة المحيية، فيكون العبد في تلك الحالة حيًا بحياته محييًا بصفاته، وهذا المقام مخصوص بأهل الجنة والمحبة كما قال ﷺ: «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا ومؤيدًا، فبي يسمع وبي يبصر، وبي ينطق وبي يبطش»[1]، ففي هذا المقام تجلى الحق تبارك وتعالى لإبراهيم عليه السلام؛ لينعم عليه بها ولاه، ويكرمه بإعطاء سؤاله، فيتجلى له بصفة المحيي، فكان في تلك الحالة حيًا بحياته محييًا بصفاته، وكان ينطق بالحق، فقال له الحق: «قلت لي: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة:260]، فأريك كيف أحيي الموتى، قل لهن: تعالين ﴿يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾ [البقرة:260]؛ لأنك عنك فانٍ وبي باقٍ فبي تقول: تعالين لا بك!»[2].

---

(1) تقدم تخريجه.

(2) ذكره الكاشاني في تفسير الصافي (294).

ومثال هذا كما أن أُمِّيًا يقول لكاتب: أرني كيف تكتب؟ فيجعل الكاتب قلمه في يد الأُمِّي، ويأخذ يده ويمد بقوة يده بيد الأُمِّي على الصحيفة، فيقول: أنا الكاتب، رأيت كتابي، هكذا أكتب، ففي تلك الحالة يظن الأمي أنه صار كاتبًا إذا رأى الكتابة تكتب من يده، فيقول: أنا الكاتب، وفي هذا المقام قال من قال:

عَجِبْتُ مِنْكَ وِمنِّي ... يَا مُنْيَةَ الْمُتَمَنِّي

أَدْنَيْتَنِي مِنْكَ حَتَّى ... ظَنَنْتُ أَنَّكَ أَنِّي

فإذا رفع الكاتب يده عن يد الأُمِّي فيعلم الأُمِّي أنه أُمِّي والكاتب هو الكاتب، ثم يستغفر عن ذنب حسبانه أنه هو الكاتب، كما كان حال النبي ﷺ، فإن الله تعالى إن تجلى لخليله ﷺ بصفة واحدة وهي المحيي ليريه آية من آياته وهي كيفية الإحياء، فقد تجلى لحبيبه بجميع صفاته ليلة المعراج، كما قال تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: 1]؛ أي: لنريه جميع آياتنا.

واعلم أن آيات الله تنقسم إلى قسمين:

قسم منها: هي صفاته القديمة القائمة بذاته.

وقسم هي: آثار صفاته وهي المخلوقات: كالشمس والقمر وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: 12]، وأمثالها كثيرة وهي آثار صفات القدرة، كما قال تعالى: ﴿انظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ الله كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: 50]، فالرحمة صفة الحق، والماء الذي يحيي الأرض آثار الرحمة، والآيات التي هي صفاته مثل آيات القرآن، فالله تعالى ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: 1]، وهي ليلة المعراج؛ ليريه جميع صفاته، كما سأل الحبيب بقوله: «أرنا الأشياء كما هي»[1]، فإنه أيضًا طلب الرؤية؛ ولكن بقدر علو همته، ورفعة مرتبة، وكمال معرفته، فعلى قدر علو همته قال: «أرنا الأشياء كما هي لي»، والأُمِّي كان يرى أن سر الناس من كل وحده برفعة مرتبته، وقال: الأشياء راعى فيها معنيين:

(1) ذكره الفخر الرازي في تفسيره (1/ 114).

حفظ الأدب وإخفاء مقصوده غاية الإخفاء: في قوله: «الأشياء»، ما قاله الخليل بالنسبة إلى قول الكليم كان تعريضًا، وبالنسبة إلى قول الحبيب كان تصريحًا، والمعنى الثاني: طلب كمال الرؤية بجميع الصفات؛ لأنه لا يبقى شيء إلا في الأشياء داخلها، فافهم.

ولكمال المعرفة طلب رؤية الماهية، فقال: «كما هي»، ولعمري هذا هو الملك الحقيقي الذي لا ينبغي لأحد من قبله ولا من بعده، وتجلى له الرب تبارك وتعالى تلك الليلة بجميع صفاته، كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:16 - 18]، وإنما خص الآيات بالكبرى؛ ليفهم أن الآيات الصغرى هي: الآثار، والآيات الكبرى هي: الصفات العليا، ثم قال تعالى له: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد:19]، هذا إخبار عن إفناء ذاته وصفاته بالكلية عند تجلي الإلوهية، فبعث وحده بإفنائه بالماهية عن العبدية وإبقائه بالوحدة؛ ليعلم ماهية ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ﴾ [محمد:19]، فما بقي غير الحق، وما رأى الحق إلا الحق، ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:19]؛ أي: لذنب حسبانك أنك كاتب وأنت نبي أُمّي عربي لست بكاتب، وهذه إشارات وبشارات عرفها من عرفها وجهلها من جهلها، ولعلي ما سبقت بهذا التقرير، والله أعلم.

ثم قال لخليله حتى يعلم أنه ليس بكاتب ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: 260]؛ يعني: بعد أن أحييتك بحياتي وأكرمتك بصفاتي، فأحييت الطيور وعَلِمْت كيفية إحيائي الموتى على قدر استعدادك واستحقاقك، فاعلم أني أعز من أن يُعرف كنه صفة من صفاتي أو كيفيتها أو ماهيتها، ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:255]، وأنا حكيم لا يحيط بعلمي إلا حكمتي، ولا يحيط بحكمتي إلا علمي؛ لأنهما موصوفان بإحاطة القدم.

ثم أخبر عن الإنفاق بالوفاق وماله في هذا التسوق من النفاق بقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:261]، الإشارة فيها: إن الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله فالخلف لهم الجنة، والذين ينفقون أرواحهم وقلوبهم في سبيل الله فيكون الخلف عنهم ولهم الحق سبحانه، ومن يعطي تمرة إلى فقير يأخذها الله بيمينه

ويربيها كما يربي أحدكم فلوة أو فصيلة، حتى تكون أعظم من الجبل، فكيف بمن يعطي قلبه إلى الله تعالى وهو يربيه بين أصبعي جماله؟ فلا جرم يصير بتربيته أعظم من العرش بما فيه؛ بل يكون العرش بما فيه في عرصته كحلقة في فلات، فافهم جدًّا.

فإن قومًا بذلوا المال في سبيل الله، وقومًا بذلوا الحال في سبيل الله بإيثار صفاء الأوقات، وفتوحات الخلوات، وطلب الحق وأرباب الصدق؛ للقيام بأمورهم في تشفي ما في صدورهم﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:9]، فبذلوا ليحصلوا، وحصلوا لينفصلوا له، وانفصلوا إليه ليتصلوا،واتصلوا ليصلوا، ﴿وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:261] فضله وكرمه ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾ [البقرة:261] بالفضل والكرم ﴿عَلِيمٌ﴾، بِا أهل فضله.

ثم أخبر عن أخلاق أهل الإنفاق بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى﴾ [البقرة:262]، والإشارة فيها: أن الإنفاق في سبيل الله هو: الذي يكون في طلب الله لا في طلب غير الله، مثل الثناء والشكر في الدنيا، والجزاء في الآخرة من الجنة ونعيمها، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾ [الإنسان:9]، ثناء وشكر في الدنيا.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [المزمل:19]؛ أي: اتخذه في طلب الله، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَناً وَلاَ أَذًى﴾ [البقرة: 262]؛ فالمن: أن يمن به على الحق، ويظن أن المال كان له وإنفاقه كان منه، ولا يعلم أن المال كان مال الله وهو بنفسه عبد الله، وإنما كان إنفاقه بتوفيق الله، ففي هذا كله تعالى عليه المنَّة لا له منَّة على الله كقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلاَمَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات:17]، فإذا منَّ العبد في الإنفاق وكل الأعمال أن لا يعمل إلا بنية الطمع في المكافآت، أو خوف العذاب، كأنه يقول: إني عملت لك هذا العمل ووجب عليك حق فأدِ حقي، وهو غافل عن حقيقة الحال أنه لا يعمل لله شيئًا لا حسنة ولا سيئة، وإنما يعمل لنفسه، لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:7]، ولا يعمل العمل من قدرة له أو بمشيئة منه، فإنه قال

تعالى: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:96]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾ [التكوير:29]، فإنه ما للعبد حق على الرب حقيقة حتى يطالب في طمع الثواب وخوف العذاب.

وقوله تعالى: ﴿وَلاَ أَذًى﴾ [البقرة:262]؛ فالأذى أن يطلب من الله ﷻ غير الله، رأى أحمد بن خضرويه ربه في المنام فقال: «يا أحمد، كل الناس يطلبون مني إلا أبا يزيد، فإنه يطلبني»، ثم قال تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:262]؛ يعني: إذا أنفقوا في طلب، ﴿ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَناً وَلاَ أَذًى﴾ [البقرة: 262] طمعًا في غير الله، فلهم أجر الذين عملوا عند ربهم؛ أي: ينزلهم في مقام العندية ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]؛ أي: لا ينزلهم عند الجنة ولا عند النار إلا عند الله، فافهم جدًّا.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾(1) [البقرة:263]؛ يعني: قول من عارف يعرف قدر ربه بالمعرفة في طلب المعروف ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ [البقرة:263] له وإن لم يكن له مال يتصدق به ﴿خَيْرٌ﴾ [البقرة:263] له عند ربه في نيل المرام ﴿مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا﴾ [البقرة:263]، من الجهل ﴿أَذًى﴾ [البقرة:263] طلب غير الحق ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ﴾ [البقرة:263]، مع أن الله غني مستغنٍ عنكم لكماله، وأنتم مفتقرون إليه لنقصانكم بالكمال، ﴿حَلِيمٌ﴾ [البقرة:263]، يحلم على العبد بحلمه أن يطلبه منه، ولولا حلمه فما للتراب ورب الأرباب، ويحلم عن العبد ولا يعجل في عقوبة من يختار عند الطلب غيره عليه، ويطلب منه غيره.

ثم أخبر عن إبطال الصدقة بالمنة والأذى وفساد النية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة:264]، إشارة في تحقيق الآية أن

(1) القول المعروف: الإنصاف لأخيك عند رؤية مكروه منه، الذي يهيجك بالغضب، والمغفرة عفوك له عند قدرتك عليه خير من أن تعطيه شيئًا وتؤذيه، وأيضًا: ردك السائل بقول جميل وسترك عليه، مما ترى منه من قبيح خير من إعطائك بالمن أو وعدك مع المطل.

ويقال: إقرار منك مع الله لعجزك وجرمك، وغفران الله تعالى على تلك المقالة خير من صدقة بالمن مشوبة، بالأذى مصحوبة.

المعاملات إذا كانت مشوبة بالأغراض ففيها نوع من الإعراض، ومن أعرض عن الحق فقد أقبل على الباطل، ومن أقبل على الباطل فقد أبطل حقوقه في الأعمال ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ [يونس:32]، وقد نهيت عن إبطال الأعمال بالرياء للإعراض عن طلب الحق والإقبال على الباطل بقوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْـمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: 264]؛ أي: إذا مننت بها على الفقير فقد أعرضت عن طلب الحق؛ لأن قصدك في الصدقة، ولو كان طلب الحق لما مننت على الفقير؛ بل كنت رهين منة الفقير حيث كان سبب وصولك في الصدقة إلى الحق، ولهذا قال ﷺ: «لولا الفقراء لهلك الأغنياء»(1)؛ يعني: لم يجدوا وسيلة إلى الحق.

وقد فسَّر بعضهم قوله: «اليد العليا خير من اليد السفلى»(2)، بأن اليد العليا هي: يد الفقير، والسفلى يد الغني؛ لأن الفقير يأخذ منه الدنيا وهي السفلى، ويعطيه الآخرة وهي العليا، فاليد العليا تكون يد الفقير، واليد السفلى يد الغني التي تعطي السفلى وتأخذ العليا، والأذى هو الإقبال على الباطل؛ لأننا فسرنا في آية أخرى أن الأذى هو طلب غير الحق عن الحق، فعلى هذا المعنى طلب غير الله هو الإقبال على الباطل؛ لأن كل شيء غير الحق فهو باطل، لقوله ﷺ: «أن أصدق كلمة قالها العرب: كل شيء ما خلا الله باطل»(3)، فمن عمل عملاً لله ثم يشوبه بغرض في الدارين، فقد أبطل عمله بأن يكون لله تعالى، فافهم جدًّا.

كما ضرب الله به مثلاً قال: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ [البقرة:264]؛ يعني: الذي يبطل صدقته بالمن والأذى؛ هو كالذي ينفق ماله رئاء الناس، ومن ينفق المال رئاء الناس فليس له إيمان بالله واليوم الآخر؛ لأن اليسير من الرياء شرك، والمشرك لا يكون مؤمنًا؛ لأنه لو كان مؤمنًا بالله

(1) ذكره حقي في تفسيره (2/ 80).

(2) أخرجه البخاري (5/ 2048، رقم 5040)، وابن حبان (8/ 149 رقم 3363)، والبيهقي (7/ 470، رقم 15488).

(3) تقدم تخريجه.

كان ينفق لله، ولو كان مؤمنًا للآخرة ينفق للآخرة، فلما أنفق لأجل الدنيا وطلب الرفعة فيها وهي فانية عنها، إنه لو كان مؤمنًا لم يخير الفاني على الباقي،فمثل عمل المرء ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ [البقرة:264]، الطرد على تراب عمله فأبطله كما يبطل الوابل على الصفوان ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة:264]؛ أي: بلا عمل، فكما أن المرء لا يؤمن بالله واليوم الآخر حقيقة حين يعمل عمل الآخرة ويشوبه بغرض دنيوي، فكذلك من عمل عملاً لله تعالى ثم يشوبه بغرض أخروي، فإنه يؤمن بالآخرة، ولكن في الحقيقة لا يؤمن بالله، فبوابل درآنا أعني الشركاء عن الشرك يبطل ثواب عمله على صفوان حسبانه، ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة:264]، مفلسًا خائبًا خاسرًا، ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة:264]، بالشرك في طلب غير الحق ﴿والله لَا يَهْدِي﴾ [البقرة:264]، إلى حضرة جلاله ﴿الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:264]، قومًا كفروا بنعمة شهود جماله فحرموا من دولة وصاله، وأقربوا بعذاب الفراق ووباله.

ثم أخبر عن طلب المتحصلين في الإنفاق والعمل الخالص من النفاق بقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾ [البقرة:265]، فحسب لا ينبغي معها من الله ما هو سواه من أمر الدنيا والآخرة، ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [البقرة:265]، وتخليصًا لنياتهم في طلب الحق ومرضاته من حظوظ أنفسهم، ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ [البقرة:265]، الوارد فطل إلهامات ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ﴾ [البقرة:265]؛ يعني: ثمرات الخلاصة في طلب الحق ومرضاته تكون ضعفين بالنسبة إلى من ينفق ويعمل الخيرات والطاعات؛ لأجل الثواب الأخروي، ورفعة الدرجات في الجنان، فإن حظه يكون من نعيم الجنة، فحسب المخلص في طلب الحق يكون له ضعف من قربة الحق ودولة الوصال، وشهود ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ضعف من نعيم الجنة أوفى وأوفر من ضعف طلب الجنة ونعيمها بأضعاف مضاعفة بالتبعية، فإن الله تعالى كما يعطي أهل الآخرة نصيبًا من الدنيا بالتبعية، ولا يعطي لأهل الآخرة ما لأهل الله من القربة والوصلة بالتبعية؛ فلهذا ثمرات أهل الله تكون ضعفين، ولأهل الآخرة ضعفًا واحدًا، وأما معنى آخر ﴿فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾

[البقرة:265]، في الدنيا ضعف من ثمرات الكشوف والمشاهدات وأنواع الكرامات، أثمرتها جنة قلب المخلصين من ﴿وَابِلٌ﴾ [البقرة:265]، الواردات والنظريات الإلهية، أو ﴿فَطَلٌّ﴾ [البقرة:265]، الجذبات والإلهامات الربانية، ﴿والله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: 265]، كيف تعلمون؟ ولماذا تعملون لابتغاء المرضاة أو لاستيفاء الحياة؟

ثم أخبر عن حال النفاق في الإنفاق بقوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة:266]، إشارة في تحقيق الآية، إن الله تعالى ضرب مثلاً لروح الإنسان وقلبه بجنة ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة:266]، إذ خلق في أحسن تقويم مستعدًا لجميع الكرامات والكمالات، مزينًا بجميع الفضائل وحسن الشمائل، مكرمًا بعلم جميع الأسماء، منورًا بأنوار العقل والحواس، متوحدًا بحمل الأمانة، متفردًا برتبة الخلافة، جنة هي منظور نظر العناية، ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ﴾ [البقرة:266]، أنهار الهداية وأصاب صاحبها ضعف الإنسانية، ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾ [البقرة:266]، من متولدات البشرية، وهم في غاية الاحتياج للتربية بأغذية ثمراتها، ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ [البقرة:266]، من أعمال البر، ﴿فِيهِ نَارٌ﴾ [البقرة:266]، من الرياء والنفاق ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة:266]، الروحانية بنار صفات البشرية، وأبطلت جميع استعدادها، وقابلته الكمالات فيها بتبديل أخلاق الروحاني النفساني وأوصاف الملكي الشيطاني والحيواني، فأهبط من أعلى عليين إلى أسفل سافلين الطبع، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [البقرة:266]، ألطافه وإحسانه معكم في أصل الخلقة من حسن استعداد الفطرة، ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:266]، في الآية ونعمائه معكم لا تبطلوا حسن حالكم بقبيح أفعالكم، ولا تفسدوا صالح خصالكم بفساد أعمالكم، وتوبوا إلى الله بصدق نياتكم، وأخلصوا لله معاملاتكم في طاعتكم، ولا تضيعوا أعمالكم في طلب آمالكم، واستعدوا للموت قبل حلول آجالكم.

ثم أخبر عن إنفاق المال من كسب الحلال بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:267]، الإشارة فيها: أن الله تعالى لمّا أمر للتصدق بإنفاق الطيب من ماله، راعى صلاحه أكثر مما راعى صلاح الفقير؛ لأن صلاح الفقير مقصور

على ما يقول: راجع إلى نفسه، وإن صلاح المتصدق راجع إلى سبعة أمور:

أحدها: لو فسرنا الطيب بالحلال فيقبل الله منه، وإن لم يكن طيبًا فلا يقبل الله منه، كقوله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب»[1]، ولو فسرناه بالجودة.

وثانيها: أن يكون في إنفاق الطيب جانب الحق تعالى مرعيًا بالتعظيم، وقد أمر بالتعظيم لأمر الله، فيثاب على ذلك أيضًا.

وثالثها: فيه رعاية جانب الفقير بالشفقة عليه، وقد أمر بالشفقة عليه، وقد أمر بالشفقة على خلق الله، فيثاب على ذلك أيضًا.

ورابعها: أن يكون به مؤثرًا على الفقير، فيثاب أيضًا.

وخامسها: يستحق بذلك البر من الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:92]، والبر مزيد على الثواب؛ لأن الثواب يحصل بإنفاق أدنى شيء وأدون شيء، والبر لا يحصل إلا بإنفاق الأحب، والطيب هو أحب من الرديء، فيحصل له ثواب الإنفاق مع مزيد البر بالإنفاق الأحب.

وسادسها: أنه موجب لزيادة إيمان مع إيمانه؛ لأن المتصدق في صدقته كالزارع في زراعته، فإن للزارع إيمانًا بأن له من زراعته البذر ثمرة أوفى من البذر، ولكنه مما يجد موجبًا لزيادة هذا الإيمان بحصول الثمرة، فيبالغ في الزراعة بجودة البذر لتحققه أن جودة البذر مؤثرة موجبة بجودة الثمرة وكثرتها، وكذلك المتصدق فكلما ازداد إيمانه بالله والبعث والثواب والعقاب يزيد في الصدقة وجودتها لتحققه ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:40]، ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء:40].

وسابعها: إنه لمّا يعطي الله أحب ما عنده فإن الله يجازيه بأحب ما عنده، كما قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن:60]، وأما تقديم كسب العبد على ذكر ما أحبه من الأرض واحتضنه بالطيب ففيه إشارة إلى: «إن الطيب ما يأكل الرجل من كسب

(1) أخرجه أحمد (2/ 328، رقم 8330)، ومسلم (2/ 703، رقم 1015)، والترمذي (5/ 220، رقم 2989). والدارمي (2/ 389، رقم 2717).

يده»[1] كما قال ﷺ.

وفي قوله: ﴿أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:267]، إشارة إلى معنى آخر في غاية اللطائف؛ يعني: أنفقوا من طيبات نياتكم، من تزكية النفوس وتصفية القلوب عن خيانة صفات النفس الخبيثة وتصرفات الشيطان الخبيث، ﴿وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ [البقرة:267]، طينتكم في تجلية سرائركم بمكارم الأخلاق وأنوار الوفاق؛ لتكون الشفقة طيبة من خباثة الشبهات في نفسها، طيبًا إنطاقها من خباثة الأغراض والعلل الدنيوية والأخروية، طيبًا منفقها من خيانة الالتفات، والنظر في الإنفاق إلى غير الله تعالى، ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ [البقرة:267]؛ يعني: النفقة الخبيثة في نفسها، بخباثة الشبهات بالنية الخبيثة، بخباثة الغلات من النفس الخبيثة، بخباثة الصفات الذميمة عن المنفق الخبيث؛ وهو: القلب الملوث بخباثة الالتفات، والنظر في الإنفاق إلى غير الله ﴿مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة:267]؛ يعني: لا تنفقوا إلا من الوجوه الطيبات كما قررنا، حتى يكون مقبولاً «فإن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»[2]، وإن الله تعالى بحسب كل طيب قبولاً طيبًا، فإذا كانت الصدقة طيبة في نفسها لله قبول طيب عن الوسائط، فيأخذها بيده فيزيدها قبل أن تقع في يد الفقير، وإذا كانت النية في إنفاقها فلله قبول طيب فإنها أبلغ عند الله من عملها، وإذا كان القلب المنفق طيبًا عن الالتفات إلى غير الله فلله قبول طيب عن الأخيار بين أصبعين من أصابع الرحمن، فها هنا يتحقق لذوي البصائر الطيبة: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب»، ومن هنا تبين حقيقة ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النور:26].

ثم قال: ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة:267]؛ يعني: وأنتم لستم بآخذي هذه الخبائث في أصل الفطرة، ولا في عهد الخلقة من النية الخبيثة؛ لأنكم خلقتم من أصل طيب وطينة طيبة، والروح من أطيب الأطايب؛ لأنها أقرب الأقربين إلى حضرة رب العالمين لكرامة شريف إضافة ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29]، فمن أطيب

(1) أخرجه ابن ماجه (2/ 723، رقم 2138)، وابن عساكر (53/ 306).

(2) تقدم تخريجه.

ممن منشأه نفخة الحق والجسد من التراب الطيب قد خلق، كقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً﴾ [النساء:43]، ثم أحيا لكم بالإيمان حياة طيبة؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:97]، ثم رزقكم من الطيبات.

وقال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [طه:81]، فليس منكم شيء خبيث في الظاهر والباطن، ﴿وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ﴾ [البقرة:167] بالطبع ﴿إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة:267] بالتكلف والقهر في قراءات من قرأ بضم التاء وفتح الميم، كما قال ﷺ: «**كل مولود يولد على فطرة فأبواه يهودانه ويلونانه بخباثة الكفر قهرًا وجبرًا**»(1)، فلم تكن الخيانة ذاتية للإنسان إلا طارئة عليه عارية لديه، أنزل الله تعالى كلمة طيبة وعفي لا إله إلا الله، وأمركم بالمواظبة عليها بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الأحزاب:71]؛ يعني: قولوا هذه الكلمة، يبالي أن يتقي بتنقيتها خباثة قد أخذتموها من التكليف عن قومكم، ويثبت بإثباتها طيب التوحيد والمعرفة، فتطيب أعمالكم وتغفر لكم ذنوبكم بتطيب أخلاقكم، فلما سلمتم من خباثة أعمالكم بتطيب أخلاقكم نوديتم من سرادقات الجلال عن حرثه جنات عالم الجمال، ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:7].

ثم قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة:267]؛ يعني: من كمال غناه يسد فقركم جميعًا بشظية من كمال غناه ويغنيكم كلكم، وما ينقص من كمال غناه مثقال ذرة، وظاهر قوله تعالى: ﴿أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ [البقرة:267]، يقتضي أنه يطلب من غناكم، وباطنه يبقى عن مطالبة إياكم، يغنيكم بلا علة وغرض يرجع إليه، بأن تشكروا له على نعمه، أو تحمدوه على فضله وكرمه، فإنه في ذاته حميد بصفاته مجيد.

ثم أخبر عن عدة الشيطان وعدة الرحمن بقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾(2)

---

(1) أخرجه البخاري (1/ 456، رقم 1292)، ومسلم (4/ 2047، رقم 2658)، وأبو داود (4/ 229، رقم 4714).

(2) أي: يعدكم إلى قطع الرجاء عن الله تعالى في إتيان نواله منه. وأيضًا: يعدكم إلى قلة الطمأنينة، وكثرة

[البقرة:269]، والإشارة فيها: أن الشيطان حين يعدكم بالفقر ظاهر، فهو يأمركم بالفحشاء حقيقة، والفحشاء: اسم جامع لكل سوء؛ لأن عدته بالفقر تضمن معاني الفحشاء، وهي البخل والحرص، واليأس من الخلق، والشك في وعد الحق للخلق بالرزق، والخلف للمتفق ومضاعفة الحسنات، وسوء الظن بالله وترك التوكل عليه، وتكذيب قول الحق، ونسيان فضله وكرمه، وكفران النعمة، والإعراض عن الحق، والإقبال على الخلق، وانقطاع الرجاء من الله وتعلق القلب بغيره، ومتابعة الشهوات، وإيثار الحظوظ وترك العفة والقناعة، والتمسك بحب الدنيا وهو رأس كل خطيئة وبذر كل بلية؛ ولهذا القوم بالتخصيص الانحطاط من كل مقام عليّ إلى كل منزل دنيء، مثل الخروج عن حول الله وقوته إلى حول نفسه وقوتها، والنزول عن التسليم والتفويض إلى التدبير والاختيار، ومن العزائم إلى الرخص والتأويلات، والركون إلى غير الله تعالى بعد السكون معه، والرجوع إلى ما تركه لله بعد بذله في الله، فهذه كلها وأضعافها مما تضمنت عدة الشيطان بالفقر، فمن فتح على نفسه باب وسوسة فسوف يبتلى بهذه الآفات.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾[1] [البقرة:269]، ومن سد على نفسه باب

- الشك فيما وعد الله تعالى لعباده من نفائس الألطاف وجميع الأقسام التي هي سبب حياة العباد في الدنيا والآخرة. وأيضًا: يعدكم إلى ظنون شتى في الله تعالى، وهذا من قلة عرفان الحق والجهل بسلطانه؛ لأن لقاء العدو يهيج سر العبد إلى الشك في الله، وفيها وعد لعباده، ويلجئه إلى التحير حتى يظن أن الحق سبحانه وتعالى عاجز فقير، كما قال اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾، وهذا من وسوسة العدو، وليس لهم بإحراز العلوم والخوف من المعدوم والجمع والمنع وكثرة التهمة، ودفع الصدقة والفرار من القناعة ومن الغنى بالكفاية، وغرهم بالشروع في طلب الزيادة ﴿وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: البخل وسوء الظن في الله وحب الدنيا وبغض الموت، وعمارة الضياع والعقار، وطلب الزيادة وبغض الفقر والفقراء ومنع الزكاة، وما أوجب الله تعالى عليهم من الحج والجهاد. وزيّن لهم حب الرئاسة، وطلب نسوان المسلمين لأجل الزنا، وشرب الخمور وسماع المعازف، والتكبر والتجبر على الضعفاء والمساكين والجور والظلم والعناد، وقلة الإنصاف واتخاذ الأرباب لحفظ الأموال وأشباه ذلك من الأمور الرديئة الفاحشة.

(1) ﴿يَعِدُكُم وَاللَّهُ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾ معرفته تطهر قلوب الأشحاء من أوساخ الشح والفاحشة، وتحفظها عن الميل إلى حب الدنيا وما فيها وفضله مشاهدته وقربته ومعرفته وتوحيده وكشف أسراره لهؤلاء

-

وسوسة بالعدة، يفتح على نفسه باب عدة الحق بالمغفرة، ويفيض الله تعالى من بحار فضله سجال ثوابه، ويحفظه من هذه الآفات ويخطه على عكسها من أنواع الكرامات ورفعة الدرجات، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ [البقرة:268]، فضله وكرمه وعطاؤه وملكه وغناؤه ورحمته ومغفرته، ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:268]، بمن سد باب وسوسة الشيطان على نفسه، وفتح باب الفضل والمغفرة والرضوان من ربه، فينعم عليه بأنواع مما لديه عاجلاً وآجلاً، فمن ذلك يفتح الله تبارك وتعالى على قلبه بابًا من خزائن حكمته عاجلاً، وهي مختصة بمشيئة إلا مشيئة الخلق كما ظن الفلاسفة والأطباء، فإنه تبارك وتعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ﴾(1) [البقرة:269].

العباد الذين اصطفاهم لمحبته وخصائص مناجاته وخطابه وخدمته.

وأيضًا المغفرة: طمأنينة النفس بكشف اليقين، والفضل: الرضا بحكم الأزل. وأيضًا المغفرة: عن الكون، والفضل: الوصول بلا وحشة البون. وقيل: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ بنسيان ما تعود به من فضله.

وقيل: إنه يعدكم الفقر في طلب فوق الكفاية فيكون عبده، ومشتغلاً به فيردك عن غنى الكفاية إلى طلب الزيادة، وهو الفقر الحاضر. وقيل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: الحرص، والله يأمركم بالقناعة.

وقال أبو عثمان: الشيطان يعدكم الفقر على ترك الدنيا والإعراض عنها، والله يعدكم على ذلك مغفرة منه وفضلاً. قال محمد بن علي: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ لفقره، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو عمارة داره ﴿يَعِدُكُم وَٱللَّهُ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ وهو جزاء عمارة المآب، وفضله وهو استغناؤه عن كل ما سواه. وقال بعضهم: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ تحذيرًا للموحدين لا تفريقًا للكافرين؛ لأن الشيطان لا يدعو أحدًا إلى معصيته ولا يزينها له حتى يعده الفقر فإذا خاف العبد الفقر دعاه إلى المعصية، فإذا استحل المعصية دعاه إلى النفاق، فإذا استحل النفاق دعاه إلى الكفر، ولا يخاف الفقر إلا من نسي القسمة ولا نسي القسمة من عرف الله الذي قسم لعباده ما أراد بمشيئته، وأصل المعاصي إيقاد الشهوات وأصل النفاق التزيين للخلق، وأصل الكفر منازعة القدرة.

وقال سهل: الفقر أن تأخذ شيئًا من غير وجهه، وتضعه في غير حقه.

(1) قال الشيخ روزبهان: الحكمة: إدراك أنوار بواطن القلوب أسرار عجائب بواطن الغيوب، والحكمة ما حفظته الأرواح من ألواح الملكوت، تلقف العقول إلهام الأحكام من علم الجبروت، والحكمة أدب الرباني لتهذيب خلق الإنساني، وأيضًا الحكمة معرفة الأخلاق، وإطلاع لغيوب النفس ودقائق الشيطان والعلم بفرق حديث النفس والعدو ولمسة الملك وإرشاد العقل، وبصيرة القلب دفعه إلهام الحق ونطق الروح، ورمز السر وأنواع خطاب الحق ومعرفة أقدار الخلق، ومداواة معرض الباطن،

ودفع الوسوسة والمعرفة بأحوال الخلق والمقامات، ووقائع المكاشفات وأنوار المشاهدات وإدراك منازل المعرفة ودرجات التوحيد وما يليق بهذه الحقائق مثل معرفة دقائق الرياء، وشك النفس، والخطرات المذمومة، والبلوغ إلى علم اللدني والكرامات والفراسات الخاصة، ورؤية الغيب، والمحادثة والمخاطبة والمكالمة مع الحق جل اسمه في أسرار الخلوات وأنوار المناجاة. ومَنْ يؤت هذه الدرجات فقد أوتي خلافة الأنبياء والرسل ودرجة الملائكة الكرام، وهذه منزلة الأعلى من منازل الأولياء ومرتبة العليا من مقامات الأصفياء، وهو خير الدنيا والآخرة، وأيضًا: صرف الحكمة إدراك مراد الحق من رموز خطابه، وامتثال ما أدركه، والحكمة زم الجوارح ودفع الخواطر والسكون في الطوارق وفي الجملة الحكمة ما تلقفت الروح الناطقة من الحق سبحانه من خصائص الكلام والإشارات الإلهية.

والحكمة: المعرفة بأفعاله في المصنوعات والآيات، وأيضًا: شهود السر على أسرار شواهد الملكوت ورؤية غرائبها. وأيضًا: الحكمة عند العارفين ولوج السر قباب الغيب واطلاعه على خزائن الملكوت برؤية العيان إلا بالدلائل والبرهان وتحصيله علوم الربوبية بلا واسطة الشواهد، وانشراحه باقتباس أنوار القرب وانفساحه بإدراك خطاب الخاص، واندراجه في طرقات الصفات، وبسطه في مشاهدة الذات، وإذا بلغ السر مدارج الربوبية عرف مراد الحق عز وجل في مجاري أحكامه، ورأى في الشواهد صرف الألوهية بنعت جريان القدرة؛ لأن الحكمة في هذه المواطن من بلوغ الروح سر عين الجمع، وهو صفة الاتحاد وأفهم الحكمة من صفة الحق سبحانه الخاصة الذاتية القدمية، ولا تدركها إلا بشرط الاتحاد، وإذا أراد الله تعالى أن يهدي عبدًا من عباده إلى مقام الحكمة ألبس روحه تلك الصفة حتى تصير ربانية صمدية مطلعة على جميع الأشياء ظاهرًا وباطنًا، وتفرست المغيبات وتدرك حقائق الأشياء بتلك الصفة الخاصة، وهذه كلها مستفادة من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. وقال تعالى في بعض أخباره التي أخبر نبيه ﷺ: «لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى كنت سمعه الذي يسمع بي، وبصره الذي يبصر بي، ولسانه الذي ينطق بي، وقلبه الذي يعقل بي». فإذا كان جميع وجوده مستغرقًا في رؤية خالقه فكيف لا يطلع على مكنونات الغيب ومطلعه بنعت صفة الخاص هو الله تعالى. وقيل: الحكمة إشارة لا علة فيها، وقيل: الحكمة إشهاد الحق على جميع الأحوال، وقيل: الحكمة تجريد السر بورود الإلهام. وقال أبو عثمان: الحكمة هي النور المفرق بين الإلهام والوسواس. وقال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الكتاني يقول: إن الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه، وأنزل الكتاب لتنبيه قلوبهم وإنزال الحكمة لتسكن أرواحهم بها، والرسول داع إلى أمره، والكتاب داع إلى أحكامه والحكمة مشيرة إلى فضله. وقال القاسم: الحكمة أن يحكم عليك خاطر الحق، ولا يحكم عليك شهوتك.

وقال الجنيد: أحيا الله قومًا بالحكمة ومدحهم عليها فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ وقال عبد الله بن المبارك: الحكمة الخشية. وقيل: الحكمة إصابة القول مع صحة الفعل بالإخلاص. وقال بعضهم: متى أثر فيك الحكمة؟ قال: منذ بدأت أحقر نفسي.

فظن قوم أن الحكمة مما يحصل بمجرد التكرار وهي نتائج الأفكار، وما فرقوا بين المعقولات والحكميات والإلهيات، فالمعقولات مشتركة بين أهل الدين وأهل الكفر، وبين المقبول والمردود، فالمعقول ما يحكم عليه ببرهان عقلي، وهذا ميسر لكل عاقل بالدراية وبالقوة، فمن صفي عقله عن شوائب الوهم والخيار بدرك عقله المعقول بالبرهان ورأيه عقلية، ومن لم يصف العقل عن هذه الآفات، فهو يدرك المعقول قراءة بتفهيم أستاذ مرشد، فإن الحكمة ليست من هذا القبيل، فإن العقول عن دركها بذواتها محتسبة، والبراهين العقلية والنقلية عنها مخنسة، فإنها مواهب ترد على قلوب الأنبياء والأولياء عند تجلي صفات الجمال والجلال، وفناء أوصاف الخلقية لشواهد صفات الخالقية، فيكاشف الأسرار بحقائق معانٍ أورثتها تلك الأنوار، ستر البشر وإضمار بإضمار، فإمارة صحتها معادلتها لحقائق القرآن، بل هي عين حقائق القرآن، كما قال ﷺ: «أوتيت القرآن وما يعدله»[١]، أشار بهذه إلى الحكمة، ولهذا قال سهل رضي الله عنه في تأويل الحكمة: هي السنة، فحقيقة الحكمة نور من أنوار صفات الحق، يؤيد الله به عقل من يشاء من عباده، فيكون له كما

قال بعضهم: الحكمة كنز الله، والحكماء فيها ذمة الله، أمرهم ربهم أن ينفقوا كنز الله على عباد الله.

وقال بعضهم: الحكمة نور الفطنة. وقال معروف الكرخي: مَنْ حسن علمه نزلت الحكمة في قلبه.

وقال سهل: الحكمة هي مجمع العلوم وأصلها السنة.

قال الله تعالى ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الأحزاب: 34] والآيات الفرض والحكمة السنة.

وروى سهل عن شيوخه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن حكمة الله بين عباده»(١)، فمَنْ تعلم القرآن، وعمل به فكأنما استدرجت النبوة بين كتفيه لا الوحي، يحاسب حساب الأنبياء إلا بتبليغ الرسالة. وروى أيضًا عن شيوخه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن حكمة من تعلم القرآن في شبيته خلط القرآن بلحمه ودمه، ألا وإن النار لا تمس قلبًا داعي القرآن ولا جسدًا اجتنب محارمه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وآمن بمحكمه، ووقف عند متشابهه، ولم يبتدع فيه».

وقال بعضهم: الحكمة أربعة أشياء: العلم والحلم والعقل والمعرفة. قال أبو بكر الوراق: الإفاقة مع الحكمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾.

(١) رواه أحمد (16546) بنحوه.

قال: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:35]، فمن أكرم بهذا النور فقد أوتي كل حبور وسرور، وأوتي مع الحكمة خيرًا كثيرًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269]؛ يعني: لذلك النور فوائد وخيرات كثيرة، فمن جملتها الحكمة، فمن يؤت الحكمة فقد أعطي ذلك النور ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:269]، فافهم جدًّا.

واغتنم واجتهد أن تتعظ به وتكون من ذويه؛ لأنه تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:269]؛ وهم الذين لم يقنعوا بقشور العقول الإنسانية، بل سعوا في طلب لبِّها بمتابعة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فأخرجوهم من ظلمات قشور العقول الإنسانية إلى نور لُب المواهب الربانية، فتحقق لهم أن ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:40]، فانتبه أيها مغرور المفتون بدار الغرور، ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:33].

ثم أخبر عن توفية الأجور للمتفق في الفروض والنذور بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [البقرة:270]، الإشارة فيها: أن تقرب العبد إلى الله إنما يكون بفرض أوجبه عليه أو بنفل أوجبه العبد على نفسه، فعلي كلا التقديرين إن الله عليم بهما، فيجازي العبد بهما، كما قال تعالى في حديث رباني: «لن يتقرب إلي المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم، ولا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا، فبي يسمع وبي يبصر، وبي ينطق وبي يبطش»[1]، ولكن الشأن في إخلاص العمل لله تعالى من غير شوبة بعلة دنيوية أو أخروية، فإنها شر ،ك ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:13].

فقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ﴾ [البقرة:270]؛ أي: مفروضة، ﴿أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ﴾ [البقرة:270]؛ أي: من نفل أوجبتموه على أنفسكم، فإن الله يعلم إنكم تقربتم به إلى الله خالصًا مخلصًا بلا شَوبة بشرك أم لا، فإن كان غير مشوب بشرك فيجازيكم بجزاء

---

(1) تقدم تخريجه.

المخلصين، وإن كان مشوبًا بشرك فأنتم ظلمتم بوضع طاعة الله في غير موضعها، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة:270]؛ يعني: الظلم منكم، ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:270]، من أشار بأن يتقرب إليهم بأنواع ألطافه؛ لأنهم ما تقربوا إليه بطاعتهم، ومن سنة ما قال: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا»(1).

ثم شرح أحوال العباد في نياتهم بالصدقات بقوله تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة: 271]، وإخفاء الصدقة أشار به إلى تخليصها من شوب الحظوظ، كما أشار النبي ﷺ في حديث: «سبعة يظلهم الله في ظله»(2)، وقال ﷺ: «رجل تصدق بيمينه فأخفى حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه إلى إخفاء الصدقة عن شماله»(3)؛ يعني: يخفيها عن حظوظ نفسه فتكون خالصة لله تعالى، فصاحبها يكون في ظل الله، وكما قال ﷺ: «إن المرء يكون في ظل صدقته يوم القيامة»(4)؛ يعني: إن كانت صدقته الله تعالى فيكون في ظل الله، وإن كانت صدقته للجنة فيكون في ظل الجنة، وإن كانت صدقته للهوى فيكون في ظل الهاوية، فافهم جدًّا.

فلما علموا إخفاء الصدقات فأدوها أن تكون مشوبة بحظ الثواب، فقال تعالى:

(1) تقدم تخريجه.

(2) حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد (2/ 439، رقم 9663)، والبخاري (1/ 234، رقم 629)، ومسلم (2/ 715، رقم 1031)، والنسائي في الكبرى (3/ 461، رقم 5921)، وابن حبان (10/ 338، رقم 4486)، وابن خزيمة (1/ 185، رقم 358).

حديث أبي هريرة أو أبي سعيد: أخرجه الترمذي (4/ 598، رقم 2391) وقال: حسن صحيح، ومالك (2/ 952، رقم 1709)، وابن حبان (16/ 332، رقم 7338).

حديث أبي سعيد وأبي هريرة: أخرجه: مسلم (2/ 716، رقم 1031) عن أبي سعيد وعن أبي هريرة.

(3) أخرجه أحمد (3/ 124، رقم 12275)، وعبد بن حميد (ص 365، رقم 1215)، والترمذي (5/ 454، رقم 3369)، وأبو يعلى (7/ 286، رقم 4310)، والبيهقي في شعب الإيمان (3/ 244، رقم 3441)، وأبو الشيخ في العظمة (4/ 1353، رقم 87276)، والضياء (6/ 152، رقم 2148).

(4) أخرجه ابن المبارك في الزهد (1/ 227، رقم 645)، وأحمد (4/ 147، رقم 17371)، وابن حبان (8/ 104، رقم 3310)، والطبراني (17/ 280، رقم 771)، وأبو نعيم (8/ 181)، والحاكم (1/ 576، رقم 1517)، والبيهقي (4/ 177، رقم 7540).

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:271]، نظروها لطمع ثواب الجنة ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ [البقرة: 271]، فإنها مرتبة الأبرار، ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:13] ﴿وَإِن تُخْفُوهَا﴾ [البقرة:271]، عن كل حظ ونصيب، ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ [البقرة:271]؛ أي: تعطوها لوجه الله تعالى إلى الفقراء لا حظ النفس، ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:271]؛ يعني: كما زدتم على الصدقة بالإخفاء عن الحظوظ، وهي أن يكون في ظل الله وهو مقام المقربين، لقوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:26] الحسنى؛ أي: جزاء أهل الحسنات، فأما من أحسن الحسنة فهو الذي يكون مقامه مقام الإحسان، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه؛ يعني: نظرك في الطاعة لا يكون إلا إلى الله، فيكون جزاؤه بعد الجنة الزيادة، وهي لقاء الله ﷻ ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:271]، كل طائفة من الأبرار والمقربين، ﴿خَبِيرٌ﴾ [البقرة:271]، فيجازيكم على قدر خلوص نياتكم، فـ«إنما الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى»[1] من عمله».

ثم أخبر عن الهداية وأن ليس لأحد عليها ولاية، وأن الله فيها ولي الكفاية بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:272]، الإشارة فيها: إن

---

(1) حديث عمر: أخرجه مالك في رواية محمد بن الحسن (ص 338، رقم 983)، وأحمد (1/ 25، رقم 168)، والبخاري (1/ 3، رقم 1)، ومسلم (3/ 1515، رقم 1907)، والترمذي (4/ 179، رقم 1647)، وأبو داود (2/ 262، رقم 2201)، والنسائي (6/ 158، رقم 3437)، وابن ماجه (2/ 1413، رقم 4227)، وابن المبارك (1/ 62، رقم 188)، والحميدي (1/ 16، رقم 28)، والبيهقي (1/ 41، رقم 181)، والطحاوي (3/ 96)، والطبراني في الأوسط (1/ 17، رقم 40)، والخطيب (4/ 244)، وابن عساكر (32/ 166)، وابن منده في الإيمان (1/ 363، رقم 201)، وتمام في الفوائد (1/ 205، رقم 483)، والصيداوي في معجم الشيوخ (1/ 117)، وابن خزيمة (1/ 73، رقم 142)، والدارقطني (1/ 50)، وأبو عوانة (4/ 487، رقم 7438)، والبزار (1/ 380، رقم 257)، وهناد (2/ 440، رقم 871)، والبيهقي في الزهد (2/ 131، رقم 241)، والحسن بن سفيان في الأربعين (1/ 56، رقم 13)، وابن منده في مسند إبراهيم بن أدهم (ص 24، رقم 13)، وأبو أحمد الحاكم في شعار أصحاب الحديث (ص 35، رقم 20)، والحسن بن علي العامري في الأمالي والقراءة (ص 34، رقم 26)، والسلفي في مشيخة ابن الحطاب (ص 102 رقم 15)، والهروي في الأربعين في دلائل التوحيد (1/ 39، رقم 1)، والديلمي (1/ 118، رقم 401)، والقضاعي (1/ 35، رقم 1)، وابن حبان (2/ 113، رقم 388).

يا محمد لك المحمود واللواء المعقود، ولك الوسيلة، وعلى الأنبياء الفضيلة، ولك ليلة المعراج والقربة الواصلة، ولك يوم القيامة الشفاعة والرفعة، وأنت سيد الأولين والآخرين، وأنت أكرم على رب العالمين، ولكن ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ [البقرة:272]، ﴿فَإِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ الله يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:56]، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ الله وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:272]، وهو عالم بخفيات سرائركم وجلبات ضمائركم من غير فطور وقصور، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:272]، قطميرًا ولا نقيرًا.

ثم أخبر عن أهل الصدقات ودلنا على أفضل النفقات، بقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ الله﴾ [البقرة:273]، الآيتين والإشارة فيهما: أن الإنفاق على سادات اختاروا الفقر على الغنى؛ محبة لله ﷻ واقتداء بسنة رسول الله ﷺ وحرفته، فإنه ﷺ يقول: «لِيَ حرفتان: الفقر والجهاد»[1]، وأولى وهم أحق بها، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ الله﴾ [البقرة:273] ؛ يعني: الفقير أحصره حب الله في طلبه، لا الذي أحصره الفقر والعجز عن طلب الرزق، بل أحصرهم الشوق والمحبة في سبيل الله فأخذ عليهم سلطان الحقيقة كل طريق فلا لهم في الشرق مذهب ولا الغرب مضرب، ولا منه إلى غيره مهرب كيفما نظروا سرادقات التوحيد محدقة بهم، كما قيل:

كأن فجاج الأرض ضاقت برحبها ... عليه فما تزداد طولاً ولا عرضًا

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:273]؛ لأنهم واقفون مع الله لله بالله، سقط عنهم السكون والحركات، فإنهم مجذبون عنهم بالجذبات، مضروب عليهم قباب الغيرات، لا إشراف للأجانب عليهم، ولا سبيل للأغيار إليهم، حجبهم العزة عن الجاهل بحجاب العفة، فيراهم الأغنياء بنظر الأغنياء، ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة:273]؛ لأنهم مستورون قباب الغيرة، محجوبون عن معرفة أهل الغيرة، كما قال تعالى: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري يا محمد»[2].

(1) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (8/ 399)، (3899).

(2) ذكره الغزالي في الإحياء (6/ 455).

﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:273]؛ لأنك لست بك فلست غيري؛ لأنك إذا رأيت ولكن الله رأى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ الله رَمَى﴾ [الأنفال:17]، وإنَّ سيماهم لا ترى بالبصر الإنساني بل ترى بالنور الرباني؛ لأن سيماهم في الظاهر من ظهور آثار أحوال الباطن، وأحوال باطنهم أنهم أحصروا في سبيل الله، فأحصروا نفوسهم على طاعة الله عن معصية قلوبهم على معرفة الله عن نكرته، وأرواحهم على محبة الله عن غيره، وأسرارهم على رؤية الله عن شهود سواه، فمن سيماهم في الظاهر من ظهور آثار أحوال الباطن، ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:273]، لا بقليل ولا بكثير مع غاية احتياجهم؛ لأن إيتاء أنوار غناء قلوبهم انعكست على ظواهرهم، فتنورت بتعفف نفوسهم واضمحلت ظلمة فقرهم، وحاجتهم تحت أنوار غني قلوبهم، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ [البقرة:273]؛ يعني: من كل معاملة فيها خير من المال والجاه، وخدمة بالنفس وإعزاز وإكرام وإعظام وارد من القلب تعاملون به هؤلاء، والسادة حتى السلام عليهم استحقاقًا وإجلالاً وإذلالاً ﴿فَإِنَّ الله بِهِ﴾ [البقرة:273]، بجميع معاملاتكم معهم للتقرب إليهم، ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:273]، فإن تقربتم إليه في الإنفاق عليهم بشبر يتقرب في مجازاتكم بذراع، وإن تقربتم بذارع يتقرب عليكم بباع، فلا نهاية لفضله ولا غاية لكرمه، ومن يسماهم في الظاهر تعرفهم به يا محمد إذا وجدوا مالاً، فلا يبيعوا عزة الفقر به.

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [البقرة:274]، فإذا نفذ المال لم يفتروا عن شهوده لحظة ليلاً ونهارًا، بل ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الأنعام:52]، ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:274]؛ يعني: في مقام العندية ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر:55]، ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:274]، من عذاب القطيعة؛ لأنهم قد استمسكوا بالفقر والمحبة؛ وهي العروة الوثقى، ﴿لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: 256]، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:274]، عاجلاً وآجلاً:

فأما عاجلاً: فلا يحزنون على ما يفوتهم من الدنيا، فإنهم تركوها بطيب قلوبهم في الله، وهو لهم خلف عن كل تلف من كان الله له، وأما آجلاً: كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنبياء:103]، وقال ﷺ: «كأني بأهل لا إله إلا الله

ينفضون التراب عن رؤوسهم ويقولون: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور»[1].

ثم أخبر عن حرص أهل الدنيا وهم: أكلة الربا، بعد ما ذكر قناعة أهل الآخرة وشكر المولى بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة:275]، الإشارة فيها: أن آكل الربا يحرص على الدنيا، مثله كمثل من به جوع الكلب فيأكل ولا يشبع، حتى ينتفخ بطنه ويثقل عليه فلا يقدر عليه أن يقوم، ﴿إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة:275]؛ يعني: إلا كما يقوم المصروع، وكلما يقوم يصرعه نقل بطنه، وهذا كمثل ضربه النبي ﷺ للحريص، لقوله: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ إِنَّ كُلَّ مَا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطًا ، أَوْ يُلِمُّ إِلاَّ آكِلَةَ الْخَضِرِ تَأْكُلُ حَتَّى إِذَا امْتَدَّتْ خَاصِرَتَاهَا اسْتَقْبَلَتِ الشَّمْسَ، فَاجْتَرَّتْ وَثَلَطَتْ وَبَالَتْ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، مَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ»[2]، حديث متفق على صحته، وفيه مثلان:

ضرب أحدهما: للحريص المفرط في جميع الدنيا ومنعها من حقها، والآخر: ضرب للمقصد في أخذها والانتفاع بها، وأما قوله ﷺ: «ينبت الربيع وما يقتل حبطًا»، فهو مثل للحريص الذي يأخذها بغير حق، وذلك أن الربيع ينبت أنواع العشب فيستكثر منها الماشية حتى ينتفخ منها بطونها، كما قد جاوزنا حد الاحتمال فيشق أمعاؤها فيهلك، كذلك الحريص الذي يجمع الدنيا من حلها ويمنع ذا الحق حقه، فينتفخ بطنه يوم القيامة وهو آكل الربا، فلا يقوم ويكون عاقبته النار، وأما مثل المقصد قوله:ﷺ «إلا أكلة الخضرة»،

---

(1) أخرجه الطبراني في الأوسط (9/ 181، رقم 9478)، والبيهقي في شعب الإيمان (1/ 110، رقم 100).

(2) أخرجه الطيالسي (ص290، رقم 2180)، وأحمد (3/ 91، رقم 11883)، والبخاري (2/ 532، رقم 1396)، ومسلم (2/ 728، رقم 1052)، والنسائي (5/ 90، رقم 2581)، وابن ماجه (2/ 1323، رقم 3995) وأبو يعلى (2/ 454، رقم 1264)، وابن حبان (8/ 22، رقم 3227) والبيهقي في الآداب (ص 486).

وذلك أن الخضرة ليست من إضراب البقول التي ينبتها الربيع فيستكثر منها الماشية، ولكنها من كلأ الصيف التي ترعها المواشي بعد هيج العقول شيئًا فشيئًا من غير استكثار، فضرب مثلاً لمن يقتصد في أخذ الدنيا ولا يحمله الحرص المفرط على أخذها بغير حقها، وإن كان له حرص مثلاً من الطلب والجمع، ولكن لما كان بأمر الشرع وطريقه ولا يمنع ذا الحق حقه ما أضر به كما أضر بأكل الربا، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]؛ يعني: في طلب الربح والزيادة.

وقال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة: 275]؛ يعني: كيف يكون ما أحل الله وأزال الأمر ظلمته إفراط الحرص منه، مثل ما حرم الله وزاد في ظلمة الحرص الذي فيه عصيان الأمر، فمن ارتكبه بالربا يكون في ظلمات ثلاثة ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: 40]، ظلمة الحرص، وظلمة الدنيا، وظلمة المعصية، ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [البقرة: 275]، بالقرآن والأخبار وإلهام الحق ﴿فَانْتَهَىٰ﴾ [البقرة: 275]، يتوب إلى الله ويرجع من الربا، ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ [البقرة: 275]، من المعصية فتجاوز عنه الحق.

﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ﴾ [البقرة: 275]، بأن يرزقه بدل الربا من حيث لا يحتسب ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ [البقرة: 275]، إلى شؤم فعاله ومذموم خصاله، وأعرض عن الحق ومقاله، واستحل ما حرمه وأقبل على ما احترمه، ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 275]، فليتظروا وشيك الاستئصال، وفجأة النكال ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا﴾ [البقرة: 276]، إذا أسرع فيه بمتابعة الهوى، ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: 276] والبركات؛ لأنها معروفة بالخيرات على وفق المأمورات، ﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ [البقرة: 276]، بنعمة الشرع وأنواره، ﴿أَثِيمٍ﴾ [البقرة: 276]، عامل بالطبع مقيم في ظلمة إصراره.

ثم أخبر عن العاملين بالشرع والخارجين عن الطبع بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 277]، ﴿آمَنُوا﴾ [البقرة: 277]، إيمان التصديق بالتخفيف مقرونًا بالتوفيق، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: 277]، خرجوا بقدم العبودية على وفق الربوبية من ظلمات الطبع إلى أنوار أركان الشرع، فكان من خصائص ظلمات الطبع

البشري: إتباع الهوى، والركون إلى الدنيا، فخرجوا عن ظلمة إتباع الهوى بإقامة الصلاة واقتراب المولى، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة:277]، فاستغرقوا بنور الحضور وعالجوا ظلمة الركون إلى الدنيا بأنوار إيتاء الزكاة والفطام عن المألوفات، ﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: 277] فجذبتهم العناية عند سفل عندية البشرية إلى ذروة عندية الربوبية، ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:277]، من الرجوع إلى الظلمات الطبيعة، ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:277]، بعد الخروج إلى أنوار الشريعة.

فلما أخبر عن أهل الإيمان الحقيقي ومعاملاتهم، أخبر عن أهل الإيمان المجازي وامتحانهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:278]، والإشارة فيها: أن من شروط المؤمن الحقيقي اتقاؤه بالله في ترك زيادات لا يحتاج إليها في أمر الدين، بل تكون شاغلة له عن الترقي في مراتب الدين، كما قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(1).

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة:278]؛ أي: الذي يدعون الإيمان ﴿اتَّقُوا الله﴾ [البقرة:278]؛ أي: اتقوا الله، وهذا كما جاء لنا إذا حمي البأس اتقينا برسول الله ﷺ؛ أي: جعلناه قدامنا، ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ [البقرة:278]، إشارة إلى ترك ما سوى الله في طلبه، كما قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ ذرهم﴾ [الأنعام:91]، ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:278]، بإيمان حقيقي، وتوقنون بأن الله خلقكم لنفسه، كما قال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه:41]، وما خلقكم لشيء وخلق كل شيء لكم، لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة:29].

﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ [البقرة:279]؛ أي: إن لم تركوا كل زيادة تمنعكم من الله، ولم تتقوا عنها بالله ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ الله وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة:279]، في طلب غير الله ﴿وَإِنْ

(1) حديث أبي هريرة: أخرجه الترمذي (4/ 558 رقم 2317)، وابن ماجه (2/ 1315، رقم 3976)، والبيهقي في شعب الإيمان (4/ 255، رقم 4987). وابن حبان (1/ 466، رقم 229)، وابن عساكر (41/ 426). حديث الحسين: أخرجه أحمد (1/ 201، رقم 1737)، والطبراني (3/ 128، رقم 2886) قال الهيثمي (8/ 18): رجالهما ثقات. وحديث علي بن الحسين: أخرجه مالك (2/ 903، رقم 1604)، والترمذي (4/ 558، رقم 2318)، والبيهقي في شعب الإيمان (7/ 416، رقم 10806).

تُبْتُمْ﴾ [البقرة:279]؛ أي: رجعتم إلى الله وتركتم غيره ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ [البقرة:279]، وهي الكرامة التي أكرمكم بها على العالمين قبل وجودكم، كما قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70] ، وأعطاكم رأس مال ما أعطي لأحد من خلقه ولا الملائكة المقربين، وهو قوله تعالى:﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:54]، فإذا تقربتم إليه بترك ما سواه، يتقرب إليكم برد رؤوس أموالكم الأصلية إليكم وهي المحبة، كقوله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه»(1)، قوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:279]؛ يعني: خلقتكم لتحبوني وأحبكم، فإذًا لا تظلمون بوضع محبتي في غير موضعها من المخلوقات، ولا تظلمون بوضع محبتكم في غير موضعها، فافهم جدًّا.

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة:280]؛ يعني: وإن كان في وصول ما عدا الله لكم عاجلاً عسرة ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة:280]؛ أي: معدة لكم إلى أوان الميسر يصل إليكم آجلاً، كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْراً﴾ [الطلاق:7]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾ [الشرح:5]، ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 280]؛ يعني: ما تتمنون من أنواع برنا في الدنيا والعقبى على قدر همتكم الإنسانية، فإن تصدقوا بها ببذلها فهو خير لكم، لأنَّا نجازيكم على قدر مواهبنا الربانية، إن كنتم تعلمون قدرها وتتقون بنا، كما قال تعالى: «من شغله ذكر عن مسألتي أعطيته فوق مسألة السائلين»(2)، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى الله فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:3].

ثم أخبر عن الرجوع من المولى وأكد للتزود أمر التقوى بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله﴾ [البقرة:281]، والإشارة فيها: أن الله تعالى جمع في هذه الآية خلاصة ما في القرآن وجعلها حاملة الوحي والإنزال، كما أنه جمع خلاصة ما أنزل من الكتب على الأنبياء في القرآن وجعله خاتم الكتب، كما أن النبي ﷺ خاتم الأنبياء - عليهم

(1) تقدم تخريجه.

(2) حديث عمر: أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد (ص 109)، والبيهقي في شعب الإيمان (1/ 413، رقم 572). حديث جابر: أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (1/ 413، رقم 573). والقضاعي (1/ 340، رقم 584).

السلام - وقد جمع فيه أخلاق الأنبياء، ثم نقول: إن علم خلاصة جميع الكتب المنزلة وفائدتها بالنسبة إلى الإنسان عائدة إلى معنيين:

أحدهما: نجاته من الدركات السفلى، وثانيها: فوزه بالدرجات العلا، فنجاته في خروجه عن معائب النفس، وفوزه في ترقيه على الدرجات العلا وهي ثمانية: المعرفة، والتوحيد، والعلم، والطاعة، والأخلاق الحميدة، وجذبات الحق، والفناء عن أنانيته، والبقاء بهويته.

فهذه الآية تشير إلى مجموعها إجمالاً قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا﴾ [البقرة:281]، هي لفظه شاملة لما يتعلق بالسعي الإنساني من هذه المعاني؛ لأن حقيقة التقوى مجانبة ما يبعدك عن الله تعالى ومباشرة ما يقربك إليه، دليله قول النبي ﷺ إجماع التقوى في قول الله ﷻ:﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْـمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل:90]، فيندرج تحت التقوى على هذا المعنى الخروج عن الدركات السفلى والترقي على الدرجات العلا، فتقوى العوام: الخروج عن الكفر بالمعرفة، وعن الشرك بالتوحيد، وعن الجهل بالعلم، وعن المعاصي بالطاعات، وعن الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة، ها هنا ينتهي سير العوام؛ لأنها نهاية كسب الإنسان وغاية جهد المجتهدين في إقامة شرائط جاهدوا فيها.

فمن هنا تقوى الخواص المجذوبين بجذبات، ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: 69]، فتخرجهم الجذبة من حجب أوصافهم إلى درجة تجلي صفات الحق، فها هنا ينقضي سلوك الخواص فيستظلون بظل ﴿سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [النجم:14-15]، فينتفعون من مواهب، ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم:16]، وأما تقوى خاص الخاص: فبجذبة فرقت العناية بجذبة ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم:17]، من سدرة المنتهى الأوصاف إلى ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم:9]، نهاية محن النفس وبداية أنوار القدس، فهناك من عرف نفسه فقد عرف ربه، فتقوى الحقيقي تجد الإيمان الحقيقي، فالآن ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم﴾ [البقرة:257]، من ظلمات الأنانية إلى نور الهوية، وهو مقام أو أدنى.

ثم بسير ﴿فأوحى إلى عبده﴾ يفنيه عنه، وبحقائق ما أوحى يبقيه بهويته، فقوله ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ [البقرة:281]، يشير إلى هذه الحقائق معناه: ﴿وَاتَّقُوا﴾[البقرة:281] جاهدوا فينا بجهدكم وطاقتكم، ﴿يَوْمًا﴾ [البقرة:281]؛ يعني: اليوم فيه لنهدينكم بجذبات العناية ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ [البقرة:281]، ، أشار بلفظ الرجوع إليه؛ ليعلم أن الشروع كان منه، كما قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:29]، فبدء وجودك كان بالنفخة، وأخر رجوعك بالجذبة، وأنت محمول العناية بين النفخة والجذبة، ولقد اصطفى آدم وكرم أولاده بهذا الاختصاص على البرية كلها، وقال: ﴿أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [الزلزلة:7].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الإسراء:70]، سر عظيم أنه قال تعالى: ﴿بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء:70]، ما قال أولاد آدم، واختص الرجال بالذكر دون النساء؛ يعني: أهل الكرامة من يوصف بوصف الرجال لا بوصف النساء، ثم وصف الرجال بقوله تعالى: ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ﴾ [النور:37]، فمن لم يكن بهذا الوصف فهو من النساء في المعنى.

ثم في قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:281]، وعد وبشارة للأولياء، ووعيد وإنذار، فإن الجذبة في قوله تعالى: ﴿تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾ [البقرة:281]، شاملة لكلتا الطائفتين، إلا أنها للأولياء جذبة اللطف والعناية، وللأعداء جذبة القهر والخذلان، فقال لأهل العناية: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام:83].

وقال لأهل الخذلان: يسبحون في النار على وجوههم، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [البقرة:281]، فهو بشارة لأهل العناية؛ يعني: لما يرجعون إلى الله، فبقدر راحتها، وكل واحد منهم وحده في كسب العبودية بالتقوى يهدي إلى مقامات القرب بإفناء حجاب نفسه عنه، وبإبقائه ببقاء هويته، ﴿وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة:281]، وهذا كما أن من سعي في نقب جدار بيته إلى جهة الشمس ليخرج بنور الشمس ظلمة بيته، فلما فتح الروزنة على قدر ضوء النور يخرج الظلمة من البيت ضرورة، فلا تظلم الشمس

عليه مثقال ذرة، وفيه تهديد وإنذار لأهل الخذلان إذا استهواهم الشيطان فلم يسلكوا طريق التقوى واتخذوا آلهتهم الهوى، فلما يرجعون إلى الله بالسلاسل والأغلال يسبحون على وجوههم في سلسلة زرعها سبعون زراعًا، بالإهانة والإذلال، ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ [آل عمران:161]، في متابعة الهوى وطلب شهوات الدنيا بأن يصلى النار الكبرى، ﴿ثُمَّ لاَ يَمُوتُ فِيهَا وَلاَ يَحْيَى﴾ [طه:74]، وهم لا يظلمون؛ لأنهم آثروا الحياة الدنيا على الدرجات العلا، وقربة حضرة المولى ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى﴾ [النازعات:25].

ثم أخبر عن إباحة السلم بعد تحريم الربا بالفضل والكرم بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ﴾ [البقرة:282]، والإشارة فيها: أن الله ﷻ من كمال رأفته ورحمته على عباده علمهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم، والأخذ بالاحتياط والاستظهار؛ لئلا يجري من بعضهم على بعض حيف؛ ولئلا يتخاصموا ويتنازعوا فيحقد بعضهم على بعض، فأمر بتحصين الحقوق بالكتابة والإشهاد، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة، وأمر الكاتب أن يكتب علمه الله بالعدل ورعى في ذلك دقائق كثيرة كما ذكرها، فيشير بهذه المعاني إلى ثلاثة أحوال:

أولها: حال الله مع عباده، فيظهر آثار ألطافه معهم وغاية عنايته في حقهم أنه تبارك وتعالى كيف يرفق بهم ويعلمهم كيفية معاملاتهم الدنيوية، حتى لا يكونوا في خسران من أمر دنياهم، ولا يكون فيما بينهم عداوة وحقد وخصومة تودي إلى تنقيص عينهم في الدنيا، ووبال عقوبة في الآخرة، فيستدلوا بها أن تكاليف الشرع التي أمروا بها أيضًا من كمال عاطفته ورحمته واستعملهم بها؛ ليفيض عليهم سجال نعمه ويسبغ عليهم ظلال كرمه، كقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:6].

وثانيها: حال العباد مع الله تعالى؛ ليعلموا هذه الدقائق للأمور الدنيوية الفانية فيما بينهم أن للأمور الدنيوية الفانية فيما بينهم، إن للأمور الأخروية الباقية فيما بينهم، وبين الله

تعالى أيضًا دقائق أكثر منها وأدق، والعباد بها محاسبون وعلى مثقال ذرة من خير مثابون، وعلى مثقال ذرة من شرها معاقبون، وأنها بالرعاية أحرى وأولى، وأخروي من أمور الدنيا، وأن الله تعالى كما أمر العباد أن يكتبوا كتاب المبايعة فيما بينهم ويستشهدوا عليهم العدول، كذلك كتب كتاب مبايعة جرت بينه وبين عباده في الميثاق، ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [التوبة:111]، وعلى هذا عاهدهم وأشهد الملائكة الكرام عليه، ثم رقم في الكتاب أن ياقوتة من الجنة وديعة وهي الحجر الأسود.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ [التوبة:112]، واليوم أنتم مطالبون بالثمن، فإن تسلموا إليه بالتمام فقد سلم إليكم المبيع، وإن حوسبتم غدًا وبقي عليكم مثقال ذرة من الثمن، فتحبسون في سجن السجين حتى تخرجوا من عهدته، وإن الله تعالى أمركم أن ﴿وَلاَ تَسْأَمُوا﴾ [البقرة:282]، أن تكتبوا معاملاتكم الصغيرة والكبيرة، ثم عند خروجكم من الدنيا يجعلونه في أعناقكم، فتبعثون يوم القيامة، ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً﴾ [الإسراء:13]، ثم نودي من سرادقات الجلال: يا قوي الظلم ضعيف الحال، إقرأ كتابك ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ [الإسراء:14].

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف:49]، فما بال العالمين مع الله تعالى ينامون غافلين عن الله، وقد أسكرتهم مشارب الآمال حتى نسوا قرب الآجال، فرحم الله امرؤ تنبه عن نوم غفلته، ويعلم أن الكتاب بأمر الله يكتبون عليه في صباحه ومسائه، وما يكتبون الآن إملائه وأنه بالقليل والكثير فيما علا يخاطب، وبالنقير والقطمير على ما يميل عن الحق يعاتب فيحاسب نفسه قبل أن يحاسب، ويعرف على نفسه ما هو حق الحق فيمليه على كاتبه بلسان صدق من غير ثوان وفتور ولا نقصان، وقصوركما أشير إليه في إملاء ما عليه ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة:282]، فعليه أن على الحق بالحق كما على الحق للحق.

﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ﴾ [البقرة:282]؛ أي: حق الحق ﴿سَفِيهًا﴾ [البقرة:

282]؛ أي: جاهلاً بإملاء الحق للحق من اشتغاله بالباطل للباطل ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ [البقرة: 282]؛ أي: عاجزًا مغلوبًا بغلبات سفاهة نفسه ﴿أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ﴾ [البقرة:282]؛ أي: ممنوع بالموانع، معوق بالعوائق، ومغلوب بالعلائق، لا قدرة له على إملاء ما ينفعه ولا يضره، ولا قوة له في إنهاء ما لا يجوز، ويشره ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة:282]؛ أي: فليرجع إلى وليه وليشك إليه ما يسره ويحزنه مما لديه، ويستعين به على إملاء ما له وعليه، فإن لكل قوم وليًا يخرجهم من الأحزان إلى السرور، ومن الأسجان إلى القصور، ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، ومن الأشجان إلى الحبور، ومن العجز والفتور إلى القوة والحضور.

﴿بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ [البقرة:282]؛ أي: استصحبوا من أرباب القلوب، ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ من الذين هم بالنسبة رجالكم وأنتم نساؤهم، ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ [البقرة:282] من أرباب القلوب ﴿فَرَجُلٌ﴾ [البقرة:282] منهم، ﴿وَامْرَأَتَانِ﴾ [البقرة:282]؛ يعني: رجلين منكم وإن لم يكونا من الرجال البالغين، ليكون صلاحية الرجلين من أهل الصلاح، بمثابة قوة رجل من أهل الولاية في بدء الصحبة ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة:282]؛ يعني: أن يكون من شهداء الله، كما قال ﷺ: «أنتم شهداء الله في أرضه»[1]، ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا﴾ [البقرة:282]، وطريق الحق عن جادة الاستقامة.

﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة:282]، فإن ﴿الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:55]، كما قيل الرفيق ثم الطريق ،فإن بادية النفس مملوءة من أعراب الهوى والشياطين، ولا تسلك إلا في حضارة من ركب هواه، ويقر الشيطان من ظلالهم

(1) تقدم تخريجه.

أعلام الإسلام، وسلاطين الدين، وأئمة الهدى، ومن في هذا الشأن بهم يقتدي؛ لأنهم جروا على ترك الدنيا وعبروا عن الدرجات العلا وما زاغ بصرهم بنعيم جنة المأوى وما طغى، فكوشفوا بحقائق آيات ربهم الكبرى وصاروا أئمة الهدى وقادة الطلاب إلى المولى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:24].

أما الحال الثالث: فهو حال العباد فيما بينهم، فليعبر كل واحد منهم من ملاطفات الحق معهم؛ ليتخلق بأخلاق الحق في مخالفتهم؛ وليتوسل إلى الله بحسن مرافقتهم؛ وليحفظ حدود الله في موافقتهم ومخالفتهم؛ وليتمسك بعروة محبتهم في الله وخدمتهم الله وصحبتهم إلى الله، ويصحبهم بالله؛ ليجوزوا في رفقتهم ﴿ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً﴾[النساء:86] ويفوز من زمرتهم فوزًا عظيمًا، وفي جميع الأحوال كونوا مع الله، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ﴾ [البقرة:282]؛ أي: اتقوا الله في الأحوال الثلاثة، كما يعلمكم بالعبادات والإشارات ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [البقرة:282]، تعلمون في جميع الأحوال من الأقوال والأفعال، ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:282]، يعلم مضمون ضمائركم ومكنون سرائركم فيجازيكم على حسن معاملاتكم بقدر خلوصكم، وصفاء نياتكم، وصدق طواياتكم.

ثم أخبر عن الوثيقة في القروض بالرهن المقبوض بقوله: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة:283]، والإشارة في الآيتين: أن أهل الدين طائفتان: الواقفون والسائرون، والواقف: من لزم عتبة الصورة ولم يفتح له باب عالم المعنى فهو: كالفرخ المحبوس في قشر البيضة، فيكون مشربه من عالم المعاملات البدنية، فلا سبيل له إلى عالم القلب ومعاملاته، فهو محبوس في سجن الجسد وعليه الموكلان من الكرام الكاتبين، يكتبان عليه من أعمال الظاهرة بالسعير والقطمير، ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:18]، والسائرين: من لا نعيم في محل ولا ينزل في منزل فهو يسافر من عالم الصورة إلى عالم المعنى، من مضيق الأجساد إلى متسع الأرواح، وهم صنفان: صنف سيار، وصنف طيار، فالسائر: من يسير يقتدي الشرع والعقل على جادة الطريقة، والطيار: من يطير بجناحي العتيق والهمة في فضاء الحقيقة ورجليه خلخال الشريعة والطريقة .

والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً﴾ [البقرة:283]، إلى السيار الذي تخلص من سجن الجسد وقيد الحواس ورحمة التوكيل، فلم يوجد له كاتبًا يكتب عليه قال بعضهم: ما كتب علي صاحب الشمال منذ عشرين سنة، وقال بعضهم: كاشف لي اليمين، وقال لي: أملي علي شيئًا من معاملات قلبك لأكتبه، فإني أريد أن أتقرب إلى الله، قال: فقلت له: حسبك الفرائض، فالحبس والقيد والتوكيل لمن لم يرد حق صاحب الحق، أو يكون هاربًا منه فيحبس ويقيد ويوكل عليه، فأما الذي آناء والليل وأطراف النهار ويغدو أو يروح في طلب غريمه، وما يبرح في حريمه فلا يحتاج إلى التوكيل والتقييد، فالذي هو كل على الهارب يكون للطالب وكيلاً وحفيظًا ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [الرعد:11]، فافهم جدًّا.

فما يكتب على السائرين إلى الله كاتبهم ولهم رهان مقبوضة عند الله، رهان وأي رهان، فأرهان قلوب ليس فيها غير الله، وقبض وأي قبض، فمقبوضة بين أصبعين من أصابع الرحمان، فالإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِباً فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾ [البقرة: 283]، إلى السيار الذي له قلب فرهنه، فأما الطيار الذي هو عاشق مفقود القلب، مسلوب العقل، مجذوب السير، فلا يطالب بالرهن فإنه مبطوش يبطشه الشديد.

مستهامٌ ضاق مذهبُهُ في هوى من عز مطلبه
كل أمري في الهوى عجبٌ وخلاصي منه أعجبُهُ

وإنما يحتاج إلى الرهن المتهم بالخيانة لا المتعين للأمانة، فلم يوجد في السماوات والأرض ولا في الدنيا والآخرة أمين يؤتمن لحمل أعباء أمانته؛ إلا العاشق المسكين، فإنها لم عرضت على الخليقة فنظر إليها الجلي من ليس بعاشق أشفق منها وحار فيها وأبى إن يحملها، والعاشق المسكين لما نظر إلى فراش تلك الشمعة تعشق بها وطار فيها، وأتى أن يحملها واستحسن منه ما تفرد به من أصحابه زيدت له من الحضرة ألقاب، فإنه قد نسب في البداية إلى ﴿مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:30]، فلقب في النهاية، ﴿إنه كان ظلومًا جهولاً﴾.

هذا أمر عجيب ونقش غريب، أنه من لم يطمع في حمل الأمانة، وأبى فنسب إلى

المكان والطاعة والأمانة، ويقال له: مكين مطاع، ثم أمين، ومن أطاع فينسب إلى الظلم والجهل والفساد والخيانة نعم، إنما يكون ذلك بوجهين:

أحدهما: أن الذلة والمسكنة وقعت في قسم العاشق، كما أن العزة والعظمة وقعت في قسم المعشوق؛ بل جمال عزة المعشوق لا يظهر كماله إلا في مرآة ذلة العاشق.

وثانيها: إن من كمال العزة الأمانة، يلزم كمال ذلة المؤمن في الظاهر واستهتاره بتهمة الظلم والخيانة؛ لكتمان صلاح أمر الأمانة، ولا ينسب إلى غير المؤمن بحسن الثناء عليه بهمة الأمانة، فيأتمنون عزته في الظاهر ذلته في الحقيقة بذلك على حقيقة هذا السر خطاب: ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، وعتاب: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30]؛ يعني: لظاهر حالكم وحاله، ولحقيقة نشأتكم وشأنه سر مخفي، إني عالم به في الحقيقة غير ما تعلمون في الظاهر، فلما أمرتم بسجوده لو كنتم أصحاب الكياسة لعرفتموه بالفراسة، أنه المستحق لخلافتنا والمستعد لأمانتنا، ولاستحقاقه بالخلافة خاطبناكم أن ﴿اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [البقرة:34]، ولاستعداده بالأمانة طالبناه، ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة:283]؛ يعني: لما اخترتك من بين الخليقة واصطفيتك على تحمل الأمانة، فليؤد الذي أؤتمن الأمانة إلى أهلها، كما صرح به وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:58]،

ثم أشار إلى كيفية أداء الأمانة إلى أهلها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [البقرة:283]، التي أشهدتكم على أنفسكم عند قبول حقيقة الأمانة، وكتمان الشهادة أن يكون شهودك من غير شواهد ربك، وهذا من نتائج حياة قلبك في أمانة ربك؛ فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:283]، فمهما يكون اتقاء قلبك في حفظ أمانة ربك، فلا يشاهد قلبك إلا شواهد ربك، ولا يؤدي شرك حقيقة أمانتك إلا إلى ربك، فافهم جدًا، واجتهد لعلك تؤدي بعض حقوقها فتكون في زمرتهم، إن لم تكن من حملتهم ﴿واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: 283]، في حفظ الأمانة وأداء حقوقها ﴿عَلِيمٌ﴾ [البقرة:283].

ثم أخبر عن محاسبة ما يبدوا من الضمائر وما تخفي في السرائر، بقوله تعالى:

﴿لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:284]، الإشارة فيها: أن الله تعالى يطالب العباد باستدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة؛ لئلا يغفلوا عن حفظ الحركات الظاهرة وضبط خطرات الباطن، فبقوا في آفة ترك آداب العبودية فيهلكوا بسطوات قهر الإلوهية، ففي بداية الآية نبه العباد على مالكية وملكية في السماوات والأرض بقوله تعالى: ﴿لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: 284]، مُلكًا ومِلكًا، ثم خصهم على رعاية آداب العبودية على بساط الملوك، ووعدهم عليها وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة:284].

واعلم أن الإنسان مركب من عالم الأمر والخلق، فله روح نوراني علوي من عالم الأمر وهو الملكوت الأعلى، وله نفس ظلمانية سفلية من عالم الخلق، ولكل واحد منها نزاع وشوق وحيل إلى عالمه، فقصد الروح وميله راغبه، وشوقه أبدًا إلى عالمه، وهو جوار رب العالمين وقربه، وميل النفس وقصدها إلى عالمها، وهي أسفل السافلين وغاية البعد عن الحق، فبعث النبي ﷺ؛ ليزكي النفوس عن ظلمة أوصافها وسوء أخلاقها، ويحليها بحلية أنوار الأرواح بإبداء أنوار أخلاق الروح عليها في تحليتها بها، فهذا مقام الأولياء مع الله، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:257]، وبعث الشياطين إلى أوليائه وهم أعداء الله؛ ليخرج أرواحهم من النور الروحاني إلى الظلمات النفسانية، في إخفاء أنوار خالقها في إبداء أخلاق النفس عليها، استحق بها دركة أسفل السافلين وغاية البعد عن الحق؛ فمعنى الآية في التحقيق: ﴿إِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة:284]، مودع من أنوار أخلاق الروحانية في الظاهر بأعمال الشريعة، وفي الباطن بموافقات الطبيعة، أو تخفوه بتصرفات الطبيعة في موافقات الشريعة، ومخالفات الطريقة ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ اللهُ﴾ [البقرة:284]، بطهارة النفس بقبول أنوار الروح أخلاقه، أو بتلوث الروح بقبول ظلمات النفس وأخلاقها، ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:284]،

فينور نفسه بأنوار الروح وروحه بأنوار الحق، ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: 284]، فيعاقب نفسه بنار دركات السعير ونوره بنار فرقة العلي الكبير، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [البقرة:284]، من إظهار اللطف والقهر على تركيب عالمي الخلق والأمر ﴿قَدِيرٌ﴾ [البقرة:284].

ثم أخبر عن كمال لطفه بالعباد لهم على السبيل الرشاد بقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [البقرة:285]، والإشارة في الآيتين: أن الله تعالى إنما قال: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [البقرة:285]، وما قال آمن بالله، وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ [البقرة:285]، أو أن يظهر الفرق بين الرسول والمؤمنين، فإن الرسول ﷺ قبل المعراج كان يؤمن بالله، ﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [البقرة:285]؛ أي: بعد ما آمنوا بما أنزل قالوا: سمعنا وأطعنا ما أمرتنا، وإنما ذكر النبي ﷺ أحوال إيمان المؤمنين في تلك الحالة؛ لأن ما بدأ به من الكلام في ذلك المقام إن أكرم بالسلام، ولهذا كان يقول: السلام قبل الكلام، فلما سمع السلام عليك أيها النبي رحمة الله وبركاته، فأجاب بقوله: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، ففي المرتبة الثانية لما أوحى إليه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [البقرة:285]، فبدأ بذكر المؤمنين وعرض أحوالهم بالإيمان والسمع والطاعة ليت، استحقاقهم السلام والرحمة فرحمهم الله عليهم، وقال: وما يطلبون مني بجزاء الإيمان والسمع والطاعة حتى أجار بهم به قال النبي ﷺ: ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:285]؛ يعني: ما يطلبون منك شيئًا دونك إلا مغفرتك؛ لتسترهم عنهم بسريان صفة ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:285]، ويكون مصيرهم ومرجعهم إليك لا إلى الدارين؛ يعني: كما كان مصيري إليك يكون مصيرهم في متابعتي إليك، فقال الله في جوابه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]؛ يعني: ليس لهم استعداد منازل هذا المقام معك، فكيف أكلفهم بشيء لا وسع لهم به؟ فإنك في مقام معي لا يسعك فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فكيف بهم؟ ألم تر أن جبريل عليه السلام حين أردت أن أترحم عليه؛ ليوافي موافقتك وتبعية مرافقتك بساط قرب خطوة فقلت له: تقدم، فقال: ونوة أنملة لاحترقت، وإن الأنبياء والمرسلين اصطفيناهم على العالمين، كل طائفة منهم واقفين إنما سبقتهم رحمتي، ثمة كي لا تحرقهم سبحات وجهي ويمحقهم سطوات قهري، فكيف أكلف في أسماء أمتك المذنبة المرحومة بهذا المصير وأنا بضعيف حالهم بصير، ولكن الذي ملك هذا المقام حتى جاوزت الأنبياء والرسل الكرام ووطأت موطأ ما وطأ أحد قبلك؛ إني خلقتك وخلقت الكون لمجيئك؛ لولاك لما خلقت الكون وإنك مخصوص بهذا المقام المحمود، وإن أمتك أكرم الأمم عليَّ لمحبتك، وأحبهم إليَّ ولهم سبب شفاعتك اختصاص بكرامة محبتي إياهم في ظل متابعتك، فقل لهم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ [آل عمران: 31]، فإن على قدره ما اكتسبت أمتك من أنوار متابعتك تستحق نيل محبتي، فبقدر جريان عدم محبتي لهم يكون مصيرهم إلى حضرة جلاله.

﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، من شواهد جمالنا، وعلى قدر ما كسبت بالثواني في ظل متابعتك والتقصير في مشايعتك، ونقض عهد مبايعتك تستحق المصير إلى السعير، ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286]، فلما سمع النبي ﷺ هذا الجواب فتارة أكسرته لذة هذا الخطاب وأخرى أخذته سطوات هذا العتاب، قال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286]؛ يعني: لا تعاقب أمتي إن نسيت عهدك التي عاهدتم في الميثاق على أن يعبدوك ولا يعبدوا غيرك، ويطلبوك ولا يطلبوا غيرك، ويحبوك ولا يحبوا غيرك، وأخطأت طريق طلبك وطلبوا غيرك، وطريق محبتك فأحبوا غيرك، ولكن ما أخطأت طريق عبوديتك

فما عبدوا غيرك ولا أشركوا بعبادتك، وأنت قلت: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]، ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: 286]، بأن تكلنا إلى أنفسنا قبضتني أسير النفس الأمارة بالسوء، أو محبوسي الأشخاص من مقتدى الخواص، فتعبد عجل الهوى والنار الشهوات، كما عبد الذين من قبلنا، ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286]، وبالصبر عن شهود جمالك وأرجاء أستار جلالك على أبواب وصالك، ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ [البقرة: 286]، شواهد هويتك ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ [البقرة: 286]، برفع البينونة من بيننا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ [البقرة: 286]، بجذبات ﴿أَنتَ مَوْلاَنَا﴾ [البقرة: 286]، بجذبات ﴿فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286]، أخرجنا عنا إليك، وأعنا في المصير إليك على قمع كفار الإثنينية، التي تمنعنا من وحدتك بيني وبينك إني يزاحمني، فارفع بجودك إني من البين.

فهرس المحتويات

مقدمة 3

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه 6

مقدمة في بيان شرعية التفسير الإشاري للعلماء والعارفين بالله والفرق بينه وبين مذهب الباطنية الضال 10

هل للتفسير الإشارى أصل شرعى؟ 19

مِن أهمّ كتُب التفسير الصوفي 39

علاء الدولة البيابانكي السمناني 41

نجم الدين الكبرى 43

نماذج من صور المخطوط 53

سورة الفاتحة 57

سورة البقرة 103

فهرس المحتويات 381

AL-TAʾWĪLĀT AL-NAJMIYYAH

by

Najmuddīn al-Kubrā

Followed by

ʿAYN AL-ḤAYĀT

by

ʿAlāʾuddawlah al-Simnāni

Edited by

Aḥmad Farīd al-Mizyadi

Volume I

